حول العمارة الاسلامية

طرز ونماذج

حسن عبد الوهاب

الكتاب: حول العمارة الاسلامية.. طرز ونماذج

الكاتب: حسن عبد الوهاب

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

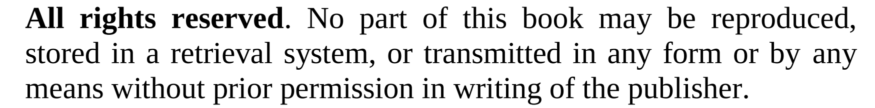
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد الوهاب ، حسن

حول العمارة الاسلامية.. طرز ونماذج / حسن عبد الوهاب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٧٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٦٣ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١١٣١ / ٢٠٢٠

حول العمارة الاسلامية

طرز ونماذج





تقديم

تميزت الحضارة الإسلامية بشموليتها وموسوعيتها، فهي لم تقتصر على الجانب العسكري أو الأدبي أو العلمي، بل امتدت لتشمل سائر ميادين العلوم الطبيعية والإنسانية ، وتركت آثارها التي مازالت شاهدة حتى اليوم بخصوصية هذه الحضارة ، التي انطلقت في الأساس من تطلعها إلى السماء، فأنتجت مظاهر عمرانية رائعة نابعة من الروح المسلمة التي تتطلع في دقيق الأمور وجلها إلى خالقها عز وجل، وأحد أبرز وجوه الحضارة الإسلامية تمثلت في الهندسة العمرانية والمعمارية التي قامت على أسس فقهية، تفسر حركة العمران في المدينة الإسلامية، وكذلك القواعد التي شيدت وفقها العمائر. فتصنيف أقسام البنايات في الإسلام، جاء وفقا للأحكام الشرعية، فمثلا انقسمت إلى:

– بناء واجب مثل المساجد والحصون والأسوار للدفاع عن ديار المسلمين.

– وبناء مندوب كبناء المنائر لإعلام الناس بالأذان والأسواق.

– وبناء مباح كالمساكن التي تبنى بهدف الاستغلال.

– وبناء محظور مثل دور المنكر كالخمارات ودور البغاء والقمار، والبناء على المقابر، والبناء في أرض الغير.

ووفق هذه التصنيفات نشأت وتوسعت العمارة الإسلامية في ظل التزام الأفراد والمجتمع فيها، بوازع من أنفسهم الخاضعة رغبة ورهبة لشرع الله تبارك وتعالى، وهكذا نشأ ما يعرف في فقه العمارة بالحق، وما يعرف بحيازة الضرر. وتتنوع عناصر أو أشكال العمارة الإسلامية إلى ستة عناصر رئيسة هي: المسجد الجامع، ومقر ولي الأمر والقاضي، والمدارس، والبيمارستانات، والحمامات، والقلاع والأسوار.

وكانت العمارة الإسلامية ذات فلسفة دينية تأسست وفق أسلوب حياة معين يلتزم بغايات الشريعة الإسلامية، ويراعي في أولوياتها قيمة الإنسان، وإنّ هذه القيمة التي نبعت

من طبيعة المجتمع الإسلامي قد غابت عن مجتمعاتنا المعاصرة، مما نتج عنه تفسخ مجتمعي ملحوظ، وعدم مراعاة لطبيعة واحتياجات المجتمع الذي يقطن المدن.

ويعمد دارسو العمارة الإسلامية إلى التفرقة بين فن العمارة والفنون الأخرى المصاحبة له أو الملازمة له والمرتبطة به، لذلك لا بد من مراعاة التخطيط الحضري الذي في كان المسجد فيه، في بداية الدولة الإسلامية، هو محور المدينة، فمثلاً نجد مسجد عمرو بن العاص ودار الإمارة بناية واحدة، وبالنظر إلى مدينة القطائع التي أسسها أحمد بن طولون، أصبح الجامع يوازي دار الإمارة من حيث المساحة، وبالانتقال إلى الدولة الفاطمية نجد انحسار المسجد في الثلث الشرقي الجنوبي للحي ، وأصبح قصر الحاكم يبلغ ثلاثة أضعاف مساحة المسجد، وبالصعود إلى قلعة صلاح الدين الأيوبي أصبح المسجد نقطة في مقر الحكم، وهذا في مدلوله السياسي يمثل تراجعاً مباشراً للسلطة الدينية في الدولة الإسلامية لصالح السلطة المدنية على عكس ما يعتقد الناس.

وبالنظر إلى العمارة الإسلامية ، فنجد أنفسنا أمام دين لديه فلسفة تعبر عن أسلوب حياة كامل، وهو ما انعكس في ابتكارات الفنانين المسلمين لأشكال فنيّة هي بداية الفن التجريدي للفن الغربي، وهو ما ظهر بصورة بارزة في مدينة سامراء في العراق حين أنشأها الخليفة المتوكل؛ فبرزت الزخارف التجريدية التي تحرف الأشكال الطبيعية والنباتية عن شكلها الطبيعي نتيجة ظن الناس أنّ كل ما فيه روح يعود إلى الله، فلا يجوز تجسيد الروح من قبل الإنسان، فتم تجريد الأشياء الحية من صورها إلى أشكال تجريدية، وهو ما نشأ عليه فن التوريق وهو المعروف شعبياً بـ"الأرابيسك"، ويُعد أكثر الفنون الإسلامية شُهرة، وهناك نقطة إبداعية أُخرى؛ حيث إنّ أواني الذهب والفضة كانت مُحرمّة، لذا صنعوا الخزف ذا البريق المعدني، للتحايل على عدم استخدام الذهب في أواني الطعام والشراب، ثم بدأت في الظهور العديد من الزخارف المنبثقة من هذه الفلسفة طوال الوقت.

***

والكتاب الذي بين أيدينا "حول العمارة الاسلامية .. طرز ونماذج " فيضم عددا من الأبحاث المهمة للأثري القدير حسن عبدالوهاب– لم تنشر مجتمعة في كتاب – يلامس فيها خصائص العمارة الإسلامية، فيقول أنها "هيأت منشآت عمارية لمختلف الأغراض فإنها

بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قصر فإنها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والخوانق والربط، وثقافية كالمدارس والكتاتيب.. وصحية كالحمامات والمستشفيات ، وحربية كالتحصينات والأسوار، وتجارية كالفنادق والوكالات، ومالية.. بإنشاء بيوت المال في مساجدها الجامعة، ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والمواني".

كذلك أكد على أهمية المسجد ودوره المحوري في العمارة الإسلامية، وقد قام المسجد منذ صدر الإسلام، برسالته الثقافية لمختلف أدوار التعليم، فقد كان القرآن يحفظ ويجود فيه، كما كانت بقية العلوم تدرس فيه، فيلتحق الطالب به صبيًا ويتخرج منه عالمًا ، وإلى وقت ليس بالبعيد كانت هذه رسالة الأزهر ، فقد كانت كتاتيب الأطفال تحدق بصحنه، وذلك بجانب الكتاتيب المفردة لتعليم الأطفال منذ أقدم العصور.

أما المدرسة فتلي المسجد في الأهمية من حيث أداء الرسالة الدينية ، فكلاهما أعد للجمعة والجماعة. تختلف المدرسة عن المسجد في التصميم. فقد اقتبس تصميمها من تصميم القاعة الفاطمية المصرية. ايوانات معقودة متعامدة حول صحن مكشوف أو مغطى ، ويلحق بها عادة قبة لدفن المنشئ وسبيل يعلوه كتاب ومساكن للطلبة ، ويضم المسجد أربعة إيوانات مسقوفة تشتمل على عدة أروقة أكبرها أيوان المحراب.

ويولي الكتاب العمارة الإسلامية في مصر أهمية خاصة، فيتابع نماذجها منذ دخول الاسلام مصر، ويواكب تطورها بحسب العصور المختلفة، موضحا أن العمارة الإسلامية عموما، اتسمت بالدقة والابتكار والتنوع، فنرى الآثار في الأقطار الإسلامية تغاير بعضها في الزخرف وفي التفاصيل المعمارية ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل نرى كل عصر له طابعه الذي يميزه عن غيره، وخاصة في مصر، فنرى الآثار الطولونية بتفاصيلها وزخارفها تغاير الآثار الفاطمية، والآثار الفاطمية تغاير الآثار الأيوبية، بالرغم من اتصال تلك العصور بعضها ببعض.. وهكذا نرى لكل دولة من الدول المتعاقبة على حكم مصر طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الطرز الأخرى.

ونرى في كل عصر تنوعاً مدهشاً في شتى التفاصيل، نراه في تطور الواجهات من بناء بالأجر، إلى الحجر، مع إبداع في كليهما، وفي العقود بتنوع أشكالها: من ستيني إلى فارسي، إلى مخموس، إلى موتور، وغير ذلك.

ومن أهم فصول الكتاب وأكثرها تميزا ذلك الفصل الخاص بطرز العمارة الإسلامية في ريف مصر، وفيه يرصد بعض مزايا آثار الريف، فبينما تأخرت العمارة الإسلامية في القاهرة في العصر العثماني بسبب ترحيل الصناع المهرة إلى استامبول، وبسبب الحالة الاقتصادية، ووقوع بعض التأثيرات العثمانية، وخاصة على المنارة ، وإن كانت تلك العوامل اقتصرت على القاهرة، إلا أنها بقيت في العمارة الريفية سائرة في طريقها وخاصة في القبة والمنارة والنجارة والرخام ، واحتفظ الريف أيضًا بمجموعة كاملة من الحمامات لا تقل أهمية عن حمامات القاهرة في جميع تفاصيلها، وامتاز باحتفاظه بجامات كاملة لا نظير لها بالقاهرة.

وإذا كان الخط الكوفي المربع الذي ظهر بآثار القاهرة منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، قل بها منذ نهاية القرن الخامس عشر، فإنه ظل مستعملًا في الريف في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادي يكتب بالآجر المنجور الملون، وفي الحص، وفي الخشب والقاشاني، وخاصة في مساجد الإسكندرية ورشيد وديروط بحري ومطوبس وفوه.

وقد أدت مجموعة المساجد المبعثرة في أنحاء الريف رسالتها الثقافية بجانب الأزهر وغيره من المدارس وذلك في مساجدها الجامعة، ثم في مدارسها التي انتشرت في ربوعه وخاصة في الصعيد.

المؤلف

أما المؤلف فهو حسن عبدالوهاب، باحث متخصص في العمارة الإسلامية، ولد بالقاهرة في ٣١ أغسطس ١٨٩٨م وفيها توفي في ٢١ من مارس ١٩٦٧م ، وطوال هذا العمر الذي اقترب من السبعين أخلص للآثار الإسلامية، فقد درسها وتخصص فيها، وعمل كمفتش بلجنة حفظ الآثار العربية (المجلس الأعلى للآثار حاليًا) في عام ١٩١٩ م ، وتدرج في وظيفته حتى تم تعيينه ككبير لمفتشي الآثار الإسلامية ، كما اختير عضوا بلجنة التاريخ والآثار للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة حاليًا) .. ومن أهم إنجازاته في مجال الكشف عن الآثار نجاحه في الكشف المحراب الفاطمي بالجامع الأزهر الشريف ، كما قام بعمل وترميم فسيفساء قبة مسجد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقام بعمل حفائر مسجد النبي دانيال بالإسكندرية .

وقد كان للبيئة التي نشأ فيها أثر كبير في توجيهه لهذا التخصص، فقد ولد في منطقة الآثار الإسلامية بالقاهرة القديمة، لأب كان من علماء الأزهر الشريف، و كان جده لأبيه من أعلام القراءات ورسم المصحف، و قد تتلمذ حسن عبدالوهاب عليهما وعلى صديقهما العلامة أحمد باشا تيمور.

وكان لنشأته بمنطقة مصر القديمة حيث تكثر فيها الدور الأثرية ذوات المشربيات والنوافذ من الخشب الخرط الرقيق، والتي يقال عليها أرابيسك، دورا في توجيهه لدراسة العمارة الإسلامية، وله فيها اكتشافات مهمة منها: –اكتشاف محراب المعز لدين الله بالجامع الأزهر – اكتشاف تابوت المشهد الحسيني – اكتشاف فسيفساء قبة الصالح نجم الدين أيوب.. بالإضافة إلى اكتشاف العديد من التحف الفنية والمصاحف الشريفة المحفوظة بالمتاحف المصرية.

وقد ترك للمكتبة العربية رصيدا كبيرا من الكتب والأبحاث المعمارية ، منها : (تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة) و(العمارة في عصر مُحَّد علي) و (تاريخ الشرطة في العصر الإسلامي) ، و (دليل الطالب لآثار القاهرة) و (التأثيرات المعمارية بين آثار سورية ومصر) و (طرز العمارة الإسلامية في ريف مصر) و (المرأة في العمارة الإسلامية) و(القيشاني) و (الآثار الإسلامية بمصر) و(الأزبكية : ماضيها وحاضرها) و(أثر الفنون في الحياة الإسلامية) و(الجامع الأموي بدمشق) و (بغداد وآثارها الإسلامية)

وقد شارك في تأسيس مجلة "العمارة الإسلامية" وهي مجلة صدرت في القاهرة في الربع الثاني من القرن العشرين، وكانت من المجلات الراقية التي تهتم بالهندسة والعمران والآثار والفنون، وقد نشر فيها عددا كبيرا من المقالات تميز من بينها سلسلة أبحاثه عن العمارة الإسلامية ، فضلا عن مجموعة من البحوث الكاملة عن أشهر العمائر الحديثة في مصر.

فضلا عن جهوده الكشفية، ومقالاته التي نشرها بصفة منتظمة بجريدة "الأهرام" المصرية منذ عام ١٩٣٧ ، ولمدة ثلاثين عاما حتى وفاته في ١٩٦٧، وقد تم منح اسمه جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ١٩٦٨ بعد عام من وفاته.

الناشر



الآثار الإسلامية

الحديث عن الآثار الإسلامية حديث طلي مشوق، وذلك لارتباطها بالتاريخ والحضارة الإسلامية، وما دراسة الآثار والإفادة منها إلا تحقيق للتاريخ وتجديد لذكرى الأسلاف ودرس لتطور الفنون.وعلى ضوء دراسة الآثار عرفنا مدى حضارة الدول وتقدمها فنياً وازدهارها مادياً، واستقرارها سياسياً.

ورحم الله الشريف الرضي إذ يقول:

تصف الدار لنا قطانها

والمعالي والمساعي والبخارا

وإذا لم تدر ما قوم مضوا

فاسأل الآثار واستنب الديارا

وهو بشعره هذا يهيب بالناس أن يقتبسوا تاريخ أسلافهم من آثارهم وأطلالهم.وكانت الفتوحات الإسلامية سبباً في نشأة العمارة الإسلامية. ولقد نجح العرب في تقريب الأقطار التي افتتحوها حيث اندمجوا مع أهل البلاد وتعلموا منهم الزراعة والصناعة، وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة ويدحض هذا الرأي إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب حينما سأله من أين لك هذا..

"وإني أعلم أمير المؤمنين إني بأرض السعر فيه رخيص، وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله".

والمساجد الجامعة عند نشأتها في صدر الإسلام كانت مثالاً للبساطة لا أثر للفن فيها فلا زخرف ولا حجارة ولا بياض ولا بلاط ولا محاريب ولا منارات، لكنها لم تلبث طويلاً حتى سايرت سنة التطور، وهذا نلمسه جلياً في المسجد النبوي ومسجد عمرو بن العاص. فكلاهما بني عند إنشائه باللبن وسقف بالجريد واتخذت عمده من جذوع النخل. ثم تدرجت بها أعمال الإصلاح مع الزيادة والزخرف تبعاً لاضطراد التقدم والعمران ومسايرة التقدم

المعماري في زخرفة المساجد وتذهيبها وكسوتها بالفسيفساء والرخام. وهذا أكبر برهان على نهوضهم بالعمارة والصناعة. فإنهم ما أن تم لهم تمكين ملكهم الجديد. وتوطيده، وما أن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار حتى نشطوا للفتح الثاني وهو الفتح العلمي والصناعي. فأتوا في الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب.

وخير دليل على عصبيتهم وميلهم إلى طبع كل شيء بطابعهم، أنه ما انتهى القرن الأول الهجري إلا والدواوين عربت والنقود ضربت باللغة العربية وانتشرت اللغة العربية، وأخذت الفنون والصناعات في الازدهار والانطباع بطابعهم.

ومما لا شك فيه أن للدولة الأموية فضل النهوض بالعمارة الإسلامية والوصول بها إلى مدارج الكمال بما أنشأوا من قصور في المدن وفي البادية، وبما شيدوه وجددوه من مساجد، النبوي بالمدينة والأموي بدمشق، وقبة الصخرة والأقصى بالقدس وعمرو بن العاص بالفسطاط.

ولا عجب فهي دولة بناء وتعمير كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية واقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرون على تكوين حضارة عمارية تضاهي حضارتهم وإن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفاً حتى لا يتيهوا على المسلمين. وقد تجلى هدفها وتمثل في المسجد الأقصى وفي قبة الصخرة وفي الجامع الأموي وفي القصور التي أنشأوها في بادية الشام.

وقد نهجت الدولة العباسية سبيل المنافسة في تشييد المنشآت المعمارية من مساجد وقصور وأبدعوا فيها أيما إبداع. وكان هدفهم أيضاً هو هدف الدولة الأموية.. ذلك أن الخليفة المأمون رد على من انتقد إسرافه في بهرجة منشآته بقوله: "هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ونعد السلاح والكراع وما بنا إلى أكثر من حاجة".

ومن خصائص العمارة الإسلامية: أنها هيأت منشآت عمارية لمختلف الأغراض فإنها بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قصر فإنها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والخوانق والربط، وثقافية كالمدارس والكتاتيب.. وصحية كالحمامات والمستشفيات، وحربية كالتحصينات والأسوار، وتجارية كالفنادق والوكالات، ومالية.. بإنشاء بيوت المال في مساجدها الجامعة، ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والمواني.

والمساجد الجامعة وإن كان الهدف الأول من إنشائها هو إقامة الشعائر الدينية إلا أنها ساعدت على التعارف ونشر التعليم وإذاعته ونشر أوامر الدولة وقوانينها من فوق منابرها وعلى أبوابها، وكانت تتخذ كمحاكم لفض المنازعات الدينية والمدنية.

وجامع عمرو بن العاص، أول جامع أنشئ بأرض مصر، أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١ هجرية ٦٤٢م وهو أقدم جامعة إسلامية نهل منها طلاب العلم والعلماء وتناوب التدريس فيها أجلة العلماء، وظلت حلقات الدروس فيه في ازدياد حتى بلغت في القرن الرابع الهجري نهاية القرن العاشر الميلادي ١١٠ حلقة. فإذا قدرنا أن كل حلقة بها عشرون مستمعاً يكون مجموع الطلبة وقتئذ ٢٢٠٠ طالب. في الوقت الذي كان فيه عدد الطلبة بالأزهر ٣٥ طالباً. وظلت الدروس فيه إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. والجامع بحالته الراهنة يمثل عمارة مراد بك سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧م وبه تفاصيل عمارية ما بين عباسية وفاطمية ومملوكية وتركية.

والجامع الطولوني المنشأ سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨ أنشأه أحد بن طولون. وهو أقدم مسجد احتفظ بتفاصيله المعمارية، واشتمل على أجمل وأقدم مجموعة من الزخارف الخطية ممثلة في عقوده وفي الشبابيك وعقودها وقد تنوعت زخارفها. وقد امتاز بسعته، وبمنارته ذات السلم الخارجي التي جددها الملك المنصور لاشين في عمارته الكبيرة للجامع سنة ١٢٩٦م. وهي أكبر عمارة أجريت به ومنها المنبر الفخم الباقي إلى الآن والقبة وسط الصحن. وقد أدى رسالته العلمية منذ نشأته.. ثم ساير الحركة العلمية مع المدارس عقب إصلاح لاشين له حيث قرر به درساً للطب أيضاً.

أما الجامع الأزهر فهو أول جامع أنشئ بالقاهرة. أنشأه القائد جوهر الصقلي لسيده المعز لدين الله سنة ٣٦١هـ– ٩٧٢م.وهو بحالته هذه يمثل حقبات التاريخ التي تعاقبت عليه ممثلة في أجزائه المختلفة وقد ضمت أسواره الإضافات التي كانت بجواره مثل المدرسة الطيبرسية والمدرستين الأقبغاوية والجوهرية. وبابه العمومي من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧هـ ١٧٥٣م. وبابه الأوسط من تجديدات السلطان قايتباي هو والمنارة الرشيقة بجواره سنة ٨٧٣هـ ١٤٦٨م. أما المنارة الضخمة مزدوجة الرأس بجوارها فإنها من إنشاء السلطان الغوري سنة ٩١٥هـ ١٥١٠م، وقد احتفظ الجامع بالكثير من زخارفه

وكتاباته الفاطمية التي ترجع إلى عصر إنشائه.

ومن أعمال الأمير عبد الرحمن كتخذا توسعته الجامع بإضافة الديوان الكبير خلف المحراب القديم سنة ١١٦٧هـ ١٧٥٣م. وقد ظل الجامع الأزهر عماد الحركة الفكرية منذ إنشائه إلى الآن.

نشأة المدارس

كانت مصر في القرون الخمسة الأولى للعصر الإسلامي مركزاً للعلوم ومقصداً للطلاب وكانت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم ودار الحكمة عامرة بالدراسات المختلفة. ولما قامت الدولة الأيوبية قضى سلاطينها وكانوا شافعية على التشيع وأنشأوا المدارس لفقهاء الشافعية والمالكية. وكان لصلاح الدين يوسف بن أيوب أكبر الفضل في إنشاء المدارس وانتشارها في أنحاء مصر. وكان للإسكندرية فضل السبق في إنشاء المدارس، فقد أنشأ ابن السلارمدرسة فيها سنة ٥٤٦هـ ١١٥١م كما أنشأ الوزير رضوان بن الولخشي مدرسة سنة ٥٤٨هـ ١١٥٣م.

وفي الوقت الذي أعدت فيه المدرسة لتؤدي فيها الشعائر الدينية وجدت كل تفاصيل المسجد وفقط اختلف تصميمها وألحقت بها مساكن للطلبة وقبة لدفن– المنشئ.

مثل مدارس السلطان حسن والأمير صرفحش ومدرسة برقوق وغيرهم. فإنها أعدت أيضاً لتكون مراكز ثقافة. ومنها ما خصص لدراسة مذهب وواحد أو لعدة مذاهب. ومنها ما خصص لدراسة الحديث الشريف أو لعلوم القرآن. وزودت تلك المدارس بمكتبات قيمة، وعين لها المدرسون والأطباء والمعيدون والمشرفون ورصدت لها المرتبات والهبات في المواسم والأعياد.

وإن القاهرة لتزدان بعدد عظيم من تلك المدارس تطاول السماء بمناراتها وقبابها المنقوشة والتي لا نظير لها في العالم الإسلامي أمثال المدارس الصالحية ومدرسة قلاوون ودار الحديث الكاملية والظاهر برقوق والأشرف برسباي والغوري وقايتباي وغيرهم كثير. هذا عدا ما أنشئ في الصعيد وفي الوجه البحري.

وللسيدات أثر مشكور في المشاركة في هذا المضمار الخيري منذ الدولة الفاطمية فأنشأوا من أموالهن الخاصة المساجد والخوانق والربط لإقامة النساء المنقطعات أو المطلقات

حتى يعدن لأزواجهن والعذارى حتى يتزوجن. إقامة كريمة مع تثقيف ديني فهي بمثابة دور كفالة للمرأة.

لوم تقف رسالة الآثار عند هذا الحد فهي أيضاً مدرسة جامعة للفنون. فقد نشأت فيها الصناعات والفنون ونمت وتدرجت معها وسايرتها في تطورها ورقيها ثم في انحطاطها. وذلك لأن كافة الفنون والصناعات ممثلة فيها ينتهل منها المهندس والفنان والصانع.

وقد امتازت دور بطابعها وتصميمها ومشربياتها اللطيفة. وكان مهندسها موفقاً في توفير وسائل الراحة فيها صيفاً وشتاء. فالدار بحوشها الفسيح وحدائقها بمثابة "فلتر لها" يمتع سكانها بدخول الهواء والنور والشمس لجميع أجزاء المنزل. أمثال منازل جمال الدين الذهبي بحارة خشقدم السحيمي بالدرب الأصفر. والكرتيلة بجوار الجامع الطولوني.

وتلك الدور بألوانها وسقوفها ورخام أراضيها ووزراتها وقاشاني جدرانها ومقتنياتها وتطعيم دواليبها وكراسيها وزخارف الخرط في أخشابها ومشربياتها وزجاج شبابيكها الملون. والمياه المتدفقة من نوافيرها على رخام فساقيها. كل هذا يتجاوب مع ألوان السجاد ورسومه ووسائد المخمل ونقوشها، مما يبعث على الهدوء وسحر الخيال.

إن الآثار الإسلامية في مصر غنية بمظاهرها وفنونها بهجة بألوانها. ممتازة على مثيلاتها في أقطار العالم.



منظر عام لمدينة القاهرة تظهر فيه مساجد السلطان حسن والرفاعي وقايتباي والمحمودي



داخل قبة المنصور قلاوون



واجهة المدرسة الصالحية



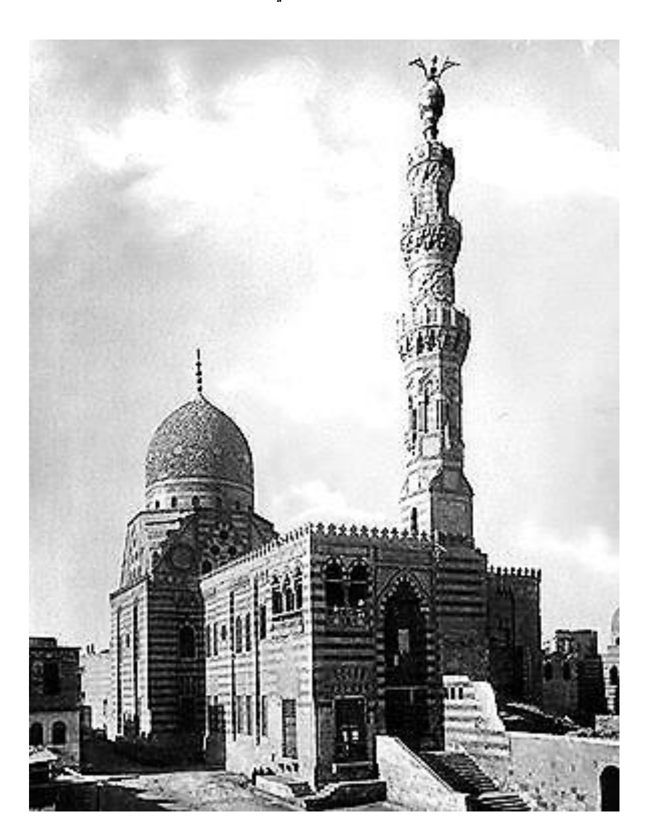
قبة ومدرسة السلطان قلاوون



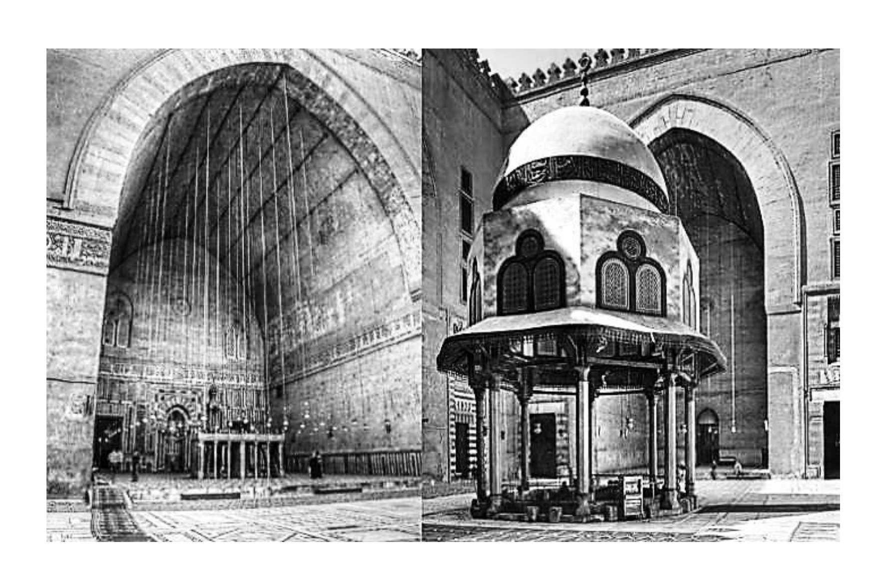
جامع عمرو بن العاص



بيت السحيمي



مسجد قايتباي



داخل مسجد ومدرسة السلطان حسن

نشأة المدارس بمصر

المدرسة هي المسجد من حيث أداء الرسالة الدينية. فكلاهما أعد للجمعة والجماعة. تختلف المدرسة عن المسجد في التصميم. فقد اقتبس تصميمها من تصميم القاعة الفاطمية المصرية. ايوانات معقودة متعامدة حول صحن مكشوف أو مغطى. ويلحق بها عادة قبة لدفن المنشئ وسبيل يعلوه كتاب ومساكن للطلبة ويضم المسجد أربعة إيوانات مسقوفة تشتمل على عدة أروقة أكبرها أيوان المحراب. وإلى أن ظهرت المدرسة كان المسجد لا يلحق به مدفن للمنشئ ولا لغيره.

لقد قام المسجد– منذ صدر الإسلام– برسالته الثقافية لمختلف أدوار التعليم، فقد كان القرآن يحفظ ويجود فيه، كما كانت بقية العلوم تدرس فيه، فيلتحق الطالب به صبيًا ويتخرج منه عالمًا. وإلى وقت ليس بالبعيد كانت هذه رسالة الأزهر. فقد كانت كتاتيب الأطفال تحدق بصحنه، وذلك بجانب الكتاتيب المفردة لتعليم الأطفال منذ أقدم العصور.

ويؤثر عن صلاح الدين يوسف بن أيوب أنه أول من بنى دارًا للحديث، وشاد في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وقرر لهم ولمعلميهم مرتبات.

أما بناء المدرسة بتصميمها الخاص وبنظامها المدرسي، والمرتبات التي قررت لأساتذتها وطلبتها، وتعيين المدرسين والمعيدين بها والمراقبين لطلبتها، والأوقاف التي رصدت عليها، وتخصيص أماكن لإقامة الطلبة بها؛ لم يكن ذلك معروفًا في مصر حتى نهاية الدولة الفاطمية. ولما كانت السلطة مركزة في وزرائها حينئذ فقد انتهزوا الفرصة للقضاء على التشيع وأنشأوا المدارس للمذاهب السنية. وكان للإسكندرية فضل السبق فقد أنشأ الوزير رضوان الدخشي، وزير الخليفة الحافظ لدين الله مدرسة بالإسكندرية للفقيه أبي طاهر بن عوف، سنة ٥٤٢ هـ ١١٣٧ م كما أنشأ بها العادل أبو الحسن بن السلار، وزير الخليفة الفاطمي الظافر بنصر الله، مدرسة للحافظ السلفي سنة ٥٤٦ هـ ١١٥١م، وكانت هذه المدرسة عماد الحركة العلمية في الإسكندرية ودعامتها القوية، فقد كان إمامًا حافظًا جليلًا دينًا ورعًا فقيهًا لغويًا، انتهى إليه علوم الإسناد مع الحفظ والإتقان.

قدم مصر واستوطن الإسكندرية سنة ٥١١ هـ ١١١٧ م، فأفاد واستفاد وهرع إليه الطلاب للاستفادة من علمه، وأصبحت الإسكندرية كعبة المستفيدين يحج إليها العلماء من أقطار الأرض للأخذ عنه.

وأنشأ صلاح الدين يوسف بن أيوب– وكان وقتئذ وزيرًا للخليفة العاضد لدين الله سنة ٥٦٦ هـ ١١٧٠ م– المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو من قبليه. برسم الفقهاء الشافعية، ورصد عليها الأوقاف.

وأول من ولي التدريس بها العلامة بن زين التجار فعرف به، ثم درس بها بعده ابن قطيطة ابن الوزان، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ وبعده الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن الحسين بن مُحَمَّد الحنفي فعرفت به وقيل لها المدرسة الشريفية ولا أثر لها اليوم.

وأنشأ أيضا في سنة ٥٦٦هـ ١١٧٠م المدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق، وخصصها للفقهاء المالكية، ووقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم وعين فيها أربعة من المدرسين، خصص لكل مدرس عددًا من الطلبة. وكانت من أجل مدارس فقهاء المالكية، ولا أثر لها اليوم.

ولما ولى صلاح الدين ملك مصر قضى على التشيع بل قضى على الفاطميين وتوسع في إنشاء المدارس وتبعه أفراد أسرته وأمراؤه. فانشأ في سنة ٥٧٢هـ ١١٧٦م المدرسة السيوفية، لفقهاء لحنفية، وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد الجبتي، ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارًا من وقف وقفه عليها على أن يصرف باقي ريعه على ما يراه لطلبة الحنفية المقربين عنده.

وعرفت بالسيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، وهي أول مدرسة وقفت على السادة الحنفية بديار مصر.

وقد حل محلها الآن مسجد المطهر بأول الصاغة وقد جدد انشاءها الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٥٧هـ ١٧٤٤م.

جامعة صلاح الدين بالإسكندرية:

وفي سنة ٥٧٧هـ ١١٨١م أنشأ ملك مصر صلاح الدين بالإسكندرية مدرسة و بيمارستان ودارا للمغاربة، وقد زار هذه الجامعة ابن جبير الرحالة ووصفها بقوله:

"ومن مناقب هذا البلد، ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل العلم والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقي كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه، ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، واجراء يقومون به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستان لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء.

وقد رتب أيضًا فيه أقوامًا برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم.

ومن أشرف هذه المقاصد أيضًا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا، وعهد بتفريق ذلك كل يوم إلى إنسان أمين من قبله. فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة أو الكثرة. هكنا دائمًا. ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك"– ولا أثر لهذه المجموعة اليوم.

المدرسة الصلاحية:

انشأ صلاح الدين بجوار قبة الإمام الشافعي سنة ٥٧٥هـ ١١٧٩م بإشارة الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين أبي البركات ابن الموفق الخبوشاني. وجعل التدريس والنظر له، وقرر له مرتبات، ولما توفي سنة ٥٨٧هـ ١١٩١م وليها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن مُحَّد بن حمويه الجويني. وممن تولى التدريس فيها صدر الدين بن حمويه. ثم وليها قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأغر. ثم وليها قاضي القضاة شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد. ثم وليها عز الدين مُحَّد بن مُحَّد بن الحارث بن مسكين، ثم وليها في سنة احدى عشرة وسبعمائة ضياء الدين عبد الله بن أحمد ابن منصور النسائي. وسلسل السيوطي أسماء أجلة علمائها إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي

وقد زارها الرحالة ابن جبير عقب الفراغ من بنائها ووصفها بقوله:

"مشهد الإمام الشافعي ﷺ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالًا واتساعًا. وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، ويخيل لمن يتطوف فيها أنها بلد مستقل بذاته، بازائها حمام إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخيوشاني. وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله، ويقول : زد احتفالًا وتأنقًا وعلينا القيام بمئونة ذلك كله، فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه".

ظلت هذه المدرسة موضع رعاية ملوك مصر وأمرائها. فقد جددها السلطان قايتباي كما جددها صاحب الخبرات الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٦هـ ١٧٦٢م وأنشأ سبيلًا على يسار باب القبة باقية وجهته حتى الآن هي والكسوة الرخامية للباب الخارجي للقبة بمصراعيها المغشيين بالفضة، ونقش على أعتاب باب المسجد الذي جدده محل الصلاحية ما نصه:

مسجد الشافعي بحر علوم

أشرقت شمسه بنور مُحَمَّد

وعلى عتب آخر:

اكرم به من مسجد مصباحه

كنز الهدى المولى الهمام الشافعي

ثم جددت وزارة الأوقاف المسجد سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩١م على ما هو عليه الآن. وهو مسجد جميل، وجهاته مبنية بالحجر وحليت أعتاب الشبابيك بكتابات كوفية. وله منارة رشيقة عملت على مثال المنارات المملوكية ومنبره مطعم بالسن والابنوس. كان الفراغ من عمله سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٢م.

الامام الشافعي:

مُحَمَّد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب الشافعي القرشي ﷺ. ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ٧٦٧م وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن

الكريم. وكان آية في الفهم والحفظ واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره، ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة في القدم. أخذ عن الإمام مالك. ثم استقل بمذهب خاص، ودخل إلى العراق بعد مالك، ولقى أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق. وخالف مالكًا– رحمه الله– في كثير من مذهبه.

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهور مذهبه كان أولًا بمصر وكثر أصحابه بها. ثم ظهر بالعراق وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان والشام واليمن وغيرها، وكان أكثر المصريين احنافًا ومالكية، فلما قدم إليها الإمام الشافعي انتشر بها مذهبه.

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي. وقد أجمع علماء الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والقراءات على ثقته وأمانته وعدله وزهده وعلو قدره.



قبة مسجد الامام الشافعي

كان الشافعي رحمه الله يجلس في حلقة درسه إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه. فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر. فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف –ﷺ–
قال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من

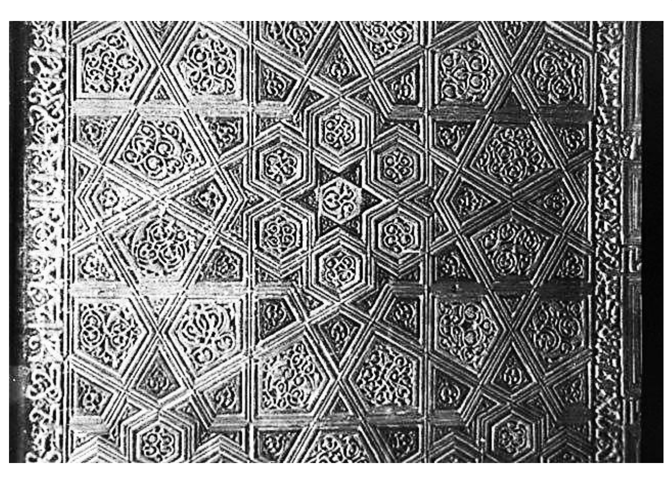
الدعاء له. فقال يا بني: كان الشافي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل لهذين من خلف أو عنهما من عوض!

قدم مصر سنة ١٩٩هـ وقيل ٢٠١هـ ٨١٦م ونزل بها ضيفًا على أبي عبد الله بن الحكم الفقيه المالكي المصري، وأخذ عنه مجموعة من العلماء، ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٤ هـ ٨١٩م ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم بالقرافة الصغرى وسط قبورهم فبنوا علي مقبرتهم قبة.

وقد ظلت هذه المقبرة موضع تكريم الزائرين حتى عنى بها صلاح الدين. كما عنى بنشر مذهبه. ففي سنة ٥٧٢هـ ١١٧٦م بنى تربة الشافعي- ﷺ-

تابوت الشافعي:

وقد بقى من عمارة صلاح الدين لقبر الشافعي تابوت فاخر من الخشب مستطيل غطاؤه هرمي، حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية، وجميع وجوه هذا التابوت مكونة من أطباق عربية كبيرة منقوشة بزخارف نباتية دقيقة من غصون مفرغة وأوراق مفرقة في مجاميع متماثلة، تتخللها أشكال نجمية ومسدسة.



جزء من تابوت الامام الشافعي

ومن أهم الكتابات بهذا التابوت النص المشتمل على تاريخ صناعة التابوت واسم الصانع وهو:"عمل هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه أبي عبد الله مُحَمَّد بن ادريس بن العباس

بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف رحمه الله. صنعت بيد النجار المعروف بابن معالي، عمله في شهور سنة أربع وسبعين وخمس مائة، رحمه الله ورحم من ترحم عليه ودعا له بالرحمة ولجميع من عمل معه من النجارين والنقاشين ولجميع المؤمنين".

وحول هذا التابوت مقصورة خشبية منقوشة، عملتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣٢٩هـ لحماية هذا التابوت النادر.

وأمام القبر عمود من رخام مكتوب عليه بالخط النسخ الأيوبي ٦ أسطر نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم "وإن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفي" هذا قبر السيد الإمام أبي عبد الله مُحَمَّد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم. ولد ﷺ– سنة خمسين ومائة. وعاش إلى سنة أربع ومائتين، ومات يوم الجمعة آخر يوم من رجب من السنة المذكورة ودفن من يومه بعد العصر ﷺ وأرضاه آمين.

وقد دفن في قبة الشافعي من أسرة صلاح الدين زوجته الملكة شمسة وابنه العزيز عثمان ولكن قبريهما غير محدودين. ولعلهما في المقبرة المحاطة بالمقصورة المطعمة بالصدف والتي كانت حول قبر الشافعي.

قبة الشافعي:

في سنة ٦٠٨هـ ١٢١١م أنشأ هذه القبة السلطان الملك الكامل مُحَمَّد بن الملك العادل لما دفنت أمه هناك، وهي قبة كبيرة من أجل القباب وأجملها بمصر. فكما تفنن المهندس في زخرفتها ونقوشها، بذل قصارى جهده في تخفيف كتلة البناء الضخمة التي سيحملها مربع القبة وحليت قاعدتها من الخارج بزخارف جصية، وكتابات كوفيه وشرفات مسننة منقوشة.

وهذه القبة خشبية ومغطاة بالقاشاني ثم غطيت بالرصاص فحجب القاشاني تحته.

وكم كانت تلك القبة جميلة بلون قاشانيها. وحبذا لو عنيت وزارة الأوقاف وساهمت مع مصلحة الآثار في تنفيذ مشروع رفع الرصاص و تكملة القاشاني تحته.

وقد كسيت جدران القبة من الداخل بالرخام، وقد جدده السلطان قايتباي والسلطان الغورى.

وفي سنة ١١٨٦هـ ١٧٧٢م أجرى بها عمارة على بك الكبير. فقد كشف عن الباقي من أخشابها وأصلحه ثم كساها بالرصاص. وجدد نقوش القبة واحتفظ بالسطر الكوفي المكتوب به آية الكرسي في قطبها.

وقد دون تاريخ انشاء القبة في سطرين فوق العتب الخشبي للشباك الغربي للقبة بما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الكامل محمد بن مولانا السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين خلد الله ملكه، وذلك في يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى من سنة ثمان وستمائة".

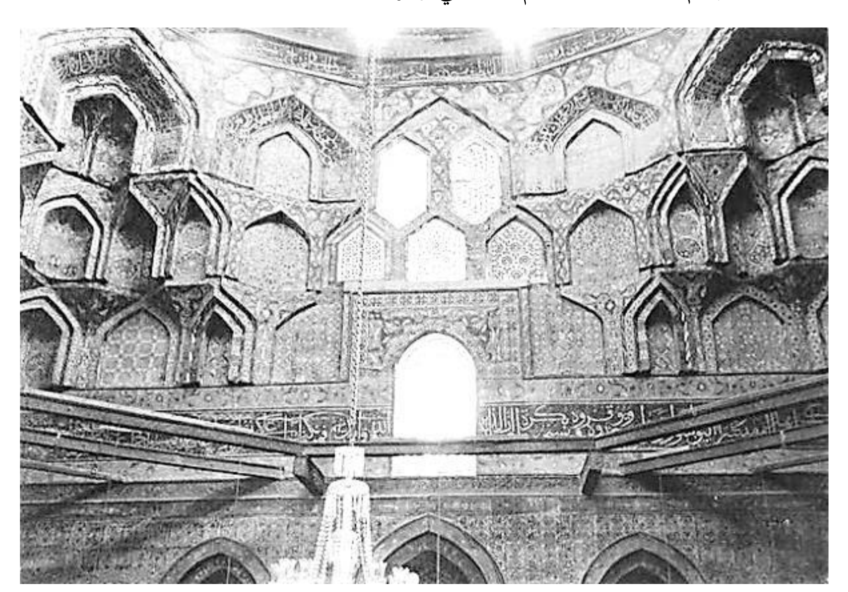
ولم يكن الكامل في هذا الوقت سلطانا لمصر بل كان والده الملك العادل هو السلطان، وهذا يساعد على الأخذ برواية من قال من المؤرخين "إن أم الملك الكامل هي التي عمرت قبة الشافعي على ما هي عليه واجرت الماء من بركة الحبش إلى القبة المذكورة.

وبالقبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل لا يقل في أهميته ودقة صناعته عن تابوت الشافعي، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية، تتوسطها حشوات نجمية اثنا عشرية، آية في الدقة والجمال. ومكتوب على قوائمه:

"هذا قبر السيدة الشهيدة المرحومة رحمة ربها والدة الفقير إلى رحمة ربه محمد ولد مولانا السلطان الملك الكامل العادل العامل العابد المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، قامع الخوارج و المتمردين، قاهر الكفرة والمشركين، أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين. اللهم أقم بهما منار الحق وأعله واجعل أيامهما عامة البركات على الإسلام وأهله وأدم اعزاز الدين بماضى عزمهما وأذق عدوهما نار انتقامك. وأصله برحمتك يا أرحم الراحمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبين. توفيت إلى رحمة ربها ورضوانه قبل الفجر من الليلة التي صبحها يوم الأحد الخامس والعشرين من صفر سنة ثمان وستمائة– قدس الله روحها ونور ضريحها وأسكنها الجنسية مع المتقين.

ويلاصق مقصورة الشافعي مقصورة خشبية بسيطة حول قبر يقال أنه لأولاد ابن عبد الحكم.

ويسترعى النظر في هذه القبة الأفاريز الخشبية والأوتار المنقوشة والمكتوبة. كما ويسترعيها مصاريع الأبواب فهي لا تقل روعه عن نجارة التابوت. وقد نقل منها مصراعان إلى مسجد الإمام الليث عليها اسم الشافعي وتاريخه سنة ٦٠٨هـ



داخل قبة الامام الشافعي

العشاري فوق القبة:

اشتهرت قبة الشافعي بالعشاري فوقها وهو مركب صفير مثبت في هلال القبة تتدلى منه سلسلة حديدية يقال أنها أعدت ليتسلقها من يريد الوصول إلى هذا المركب لوضع الماء والحبوب للطيور على ما يزعمون، وهو ما يصعب تصديقه.

وهذا المركب موضوع في هلال القبة منذ انشائها. لأن الإمام البوصيري صاحب البردة المتوفي سنة ٦٩٥هـ ١٢٩٥م عاينها وأنشد فيها:

بقبة قبر الشافعي سفينة

رست في بناء محكم فوق جلمود

ومذ غاض طوفان العلوم بقبره

قوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي

وتبعه شعراء القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلادي) في وصفها، فقد أنشد فيها الأديب الكاتب ضياء الدين أبو الفتح موسي بن ملهم:

مررت على قبة الشافعي

فعاين طرفي عليها العشاري

فقلت لصحبي لا تعجبوا

فإن المراكب فوق البحار

وقال علاء الدين أبو على عثمان بن ابراهيم النابلسي:

لقد أصبح الشافعي الأما

م فينا له مذهب مذهب

ولو لم يكن بحر علم لما

غدا وعلى قبره مركب

ومن هذه الأشعار نستنتج أن هذا المركب رمز لعلم الشافعي لأنه بحر علوم.

مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة

إن امتياز مصر بما حوته من مجاميع أثرية جعل لها مقاماً ممتازاً بين بلاد العالم.فقد تمثلت في تلك المجاميع مختلف الحضارات المتعاقبة وخاصة العصرين المصري والإسلامي.ومدينة القاهرة قد احتفظت بالكثير من أخطاطها وأسواقها وفنونها وآثارها، فيجد الباحث في تاريخها وتاريخ العمارة الإسلامية مادة غزيرة للدرس. حيث يجد العمارة والصناعات ممثلة تمثيلاً كاملاً لجميع عصورها منذ الفتح الإسلامي حتى وفاة المغفور له مُحَمّد علي باشا الكبير.

وقد حوت خمسمائة أثر إسلامي، فيها مساجد جامعة ومدارس وحصون وأسوار وقلاع وقناطر مياه ومقياس للنيل ومشاهد وقباب وخوانق وربط وأسبلة وكتاتيب وأحواض لشرب الدواب وبيمارستانات ووكالات وفنادق وقصور ومنازل وحمامات.

فمن الآثار التي رجع إلى عصر الخلفاء الراشدين جامع عمرو بن العاص المنشأ بالفسطاط سنة ٢١هـ ٦٤١م وهذا المسجد وإن كان تجدد على مر العصور فانه احتفظ بتفاصيل معمارية ترجع إلى مختلف العصور من عباسي وفاطمي ومملوكي وعثماني.

ومن الآثار التي ترجع إلى العصر العباسي، مقياس النيل. وقد أمر بإنشائه الخليفة العباسي المتوكل على الله سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م بجزيرة الروضة لضبط ارتفاع مياه النيل، وهو الوحيد من نوعه.

ومن الآثار الطولونية قناطر المياه التي أنشأها بالقرافة الكبرى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ ٨٧٦م وقد تجلت دقة البناء بالطوب في عقودها وطاقاتها وقناطرها، ودار اكتشفتها دار الآثار العربية في مدينة العسكر، وقد حوت من الزخارف الجصية ما يتفق مع زخارف الجامع الطولوني.

وأهم ما تخلف من منشآت هذه الدولة الجامع الكبير الذي أنشأه أحمد بن طولون بمدينة القطائع سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨م وهو أقدم أثر في مصر احتفظ بتفاصيله المعمارية. وفيه تجلت صناعة الجص لأنه حوى أكبر مجموعة من الزخارف والشبابيك الجصية تنوعت أشكالها، وامتاز بطرز منارته ذات السلم الخارجي، وهي الوحيدة في مصر.

ومن الآثار الإخشيدية بقايا مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى المنشأ حوالي سنة ٣٥٤ هـ ٩٥٦م، وكان لهذا المشهد تخطيط غريب، فقد تأثر بالجامع الطولوني فاقتبس دعائمه ذات العمد الأربعة لحمل قبابه. ويعتبر باكورة للمشاهد ذات القباب المحمولة على عقود مفتوحة، والتي نسج على نهجها الفاطميون في كثير من مشاهدهم.

الدولة الفاطمية:

أما الدولة الفاطمية فقد خلفت بالقاهرة ثروة معمارية كبيرة، وفيها تألق الفن الإسلامي في جميع نواحيه. وهذه الدولة وإن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتها المعمارية، كم أباد التعنت الديني والسياسي منشآتها المدنية التي أهمها القصران والمناظر، فأنهما أبقيا على بعض منشاتها الحربية والدينية، وتتمثل في أسوار القاهرة وأبوابها الباقية، وهي بابا النصر والفتوح سنة ٤٨٠ هـ ١٠٨٧م وباب زويلة سنة٤٨٤ هـ ١٠٩١م. وامتازت هذه الأبواب بدقة البناء وضخامته وإحكام العقود ورقي الزخارف الحجرية.

ولم تكن هذه المميزات مقصورة على هذه الاستحكامات، فقد سبقتها القصور الفاطمية التي بنيت وجهاتها بالحجر ونقشت بمختلف النقوش، وكذلك جامع الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣/٣٨٠ هـ ١٠١٢/٩٩٠م ففيه تجلت دقة الزخارف الحجرية في مدخله الغربي وفي منارتيه المعتبرتين من أقدم منارات القاهرة، فقد بنيتا بالحجر وزخرفتا بالنقوش والكتابات، أما قمتها الحالية فقد بناها بالطوب بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣م بعد زلزال سنة ٧٠٢ هـ وأخذ البناء بالحجر يندرج في هذه الدولة حتى ارتقى جيداً في وجهة الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ ١١٢٥م تلك الوجهة الفريدة في تصميمها وزخارفها.

وبقي من آثار هذه الدولة أقدم منارة كاملة بالقاهرة، هي منارة مسجد الجيوشي بسفح المقطم، وامتازت تلك المنارة بظهور أول مقر نص تعددت حطاته في نهاية قاعدتها المربعة.

وفي ظل هذه الدولة ارتقت الزخارف والكتابات الكوفية، وانتشرت الزخارف الجصية في المحاريب وحول العقود وخواصرها، ويتجلى هذا في عقود المجاز بالجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ ٩٧١م وفي محرابه القديم. وكان لي حظ اكتشافه سنة ١٩٣٣ بعد أن ظل محتجباً سبعة قرون تحت كسوة خشبية عملها الظاهر بيبرس البندقدارى، وظلت محاريب هذه الدولة تتخذ من الجص وتنوعت أشكالها. ووجدت منها نماذج بلغت منتهى الرقي مثل المحراب

المشتنصري سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤م بالجامع الطولوني. ومحراب مشهد إخوة يوسف (القرن الخامس الهجري) الحادي عشر الميلادي، ومحراب مشهد الجيوشي سنة ٤٧٨ هـ. وقد انفرد هذا المشهد بتخطيطه وبدقة وتنوع زخارفه وكتاباته، كما امتاز بوجود دعائم في جانبيه انتهت قمتها بقبة مصغرة لقبته الكبيرة فوق المحراب.

ومع أن القبة الفاطمية، وهي أساس تطور القبة في القاهرة، ظلت على بساطتها إلى نهاية القرن الخامس الهجري مثل قبة إخوة يوسف، فقد بدأت في التطور من انتقال مقر نصها من حطة واحدة إلى حطتين، وإلى تضليعها من الداخل والخارج في مبدأ القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، كما يبدو في تبني الجعفري وعاتكة سنة ٥١٩/٥١٤ هـ ١١٢٥/١١٢٠م وقبة السيدة رقية سنة ٥٢٧ هـ ١١٣٢م.

وصناعة التجارة تدرجت في الرقي حتى بلغت الذروة، وهذا تراه ملموساً في محراب السيدة رقية المودع بدار الآثار العربية وفي تابوتها وفي مصاريع أبواب مسجد الظافر نصر الله (الفا كهاني) سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨م. وفي منبر الصالح طلائع بقوص سنة ٥٥٠ هـ ١١٥٥م. وفي كثير من الطرف الخشبية بدار الآثار العربية. وامتازت الأخشاب الباقية من قصورهم باشتمالها على صور لآدميين وحيوانات.

ومن بين آثار هذه الدولة قاعة عرفت بقاعة الدردير كانت إلى سنة ١٩٤١ معتبرة من آثار العصر المملوكي، إلى أن حققتها وأثبت أنها قاعة فاطمية، اعتبرها جناب الأستاذ الدكتور كرسويل أساساً لاقتباس تخطيط المدرسة التي ظهرت في نهاية الدولة الفاطمية.

الدولة الأيوبية:

حكمت هذه الدولة مصر زهاء ثمانين عاماً وأنشأت الكثير من المدارس والمساجد والقصور. إلا أنه مع الأسف لم يبق من آثارها إلا بقايا قليلة، ولكن تفاصيل تلك البقايا دلت على أهميتها وعلى أنها أرقى من معاصرتها في سورية. وأهم ما تبقى منها قلعة الجبل التي أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ ١١٨٣م. وتعاقب على تكملتها والزيادة فيها أفراد البيت الأيوبي ومماليكهم. وكل هذه التطورات تمثل في أبوابها وأسوارها وأبراجها.

ومنها تابوتا الإمام الشافعي والمشهد الحسيني. أما الأول فقد أمر بعمله صلاح الدين سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٨م وعليه اسم صانعه "عبيد بن معالي". ولعله من أسرة ابن معالي التي

اشتركت في صناعة منبر نور الدين الشهيد بالمسجد الأقصى. واسمه عليه بما نصه: "عمل سلمان بن معالي". وهذا التابوت من روائع صناعة النجارة، وله غطاء هرمي حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية، وجميع جوانب هذا التابوت مكونة من أطباق عربية منقوشة بزخارف نباتية دقيقة.

أما تابوت المشهد الحسيني فهو طرفة جديدة على جمهرة الأثريين، ظل محتجاً تحت الأرض أسفل المقصورة نحو ثمانية قرون لم تكتحل به عين أحد من الأثريين. وقد انتهزت فرصة تغيير الأرضية أسفل المقصورة سنة ١٩٣٩ وهبطت إلى الحجرة أسفلها في صحبة صديقي السيد مُحَمَّد عرفه وكيل المسجد. فبهرتني صناعة التابوت كما أحزنتني الحالة التي وجدته عليها، فقد دب التلف إلى أجزائه، فأخرجته من مكمنه وقامت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار العربية. ثم أودعنه دار الآثار العربية سنة ١٩٤٥. وهو مصنوع من خشب ساج هندي ومكون من جنب ورأسين منذ إنشائه، ومكتوب عليه آيات من القرآن بالخطين الكوفي المزهر والبسيط والنسخ الأيوبي، وبه حشوات نجمية ومسدسة محفور بها زخارف نباتية مورقة تنوعت أشكالها في جميع أجزاء التابوت.

وقد روعي في اختيار الآيات القرآنية ما يناسب تابوت جثمان طاهر من فرع الدوحة المحمدية، يقرأ منها قوله تعالى: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}[هود: ٧٣] – {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣].

ومن وصف ابن جبير الرحالة للمشهد نفهم أن هذا التابوت كان تحت الأرض منذ إنشاء المشهد، إذ يقول:

"فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض...".

ومن فحص الزخارف وقاعدة كتابة الخطين الكوفي والنسخي واجتماع أحدهما بالآخر نضعه ضمن مصنوعات الدولة الأيوبية. وكذلك مقارنته بشبيهه تابوت الإمام الشافعي تدل على أنه معاصر له، بل تجعلني أرجح أنهما صنعا في عصر واحد وبيد صانع واحد.

وبما أنه ثبت أن الصلاح الدين علاقة بالمشهد الحسيني، وأنه أنشأ مدرسة بجواره، فإني

أرجح أنه هو الآمر بصنعه، كما يحتمل أيضاً أن يكون صانعه عبيد النجار المعروف بابن معالي.

ومن التوابيت القيمة أيضاً تابوت خشبي في قبة الإمام الشافعي صنع سنة ٦٠٨ هـ ١٢١١م فوق قبر أم الملك الكامل، لا يقل أهمية عن تابوت الشافعي، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية تتوسطها حشوات نجمية اثنتا عشرية بداخلها أخرى مسدسة ملئت بفروع زخرفية آية في الدقة والجمال.

وفي هذا العصر اطرد التقدم في الصناعات. فنرى الزخارف الحجرية تابعت تقدمها في باب تربة إسماعيل بن ثعلب سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦م وفي باب وأعتاب شبابيك المدرسة الصالحية سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣م.

وقباب هذه الدولة وإن ساد خارجها البساطة فإن قواعدها حليت بزخارف جصية، وحفل داخلها بشتى أنواع الزخرف مثل قبة الإمام الشافعي سنة ٦٠٨ هـ ، وامتازت محارب تلك القباب وحجور شبابيكها بدقة فائقة في صناعة الجص، كما نشاهده في قبة الخلفاء العباسيين سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣م وفي قبة شجر الدر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠م.

وثمة ميزة أخرى، كسوة رؤوس محرابي قبتي شجر الدر والصالح نجم الدين بالفسيفساء المذهبة المطعمة بالصدف. ولم تكن فسيفساء محراب قبة الصالح نجم الدين معروفة إلى أن اكتشفتها سنة ١٩٣٦. وفي هذا المحراب وجدت أقدم كسوة رخامية.

ووقعت على الزخارف الجصية تأثيرات أندلسية في نهاية هذه الدولة، وبقيت حتى نهاية القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر الميلادي. وهذا التأثيرنراه ملوساً في زخارف المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥م وفي منارة المشهد الحسيني سنة ٦٣٤ هـ ١٢٣٧م وفي (رباط أزدمر الصالحي) قبل سنة ٦٧٢ هـ ١٢٧٣م وفي منشآت أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

وانفرد كثير من قبابها بطراز اقتصر ظهوره على هذه الدولة مثل قبة أبو الغضنفر وشجر الدر والخلفاء العباسيين. كما ظهر تنوع جديد في المآذن تمثل في منارتي أبو الغضنفر والصالح نجم الدين نعتبره باكورة لتطورها.

دولة المماليك البحرية:

هذه الدولة تركت وراءها ثروة معمارية كبيرة لمختلف الأسر التي حكمتها، بقي منها حتى الآن مائة أثر. وللمنصور قلاون وأولاده وحفدته ومماليكهم مجموعة كبيرة من الآثار في أنحاء القاهرة تطاول السماء بمناراتها وقبابها، وعلى رأسها منشآت المنصور قلاون وابنه الناصر محمد وأولاده وأمرائه.

وفي مبدأ حكم هذه الدولة، أي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وجدت آثار اشتملت على تفاصيل ميزت مصر على سائر الأقطار، وانفردت بها عن بقية عصورها.

أولها قبة المنوفي.

هذه القبة في القرافة الصغرى وهي قبة كبيرة تعلوها قبة صغيرة متصلة بإيوان كبير كان يتصل به من طرفه الآخر قبة صغيرة هدمت. ولا شك أن تلك البقايا مخلفة من خانقاه أو مدرسة قديمة. ويقرر بريس دفين أن العرب أول من اخترع هذا النوع من القباب وأن مهندسها سبق عصر برونيلسكي سنة ١٩٢٠ الذي ينسب إليه في وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية.

ونظراً لأن هذه القبة خالة النصوص ومجهولة المنشئ، ولم يتناول آثار هذه المنطقة مؤلفو الخطط، فأني أتناولها بالوصف، ثم أحدد تاريخ إنشائها بطريقة المقارنات المعمارية.

حقيقة أن هذه القبة فريدة في طرزها، وهي مكونة من قاعدة مبنية بالحجر الضخم، وفتح بجوانبها القبلية والغربية عقود حجرية، كما أقيم عقد آخر في وجه العقد البحري لحمل رجل عقد الإيوان.

ويعلو القاعدة مربع آخر به أربعة شبابيك يعلوه مثمن ثم رقبة القبة وبها ١٦ شباكاً اثنان مفتوحان واثنان مضاهيان، وهكذا بالتناوب، ثم إفريز تعلوه القبة التي تنهي قمتها بمنور فوق رقبة مثمنة تحمل قبة صغيرة مضلعة، والجميع مبني بالطوب. وبجدار القبة الشرق محراب بسيط به من أسفل كسوة رخامية.

والإيوان الكبير بنى أسفله بالحجر وأعلاه بالطوب، وبه محراب مثلث يعلوه شباك

فندليه به بقايا زخارف جصية بها توريق مشرشر.

وبناء قاعدة القبة بالحجر الكبير والثلاثات والقبة فوقها بالطوب شاع في قباب آخر القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. إذ نراه في قبة لاجين المنصوري بالجامع الطولوني سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦م وفي قبة علاء الدينايدكين البندقدارى سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤م. وفي قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧م.

وعقد المحراب المنكسر أو المثلث نراه شاع في محاريب قبة علاء الدين ايدكين البندقداري وإيوان زين الدين يوسف السابق ذكرهما، وفي قبة حسام الدين طورنطاي سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠م، ومقر نص القبة وجدناه أول مرة في قبة أم الصالح مع تنوع بسيط سنة ٦٨٢ هـ ١٢٨٢م، ثم وجدناه مطابقاً له في باب خانقاه بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٦/٧٠٩ هـ ١٣٠٦/١٣٠٩م.

والقبة الصغيرة أعلى القبة مقتبسة من قمة منارة الجامع الطولوني عمل لاجين سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦م والمدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣م وغيرها من قباب ومنارات النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.

ومن هذه المقارنات يتبين أن تفاصيل الإيوان والقبة اتفقت مع منشآت نهاية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

وإلى الآن لم أر ما يطابق هذه القبة. إلا ما رأيت في خان أسعد باشا العظم بدمشق سنة ١١٦٦ هـ ١٧٥٢م فإن فيه قباباً ذات منور خشبي، كما وجدت في مصر قباباً ذات مناور مفتوحة في دار الضرب التي أنشأها المغفور له مُحَمَّد علي باشا بالقلعة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧م كانت مغطاة بمناور خشبية.

وثانيها قبة رباط أحمد بن سلمان الرفاعي.

هذا الرباط بحارة حلوات قسم الخليفة، أنشئ سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١م وقبته تسودها البساطة إلى حد أن الرائي لها من الخارج لا يكترث لشكلها، ولا تبدو عليها أية أهمية، فإذا ما دخلها أخذه العجب وبهرته زخارفها وألوانها ونوادر الصناعة فيها. فهي صغيرة الحجم مربعة القاعدة ترتكز من الجانبين الغربي والقبلي على عقدين، ومقر نصها يتكون من ثلاث حطات، حفلت بالزخارف طاقاته وخواصره وتواشيحه وحوافيه وداخله، واشتمل على

كتابات بالخطين الكوفي والنسخي.

وبصدر القبة المحراب، وهو من الطرف النادرة، فعقده منكسر حليت طاقيته وتواشيحه وجوانبه بزخارف جصية هندسية ومورقة. وقد انفردت تلك الزخارف بميزة لا نظير لهافي العمارة الإسلامية على ما أرجح. فقد غطيت الكتابة بالسطر أعلاه بزجاج رقيق ملون بلون أرجواني، وتخللت تلك الكتابة زخارف مورقة غطيت زجاج ملون باللونين الفيروزي والأرجواني. ومثلها الفروع المورقة من زخارف عقد المحراب وباطنه وتواشيحه، وأحيط المحراب بإفريز به حشوات مستديرة ومسدسة لصق عليها الزجاج المنقوش بالألوان المذكورة.

واستهل القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، بحكم الناصر مُحَّد بن قلاون، ومدة حكمه لمصر أطول مدة قضاها ملك بعد حكم المستنصر بالله الفاطمي، وكان مغرماً بالعمارة فأنشأ وعمر الكثير من الآثار.

ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تبارى أمراؤه في إنشاء المدارس والمساجد والخوانق، وشاركهم نساؤهم في إنشاء المساجد حتى إن حدق القهرمانة مربية الناصر مُحَّد بن قلاون أنشأت مسجداً باقياً حتى الآن، وكلها منشآت تعنى بتشييدها وزخرفتها.

وكان للتنافس أثر كبير في حصولنا على ثروة فنية عظيمة في مختلف فنون العمارة.

ودرة منشآت هذه الدولة مدرسة السلطان حسن سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٤م فهي غنية بفنونها وعمارتها، ولا شك في أنها من مفاخر العمارة الإسلامية، وقد وفقت إلى الثور على اسم مهندسها منقوشاً على طراز جصي بالمدرسة الحنفية بما نصه: "وشاد عمارته مُحَّد بن بيليك المحسني".

ورغم أن سورية وفلسطين ومصر في أكثر عصورها الإسلامية كانت خاضعة لحكم واحد، وكان الأمراء يتنقلون بين مصر والشام، وأنشأوا آثاراً لهم بمصر والشام، فإنها اختلفت بعضها عن بعض وخاصة في التفاصيل المعمارية. فهي وإن اتفقت أحياناً في التصميم من حيث المساقط الأفقية والمداخل الرئيسية، فإنها اختلفت في التفاصيل المعمارية، وخاصة في القبة والمنارة وصناعة الجص. ولم يكن هذا التغير مقصوراً على الشام، بل شمل العراق وبلاد المغرب والأندلس وفارس، مما جعل للكثير من تفاصيل العمارة

الإسلامية في مصر طابعاً خاصاً بها ميزها على بقية الطرز الأخرى.

وامتازت العمارة في دولة المماليك بأنها تمصرت وتركزت قواعدها. فظهر تحسين كبير في تصميم وجهات المساجد والمدارس، وارتقت القبة والمنارة وتنوعت أشكالها. وازدهرت صناعة الرخام في المحاريب والوزرات والأرضيات، كما ازدهرت صناعة الجص في الزخارف والشبابيك. وانتشرت الأبواب المغشاة بالنحاس مع تنوع أشكالها وزخارفها وتكفيتها بالذهب والفضة.

وارتقت المنارة وضخمت وصارت تبني قاعدتها بالحجر وعلوها بالطوب، واتخذت له خودة مضلعة، ثم تطورت فبنيت جميعها بالحجر، وتعددت دوراتها، وأبدلت الخودة المضلعة بجودة مستديرة ذات هلال ومحمولة على أكتاف رشيقة أقرب إلى العمد، ثم أبدلت بها عمد رخامية. وكل هذا التطور نراه في منارة المنصور قلاوون سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣م وفي منارة المدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣م وفي منارتي مسجد الناصر مُحَّد بن قلاوون بالقلعة سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٥م وقد وقعت عليهما تأثيرات فارسية وخاصة في قمتيهما المكسوتين بالقاشاني. وفي منارة خانقاه قوصون سنة ٧٣٦ هـ ١٣٣٦م ثم في منارتي صرغتمش سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٧م وآستبغا سنة ٧٧٣ هـ ١٣٧١م والجاي اليوسفي سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٣م.

وقد مرت القبة بهذه الخطوات من حيث بناؤها بالطوب ثم بالحجر والطوب تم بناؤها بالحجر مع تنوع أشكالها، ونرى هذه التطورات ممثلة في قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧م وفي قبتي الجاولى سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣م وفي قبة سنجر المظفر سنة ٧٢٢ هـ ١٣٢٢م وهي أول قبة بنيت بالحجر وفي قبة تتكزيغا سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٤م وهي ثالث قبة حجرية، وفي قبة الجاي اليوسفي سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٢م، وتنوع زخرف رقابها من إفريز جصي مزخرف إلى قاشاني ملون فمكتوب ومزخرف.

وتدرجت المحاريب من الجص إلى الرخام الذي بلغ الذروة في هذه الدولة، وطعم

بالصدف، وتعدى المحاريب إلى الوزرات والأرضيات. وتراه ممثلا في محراب[1] ووزرة قبة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ ١٣٨٤م. وفي محراب المدرسة الطيبرسية بالأزهر سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩م وفي محراب المدرسة الإقبغاوية ومسجد المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠م.

وعادت الفسيفساء المذهبة إلى الظهور في محاريب مدرسة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ ١٣٨٥م والجامع الطولوني سنة٦٩٦ وفي المدرسة الطيبرسية ٧٠٩ هـ ١٣٠٩م وفي المدرسة الإقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠م وفي مسجد حدق سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠م، ولم تكن معروفة إلى أن اكتشفها سنة ١٩٣٧.

وكذلك ظهرت محاريب جصية دقيقة في خانقاه أم أنوك حوالي٧٤٢ هـ ١٣٤٢م وفي قبة أصلم السلحدار سنة ٧٤٦ هـ ١٣٤٥م.

وقد سارت الزخارف الجصية في تقدمها، وتمثل دقتها في مسجد الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٦م وفي رباط أزدمر الصالحي، وفي زاوية زين الدين يوسف، ورباط ابن سليمان، والخانقاه البندقدارية ومدرسة الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٠٥ هـ ١٣٠٥مومسجد أميرحسين سنة ٧١٩ هـ ١٣١٩م، ومدرسة السلطان حسن ٧٦٤ هـ ١٣٦٤م.

ومثلها النجارة، فقد تابعت تقدمها في شتى تفاصيلها، سواء أكانت في التوابيت أم الأبواب والمنابر، وطعمت بالسن والآبنوس. ومنها نماذج قيمة جداً في تابوت رباط أحمد بن سليمان.

وفي منبر المنصور لاجين بالجامع الطولوني سنة ٦٩٦هـ ١٢٩٦م، وفي منبر بكتمرالجوكندار في جامع طلائع بن رزيك سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ وفي منبري أرغون شاه الإسماعيلي سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨م والطنبغا المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠م وفي أبواب مسجد أم السلطان شعبان ٧٧٠ هـ ١٣٦٨م.

---

[1] نختار هذه النماذج من هذه التفاصيل وغيرها من فترات متفاوتة برقي النوع في الحقبات المتعاقبة. وهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. وفي معرض الصور الذي أقمته بقصر العظم بدمشق مقر اجتماع مؤتمر الآثار عرض مميزات العمارة الإسلامية بالقاهرة وتطورها في مختلف تفاصيلها. وقد حوى أربعمائة صورة.

المماليك الجراكسة:

أما دولة المماليك الجراكسة فثروتها لا تقل أهمية وعدداً عما تركه الماليك البحرية.

فقد بقي لها بالقاهرة مائة وثلاثون أثر على رأسها مدرسة الظاهر برقوق سنة ٧٨٨ هـ ١٣٨٦م. وخانقاه ابنه الناصر فرج بالصحراء سنة ٨١٣ هـ ١٤١٠مثم منشآت الأشرف برسباي من مساجد ومدارس وخوانق ٨٢٩-٨٤١ هـ ١٤٢٥-١٤٣٧م، ثم منشآت القاضي يحيي زين الدين من مساجد ومدارس سنة ٨٥٠-٨٥٦ هـ ١٤٤٦-١٤٥٢م.

ومنشآت الأشرف قايتباي ٨٧٣-٩٠٠ هـ ١٤٦٨-١٤٩٤م وهي وحدها ثروةفنية كبيرة. فقد ترك اسمه مسطوراً على مايزيد عن ٧٠ أثراًبقي منها بالقاهرة ٣٥ ما بين مساجد ومدارس وقلاع، وفجرها مدرسته وتربته بالصحراء. وتبعه أمراؤه في إنشاء المساجد، ومن خيرتها مسجد أقجماس الإسحاقي وأبيبكر مزهر.

ويليه في العناية بالعمارة السلطان الغوري. فقدكان مغرماً بها، وليس أدل على غرامه بالعمارة من إنشائه في منطقة واحدة مجموعة مكونة من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتاب ومدرسة وقبة. ودرتها مسجده بالغورية سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٤م.

في هذه الدولة سارت التفاصيل المعمارية على اختلاف أنواعها في تقدمها واطراد تحسنها.

فاستقرت المنارة على طراز واحد مع تنوع بسيط. وكان هذا النوع يتفاوت بين البساطة وكثرة الزخرف والاعتدال فيه، وفيها ظهر نوع جديد في زخرفها، وهو تلبيس بدن دورتها الأولى بالرخام، مثل منارتي برقوق بالنحاسين والقاضي يحي بالأزهر، ثم حلي بدن دورتها الأولى بزخارف هندسية ونباتية، مثل مسجد برقوق بالصحراء سنة ٨١١ هـ ومنارة مسجد تمراز الأحمدي ٨٧٦ هـ ١٤٧١م ومنارات قايتباي بالأزهر وبمسجديه بالصحراء وقلعة الكبش ومنارتيجانم البهلوان ٨٨٣ هـ ١٤٧٨م وأبي بكر مزهر ٨٨٤ هـ ١٤٧٩م.

وفي نهاية هذه الدولة ظهر نوع من المنارات مزدوج الرأس، منها منارة مدرسة قاني باي الرماح سنة ٩٠٩ هـ ١٥٠٣م ومنارة الغوري بالأزهر سنة ٩١٥ هـ ١٥٠٩م وامتازت بتلبيس بدن دورها الأولى بقاشاني أزرق، وأن السلم الموصل بين الدورتين الأولى والثانية مزدوج لا يرى الصاعد فيه النازل، وهو ثالث أنموذج في منارات مصر، إذ الأول في منارة

قوصون والثاني في منارة أزبك اليوسفي.

وسار الرخام في تقدمه سواء أكان في المحاريب أم الوزرات والأرضيات. ومنه نماذج راقية جداً في منشآت الأشرف برسباي والأشرف قايتبايوقانصوه الغوري وأمرائهم.

وصناعة الجص وإن كانت تأخرت فقد عوضت بتقدم بالغ في صناعة الشبابيك الجصية والتوفيق في اختيار ألوانها.

واستمرت القبة سائرة في التحسن إلى أن بلغت الذروة في هذه الدولة، وحلى سطحها الخارجي بنقوش هندسية وأخرى مورقة، حتى انفردت بجمالها على سائر قباب العمارة الإسلامية، وهذا ما نلمسه في قبة جاني بك الأشرفي بالصحراء سنة ٨٣١هـ ١٤٢٧م وفي قبة المدرسة الجوهرية بالأزهر سنة ٨٤٤ هـ ١٤٤٠م وقبة الأشرف برسباي بالصحراء سنة ٨٣٥ هـ ١٤٣١م وفي قبة الأشرف قايتباي بالصحراء سنة ٨٧٩ هـ ١٤٧٤م وهي منتهى ما وصل إليه رقي القباب.

وإلى نهاية هذه الدولة كانت أعمال النجارة متقدمة في شتى أنواعها، سواء أكانت في المنابر أم الأبواب، وتتجلى دقتها في أبواب ومنبر جامع المؤيد شيخ سنة ٨٢٣ هـ ١٤٢٠م وفي منابر الأشرف برسباي بالأشرفية، وقايتباي بالصحراء، وقجماس الإسحاقي. وقانصوه الغوري.

ويحق لنا القول بأن العمارة الإسلامية في هذه الدولة أخذت زخرفها وازينت وبلغت أقصى مراتب الكمال.

العصر العثماني:

كان لسقوط دولة المالية الجراكسة ودخول مصر في حوزة الدولة العثمانية أثر كبير في تأخر الفنون والعمارة الإسلامية. فما إن تم للسلطان سليم الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧م حتى جمع مهندسيها وفنانيها وخيرة صناعها من بنائين ونجارين ومرخمين وأرسلهم إلى استامبول. وبذلك قضى على النشاط الفني والصناعي إلى حد كبير. والدولة العثمانية وإن تأخرت العمارة فيها فإنها خلفت ثروة معمارية كبيرة بقي منها ١٩٠ أثراً ما بين مساجد وأسبلة ووكالات ودور.

وفي عصر هذه الدولة أدخلت إلى مصر أساليب معمارية تركية جديدة لم تكن مألوفة بمصر من حيث التصميم والزخرف. فقد أنشأ سليمان باشا مسجده بالقلعة سنة ٩٣٥ هـ ١٥٢٨م على طراز مساجد الآستانة. فهذا المسجد مكون من قبة كبيرة مكسوة بالقاشاني يحيط بها أنصاف قباب. وأمامها صحن مكشوف تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة كسبت بالقاشاني أيضاً.

ورغم أن تصميمه عثماني بحت، فإن منارته تأثرت بالمنارة المصرية عدا خودتها التي أبدلت بها مسالة كسيت بالقاشاني. وأيضاً فإن وزرته الرخامية وإفريزها المكتوب بالخط الكوفي تأثرت بالوزرات المملوكية، ومثلها الأرضيات الرخامية. على أن أهم ما يسترعى النظر فيه مجموعة النقوش الملونة والمذهبية بالقبة الكبيرة وأنصاف القباب حولها.

وحذا حذوه في التصميم مع اختلاف في التفاصيل مهندس مسجد الملكة صفية سنة ١٠١٩ هـ ١٦١٠م. وكان الحال كذلك في مسجد سنان باشا ببولاق ٩٧٩ هـ ١٥٧١م إلا أنه استعيض عن الحوش المكشوف بأروقة معقودة حول وجهاته الثلاث. وفي هذين المسجدين تظهر المنارة التركية التي شاعت في القاهرة بعد ذلك.

وبرغم التأخير الذي أصاب القبة والمنارة وصناعة الجص والتجارة وكثيراً من الصناعات فقد استمرت صناعة الرخام على تقدمها، وكذلك صناعة النحاس فقد ازدهرت، وخاصة النماذج المصبوبة للشبابيك بالأسبلة. ووجدت عناصر جديدة للزخرف هي كسوة الجدران والقباب والمحاريب بالقاشانى. ومنه نماذج قيمة في مسجد آق سنقر من عمل إبراهيم أغا سنة ١٠٦٢ هـ ١٦٥٢م وفي سبيل عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٥٧ هـ ١٧٤٤موسبيل رقية دودو سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦٠م.

وانتشرت صناعة الخشب الخرط، وافتن صانعها في إيجاد رسوم وكتابات بها، وشاعت المشربيات في الدور، وهي التي طبعت الدور في أحياء القاهرة بطابع خاص انتصر عليها، مثل منازل الكريدلية سنة ١٠٤١ هـ ١٦٣١م وجمال الدين الذهبي سنة ١٠٤٧ هـ ١٦٣٧م ومنزل السحيمي سنة ١٠٥٨ هـ ١٦٤٨م. وقد اشتملت هذه الدور وغيرها على مقاعد وقاعات حوت سقوفا دقيقة لا تقل عن سقوف دولة المماليك.

كما حوت وزرات وأرضيات دقيقة، وامتازت بوجود فسقيات رخامية وسطها نافورات

رخامية مفرغة بأشكال زخرفية.

وبجانب التأثيرات التركية التي وقعت على العمارة في القاهرة والتأخير الذي أصابها وجدت مساجدظلت متأثرة بالطرز المملوكية، وأهمها مسجد البرديني المنشأ سنة ١٠٢٥–١٠٣٨ هـ ١٦١٦–١٦٢٨م وهو صغير الحجم عبارة عن قاعة صغيرة أحيطت بوزرة رخامية رقيقة جداً. وله محراب رخاميدقيق ومنبر صغير مطعم بالصدف. وتمتاز منارته بأنها مملوكية الطراز، مما جعل هذا المسجد درة المساجد المنشأة في العصر العثماني.

وفي هذا العصر كثر إنشاء السبيل منفرداً يعلوه كتَّاب. وأجمل هذه الأسبلة سبيلخسرو باشا سنة ٩٤٢ هـ ١٥٣٥م وسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين.

ولم تقتصر أهمية هذا السبيل على تفاصيل وجهاته الفنية بالنقش في الحجر وتطعيم الرخام، بل تعدته إلى داخله المكسو بالقاشاني المرسوم فيه صورة الكعبة الشريفة.

عصر المغفور له محمد على باشا:

إن أكثر الآثار الباقية من هذا العصر ترجع إلى هذا العاهل الذي أنشأ المساجد والقصور والمصانع والحصون والقناطر ودار المحفوظات ودار الضرب، وباق منها عشرون أثراً، أهمها القناطر الخيرية، ثم مسجده العظيم.

وكان لاستعانته بمهندسين وصناع أجانب وأتراك أثر في إيجاد عناصر جديدة في العمارة والزخرفة لم تكن موجودة من قبل. فالزخارف تمثل زهوراً وعناقيد عنب وستائر ومناظر طبيعية. وهذا النوع من الزخرف شاع في تركيا في القرن الثامن عشر الميلادي، ويعرف باسم (روكوكو) وقد دخل إليها بعد انتشاره في أورية على أيدي فنانين من جنوبي إيطاليا وصقلية.

وقد شاع هذا الفن في زخارف قصوره وقصور أولاده، وأخص بالذكر منها قصر شبرا الذي أنشأه سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨م وقصر الجوهرة بالقلعة سنة ١٢٢٩ هـ ١٨١٣م ثم قصر الحرم بداخل القلعة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧م. وفي هذه القصور نرى لوناً جديداً في تصميم القصور ومواد بنائها، وغالبها من الخشب.

هذا وقد شيد مساجده على الطراز العثماني البحت، فمسجده الكبير المشيد سنة

١٢٦٥ هـ بني على مثال مسجد السلطان أحمد بالآستانة، كما أقيم المسجد الذي أنشأه بالخانكاه على الطراز التركي البحت. أما المساجد المعاصرة له فقد أنشئت على الطراز الإسلامي البحت في تصميمها وتفاصيلها، مثل مسجد حسن باشا طاهر ١٢٢٤ هـ ١٨٠٩ مومسجد الجوهري سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨م.

والخلاصة: أن العمارة الإسلامية في القاهرة امتازت بميزتين: الأولى أنها احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية التي انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التي كانت تشترك معها فيها. والثانية أنها انفردت بمميزات اقتصرت عليها، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال التجارة والجص والرخام، ميزتها على كثير من سائر الأقطار الإسلامية.

الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية

اتسمت العمارة الإسلامية بالدقة والابتكار والتنوع، فنرى الآثار في الأقطار الإسلامية تغاير بعضها في الزخرف وفي التفاصيل المعمارية ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل نرى كل عصر له طابعه الذي يميزه عن غيره، وخاصة في مصر، فنرى الآثار الطولونية بتفاصيلها وزخارفها تغاير الآثار الفاطمية، والآثار الفاطمية تغاير الآثار الأيوبية، بالرغم من اتصال تلك العصور بعضها ببعض. وهكذا نرى لكل دولة من الدول المتعاقبة على حكم مصر طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الطرز الأخرى.

ونرى في كل عصر تنوعاً مدهشاً في شتى التفاصيل، نراه في تطور الواجهات من بناء بالأجر، إلى الحجر، مع إبداع في كليهما، وفي العقود بتنوع أشكالها: من ستيني إلى فارسي، إلى مخموس، إلى موتور، وغير ذلك.

وفي المحاريب من جصية إلى خشبية إلى رخامية. وحجرية منقوشة. وحجرية مطعمة بالرخام. وفي التجارة ما بين حفر دقيق رقيق، وتطعمي في العصرين الأموي والعباسي، إلى حفر ضخم في الطولوني، وحفر دقيق رقيق مع صور طيور وحيوانات وآدميين، وكتابات كوفية مزخرفة في العصر الفاطمي، وتجميع زخارف دقيقة، وكتابات كوفية ونسخية في العصر الأيوبي، وحشوات مجمعة تجمع مختلف أنواع الخشب والسن والأبنوس المحفور بالأويمة الدقيقة، مع تطعيم بالسن في العصر المملوكي، وتطعيم بالزرنشان، وحفر دقيق في الخشب والسن في دولة المماليك الجراكسة، كل هذا نجده مثلاً في المنابر والمحاريب والكراسي والأبواب والتوابيت والدواليب، هذا عدا النوع المبدع في الزخارف الجصية في العصرين الطولوني والفاطمي ثم في الأيوبي والمملوكي.

أما مجموعة الشبابيك الجصية المفرغة بأنواع الزخارف في العصرين الطولوني والفاطمي، والمحلاة بالزجاج الملون منذ نهاية العصر الأيوبي وفي دولتي المماليك فإنها تثير الإعجاب بأشكالها وألوانها.

وكذلك صناعة النحاس نجدها ممثلة في مصر بعض الأبواب النحاسية ما بين كسوة

منقوشة، ومفرغة بارزة، وتطعيم بالذهب والفضة، وتلبيس في الخشب، وكسوة الكراسي والصناديق، وتكفيتها بالذهب والفضة فإنها بزت مثيلتها في كثير من الأقطار، وخاصة التنانير النحاسية الكبيرة.

أما القبة والمنارة فإنهما قد بزتا جميع التفاصيل المعمارية في التنوع والابتكار، بدرجة تسمح لنا أن نقول: إن مجموعة القباب والمنارات في مصر لا نظير لها في أي قطر آخر من الأقطار، من حيث الكثرة والتنوع في مادة البناء ما بين آجر وحجر، أو الجمع بينهما، وما بين تنوع في الطرز والزخرف، ومباراة في الرشاقة، حتى أصبحت المنارة والقبة المصرية جديرتان بلقب عرائس القباب والمنارات في العالم الإسلامي.

هذا التنوع في تلك الثروة الفنية حدا بالكثير من المهندسين بل والآثار بين إلى التساؤل: هل تلك الروائع المتناسقة والمتزنة من العمائر شيدت طبقاً لرسومات أعدت لها، ونفذت على مقتضاها؟ وهل تلك التفاصيل المعمارية والزخرفية الدقيقة المتناسقة المتنوعة نفذت طبقاً لرسومات أعدت لها وتحت إشراف مهندسين؟

والجواب "نعم" لقد أشرف على العمائر مهندسون، وعملوا لها رسومات عامة وتفصيلية، وعملوا لها أيضاً أرانيك، وعملوا لها نماذج مجسمة، وعملوا لها مقايسات ابتدائية وختامية.

ولقد ثبت أن الحضارة الإسلامية تناولت العلوم الهندسية والرياضية والحيل الميكانيكية وجر الأثقال والمكتبة العربية غنية بثلث المؤلفات[1].

كما وضعت المؤلفات في علم عقود الأبنية، وقد عرفه شمس الدين محمد بن إبراهيم الأنصاري المتوفي سنة ٧٤٩هـ ١٣٤٨م بأنه علم تعرف منه أحوال أوضاع الأبنية، وكيفية شق الأنهار وتنقية القنى، وسد البثوق. وتنفيذ المساكن، ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والقلاع والمنازل. وفي الفلاحة، وفيه كتاب لابن الهيثم وكتاب للكرخي[2].

ولأبي الوفاء اليوزجاني المتوفي سنة ٣٨٨هـ ٩٩٨م كتاب ما يحتاج إليه الصناع من

---

[1] انظر الفهرست لابن النديم ٣٧١ – ٣٩٧ ومفاتيح العلوم للخوارزمي ١١٧ – ١٢١ وإرشاد القاصد ص ٧٩ – ٨١ وكشف الظنون.

[2] إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد ص ٨١ – ٨٢ طبع أوروبا.

أعمال الهندسة، ومنه نسخة في مكتبة أيا صوفيا، ولأحمد بن عمر الكرابيسي كتاب حساب الدور وكتابة مساحة الحلقة[1].

وكذلك عرفنا أسماء الكثيرين من المهندسين الذين باشروا تنفيذ إنشاء بعض المساجد والقصور، وتخطيط المدن.

وعرف القلقشندي "مهندس العمائر" بأنه هو الذي يتولى ترتيب العمائر وتقديرها ويحكم على أرباب صناعاتها[2].

ويحدثنا اليعقوبي عن تخطيط بغداد أنه في سنة ١٤١هـ ٧٥٨م وقع اختيار أبي جعفر المنصور على موقعها لإقامة مدينته عليها، فوقع اختياره على المهندسين. عبد الله ابن محرز، والحجاج بن يوسف، وعمران بن الوضاح، وشهاب بن كثير، وأمرهم بتخطيطها، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما تعتدل به المنازل، وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه، أو الرجل النزيه الذي ينزله، أو أهل البلد الذي يسكنونه، وحدد لهم عرض الشارع بخمسين ذراعاً، والدروب ستة عشر ذراعاً[3].

وعرفنا من المهندسين مهندس المأمون موسى بن داود، الذي قال له، إذا بنيت لي بناء فاجعله مما يعجز عن هدمه، لينقي طلله ورسمه[4] ومهندس مقياس النيل بجزيرة الروضة أحمد[5] بن مُحَمَّد الحاسب. ومهندس ميناء عكا أبو بكر البناء، الذي عهد إليه أحمد بن طولون ببنائها وتحصينها[6]، ومهندس الجامع الطولوني الذي عبر عنه المقريزي بالنصراني، وقال: أنه هو الذي تولى بناء العين لابن طولون (لعله يقصد الساقية والقناطر بالبساتين)[7].

---

(1) كتاب أخبار الحكماء ص ٥٧ والفهرست لابن النديم ص ٣٩٢.

(2) صبح الأعشى للقلقشندي جزء ٤ ص ٤٦٧.

(3) البلدان لليعقوبي ص ٢٤١ و٢٤٣ مع الأعلاق النفيسة.

(4) الطبري جـ٩ ص ٢٦١ تاريخ الرسل والملوك.

(5) وفيات الأعيان لابن خلكان جزء ١ ص ٣٨٢.

(6) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي البشاري ص ١٦٣.

(7) المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ٢٦٥.

ومحمد بن إبراهيم المعروف بابن لده المهندس الذي قام بمسح مدينة أصبهان[1] وله من الكتب كتاب الجامع في الحساب[2]. وعلي ابن البواش المهندس في عصر الأخشيد، وهو الذي عهد إليه في سنة ٣٢٦هـ ٩٣٧م معاينة وفحص كنيسة أبي شنودة بالفسطاط ووضع تقريراً عنها بأنها تبقى خمسة عشر عاماً ثم يسقط منها موضع، ثم تقيم إلى تمام الأربعين سنة وتسقط جميعها، وكان من أمرها كما قرر ابن البواش المهندس، ولولا أنها عمرت سنة ٣٦٦هـ ٩٧٦م قبل تمام الأربعين[3] سنة لسقطت.

وصالح بن نافع المهندس الذي عهد إليه الأخشيد بوضع مشروع تخطيط بستان المختار وقصر له بجزيرة الروضة، فنفذ أمره وخطط مع مساعديه بستاناً فيه دار للغلمان ودار للنوبة، وخزائن للكسوة، وخزائن للطعام، ثم صوره وقدمه إليه[4] فاستحسنه وسأله عن مقايسته، فقيل له ثلاثين ألف دينار، فطلب تخفيض قيمتها، وأذن بالتنفيذ.

هذا وغيره يعطينا فكرة من إعداد المقايسات مع الرسومات، وتقدير النفقات قبل الشروع في العمارة، وعمل ختامي بعد الفراغ منها. ومن ذلك أنه في سنة ٥٧٧هـ ١١٨١م عملت مقايسة بمبلغ خمسمائة دينار لعمارة سوروبرجي دمياط. ثم عملت مقايسة بما يحتاج إليه سور تنيس من إصلاح لإعادته إلى أصله[5].

ومن المهندسين المعلم علي بن محمد التقي المهندس، وهو من أسرة كلها مهندسون بدمشق[6]. وعلم الدين تعاسيف المولود بأصفون سنة ٥٧٤هـ – ١١٧٨م والمتوفي بدمشق سنة ٦٤٩هـ ١٢٥١م، وكان مهندساً فاضلاً، بنى للملك المظفر صاحب حماة أبراجاً بحماة، وطاحوناً على نهر العاصي[7].

وابن غنائم المهندس – إبراهيم بن غنائم بن سعد مهندس الملك الظاهر بيبرس

---

[1] الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١٦.

[2] الفهرست لابن النديم ص ٣٩٣.

[3] المغرب في حلى المغرب لابن سعيد جزء ٤ ص ٣٣.

[4] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ١٨١.

[5] السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي جزء ١ ص ٧٤.

[6] مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري جزء ١ صفحة ١٨٩.

[7] المهندسون الإسلاميون صفحة ٦٩ السنة الثالثة من مجلة الهندسة.

البندقداري، هو الذي بنى المدرسة الظاهرية بدمشق، رأيت اسمه مكتوباً في طاقة مقرنص المدخل العمومي للمدرسة. وهو الذي بنى له أيضاً قصراً[1] بدمشق كتب اسمه عليه. (لوحة رقم ١).

والأمير قطلو بك بن قراسنقر مهندس الري، وقد عمر قناة بالقدس، واستدعاه الناصر مُحَمَّد بن قلاوون إلى مصر فعهد إليه بمشروع عمل قناة للماء من بركة الحبش لم تتم[2] ولا تزال أسماء بعض المهندسين ظاهرة على آثار طرابلس الشام المملوكية، ومنهم المعلم مُحَمَّد بن إبراهيم المهندس، والمعلم عمر بن نجيم، والمعلم مُحَمَّد الصفدي[3] وعلى منارة السلطان قايتباي بالجامع الأموي اسم مهندسها سلوان بن علي[4].

وأبو بكر بن البصيص البعلبكي مهندس طرابلس الشام، والخبير بالأعمال الساحلية فقد عمر جسر نهر الكلب سنة ٧٤٤هـ ١٣٤٣م وجسر نهر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت[5].

وابن السيوفي المهندس، وكان من كبار المهندسين في عصر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، وهو مهندس المدرسة الأقبغاوية المنشأة بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٤٠هـ ١٣٤٠م، كما وأنه هو الذي هندس ونفذ جامع المارداني المنشأ سنة ٧٤٠هـ ١٣٤٠م ومجهوده في كليهما يدل على بداعته واقتداره[6].

وابجيج مهندس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن مُحَمَّد بن قلاوون وقد أوفده في سنة ٧٤٥هـ ١٣٤٥م إلى حماة مع أقجبا الحموي شاد العمائر لمعاينة عمارة الملك المؤيد المعروفة بالدهيشة ليبني له مثلها بالقلعة[7].

ومُحَمَّد بن بيليك المحسني مهندس مدرسة السلطان حسن، واسمه منقوش بالخط الكوفي

---

[1] المهندسون الإسلاميون صفحة ٦٩ السنة الثالثة من مجلة الهندسة.

[2] الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني جزء ٢ صفحة ٢٥٤.

[3] محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق جزء ١ صفحة ٢٥٥.

[4] خطط الشام لكرد علي جزء ٤ صفحة ١٢٦.

[5] تاريخ بيروت لصالح بن يحيى صفحة ١٠٨.

[6] تاريخ المساجد الأثرية جزء ١ صفحة ١٥١.

[7] المواعظ والاعتبار جزء ٢ صفحة ٢١٢ والسلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٦٣٣.

الجميل على طراز مدرسة الحنفية بها[1].

وأحمد بن أحمد بن محمد الطولوني مهندس عمائر الملك الظاهر برقوق، وهو الذي نفذ عمارة المدرسة الظاهرية بالنحاسين سنة ٧٨٨هـ ١٣٨٦م، وهو مهندس ابن مهندس ومن أسرة اشتغلت بالهندسة وقامت بأعمال معمارية بمصر والحجاز[2].

وجمال الدين يوسف المهندس الذي أوفده الملك الأشرف برسباي لعمارة[3] الكعبة، المشرفة سنة ٨٢٦هـ ١٤٢٢م.

وعلي بن إسكندر الفيسي، ويوسف شاه[4] العجمي، كبيرا مهندسي الملك الظاهر جقمق.

وحسن التميمي، والبدري حسن الطولوني كبيرا مهندسي السلطان خشقدم[5].

وبدر الدين محمد بن الكويز، كبير مهندسي السلطان قايتباي[6]. وشمس الدين ابن الزمن مهندس عمائر السلطان قايتباي بالحرمين الشريفين[7].

والبدري حسن بن الطولوني مهندس السلطان قايتباي، وقد أشرف على إنشاء مسجده بالروضة سنة ٨٩٦هـ ١٤٩١م[8].

ومن أسرة الطولوني ناصر الدين محمد بن البدري حسن الطولوني[9] كبير المهندسين في دولة الظاهر جقمق، وأحمد بن الطولوني كبير المهندسين في دولة الغوري وقد أخذه معه السلطان سليم عند مغادرته مصر سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م مع من أخذ من صفوة[10] الصناع

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية لحسن عبد الوهاب جزء ١ ص ١٧٩.

(٢) نزهة النفوس والأبدان للجوهري جزء ١ صفحة ٦٤ خط.

(٣) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدين الحنفي ص ٩٦.

(٤) حوادث الدهور لابن تغري بردي جزء ١ ص ٩٢.

(٥) حوادث الدهور لابن تغري بردي جزء ٣ ص ٤٩٠.

(٦) تاريخ مصر لابن أياس جزء ٢ ص ١١٧.

(٧) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي جزء ١ ص ٤٣٤.

(٨) تاريخ المساجد الأثرية لحسن عبد الوهاب جزء ١ ص ٢٧٤.

(٩) التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ص ١٨١.

(١٠) تاريخ مصر لابن أياس جزء ٣ صفحة ١٢٢.

من مصر. ووجيه الدين المكي وعبد الرحمن بن مُحَّد بن عقبة[1] مهندسي الحرم المكي. وعبد الرحيم بن علي بن مُحَّد بن عمر الزين الطولوني مهندس الحرم المعروف بالمهندس وبابن البناء المتوفي سنة ٨٩١هـ ١٤٨٢هـ[2].

وحسن الصياد مهندس السلطان الغوري[3] والمعلم علي شمس الدين المهندس المكي الذي أشرف هو والمعلم مُحَّد بن زين[4] وأخيه على عمارة الكعبة سنة ١٠٤٠هـ ١٦٣٠م وشهاب الدين أحمد العطار، الذي نفذ منشآت السلطان سليم بالشام[5].

وفي دولة المماليك الجراكسة كان يطلق على المهندس لقب معلم، وعلى كبير المهندسين لقب معلم المعلمين.

ذكرت من ذكرت من المهندسين المقترنة أسماؤهم بعمائر نفذوها على سبيل المثال لا الحصر كما حوت بعض الوثائق التاريخية أسماء أخرى، وهذا لا يدع مجالاً للشك في وجود المهندسين وأنهم كانوا في مختلف الأقطار الإسلامية تقترن أسماؤهم أحياناً بالقليل من المشروعات التي نفذوها.

ويحدثنا المقريزي عند كلامه على الجسر بوسط النيل، أن الناصر مُحَّد بن قلاوون، أمر في سنة ٧٣٨هـ ١٣٣٧م بطلب المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية وجميع المهندسين من أعمال مصر كلها، قبليها وبحريها لأخذ رأيهم والاشتراك في تنفيذه[6].

وهؤلاء المهندسون تعلموا الهندسة (المعمارية) فقد كان بحلب مدرسة للهندسة أنشأها نجم الدين اللبودي من أهل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي[7].

وأدرك المقريزي في القرن التاسع الهجري، عدة حوانيت للرسامين في سويقة أمير

---

[1] المهندسون الإسلاميون نقلاً عن العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

[2] المهندسون الإسلاميون نقلاً عن العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

[3] تاريخ مصر لابن أياس جزء ٤ ص ١٩٦.

[4] تاريخ الكعبة المعظمة للأستاذ حسين عبد الله بإسلامه ص ١٢٣.

[5] المروج السندسية الفسيحة لمحمد بن عيسى بن كنان ص ٩٢.

[6] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ١٧٦.

[7] مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ٦ ص ١١.

الجيوش وفي سوق البندقانيين، لرسم أشكال ما يطرز بالذهب والحرير[١].

كما كانت في دمشق سوق للرسامين احترقت سنة ٨١٨هـ ١٤١٥م[٢].

وإذا كنا قد فقدنا فيما فقدنا من تراثنا الرسومات الهندسية والزخرفية التي عملت للمنشآت المعمارية، فقد وفقنا ولله الحمد إلى العثور على شذرات تاريخية تؤكد عمل رسومات للمشروعات نوردها فيما يلي:-

لما طلب أبو جعفر المنصور بناء مدينة بغداد سنة ١٤١هـ ٧٥٨م، استدعى المهندسين وكلفهم بها، وطلب إليهم أن يعرضوا عليه تخطيطها، فخططت له بالرماد، وتنقل بين شوارعها ورحابها واعتمد الرسم وأمر بالتنفيذ على مقتضاه[٣].

وحينما ذكر لأبي جعفر المنصور الضيعة المعروفة بالسبيطية من أعمال البصرة، كما طلب من بعض المهندسين تصويرها، فصورها له، وعرضت عليه الصورة، فاستحسنها[٤].

ولما شرع أحمد بن طولون في بناء مسجده بالقطائع سنة ٢٦٣هـ ٨٧٦م كتب إليه مهندسه يقول "أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمد القبلة، وأنا أصوره حتر تراه عيانا" فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت ورسم المسجد له فأعجبه واستحسنه[٥].

وحينما أراد أبو الحسن علي بن عيسى بناء مسناة داره التي اشتراها من ورثة نايزوك على دجلة في سنة ٢٩٢هـ ٩٠٤م قدر لها مائة ألف درهم حسب تقدير أبي إسحاق إبراهيم، وصور له البناء وعرضت عليه الصورة مع المقايسة[٦].

ولما اجتاز الخليفة عبد المؤمن بن علي الأندلس سنة ٥٥٥هـ ١١٦٠م نزل بجبل الفتح وأمر ببناء حصن هناك اختط رسومه بيده. وكان ممن بناه وأخذ رأيه فيه، الحاج يعيش المهندس[٧] ولما أراد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قد أرى إنشاء جامعه المعروف به

---

[١] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ٣٠.

[٢] اللمعات البرقية في النكت التاريخية لابن طولون الحنفي ص ٣١.

[٣] مناقب بغداد لابن الجوزي ص ١٥ واللمعات البرقية ص ١٨.

[٤] الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٢٣.

[٥] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ٢٦٥.

[٦] تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن هلال بن المحسن ص ٢٨٧.

[٧] الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمحمد لسان الدين بن الخطيب ص ١١٨.

بحي الظاهر سنة ٦٦٥هـ ١٢٦٦م أرسل الأتابك فارس الدين أقطاي والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن حنا وجماعة من المهندسين لاختبار مكان لبناء المسجد.

وفي يوم الخميس ٨ ربيع الآخر سنة ٦٦٥هـ ١٢٦٦م، خرج معهم السلطان لمعاينة المكان الذي وقع الاختيار عليه، وعرضوا عليه مقايسته وما يتعلق به، ثم رسم بين يديه شكل الجامع[١] فأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية. وأن يكون على محرابه قبة على قدر قبة الشافعي.

وترجم الصفدي للأمير أيد غدي علاء الدين الأعمى الركني ناظر أوقاف القدس الشريف والحرمين المتوفي سنة ٦٩٣هـ ١٢٩٤م أنه كان من أذكياء العالم، وأنشأ كثيراً من العمائر والربط بالقدس والخليل، والمدينة النبوية الشريفة، ويقال عنه: أنه خط حماماً في بلد الخليل عليه السلام ورسم الأساس بيده وذره بالجبس للصناع[٢].

وطريقة تخطيط الأساس بالجبس متبعة إلى اليوم، فإن المهندس يحدد أساس الطابق الأرضي بالجبس طبقاً للرسم المعتمد للتنفيذ.

كما وأن فكرة مقاس الطوب بدل عده ابتكرها الإمام أبو حنيفة عند بناء بغداد سنة ١٤١هـ ٧٥٨م. وعنه أخذ المهندسون مقاس الدبش حتى اليوم.

واستعيض أحياناً عن عمل الرسومات بالتخطيط على الأرض لعرض المشروعات الكبيرة بإيضاح أوسع. وقد فعل ذلك حسن الصياد المهندس حينما طلب منه السلطان الغوري في سنة ٩١٦هـ ١٥١٠م أن يعرض عليه رسم مدينة الإسكندرية، فاختار أرضاً فضاء بجهة المطرية، وخطط عليها بالجبس صفة مدينة الإسكندرية بأبراجها وأبوابها وأسوارها ومنارها، ثم دعا السلطان لمشاهدتها على الرسم، فنزل من القلعة يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٩١٦هـ ١٥١٠م وعاين الرسم وأعجب به[٣].

وكان الأمير يحيى كاشف المتوفي سنة ١٢١٣هـ ١٨٠٠م محباً للرسم والنقش ويقتني

---

[١] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ٢ ص ٣٠٠.

[٢] نكت الهميان في نكت العميان لصلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي ص ١٢٣.

[٣] تاريخ مصر لابن أياس جزء ٤ صفحة ١٩٦.

الكتب المصورة ودقائق الصناعات، ولذلك فإنه لما أراد إنشاء سبيل بجوار داره بجهة عابدين وضع له تصميماً قبل الشروع فيه[١].

وكان الأمير الكبير مُحَمَّد بك الألفي خبيراً بالهندسة وذلك أنه حينما أراد بناء منزله بالأزبكية سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧م وضع تصميمه ورسمه بنفسه وسلم الرسم إلى كتخداه ذو الفقار وأرسله قبل حضوره من الشرقية للشروع فيه، فحفر الأساس، وارتفع بالبناء، وفي أثناء العمارة حضر الألفي بك فوجده قد أخطأ في تنفيذ الرسم، فهدم ما بنى، وأعاد بناءه طبقاً لرغباته[٢].

وقد اشتملت بعض الكتب التاريخية والجغرافية على رسومات هندسية. وفي كتاب تحفة الألباب لأبي حامد الأندلس الغرناطي صور منها صورة للهرم وأخرى لمنار الإسكندرية، ولعل رسمه لمنار الإسكندرية أصدق رسم لما كان عليه سنة ٥١١هـ ١١١٧م مع أحسن وصف له[٣].

وفي معجم البلدان لياقوت رسم لمنار الإسكندرية، وفي الخزانة التيمورية مختصر في البلدان منسوب لأبي العباس أحمد بن الفقيه به صور للحرم المكي وصورة لروما وأسوارها.

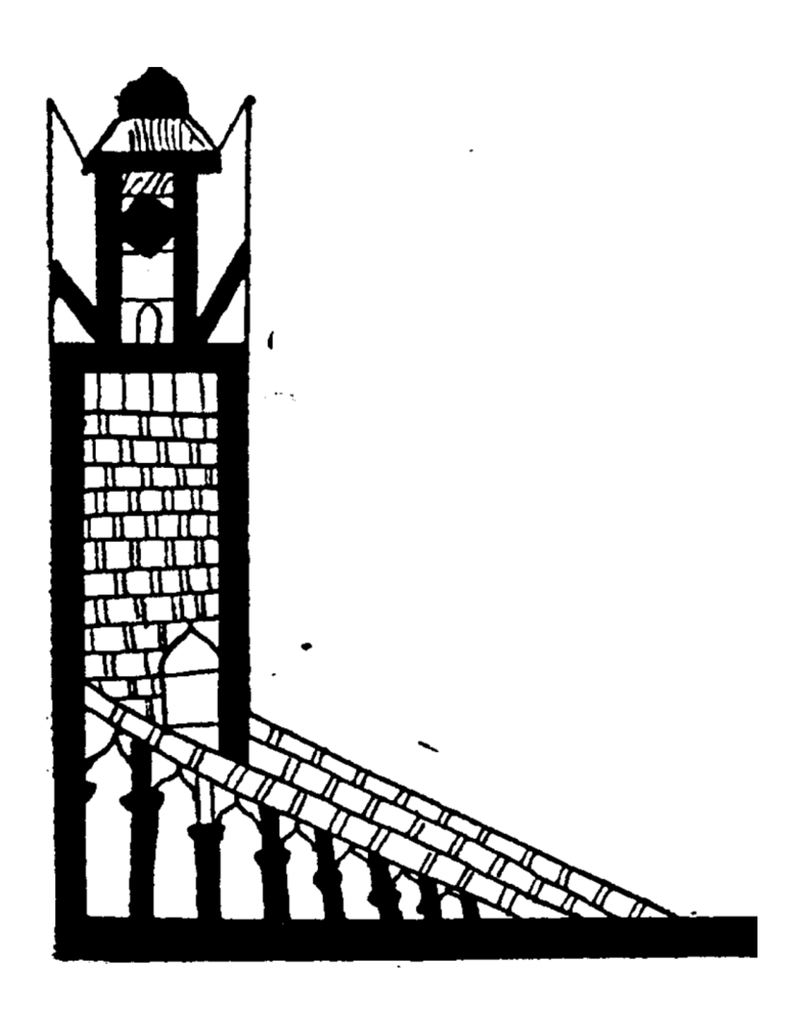
وفي نسخ مصورة من مقامات الحريري صور اشتملت على تفاصيل معمارية متقنة الرسم ما بين عقود ومنارات. ومنها نسخة في المتحف البريطاني مؤرخة ١٢٣٧م من أنفس النسخ (اللوحات ٢، ٣)، أما الكتب المصورة الفارسية المخطوطة الملونة والمذهبة فقد حوت الكثير من التفاصيل المعمارية الهامة ما بين عقود ومحاريب وقباب وشبابيك وغير ذلك. ومنها ما يرجع إلى القرنين الثامن والتاسع الهجري، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

---

[١] عجائب الآثار للجبرتي جـ ٣ ص ١٧٥.

[٢] عجائب الآثار للجبرتي جزء ٤ ص ٢٧.

[٣] كتاب تحفة الألباب ص ٧٢ والرسم رقم ٢ أمام صحيفة ٢٠٨ طبع باريس.



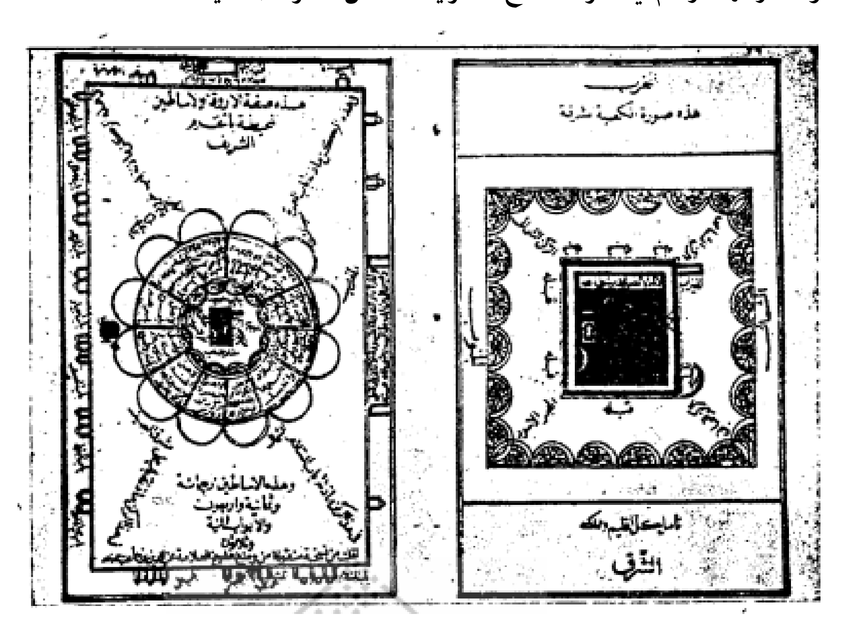
منار الإسكندرية عن كتاب تحفة الألباب

وفي كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي صور للحرم الشريف والكعبة المشرفة منقولة من رسم من وضع العلامة عز الدين بن جماعة.

وعلى ذكر الحرمين الشريفين أذكر أن دلائل الخيرات حوت صوراً للحرمين الشريفين كثيرة منها ما بلغ غاية الدقة وجمال التذهيب في نسخ مخطوطة ترجع إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وفي كتاب فتوح الحرمين[1] صورتان للحرمين الشريفين

[1] الصورتان منشورتان بالألوان في مجلة المستمع العربي العدد ١٨ السنة الخامسة ص ١٣.

ملونتان رسمهما رسام في القرن التاسع الهجري. الخامس عشر الميلادي.



صورة الكعبة المشرفة   صورة الحرم الشريف

وكان في مسجد ومرقد الإمام إبراهيم بالموصل حجر أسود صغير نقلته دائرة الآثار إلى المتحف في بغداد منقوش عليه نقشاً بارزاً صورة الكعبة مع الحرم الشريف وقد كتب فوق هذه الصورة "هذا المسجد الذي عمره الأمير إبراهيم الجراحي وهذه التربة المجاورة له تربة حسنه خاتون بنت القرابلي رحمة الله عليها وعلى إبراهيم الجراحي – عمل عبد الرحمن بن أبي حمرة .

ونظراً لأن قاعدة الكتابة النسخية قديمة على قدر ما بينته الصورة خصوصاً وأن إبراهيم الجراحي يحتمل أن يكون من الأسر التي حكمت الموصل في نهاية القرن الخامس[١] الهجري. فإن تلك القطعة تعتبر من أقدم رسومات الكعبة وتسبق مثيلاتها على القاشاني.

ورسومات الحرمين نقشت على ألواح القاشاني بإتقان جميل ومنها لوحة للحرم المكي عملت سنة ١٠٨٧هـ ١٦٧٦م وأخرى باسم صاحب الخيرات مُحَّد أغا، من عمل أحمد

---

[١] الآثار والمباني العربية الإسلامية في الموصل ص ٣٤.

الموقع سنة ١٠٧٤هـ ١٦٦٣م ولوحة أخرى للحرم المكي تتوسطه الكعبة ومشاعر الحج حوله، غاية في الأهمية عملها محمد الشامي الدمشقي سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م ولوحة أخرى بها رسومات لقباب وقناديل ومنارات وأشجار عملت سنة ١١٤١هـ ١٧٢٨م. وكلها مودعة في متحف الفن الإسلامي.



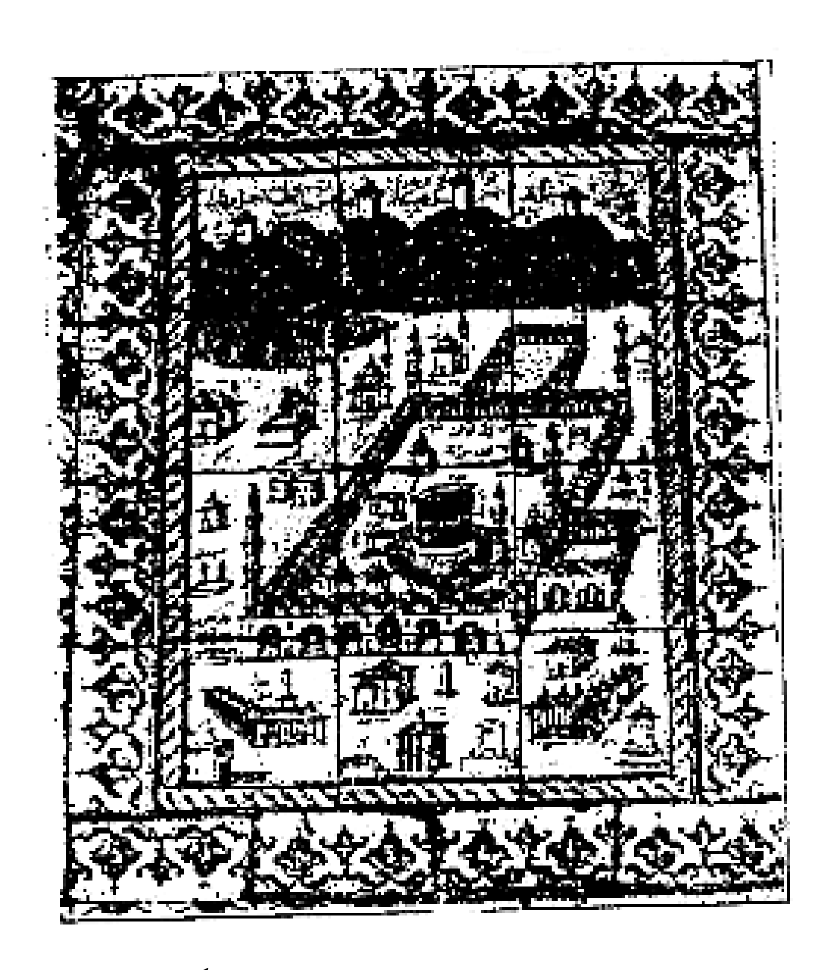
لوح من القاشاني مرسوم عليه الحرم المكي ومشاعر الحج موقع عليه اسم صانعه محمد لشامي الدمشقي وتاريخ سنة ١١٣٩ هجرية (متحف الفن الإسلامي)

وعلى جدران سبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين المنشأ سنة ١١٥٧هـ ١٧٧٤م كسوة من القاشاني بها صورة للحرم المكي وما حوله من أجمل الرسومات على القاشانيونجد رسومات ملونة على بعض جدران قاعات ومقاعد الدور المنشأة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين للحرمين الشريفين ومناظر للمدن بمبانيها وحدائقها وبها تفاصيل معمارية ومنها ما هو موجود في منزل على كتخدا "الربعمائة" ومنزل وقف السلطان قايتباي

بسكة المارداني. وفي منزل علي لبيب بدرب اللبان. غير أن الكثير منها لم يصل إلى مستوى راق، ومنها ما رسم بإتقان مثل رسم قاعة منزل عبد الحق الكناني خلف الأزهر المنشأ سنة ١٠٧٤هـ ١٦٦٤م، ومن هذا النوع وفي هذا العصر لوحات مرسومة على قماش.

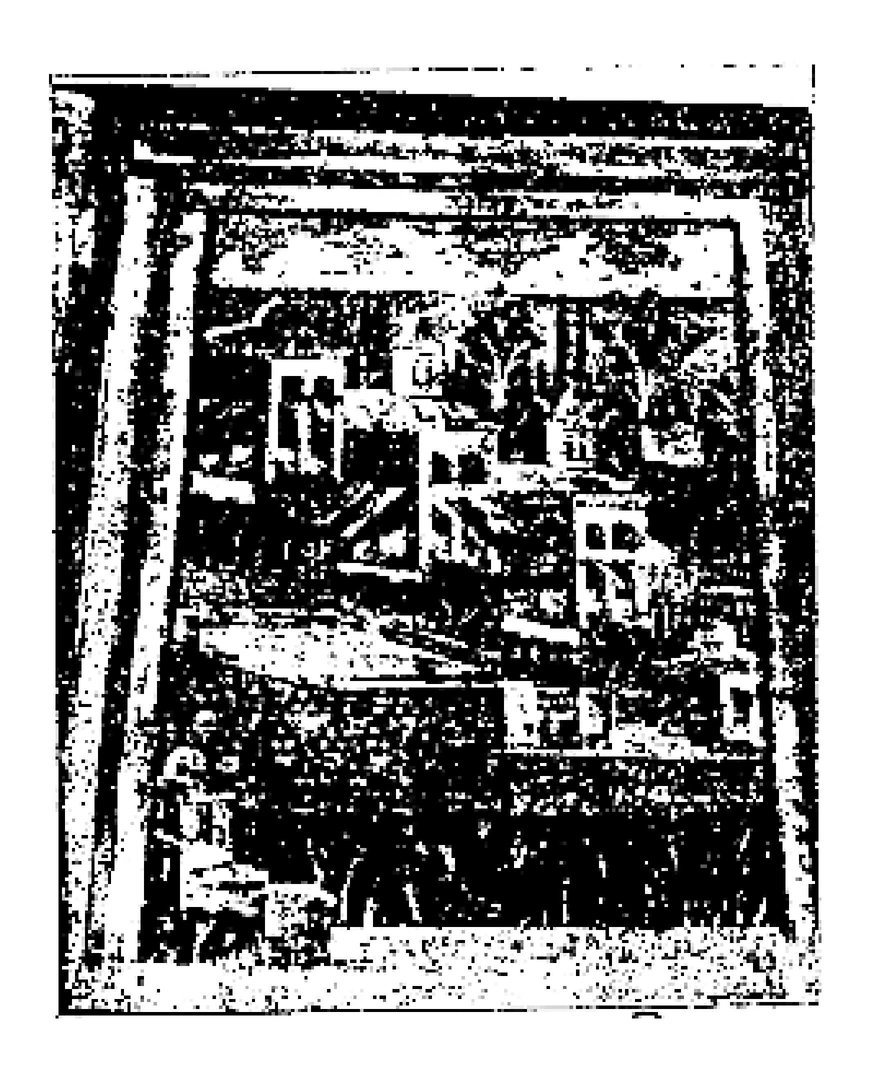


لوح من القاشاني مرسوم عليه قباب ومنارات مؤرخ سنة ١١٤١ هـ



ترابيع من القاشاني من كسوة سبيل عبد الرحمن كتخذا تمثل منظور للكعبة الشريفة

ومن الرسومات الهامة التي رأيتها لباب دار الملك بمدينة آمد في مخطوط لم أقف على اسم مؤلفه، ويرجع إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي عليه اسم أبي الفتح مُحَمَّد بن قرا أرسلان بالخط الكوفي، وهي صورة هامة محكمة الرسم متقنة الكتابة والزخرف، ويزيد في أهميتها الوصف الفني للباب المدون خلف الصورة وفيه الكثير من المصطلحات الفنية المستعملة إلى الآن، مما يرجح رسمه لصانع يعمل وينفذ على مقتضاه..



نقوش بالبوية تمثل مدينة بمبانيها وحدائقها مرسومة على جدران قاعة منزل عبد الحق الكناني.

هذا ويلاحظ أن الكثير من تخطيط المساجد والمدارس، والتفاصيل المعمارية، لا يمكن تنفيذه بدون رسم، مثل الواجهات الحجرية، والقباب، والمنارات، أنها تنفذ طبقاً لرسم، بل وطبقاً لفرم أيضاً. فالرسم للمهندس، والفرم للمعمار، وهكذا بقية التفاصيل المعمارية من وزارات، وأرضيات، ومحاريب رخامية، ومنابر وأبواب وسقوف وتوابيت خشبية، لا يمكن تنفيذها إلا طبقاً لرسوم مفصلة ملونة لها.

وأكبر برهان على ذلك أن الأمير علم الدين الشجاعي لما أنشأ دار السلطنة بقلعة دمشق سنة ٦٩٠هـ ١٢٩٠م، تعجل الفراغ منها واستحث العمال على سرعة نموها، وفي الوقت الذي شرع فيه بحفر الأساس كانت طائفة النجارين قد شرعت في عمل السقوف والنجارة[١]، وما هذا إلا لوجود رسم لدار السلطنة ورسومات لتفاصيلها، وهذا هو المتبع الآن.

وها نحن إلى الآن نرى مدخل مدرسة السلطان حسن لم تكمل نقوشه، ونرى الزخارف مرسومة على أحجار جانبي المدخل فرغ بعضها والبعض الآخرلم يكمل تفريغه، وممثلة فيه الأدوار التي تأخذها الزخرفة من رسم ثم تخطيط ثم تفريغ.

ويذكر الأستاذ يس الحموي أن المدرسة التكريتية في حي الشركسية بدمشق، طليت جدرانها بطبقة من الجص، ثم رسم فوقها أنواع الزخارف والخطوط ثم حفرت حفراً عميقاً[٢].

ويقرر نوابغ الصناع في النجارة والرخام وزخارف الجص، وبناءة المنارات والقباب ودق المقرنصات، إنه لا يمكن تنفيذ تلك الروائع بدون رسم وأرانيك.

كما وأن من يطلع على تخطيط الكثير من المدارس ويرى ما فيها من أزورارات، وشطرات يؤمن بضرورة وجود الرسم قبل الإنشاء وأنه لولا عبقرية مهندسيها ومعالجة رسمها على الورق أولاً لما استطاعوا التغلب على تلك الشطرات وإيجاد قاعة للصلاة متساوية الأضلاع، وإخفاء الشطرات في مناور ومدافن وحجرات ودواليب، وبضخامة الجدران في ضلع وبساطتها في ضلع آخر، بدرجة إيجاد حجرات في أحد الحدود ونهايتها على لا شيء في الحد الآخر، كما حدث في مدارس الأشرف برسباي بالأشرفية سنة ٨٢٩هـ ١٤٢٥م وجوهر الالا بالمنشية سنة ٨٣٣هـ ١٤٣٠م والقاضي عبد الباسط بالخرنفش سنة ٨٢٣هـ ١٤٢٠م وتغري بردي بالصليبة سنة ٨٤٤هـ ١٤٤٠م وأبي بكر مزهر بحارة برجوان سنة ٨٨٤هـ ١٤٨٠م، وقجماس الإسحاقي ٨٨٦هـ ١٤٨١م.

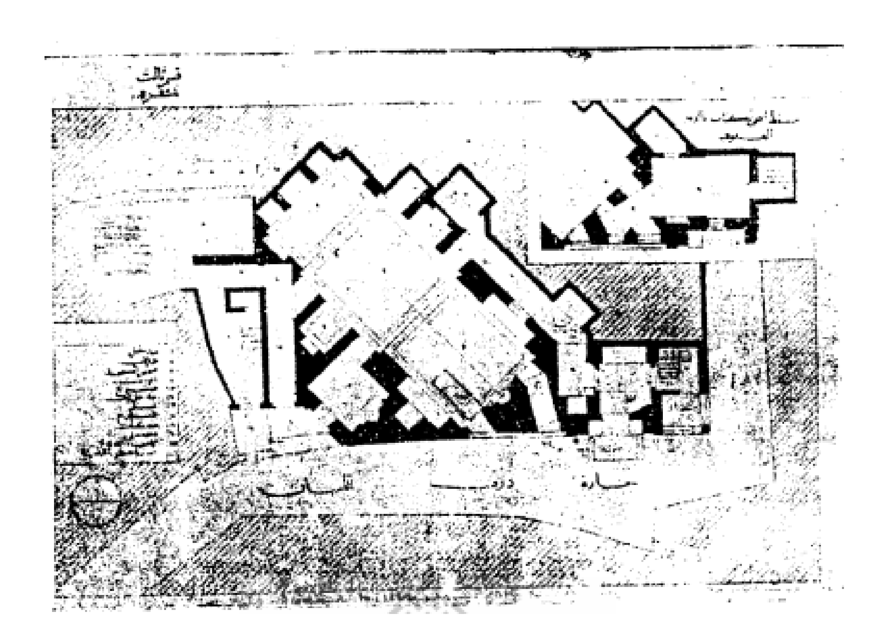
المقايسات والختاميات

مما سبق عرضه علمنا أن البناء كانت تقدر نفقاته، وتعرض مقايسته مع الرسم، لأنه لا يمكن تقدير النفقات إلا على ضوء المشروع مرسوماً جملة وتفصيلاً، وكذلك كانت تعمل له

[١] الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية لابن طولون الحنفي ص ٦.

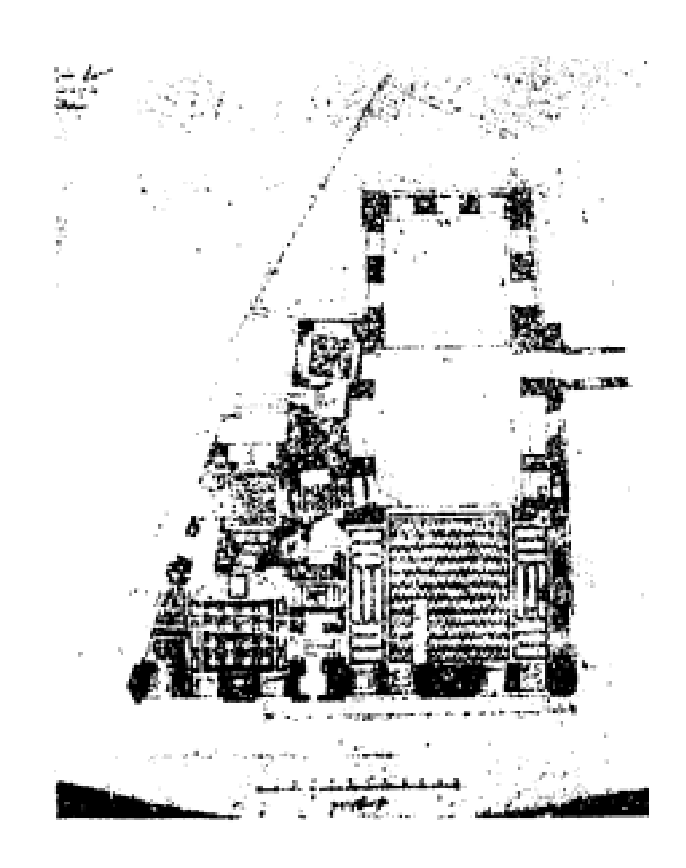
[٢] دمشق في العصر الأيوبي ص ٦٦.

ختاميات، أذكر بعضها على سبيل المثال، عرض على الوليد بن عبد الملك.



مسقط أفقي مدرسة جوهر اللا لا بالمنشية

في هذا الرسم تتجلى عبقرية المهندس ومدى تصرفه في التغلب على ازورارات الأرض وشطراتها والتي لا يمكن معالجتها لإيجاد أيوانات متساوية الأضلاع إلا بالرسم أولاً.



مسقط أفقي مدرسة قجماس الاسحاقي بالدرب الأحمر

في هذا الرسم يظهر نبوغ المهندس وكيف استطاع أن يكون أربعة أيوانات متساوية الأضلاع وكيف تصرف في إخفاء الشطرات في مناور وطرق لا تظهر للرائي.

ما صرف على بناء المسجد الأموي بدمشق فلم ينظر إليه وأمر بإحراقه وقال: شيء أخرجناه لله فلم نتبعه[١].

ولما عرض على السيدة الجليلة زبيدة زوج هارون الرشيد، نفقات عمارة عين الماء التي أجرتها إلى مكة، أخذت الدفاتر وألقت بها في النهر وقالت: تركنا الحساب ليوم الحساب[٢]، ولما بنى نور الدين الشهيد مسجده بالموصل، وفرغ من بنائه سنة ٥٦٨هـ ١١٧٢م عرض

(١) البلدان لابن الفقيه ص ١٠٧ ومعجم البلدان جـ ٤ لياقوت ص ٧٦.

(٢) نزهة الجليس للعباس بن علي بن نور الدين الموسوي جزء ١ ص ٢٠.

عليه وهو جالس على دجلة أوراق حساب مصروفه فقال: "نحن عملنا هذا لله، دع الحساب ليوم الحساب، وألقى بالأوراق في دجلة[١] ".

ولما فرغ السلطان أبو الحسن أحد ملوك المغرب من بناء مدرسته بمكناسه الزيتون عرض عليه ختامي نفقاتها، فأغرقه في الماء دون أن يطلع عليه[٢].

ويؤثر عن الأمير طيبرس العلائي منشئ المدرسة الطيبرسية على يمين الداخل من باب الجامع الأزهر سنة ٧١٩هـ ١٣١٩م، أنه لما فرغ من بنائها عرض عليه حساب مصروفها، فلما قدم إليه استدعى طستاً فيه ماء وغسل أوراق الحساب من غير أن يقف على شيء منها، وقال: "شيء خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه[٣] ".

وكذلك فعل الأمير حسين لما انتهت عمارة مسجده سنة ٧١٩هـ ١٣١٩م أحضر إليه شاد العمارة والكاتب حساب المنصرف، فرمى به إلى الخليج وقال: "أنا خرجت من هذا لله تعالى، فإن خنتما فعليكما، وإن وفيتما فلكما[٤]".

النماذج المجسمة:

لم يقتصر المهندس على رسم منشآته المعمارية، بل وضع لها أحياناً أنموذجاً– مجسماً (ماكيت) – وأقدم نموذج عرفناه هو قبة السلسلة بجوار قبة الصخرة بالقدس الشريف، فهي في أول إنشائها وقبل تجديدها كانت أنموذج بنيت على مثاله قبة الصخرة سنة ٧٢هـ ٩٦١م، لأن عبد الملك بن مروان حينما أراد بناء قبة الصخرة وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للمهندسين والصناع، فصنعوا له قبة السلسلة فأعجبه تكوينها وأمر ببناء قبة الصخرة طبقاً لهذا النموذج[٥]". (لوحات رقم ١٠، ١١).

وكان على باب سدرة بالإسكندرية حجران منقوش عليهما حفرا صورة مسجد بمنارتين والثاني مسجد بمنارة عثماني الطرز ولما هدم الباب سنة ١٨٩٩ نقل أحد الحجرين وعليه

---

[١] مرآة الزمان جزء ٨ قسم ١ ص ٣١١.

[٢] الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٨٧.

[٣] المواعظ والاعتبار للمقريزي جـ ٢ ص ٣٨٣.

[٤] النجوم الزاهرة جزء ٩ ص ٧٦ – ٢٧٧٢.

[٥] الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جزء ١ ص ٢٤١ وقد أكد هذه الرواية صفوة المؤرخين أذكر منهم كتاب أتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى والجامع المستقصي في فضائل الأقصى.

صورة المسجد العثماني بمنارته إلى متحف الفن الإسلامي، وهو معروض به في قسم الأحجار[1].

وبقية النماذج وإن ضاعت فقد بقي وصفها – ذلك أنه في سنة ١٢٠هـ ٧٣٧م أهدى إلى أسد بن عبد الله هدايا منها نموذجان لقصرين: قصر من فضة وقصر من ذهب[2].

وهكذا كانت الهدايا إلى الملوك والخلفاء نماذج لقصور ومساجد، فقد أهدى يعقوب بن الليث الصفار صاحب خراسان إلى الخليفة المعتمد على الله نموذجاً لمسجد كبير برواقين من فضة[3].

وكان لدى الخليفة العباس المقتدر بالله في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي نموذج لقرية من الفضة تمثلها بمزارعها وما فيها من طيور وحيوانات وأشجار وكل ما يكون في القرى[4].

وكان في خزانة الجوهر والطيب والطرائف للفاطميين، نموذج لبستان أرضه من فضة وطينة ند، وأشجاره فضة مذهبة مصنوعة، وأشجاره عنبر، وبطيخه كافور، بلغ وزنه (٣٠٦) أرطال[5].

ولما أنشئت منارة جامع توزر، وهي إحدى مدن أقصى أفريقيا[6] سنة ٤٢١هـ ١٠٣٠م وارتفع بناؤها إلى قمتها شعر البناء بدنو أجله فعمل ثلاثة نماذج من شمع ليختار خلفه عند تكملتها ما يروق له منها، وعين لهم اسم بناء من القيروان أنه هو الذي يخلفه يقوم بتكملتها بعده.

وبلغ من اهتمام أمير المؤمنين أبو عنان بجبل الفتح (جبل طارق) بعد – إصلاحه والزيادة فيه سنة ٧٣٢هـ ١٣٣٢م أنه أمر بعمل نموذج، يمثل الجبل بحصونه وأسواره وأبراجه وأبوابه ودار صناعته ومساجده، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء، فصنع له ذلك. ويبدو أن ابن بطوطة عاين هذا النموذج، لأنه بعد أن أورد هذا الخبر علق عليه بقوله: "فكان شكلاً عجيباً

---

[1] كراسة محاضر وتقارير لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٠٠ ص ٧٢.

[2] تاريخ ارسل والملوك للطبري جزء ٨ ص ٢٤٧.

[3] مطالع البدور للغزولي جـ ٢ ص ١٣٥.

[4] المنتظم في أخبار الأمم لابن الجوزي جـ ٦ ص ٧٦.

[5] المواعظ والاعتبار للمقريزي جـ ١ ص ٤١٧.

[6] الحلل السندسية في الأخبار التونسية لأبي عبد الله محمد الشهير بالوزير ص ٢١٤.

أتقنه الصناع إتقاناً، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال[١].

هذا عدا نماذج الحلوى في الدولة الفاطمية. ففي سنة ٣٨٠هـ ٩٩٠ قدم في سماط عيد الفطر نماذج لقصور السكر والتماثيل. وعمل بدار الفطرة قصرين من الحلوى زنة كل واحد ١٧ قنطاراً، بشكل متقن مدهون مذهب فيه تماثيل أشخاص بارزة[٢].

النماذج المجسمة في الحفلات:

لم يكتف بعمل نماذج الحلوى في المواسم للأعياد وفي الحفلات بل عملت أيضاً من الخشب احتفالات العامة. كما نقوم الآن بعمل أقواس النصر، فقد احتفلت مصر بقدوم الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٢هـ ١٣٠٢م فأقامت الزينات، وتبارى الأمراء في إقامة نماذج مجسمة كبيرة لقلاع من الخشب بأبراجها ومداخلها في طريقه، وعلى باب زويلة بلغت عدتها ٧٠ قلعة[٣].

وفي إحدى حفلات مصر سنة ٨٤٥هـ ١٤٤١م حضر من الإسكندرية فرسان الرماية ومعهم نموذج لقلعة من خشب قدموه إلى السلطان وبحضوره رموا عليه بقوس، فخرج منه صورة شخص بسيف وترس، فرمى عليه عبد صغير فضرب رقبته بالسهم، فأمر السلطان بالإنعام عليهم[٤].

هذه الأدلة لا تدع مجالاً للشك في عمل رسومات للعمارة الإسلامية، ورسومات ملونة للمحاريب والوزارات والأرضيات الرخامية ورسومات لتفاصيلها الزخرفية، وعمل أرانيك لأعمال الحجر، من قباب ومنارات ومقرنصات، وعمل نماذج مجسمة.

وأن الذين شادوا تلك الروائع سواء أكانوا مهندسين أم صناعاً فإنهم كانوا عباقرة تعاونوا على إنتاج تلك الثروة.

وهنا نلاحظ أن فريقاً كبيراً من مهندسي تلك الآثار كانوا بنائين أو نجارين، وكانوا مغرمين بفنهم فدرسوا الهندسية وكانوا يرسمون بأنفسهم منتجاتهم، كما وأن الكثير من نوابغ

---

[١] تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة جزء ٢ ص ١٧٩.

[٢] المواعظ والاعتبار للمقريزي جزء ١ ص ٣٨٧ – ٣٨٨.

[٣] النجوم الزاهرة جزء ٨ ص ١٦٨.

[٤] التبر المسبوك للسخاوي ص ١٥.

الصناع وصلوا إلى مرتبة المهندسين ورسموا بأنفسهم مصنوعاتهم الدقيقة الجميلة، ووقعوا عليها، وهذا ليس مستغرب، فقد وقفنا على تراجم لكثير من المهندسين كانوا صناعاً[١]، وها نحن في القرن العشرين وقد أدركنا صفوة من الصناع وصلت بهم عبقريتهم إلى تفهم أدق الرسوم، وبلغ نبوغهم إلى حد توقيع أدق التفاصيل المعمارية والزخرفية، وقد أدركت منهم المرحوم الحاج مُحَمَّد الغطاس النحات. فقد قام بفك وإعادة بناء منارة خانقاة فرج بن برقوق بعد أن رسمها، كما قام برسم مسقط أفقي لمقرنصات الباب البحري للخانقاه المذكورة وهو من الأبواب الجميلة بمقرنصاته.

والمرحوم أمين شافعي صانع الشبابيك الجصية التي تزين مساجد القاهرة، فلقد بلغت قدرته على رسم واستكمال أدق شباك على ضوء أبسط جزء منه، فبين يوم وليلة يرسم الشباك بحجمه الطبيعي، ويلونه ويقدمه للتنفيذ. وها هم أولاء أولاده الثلاثة على شاكلته-.

أما حسن أبو زيد النجار ابن النجار فإنه قادر على رسم أدق وأجمل الأبواب والمنابر وتنفيذها بدقة تثير الإعجاب، ومثله سيد حسين المرخم ابن المرخم. وقد ورث نبوغه عن والده، فهو يرسم ويلون وينفذ أدق الفساقي والمحاريب والأرضيات الرخامية، وغيرهم كثيرون تغمدهم الله برحمته.

وفخر المعماريين الحاج محمود الحبال معماري مصلحة الآثار فإنه نابغ في دق المقرنصات وتكوينها مع خبرته في معرفة أنواع أحجار مصر، وبلغ من نبوغه تحدي أصعب المقرنصات فيرسمهم مساقطها رسماً صحيحاً بقلمه، فقد تحدى مدخل قصر الأمير قوصون ومدخل مدرسة السلطان حسن فرسم مساقطهما وهما من أدق المداخل، ومقرنصاتهما من أدق وأصعب المقرنصات، وقام الزميل المهندس علي إبراهيم رئيس تصميمات مصلحة الآثار إصلاحات جزئية في المسقطين ورسمهما، وهما على جانب عظيم من الأهمية والدقة.

هذه محاولة أولى لدراسة هذا الموضوع الذي أرى أنه هام جداً لمن يعني بدراسة الآثار الإسلامية، أرجو من الزملاء الآثاريين أن يوجهوا إليه عنايتهم.

---

[١] انظر توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية لحسن عبد الوهاب.

طرز العمارة الإسلامية في ريف مصر[1]

ريف مصر مصدر خيرات وثروات. وهو كذلك موطن جمال يبعث بهدوئه وصفاته الوحي والإلهام في العالم والفنان. وكما هو حقول خصبة بمنتجاتها الزراعية، فهو كذلك مراكز صناعة أمدتنا بكل تالد وطريف. فلكل إقليم صناعاته الدقيقة التي ميزته عن الاقاليم الأخرى، لا سيما في النسيج الدقيق الذي تركز قديمًا في بلدان الوجهين القبلي والبحري، والذي طبقت شهرته الآفاق. وخصوصًا ما كان يصنع في الإسكندرية ودمياط وشطا وتنيس ودقهلية وأسيوط وأخميم ودلاص والبهنسا وديبق والأشمونين، وكل بلد امتازت بنسيج مخصوص: ما بين حرير مقصب، وغير مقصب، أو صوف دقيق.

وهو كذلك مراكز تجارة يمد العالم بخيراته وبمنتجاته الصناعية، ومن بينها الطرف الأثرية، فقد اشتهرت سوهاج واصفون وأدفو وقوص وهو واسنا وأرمنت وأخميم وفرشوط والأشمونين بوجود الفخار الملون والقاشاني والأواني النحاسية بها.

ولمدينة قوص والأشمونين شهرة بالزجاج المدهون بالمينا الذي يعثر عليه في تلالها.

أما تلال هو فيستخرج منها بعض النقود الفضية والذهبية. وكان في ملوى سوق تباع فيها الأشياء التي يعثر عليها في الأشمونين.

هذا ما يتعلق بالآثار الإسلامية، أما الآثار الفرعونية الكامنة في الريف المصري وتلاله فإنها معين لا ينضب. وما زالت فخر الريف، وخاصة في الصعيد.

ويجد اللغوي في ريف مصر ثروة علمية من اللهجات العربية والمصطلحات جديرة بالدراسة والتخريج والإحصاء، وذلك بسبب انتشار القبائل العربية في أنحائه منذ الفتح الإسلامي.

يجد الآثاري الإسلامي في الريف المصري ثروة تاريخية وفنية. أما التاريخية فمن النصوص القديمة، ومن بينها المراسيم المنقوشة على الرخام، والتي تفيد المشتغل بالشؤون

---

(1) بحث ألقي بالمجمع العلمي المصري في جلسة ٢٨ يناير سنة ١٩٥٧

المالية، وهي ما بين فرض مكوس أو رفعها عن التجارات والصناعات جلها مثبت على أبواب المساجد، أو بجوار محاريبها وتلك إحدى وسائل نشر أوامر الدولة، وقد أحصيت وصورت الكثير منها في فوة ومحلة أبي على والمنيا وديبي وفارسكور وسوهاج. وأذكر أمثلة مما جاء فيها:

١- مرسوم مثبت بمسجد حسن نصر الله بقوه، مؤرخ سنة ٨٠٣هـ ١٤٠٠م لإبطال مكس فوه.

٢- مرسوم بمسجد الشيخ عامر بديبي على الضفة الغربية لفرع رشيد، بحرى أدفينا، مؤرخ سنة ٧٧١هـ ١٣٦٩م بإبطال مكس ديبي.

٣- مرسوم باسم الأمير سودون النظامي، مؤرخ سنة ٨٠٢هـ ١٣٩٩م بإبطال ضمان الهلالي والساحل بناحية محلة أبي علي الغربية.

٤- مرسوم في مسجد الكوندكي بفارسكور، باسم الأمير قطلوبغا البدري سنة ٧٧٩هـ ١٣٩٦م برفع المكوس المقررة على سائر الحبوب بفارسكور.

٥- مرسوم بالمسجد العتيق المعروف بالفرشوطي بسوهاج، باسم السلطان الغوري بمنع من يتعرض للبزازين والصناع والقزازين والاسكافية بناحية سوهاج.

٦- مرسوم في مسجد العمروى بالمنيا، باسم الملك الظاهر أبي سعيد جقمق سنة ٨٤٣هـ ١٤٣٩م، بإبطال المكوس المقررة على بيع الغزل والخضروات بمنية بني خصيب.

٧- مرسوم في مسجد اللمطي بالمنيا، باسم الملك الظاهر أبي سعيد جقمق، بإبطال ما قرره على جهات الهالا بمنية بني خصيب بالأعمال الأشمونية.

٨- مرسوم على مسجد الدواويني بالخانكة باسم السلطان الناصر محمد بن السلطان قايتباي بإبطال ما هو مقرر بالخانقاه الناصرية السرياقوسية من جميع المظالم والمكوس على اللحم والقمح.

وكانت هناك مجموعة من العمائر عظيمة وكبيرة، ما بين مساجد ومدارس، ولكن ما أصابها من إهمال قضى على الكثير منها فتخرب أو تجدد. ورغم هذا فقد بقيت منها نماذج كونت طرزًا لكل إقليم. ومن تلك الطرز ماساير طرز العمارة الإسلامية في القاهرة إبان

ازدهارها بل وامتاز عليها– وقديمًا قيل (يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر).

وثمة ميزة أخرى لآثار الريف، فبينما تأخرت العمارة الإسلامية في القاهرة في العصر العثماني بسبب ترحيل الصناع الممتازين إلى استامبول، وبسبب الحالة الاقتصادية، ووقوع بعض التأثيرات العثمانية، وخاصة على المنارة: فإن تلك العوامل لم تبارح القاهرة، وظلت العمارة في الريف سائرة في طريقها تمدنا بطرائفها المتأثرة بالعمائر المملوكية، وخاصة في القبة والمنارة والنجارة والرخام. واحتفظ الريف أيضًا بمجموعة كاملة من الحمامات لا تقل أهمية عن حمامات القاهرة في جميع تفاصيلها، وامتاز باحتفاظه بجامات كاملة لا نظير لها بالقاهرة لأن جلها تخرب.

وإذا كان الخط الكوفي المربع الذي ظهر بآثار القاهرة منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، قل بها منذ نهاية القرن الخامس عشر، فإنه ظل مستعملًا في الريف في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادي يكتب بالآجر المنجور الملون، وفي الحص، وفي الخشب والقاشاني، وخاصة في مساجد الإسكندرية ورشيد وديروط بحري ومطوبس وفوه. ومنه طرائف لا نظير لها في القاهرة.

ولقد أدت مجموعة المساجد المبعثرة في أنحاء الريف رسالتها الثقافية بجانب الأزهر وغيره من المدارس وذلك في مساجدها الجامعة، ثم في مدارسها التي انتشرت في ربوعه وخاصة في الصعيد، وقد كان عامرًا بالمدارس ودور الحديث، وفيها تلقى العلم وتخرج صفوة من العلماء والشعراء(١). وكذلك الاسكندرية، فقد كانت عامرة بالمساجد والمدارس والربط.

وحينما نستعرض طرز العمارة في الريف نجدها مع مسايرتها منشآت أرقى العصور القديمة في القاهرة إبان ازدهارها، نهجت في تفاصيلها نهجًا ميزها، وفي الوقت الذي تطورت فيه أساليب الكتابة الكوفية في المساجد نرى منها نموذجًا وحيدًا في الطراز الخشبي في مسجد أبي المعاطي بدمياط اقتصر استعماله على كتابة مصاحف القرن الرابع الهجري.

وفي الوقت الذي ارتقت فيه النجارة في الدولة الفاطمية لا نرى بينها ما يماثل دقة الحفر في حشوات منبر مسجد الصالح طلائع بقوص (سنة ٥٥٠هـ – ١١٥٥م) والدقة والجمال في ظهر جلسة الخطيب به، فإن لها طابعًا خاصًا انفردت به وفي الوقت نفسه، فهو

---

(١) أنظر الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، للادفوى.

منبر فريد تنوعت زخارفه تنوعًا غريبًا.

ومثله منبر الآمر بأحكام الله الذي أمر بصنعه سنة ٥٠٠هـ - ١١٠٦م للجامع الكائن بدير القديسة كاترين بطورسينا، فقد تنوعت زخارف حشواته وانفرد بتقاسيمها. وعلى مثاله بقايا المنبر الفاطمي الذي كان بمسجد حسن بن صالح بالبهنسا وظهر جلسة الخطيب به، وبمنبر الجامع الكبير بقليوب جلسة خطيب فاطمية هامة:

ووجود منابر فاطمية ثلاثة بالريف، ميزة له على القاهرة التي لم يبق بها منبر فاطمي كامل.

ومن منابر الريف النادرة منبر مسجد فرشوط، المنقول إلى مسجد الظاهر بيبرس البندقداري، فإن صانعه يعقوب بن بركات الهوى، قلد الزخارف الأندلسية فيه وكتب اسمه عليه، وهذا ما ميزه على نجارة عصره (القرن الرابع عشر) وأيضًا فإن منبر مسجد اصلباي زوجة السلطان قايتباي بالفيوم سنة ٩٠٥هـ - ١٤٩٩م لا يقل روعة عن منبر مسجد زوجها بالصحراء، فقد طعم بحشوات السن المدقوق "بالأويمة" الدقيقة.

كما أن الزخارف الجصية سايرت مثيلاتها في القاهرة ممثلة في المحراب المملوكي بجامع قوص، فإنها من النوع الراقي المتأثر بالزخارف الأندلسية والذي ظهر بآثار القاهرة منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. ولا شك في أن نماذجها كانت كثيرة في المدارس التي كانت في قوص وحولها. فقد كانت المدارس ودور الحديث والمساجد والربط منتشرة بها.

ولا شك في أن جامع قوص المنشأ في سنة ٥٥٠هـ - ١١٥م كان من أجمل وأقدم مساجدها وتوالت العناية به. فقد وجدت به مقصورة خشبية دقت رؤوسها وبرامقها بالأويمة الدقيقة، وبابها جمع بالحشوات المسدسة المحفورة بزخارف دقيقة، وقد عثرت فيه على كرسي للمصحف كان محورًا إلى تابوت مغطى بقماش خلق. ومع أن حشواته المسدسة خالية من الزخرف فإن قوائمه وجوانبه كتب عليها البسملة وآية الكرسي ثم ما نصه "أمر بإنشاء هذا المصحف المبارك المقر الكريم العالي المولوى الأميري الأجلي عز الدين خليل الملكي الناصري أعز الله انصاره بمحمد وآله".

وبوسط كل جنب منه رنك "هدف النبلة" ولعل منشئ المقصورة والكرسي هو منشئ المحراب الجصى في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي هذا المسجد قبة انفردت بطرزها أضيفت إليه سنة ٥٦٧هـ ١١٧٢م بأمر مبارك بن كامل بن مقلد وهي تعطينا لونًا جديدًا لتطور القبة، فهي مضلعة من الخارج ورقبتها مسننة، وبأضلاع القبة نجمة مسدسة مفرغة.

وأيضًا فإن القبة الفاطمية في أسوان بزت معاصرتها في القاهرة في طرزها وتفاصيلها وإذا كانت المنارات الفاطمية في القاهرة قليلة فإنها في الصعيد أكثر عددًا وتنوعًا.

وإذا كانت القاهرة امتازت بالبناء بالحجر ابتداء من الدولة الفاطمية، فإن تعذر وجوده في الريف جعل الآجر يأخذ مكانته في المنشآت، مدنية كانت أو دينية، فبلغ حد الكمال في البناء والزخرف. وأكثر من هذا أن مباني اللبن بلغت شأوًا بعيدًا في قباب أسوان الفاطمية.

لا أحاول أن أستعرض جميع مشاهداتي لآثار الريف، فهذا حقيق بأن يفرد له مؤلف ولكني سأكتفي بدراسة وعرض بعض النماذج التي تميز وتوضح طرز الريف المختلفة، مبتدئًا بأعالي الصعيد.

أسوان:

في تلك المدينة النائية انتشرت المشاهد والقباب المنسوبة لآل البيت والأولياء في جبانتيها كما عثر فيها على مجموعة كبيرة من الشواهد، الكوفية وهي التي عثر من بينها الآثاري المرحوم حسن الهوارى على أقدم شاهد مؤرخ سنة ٣١هـ ٦٥١م أودع مع غيره متحف الفن الإسلامي. وما زال موجودًا منها عدد كبير في مشهد السبعة والسبعين وغيره، يرجع تاريخ القليل منها إلى القرن الثالث الهجري، وباقيها إلى القرنين الرابع والخامس الهجري. (العاشر والحادي عشر الميلادي).

ومن هذه الشواهد ما يحمل أسماء أم الحسن بنت مروان مولى النبي ﷺ، وقد توفيت سنة ٣٤٦هـ ٩٥٦م، وأم ابراهيم ابنة الياس مولى الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد توفيت سن٣٥٣هـ ٩٦٤م، ومنها شاهد مكتوب عليه "اللهم ارحم امتك بنت عبدك من أوليائك وبنت فاطمة الزهراء بنت نبيك ورسولك مُحَمَّد صلوات الله عليه وسلامه آمنة بنت الحسن ابن الحسن بن احمد بن مُحَمَّد بن اسماعيل بن مُحَمَّد بن اسماعيل بن عبد الله الباهر بن الإمام السجاد زين العابدين بن على بن الإمام السبط الشهيد الحسين ابن الإمام المرضى على بن أبي طالب المتوفاة سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م)".

وهناك شاهد للشريفة رقيه ابنة معلى بن على بن الحسن بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسين بن زين العابدين المتوفاة سنة ٤٩٥ هـ ١١٠١م.

وهذه الأسماء وغيرها هي التي جعلت العامة يطلقون على تلك القباب أسماء أهل البيت النبوي مثل الإمام الحسين، والسيدة فاطمة الزهراء والسيدة رقيه.

كما أطلقوا على بعضها أسماء بعض العلماء والأولياء مثل قاضي الشريعة والسيد البدوي.

وحوت هذه المجموعة من القباب نماذج ممتازة متنوعة للقباب الفاطمية ومقرنصاتها. وعقودها اقتصرت على تلك المنطقة.

وأول ما يسترعى نظر الزائر لهذه المنطقة تلك المنارة الفاطمية بالحد القبلي الغربي لجبانة السيد البدوي، وهي قائمة على شرف عال بداخل نقطة خفر السواحل. وهي بقايا منارة قائمة على قاعدة مربعة يعلوها بدن يكاد يكون مخروطيًا لحدة شطف زواياه، يصل إلى حطة دورتها الأولى. وقد فقد باقيها، وسلمها مبنى بالآجر، ويدور حول فحل مربع مبني بالطوب أيضًا.

وبناء الآجر فيها غير منظم، وهو خليط من الأشكال، فأغلبه مبنى على طريقة السهل والحمل وقسمها الأوسط مبني بطريقة الاسهال فقط. وقد كتبت بحزامها العلوي وبنفس الطوب بخط كوفي آية الكرسي، وفتح في بدنها مستطيلات أقرب إلى المزاغل. والمرجح أنها كانت مثل منارة حنضل قبلي شلال أسوان ومعاصرة لها (منتصف القرن الخامس الهجري).

وفيما يلي تفاصيل عن بعض القباب المتناثرة في الجبانتين:

قبة المعداوي:

هذه القبة مهمة، قطاعها مربع مقاس ٢,٦٥×٢,٦٥م وسمك جدارها ١,١٠م وهي مبنية بالآجر، وطرأ عليها تغييرات كان من أثرها سد عقودها الثلاثة القبلية والبحرية والغربية، وقد أفسد البياض ثم الترميم غير المنتظم شكل عقودها. ومن الممكن إعادة جميع تفاصيلها عند إزالة البياض والأبنية المحدثة بها. ومما يلاحظ في هذه القبة أن عقود الشبابيك والعقود الحاملة لها بارزة عن سمت الجدران.

مشهد الأولياء أو السبعة والسبعين:

هذا المشهد أهم أثر في هذه المنطقة، بل ويعتبر من نوادر المنشآت في العمارة الفاطمية. ومن تصميمه وشكل عقوده ومقرنصاته يمكن وضعه ضمن منشآت نهاية القرن الخامس، أو مستهل السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، كما أن عقوده المبنية بحجر الثلاثات الكامل النحيت مثل عقود مصلى خضراء الشريفة بالقرافة الكبرى بمصر، وهو تصميم فريد في نوعه في الآثار الفاطمية، اتفق مع الصالح طلائع في وجود رواق خارجي بالواجهة الغربية ومع مشهد السيدة رقية ومشهد الجيوشي في الايوان الشرقي المنقسم إلى أقسام ثلاثة أكبرها أوسطها، تعلوه القبة مقرنصها من حطتين وتبدو تفاصيل تصميمه من مسقطه الأفقي.

قبة العتريس:

هذه القبة بنيت باللبن، ومقرنصها وأغريتها بالآجر، وهي قائمة على عقود مفتوحة مسننة من الخارج، ولا يوجد بها محراب، أما من الداخل فهي مكونة من مربع يعلوه مثمن بزواياه مقرنص من حطة واحدة، يفصله غراب مجوف من الداخل معقود على أعلاه، ويظهر هذا العقد من الخارج في جوف المثمن ثم دائر القبة، وهو ذو أضلاع ثمان بأغربة.

قبة الشيخ محمود:

هذه القبة وحيدة في طرزها، فهي صغيرة الحجم، وقائمة على قاعدة مربعة يحيط بها إفريز يعلوه مثمن به شبابيك صغيرة فوق مثمن آخر بأغربة، فتح في تجويفها شبابيك ما بين كبير وصغير بالتناوب.

القسم الثاني من منطقة السيد البدوي:

يقع هذا القسم بحرى قبة شهداء كريسكو، وقبلي شرقي سيدي احمد البدوي، ويفصلها عن المنطقة الأولى الشارع الرئيسي المؤدي إلى الخزان، وتعرف بمدافن الأشراف.

وقد حوت هذه المنطقة مجموعة من القباب فريدة في نوعها، ولكن مع الأسف الشديد تهدم الكثير منها، ورغم تهدمها احتفظت بالكثير من تفاصيلها، وبينها قباب كاملة غاية في الأهمية، أذكر منها:

قبة قاضي الشريعة:

هذه القبة مفتوحة الجوانب الثلاثة، وبرقبتها أغربة، ومقرنصها من حطة واحدة وهي كغيرها من قباب هذه المنطقة، كسيت عقودها وعقود الشبابيك وأحزمتها بالآجر.

قبة الحسين:

امتازت هي وغيرها من قباب تلك المنطقة بأن القبور بوسطها مرتفعة بنحو ٥٠سم، ومعقودة بالآجر، وظهرها على شكل محراب، ويحيط بها من الخارج سور على بعد ٩٠سم.

قبة إبراهيم الدسوقي:

هي مثل كامل لما تقدم من كثير من قباب هذا القسم، وهي مبنية باللبن، وعقودها الفاطمية المحكمة ملبسة من الخارج بالآجر، ويتوسطها قبر معقود، ومحرابها ملبس بالآجر، ومقرنصها من طاقة واحدة.

قبة السيدة رقية:

هذه القبة على جانب عظيم من الأهمية، وهي مبنية بالآجر وكانت ملبسة العقود بالطوب ويكتنف بابها عمودان بقواعدهما وتيجانهما ما زال بهما أثر البياض.

وامتازت هذه القبة بأن رقبتها مثمنة، مشطوفة الزوايا، وهي مضلعة من الداخل والخارج– ومفتوحة الجانبين القبلي والبحري، ومقرنصها من طاقة واحدة تجاورها طاقة مثلها، وعلى ظهر الطاقات عمد صغيرة تحمل أضلاع القبة. وقد انفردت أيضًا بطرز شبابيك الرقبة التي تكون شكلًا زخرفيًا. ولا نظير لهذا النوع من القباب الفاطمية في القاهرة بل هي متأثرة بالقبة التونسية.

قبة فاطمة الزهراء:

لقد اجتمعت فيها المميزات الموجودة في قبة رقية، عدا تعديلات بسيطة، ويسترعى النظر فيها شبابيك الرقبة، فهي أقرب إلى شبابيك قبة بدر الجمالي بالقاهرة.

ويلاحظ في هذه القباب سور خارجي يحيط بها، عرضه يتراوح ما بين ١،٠٠ متر و٩٠ سم من جهاتها الثلاث، شرع فيه محراب. وكان مبعثرًا في أنحاء تلك الجبانة مجموعة من المنابر المبنية بالآجر، والمغطاة جلسة الخطيب بها بقية بها فتحات على هيئة نجوم.

ولوحظ أيضًا أنه بالرغم من صغر تلك القباب حيث لا يزيد حجمها عن ٣,٠ × ٣,٠ متر فإن سمك جدرانها لا يقل عن ١،١٠ متر.

جبانة العنساني:

تقع هذه الجبانة بحري المدينة، وهي معاصرة لجبانة السبعة والسبعين، حيث يوجد في تربتها شواهد رخامية كوفية وأخرى من حجر رملي ترجع إلى العصر الفاطمي.

وقد حوت مجموعتين، الأولي الغربية، وبها أربع قباب كاملة، منها ثلاث بنيت قاعدتها باللبن، وعقودها مفتوحة مكسوة بالآجر، وامتازت على قباب الجبانة القبلية بوجود محاريب فيها، أما رقابها مع القبة فقد بنيت بالطوب، ومقرنصاتها من حطة واحدة، كما يلاحظ أن القاعدة المربعة مفتوحة من جوانبها الثلاثة وبكل منها محرابها، وبين زوايا المقرنص شبابيك أربعة تعلوها الرقبة المثمنة، وبها ثمانية شبابيك، ومن الخارج مخضرفة وبها أغربة، وهو طرز اقتصر ظهوره أيضًا على أسوان وما دونها من بلاد الصعيد، ولم نجده في القاهرة إلا في قبة أبي تراب الفاطمية التي اكتشفتها بالعباسية سنة ١٩٤٨.

ومن مميزاتها إحاطة كل قبة بسور يحيط بها على بعد ١,٥٠ م على مثال القباب الست الفاطمية بالقرافة الكبرى بمصر.

أما القبة الرابعة فإنها امتازت بأن مبانيها جميعها بالطوب الأحمر، ومن طراز القباب المجاورة لها.

والقسم الشرقي من هذه القرافة يحوى ثلاث قباب وبقايا قباب أخرى، جميعها مبنى باللبن وقد جردت من بياضها وعرفت باسم "سماسرة الخير" وهي اكثر بساطة من مثيلاتها المجاورة لها، فبعضها خال من المقرنصات وبعضها بمقرنص من حطة واحدة. ولا شك في أن قباب أسوان ثروة معمارية فريدة. وترجع إلى منشآت آخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس الهجري. نهاية العاشر وأوائل الحادي عشر الميلادي.

منارتا بلال وحنضل اسيو قبلي شلال أسوان:

منارتا مسجدين فاطميين مع ملحقات لها من قباب وجدران مبنية بالآجر، غمرت قسمًا كبيرًا منها مياه الخزان بعد تعليته، فسقطت منارة حنضل رغم التحفظ عليها، وناسف

لفقدها. فقد كانت كاملة، تمثل نوعًا من المنارات الفاطمية، وعزاؤنا فيها ذلك البحث الذي نشره عنها الزميل المرحوم حسن الهواري ثم نشرى لصورتيهما. أما منارة بلال فما زالت قائمة رغم تغطية المياه لملحقاتها ولقاعدتها المربعة، وهي منارة فاطمية مبنية بالآجر، بدنها اسطواني مكتوب عليه في نفس الأجر بالخط الكوفي "بسم الله ما شاء الله أتم هذه المنارة عبيد بن مُحَمَّد بن احمد بن سلمة طلبًا لثواب الله ورحمته ورضوانه عمل حاتم البنا وولده" وترجعان إلى منشآت منتصف القرن الخامس الهجري منتصف الحادي عشر الميلادي.

وهذا الطرز من المنارات شاع في منارات أعالي الصعيد الفاطمية، مع تهذيب بسيط تطور في منارة الجامع العتيق بأسنا وهي منارة بنيت بالآجر، أمر بأنشائها بدر الجمالي في سنة ٤٧٤هـ ١٠٨١م، كما نرى طرز منارة حنضل أكثر شيوعًا مع تغييرات بسيطة نجدها ممثلة في منارة مسجد بهجورة التي امتازت عنها بتضليع قمتها، وفي منارتي مسجدي اصفون وأبو الحجاج بالأقصر وكلها ترجع إلى العصر الفاطمي.

أما بقية المساجد التي جددت مناراتها، أو أنشئت في العصر العثماني، فإنها لم تتأثر بالمنارة الاسطوانية التركية التي شاعت بالقاهرة، بل اقتبست طرزها من المنارات المملوكية أمثال منارات مساجد الأمير حسن باخميم سنة ١١١٦هـ ١٧٠٤م والصيني بجرجا سنة ١٢٠٢هـ ١٧٨٧م والمتولي بجرجا. وفي هذه المنارات نلحظ انسلابًا في بدن الدورة العليا.

على أن مدينة أسيوط قد امتازت برشاقة مناراتها وارتفاعها مثل منارة مسجد عبد العاطي الشريف سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢م ومنارة مسجد القرماني سنة ١٢٦٧هـ ومنارة مسجد المجاهدين سنة ١١٢٠هـ ١٧٠٨م وقد امتازت هذه على منارات القطر المصري بأنها مكونة من أربع دورات ولا نظير لها في ذلك. كما امتازت بوجود حمامين عرفا بثابت والدفتر دار احتفظا بتخطيطهما وبهما أراض رخامية دقيقة.

وفي المنيا نلحظ تنوعًا في مناراتها، فنجد منارة مسجد اللمطي المنشأ سنة ٥٧٨هـ ١١٨٢م مربعة وقد فقدت تفاصيلها العلوية. ولعلها كانت قمة مضلعة، وهو مسجد أنشئ، في العصر الأيوبي حليت طبالي عمده بزخارف مورقة جميلة، أظنه ثالث مسجد نقشت طبالي عمده بمصر.

أما منارة العمروي بالمنيا فقد كانت قاعدتها كذلك مربعة أكملت قمتها في عمارة سنة

١١٤٥هـ ١٧٣٢م برؤوس أربعة.

ومن المنارات الرشيقة منارتا على الروبي سنة ١١٤٠هـ ١٧٢٧م والواقدي سنة ١١٨١هـ ١٧٦٧م بالفيوم وقد امتازتا بخطوط رأسية في بدن الدورة الثانية.

وعلى ذكر مسجد الروبي أذكر أن قبة هذا المسجد ترجع إلى تاريخ المنارة، غريبة في طرزها فقد اشتملت على أربع ايوانات بكل إيوان عقدان أحدهما أكبر من الآخر وعقود الأركان مخوصة يعلو كل ركن مقرنص من ٤ حطات، وبرقبتها شبابيك صغيرة كل اثنين متجاوران، تكون عشرين شباكًا، كما فتحت مناور بقطبها

وفي هذه المدينة مسجل جميل أنشأته السيدة اصلباي زوجة السلطان قايتباي سنة ٩٠٥هـ ١٤٩٩م، وهو رغم تجديده احتفظ بمنبره النادر المدقوقة حشواته بالأويمة الدقيقة كما احتفظ بمدخله الرئيسي المبنى بالحجر من أسفله، ومن أعلاه بالآجر المنجور حول عقده المخوص. وبه مصراعان مغشيان بالنحاس.

ومن القباب الغريبة الطرز والمبنية بالآجر قبة الشيخ زياد بمغاغة، وقد جددها السلطان قايتباي في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

وكان الوجه القبلي حافلًا بعدد وفير من المساجد الفاطمية التي جددت أو هدمت، ومنها مسجد إخميم، فقد كان مشتملا على عقود فاطمية فارسية محكمة البناء، كما كان بجداره الشرقي ثلاثة محاريب ذات عقود جصيمة مخوصة.

ومسجد الحسن بن صالح بالبهنسا فقد تجدد وما زال به أوتار وأخشاب فاطمية منقوشة مبعثرة في كثير من تفاصيله. وقد نجحت في استلام بقايا منبره التي ترجع إلى أول القرن السادس الهجري مع ظهر جلسة الخطيب، من عمدة المدينة، وقد كان حريصًا عليها حتى سلمها فجزاه الله خيرًا. وقد أودعت متحف الفن الإسلامي.

ويغلب على المساجد في الصعيد تصميم المسجد الجامع، أربعة ايوانات، يتوسطها صحن مكشوف، ولها عقود محكمة البناء، الكثير منها أقرب إلى العقود الفارسية الفاطمية مثل مساجد قفط وبهجورة وهو، وإن شبابيكها تفتح في العالي، ولم يبق أثر للمدارس التي كانت منتشرة في الوجه القبلي، غير أن الذي يلفت النظر هو انتشار المساجد ذات العمد الخشبية، وهي ظاهرة اقتصرت على مساجد أعالي الصعيد رأيتها في مساجد الأمير حسن

بأخميم سنة ١١١٦هـ ١٧٠٤م، والصيني ١٢٠٢هـ ١٧٨٧م، وسيدي جلال ١١٨٩هـ ١٧٧٥م بجرجا، والداودية بجرجا، والمجاهدين بأسيوط ١١٢٠هـ ١٧٠٨م والابعادية بالقرب من سوهاج، وعبد العاطي بأسيوط ١٢٠٨هـ ١٨٣٢م.

وهو تأثير قدم إليها من آسيا الصغرى حيث يوجد بها مساجد بعمد خشبية يرجع عصرها إلى دولة السلاجقة[1].

وعلى ذكر مسجد الصيني أذكر أن جدرانه الداخلية مغشاة بمجموعة من القاشاني وكذلك محرابه، وهي مجموعة نادرة من ترابيع القاشاني الجميلة، ولعله هو ومسجد الكاشف بأسيوط هما المشتملان على القاشاني في الوجه القبلي.

والعمد الخشبية في هذه المساجد متخذة من كتل خشبية، خلق ها قواعد وتيجان وحليت زواياها بزخارف تعلوها سقوف حليت بالألوان والكتابات، أجملها موجود في مسجد الأمير حسن بأخميم، وهو مسجد حوى طرائف معمارية ما بين منبر معقلى، وسقوف منقوشة، ومنارة حجرية:

وفي هذا المسجد ظهر نوع من المحاريب الحجرية ذات مقرنصات مسلوبة. ولهذا المحراب شبيه في مسجد الفقهاء بجرجا، وقد أثر هذا الطرز المنحدر إلينا من قونية على باب مسجد الأمير عثمان الذي جدده مراد بك بجرجا سنة ١٢٠٥هـ ١٧٩٠م.

وثمة ظاهرة أخرى في مساجد الوجه القبلي هي تعدد المحاريب في الجدار الشرقي حيث المحراب الكبير يكتنفه محرابان، وجدتها في مساجد أخميم. وقوص. وسيدي جلال بجرجا وغيرها.

وامتاز البناء بالآجر في الوجه القبلي بنماذج ميزته على البناء بالآجر في الوجه البحري أخصها تلبيس زخارفه المكونة من آجر أحمر وأسود بأشكال زخرفية، بحجر أبيض من نوعها. فقد استعملت في المداخل العامة للمساجد والمنازل والمحاريب بأشكال زخرفية على هيئة نجوم أو دوائر ما بين حمراء وسوداء وبيضاء، أجملها ما رأيته في خان حسن بك الجداوي باسنا سنة ١٢١١هـ ١٧٩٦م وفي منزل بحيرى بأخميم سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م،

---

(١) أنظر الكتاب التذكاري للدكتور ارنست كينيل ص٥٩–٨٨.

وفي مدفن الشريف بقنا سنة ١٢٥٩هـ ١٨٤٣م، وفي الأخير اتخذت صنج العقود بالشبابيك والأبواب صنجة من آجر وأخرى من حجر، أما حجور الشبابيك وتواشيحها فإنها مكونة من نجوم ما بين بيضاء وسوداء، بأشكال هندسية بلغت حد الإتقان، وما ننشره من صور هو أنموذج لكثير من أبواب المساجد والخانات والمنازل بالصعيد.

الوجه البحري:

أما الوجه البحري فقد تنوعت أيضًا طرزه وتفاصيله، فنرى المساجد تابعت مساجد القاهرة في التصميم ما بين مسجد جامع ومدرسة، وكما أن المؤثرات العثمانية لم تغز الوجه القبلي، فإنها كذلك لم تغز الوجه البحري. ففي الوقت الذي شاعت فيه بمصر المنارة الاسطوانية وغلبت على القبة البساطة منذ القرن السادس عشر الميلادي فإن الأمر على نقيض ذلك في الوجه البحري.

وقد تنوعت طرز المنارات والقباب تنوعًا يثير الإعجاب. كما بقيت به نماذج من المدارس التي كانت منتشرة في ربوعه، وفي الوجه البحري انتشرت نماذج نادرة من القاشاني، كما انتشر الخط الكوفي المربع.

وفيما يلي جولتي في بلدان فرعي دمياط ورشيد[١]

دمياط:

تلك المدينة العريقة في القدم كانت حافلة بعدد وفير من المساجد والمدارس والوكايل والحمامات. ولكن عوادي الزمن قضت على الكثير منها. كما أن عوامل الرطوبة أثرت على أهم مسجد فيها وهو مسجد أبو المعاطي حرمها. وإلى نحو عشرين سنة مضت كان عدد كبير من مناراتها الرشيقة يطاول السماء فهدم ما هدم وأزيل أعالي بعضها، فقد هدمت منارة البدرى ما هدمت إحدى منارتي المعيني وهدم أعالي منارة البحر كما أزيلت منارة أبو المعاطي.

ومسجد أبو المعاطي من أقدم المساجد. وإن التفاصيل القديمة الباقية فيه ترجع إلى

---

(١)المهندس السيد كامل عثمان غالب الوكيل السابق لوزارة الأشغال وعضو المجلس الأعلى للآثار فضل في تيسير دراسي لآثار هذين الفرعين، وكثيرًا ما اشترك معي في معاينة بعضها وقت أن كنت أعد مذكرات تسجيلها فمن الآثار الإسلامية، رحمه الله.

القرن الرابع الهجري. وخاصة العقود المبطنة بالخشب كبيرة كانت أو صغيرة بالمجاز وفوق الباب. وكذلك بقايا الإفريز الخشبي بالجدارين القبلي والشرقي والمكتوب فيه آية الكرسي وآيات أخرى من سورة آل عمران بالخط الكوفي بقاعدة كتابة المصاحف في القرنين الثالث والرابع الهجري وهو الإفريز الوحيد من هذا النوع. كما يوجد عمود رخامي مكتوب على بدنه من أسفل بالخط الكوفي "ما أمر به مُحَمَّد بن موسى الهطولى المسجد الجامع بدمياط".

كان هذا الجامع موضع عناية على مر العصور. فقد جدده الخليفة الآمر بأحكام الله في سنة ٥٢١هـ ١١٢٧م، ثم توالت عليها العمارات ومنها عمارة في سنة ٧٧١هـ ١٣٦٩م، تخلف منها لوحة تذكارية لإنشاء منبره وعليها اسم الآمر بعمله الحاج شمس الدين الطرابلسي، واسم صانعه المعلم احمد بن يوسف، وقد أودعت هي واللوحة التذكارية لعمارة الآمر بأحكام الله متحف الفن الإسلامي.

وما زال الجامع يحتفظ بواجهاته بعد ترميمها، وبها عقود فاطمية دقيقة، أما داخله فقد تخرب، وما زالت تفاصيله المشار إليها تضعه في مصاف أهم المساجد.

مسجد المعين بدمياط

هو أهم مسجد باق بها، أنشأه مُحَمَّد بن مُحَمَّد معين الدين حوالي سنة ٨٥٤هـ ١٤٥٠م على تصميم المدارس المتعامدة، أربعة ايوانات حول الصحن، وبنيت الواجهة الشرقية بالحجر، وحلى المدخل بزخارف وكتابات، أما العقود الداخلية فقد بنيت بالآجر غاية في الدقة والإحكام. كما تلاحظ تلك الدقة أيضًا في طاقية المحراب وعقد الحجرة الصغيرة خلفه مما يجعله في مصاف أرقى أنواع البناء بالأجر.

وقد فرش صحن هذه المدرسة برخام دقيق ملون غاية في الروعة والجمال، وإن آثار القاهرة مع ما اشتملت عليه من ثروة في صناعة الرخام، لا يوجد بها مثيل لتصميم تلك الأرضية، بالرغم من وجود أرضيات تفوقها، وطرز القبة غريب فهو أقرب إلى القباب الفارسية، وهي أحدث عهدًا من المسجد، وترجع إلى القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

وكان لهذا المسجد منارتان هدمت إحداهما وبقيت الأخرى، وهي كذلك ترجع إلى عصر القبة، وهي مثال لمنارات المدينة المعاصرة لها، فهي تشتمل على دورات ثلاث تنتهي

بخوذة بها كوابيل خشبية لتعليق القناديل، وقد أحكمت مقرنصاتها، وحلى بدنها بقنوات رأسية وحلية مسننة. وحليت الأحزمة أسفل الدورات بطوب منجور ملون، ويسترعى النظر في تلك المنارات المظلة الخشبية الموجودة في قسم من الدورة الأولى لتقى المؤذن الأمطار.

وإذا كانت منارة جامع البحر قد هدم القسم العلوي منها ومسجد البدري قد هدم مع منارته، فإن منارة المعيني ومنارة مسجد على النفيسى ١١٣٠هـ ١٧١٧م، ومنارة المدرسة المدبولية، تمثل طرز منارات هذه المدينة وما جاورها، والمدرسة المدبولية كانت من إنشاء السلطان قايتباي، ثم جددت سنة ١١٢٣هـ ١٧١١م.

وكان على باب مسجد البدري لوحة تذكارية نصها: أنشأه الخواجة مُحَمَّد والخواجه[١] ابراهيم أولاد الحاج يوسف خفاجي سنة ١١٠٦م.

مسجد البحر:

من مساجد دمياط الكبيرة وهو منخفض عن مستوى ما حوله، وقد جدد سنة ١٠٠٩هـ ١٦٠٠م ونلحظ في مدخله الرئيسي جمالًا في عقده المقرنص وأرجله المخوصة وفي صناعة الآجر الملون المقتبس من صناعة الآجر بالوجه القبلي، وفي نجارة شبابيكه الخشبية المجمعة بأشكال هندسية دقيقة على مثال أحجية وشبابيك مسجد الظاهر برقوق. وفي دقة نجارة الباب والخط الكوفي المربع فيه. أما محرابه والمربع فوقه فقد اتخذ من الطوب المنجور الملون، وما زال في أسقفه بقية من النقوش والكتابة المملوكية.

معالم أخرى بدمياط:

ومع قلة القباب الباقية في دمياط فقد تنوعت طرزها: فنرى قبة مدرسة المعيني فارسية الطراز وكانت قبة جمال الدين شيحه مملوكية الطراز مخوصة الأضلاع من الخارج، وهي قبة صغيرة أنشئت سنة ١١٧٠هـ ١٧٥٦م وقد هدمت أخيرًا، أما قبة الزاوية الرضوانية المنشأة سنة ١٠٣٩هـ فيسود خارجها البساطة إلا أنها انفردت بتصميمها فقد أقيمت على إيوانات أربعة.

---

(١) خواجه لفظ فارسي، وهو لقب تكريم عندهم. ويطلق على المعلمين، ثم لقب به كبار التجار منذ القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر بمصر.

وامتازت دمياط بوجود حمامات كاملة التفاصيل، أنشئت سنة ١١٣٠هـ ١٧١٨م لا تقل أهمية عن حمامات القاهرة، وقد احتفظت بالأرضيات الرخامية الدقيقة بالخارج والداخل، وهي في تفاصيلها مثل حمامات القاهرة، مكونة من باب أول تتوسطه فسقية. وبيت الحرارة تتوسطه فسقية، حولها ايوانات أربعة فرشت أرضياتها بالرخام الدقيق الملون، وحولها المغاطس والخلاوي، والجميع مغطى بقباب بها قمريات الزجاج الملون. وتعرف بحمام النعيم

وقد امتاز فرع دمياط بأرشق وأجمل المنارات وتنوعها، حيث نرى تنوعًا جديدًا في منارة سيدي عاصم بمنية عاصم على البحر الصغير، فهي ترجع إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ومكونة من ثلاث دورات تنتهي بخوذة على رقبة حلزونية تحملها عمد رخامية، وبدن دورتها الثانية اسطواني، ومقرنصاتها دقيقة للغاية، وأيضًا فإن منارات المنزلة مثل منارات دمياط ومعاصرة لها مثل منارة الجامع الجديد كما تنوعت نقوش سطح قبابها. وعلى ذكر المنزلة أذكر أنها احتفظت بعض منازلها القديمة على البحر الصغير مثل منزل طوبار، ومنها منزل الشيخ عباس زين الدين، وهو منزل كبير له أربعة وجهات كاملة النجارة يلفت النظر فيها نقش الشبابيك العلوية، وتنتهي الوجهة بكرنيش مخضرف من الخشب والطوب الأحمر. كما وأن بالمنزل سلمًا يوصل إلى حوض أسفل المنزل، يستمد مياهه من البحر الصغير، على مثال الدور التي كانت على الخليج، وفي القاعات العلوية مغان، غير أنه أقيم على فتحتها شباكان بدلًا من الحجاب الخرط الكبير المستعمل في منازل رشيد. ومثله واجهة منزل أسرة أبي العز بميت أبي غالب فقد خلت الواجهات من البارزات، وغطيت شبابيك الدور الأرضي بالحديد، وما فوقها بشبابيك خرط بها زخارف جميلة، اقتصر طرزها على منازل هذه المنطقة.

فارسكور:

إذا ما اتجهنا إلى فارسكور نجد مناراتها قد اتفقت ومنارات دمياط، غير أنها أضخم منها، مثل منارة مسجد الحديدي المجددة سينة ١٢٠٠هـ ١٧٨٥م، ونلحظ في تلك المناطق محاكاة الجديد للقديم في الطرز المعمارية، فقد أنشأ المرحوم مُحَمَّد (باشا) العبد المقاول منارة جديدة في فارسكور طبقًا للمنارات القديمة، أما قباب هذا الفرع فقد أحسن تكوينها،

وأحيطت رقبتها بعدد كبير من الشبابيك، واتفقت في الطرز وفي بساطة مظهرها، ممثلة في قباب مسجد الحديدي، والأنصاري، وقد امتازت بوجود ايوانين بداخلها وقبتي الدياسطي والحسيني، وكلها ترجع إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري. ثم تنوعت أشكال القباب بشكل يثير الإعجاب ففي بلدة الزعاترة حيث توجد قبة الباز الواقعة على شاطئ النيل، وهي قبة صغيرة محكمة البناء، جميلة المنظر، مضلعة من الخارج، وفي أركانها الداخلية مقرنصات على شكل محاريب.

وفي المنزلة نرى لونًا جديدًا للقبة تحاكي فيه القبة المملوكية في زخارف سطحها، فنرى قبة عنبر المبنية في القرن الثاني عشر الهجري حلى سطحها بزخارف دالية، تبدأ بميمات لبست بقاشاني وحليت رقبتها بزخارف على هيئة كرنداز. ومثلها قبة أبو النصر المعاصرة لها والقريبة منها.

المنصورة:

إن عمران المنصورة جدد آثارها فلا يوجد بها سوى دار ابن لقمان التي سجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا، وليس في تلك الدار ما يهم معماريًا سوى الطوب المنجور في بابها العمومي قبل أن يحتجب تحت البياض، وهي دار بسيطة جدًا ترجع إلى مستهل القرن الثالث عشر الميلادي، ولعلها أنشئت على جزء من دار ابن لقمان، وأهميتها منحصرة في تلك الذكرى المشرفة لانتصار جيش مصر على الفرنسيين وجلائهم عن البلاد بعد أسر مليكهم فهي رمز لانتصار المصريين على الفرنسيين وقهرهم.

وفي جامع الموافى المجاور لتلك الدار بقيت قبته، وهي غاية في الرشاقة، من النوع المضلع من الخارج، ويرجع إنشاؤها إلى سنة ١١٩٩هـ ١٧٨٤م وتعطينا لونًا جديدًا من قباب تلك المنطقة.

المحلة الكبرى:

هذه المدينة حافلة بعدد كبير من المساجد الأثرية وفيها أغنى وأجمل مجموعة من المنارات الكبيرة المتأثرة بطرز منارات المماليك البحرية. وكان بها مسجد فاطمي أنشأه الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي سنة ٥٠٨هـ ١١١٤م ما زالت لوحته التذكارية محفوظة بمسجد الغمري.

ومن المساجد القديمة في هذه المدينة مسجد الطريني الكبير (المتولي)، وهو من أكبر مساجدها أنشاه احمد بن على بن يوسف المحلي المعروف بالطريني، المتوفى سنة ٨١٣هـ ١٤١٠م.

والمسجد وإن كان طرأ عليه إصلاح وتعمير كثير، إلا أنه احتفظ بمنارته الكبيرة، وهي ذات قاعدة مربعة ضلعها خمسة أمتار، يعلوها مثمن، ثم مثمن آخر، تعلوه خوذة مضلعة، وهي من أضخم منارات المحلة. يليها في القدم منارة مسجد ابن كتيلة التي أنشأها مُحَمَّد بن عمر بن عبد الله المحلى المعروف بابن كتيلة المتوفى سنة ٨٨٧هـ ١٤٨٢م، وهي تتفق مع منارة الطريني في الحجم وتمتاز عليها بالرشاقة مع دقة المقرنصات، ويليها في القدم منارة مسجد أبي العباس الحريثي المنشأة قبيل سنة ٩٤٥هـ ١٥٣٨م أنشأها أبو العباس الحريثي المتوفى سنة ٩٤٥هـ ١٥٣٨م وهي من طراز الطرينى، بل هي أرشق منها. وقد تجدد المسجد وبقيت المنارة.

وفي المحلة منارة رابعة أحدث عهدًا من سابقاتها، وهي منارة مسجد عاصي التي أنشأه الحاج عبد الله عاصي سنة ١١٣٥هـ ١٧٢٢م وتقوم فوق باب المسجد، وهي ذات طراز وحيد، فإنها وإن خالفت طرز المنارات السابقة لها لأن قاعدتها مثمنة مثل المنارات المعاصرة لها، فإن دورتها العليا اقتبست من قمة منارة الطرينى. وهي أنموذج مبسط لمن يريد منارة رشيقة قليلة التكاليف.

أما قباب المحلة فإنها مع قلتها امتازت بتضليع سطحها وتعدد حطات المقرنص المفرغ بالزخارف، مثل قبة الأمير جاويش بالقرافة ومثلها قبة البدوي القريبة منها وكلتاهما ترجعان إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري. نهاية الثامن عشر الميلادي

ولأبواب المساجد هناك طابع خاص، فهي في الغالب عقد مدايني مخوص به ثلاث دلايات يفصلها جص مفرغ بأشكال زخرفية، ويعلو عتب الباب شباك من الخرط الدقيق تحيط به زخارف بالطوب المنجور، وقد تخللت مباني الطوب بالباب ميد خشبية على مثال أبنية رشيد، نرى هذا ممثلًا في باب مسجد المغربي أمام وكالة الغوري. وهي من أكمل الوكالات بتخطيطها وطريقة بناء الآجر فيها.

وفي المحلة حمامات ثلاث: حمام حسن العرب، وحمام جاويش، وحمام المتولي، وهي في

تصميمها كبقية حمامات القاهرة، وامتازت عليها بأن الحمامين الأول والثاني كاملي التفاصيل من تخطيط وأرضيات رخامية بالمداخل وفي بيت الحرارة حول الفسقية، وبالأيوانات الأربعة حولها والخلاوي المحيطة بها، والقباب ذات القمريات الزجاجية الملونة

سمنود:

لقد طرأ التجديد على مساجدها، واحتفظت بمناراتها فقط، وفي لقربها من المحلة تأثرت بطرز مناراتها، فنجد منارة جامع المتولي أقرب شبهًا بمنارات المحلة من قاعدة مربعة يعلوها مثمن ومثمن آخر يحمل خوذة مضلعة، وهي دونها إتقانًا لأنها متأخرة عنها، وترجع إلى القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

أما منارتا الشيخ سلامة والعدوى فقاعدتهما مربعة، يعلوهما مثمن يحمل الدورة الثانية تعلوها خوذة، وهما أحدث من منارة المتولي.

حمام سمنود:

وإذا كانت مساجد سمنود طرًا التغيير عليها ما بين إنشاء وتجديد، فإن حمامها الشهير من أكمل الحمامات في القاهرة والريف، أنشئ في سنة ١١٦٢هـ ١٧٤٨م، وهو واقع على النيل له باب لطيف به شغل طوب منجور، وقد فرشت أرضية المدخل وباب أول بالرخام الجميل، ويتوسط باب أول فسقية حولها أربعة عمد رخامية لبعضها تاج رخامي به طيور، وفوق العمد سقف به شغل بلدي نشر قشر يتوسطه منور، وبالايوان البحرى دكة المعلم. وهي من خشب الخرط بدرابزينها وتعلوها قبة صغيرة، ومكتوب عليها تاريخ سنة ١١٦٢هـ ١٧٤٩م.

ومن الداخل أحتفظ ببيت الحرارة والفسقية وسطه والأيوانات حوله بالرخام الدقيق الملون، كما احتفظت القباب فوق فسقية بيت الحرارة وفي الخلاوي والمغاطس والممرات بزجاجها الملونة.

ميت غمر:

في مدينة ميت غمر نرى لونًا جديدًا على الريف منقولًا من منارات القاهرة، فنرى منارة مسجد الغمرى المنشأة سنة ٩١٩هـ ١٥١٣م مزدوجة الرأس، وقد فقدت خوذتيها

وهي مقتبسة بل مطابقة للمنارات المعاصرة لها في القاهرة قايتباي امير اخور، ثم الغورى.

وهناك أيضًا مسجد الأمير حماد، وهو إن كان منشأ سنة ١٠٢٤هـ ١٦١٥م إلا أن تصميمه تصميم مدرسة، أربعة أيونات معقودة يتوسطها صحن احتفظ برخامه الدقيق، وغريب أن نرى تصميم المدرسة يستمر إلى القرن الحادي عشر الهجري في الريف، ومثله مدرسة مُحَمَّد بن بغداد في محلة مرحوم بالقرب من طنطا، المنشأة في سنة ٩٥٦هـ ١٥٤٩م فإن تصميمها تصميم مدرسة متعامدة أربعة ايوانات حول صحن مكشوف.

الاسكندرية:

كان المفروض أن نجد في عاصمة القطر الثانية مجموعة من الآثار فقد كانت حافلة بالمساجد والمدارس[١] ودور الحديث، ولكن المحن التي مرت بها وكثرة العمران قضى على آثارها فهدمت أو جددت، ولكنها رغم ذلك احتفظت ببعض مساجدها المنشأة في القرن السابع عشر الميلادي وهي ذات طابع خاص اقتصر على الاسكندرية ورشيد. منها:

مسجد جوربجي:

أنشأه الأمير عبد الباقي چوربجي في سنة ١١٧١هـ ١٧٥٨م، وهو من المساجد المعلقة مرتفع عن مستوى الشارع وتحته حوانيت وله بابان بهما شغل تقليد الطوب المنجور بالبياض: وداخل المسجد يتكون من ثمانية عمد رخامية تحمل عقودًا فوقها سقف، وقد غشيت جميع الجدران بالقاشاني المغربي، يتوسط الكثير من أجزائه مجاميع تمثل زهرية جميلة، أما المحراب فقد كسي بالقاشاني، ويكتنفه عمودان لولبيان، وقد انتشرت به الكتابة بالخط الكوفي المربع على مقدم المنبر مطعمة بالسن وفي تجويف المحراب.

ويحيط بالمسجد من جوانبه الثلاثة القبلية والغربية والبحرية ايوانات مسقوفة ذات عقود محمولة على عمد، وكانت المنارة قائمة أمام الرواق الغربي فوق مصلية تتكئ على جدار الأيوان وعلى عمودين من الرخام، وهي ميزة انفردت بها مساجد الإسكندرية، مثل منارة تربانة الباقية إلى الآن.

---

(١) انظر ما نشرته عن الاسكندرية في العصر الإسلامي ص٣٧٩-٣٩٣ في مجلة الكتاب عدد يناير سنة ١٩٤٧.

مسجد تربانه:

أنشأه الحاج ابراهيم تربانه سنة ١٠٩٧هـ ١٦٨٥م، وهو أيضًا مسجد معلق تحيط به أروقة ثلاثة قبلية وبها شبابيك، وبحرية ذات عقود مفتوحة بخواصرها نجوم، وملحق به سبيل به شباك من نحاس مصبع: وشغل الطوب في الباب ملون، وبه كتابة بالخط الكوفي المربع منزلة بالقاشاني (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وقد كسى جدار المحراب مع المحراب بقاشاني أوربي. وتقوم المنارة على جدار الرواق الغربي. وعلى عامودين، وهي منارة قصيرة، وطرز المنارات الشائع في الاسكندرية هو طرز منارات رشيد، نراه ممثلًا في مناراتها الكاملة ومنها منارة جامع الشيخ ابراهيم باشا سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٤م بالإسكندرية.

وفي الإسكندرية غلب تأثير تصميم الصهاريج على بعض المساجد فجددت دار الحديث التكريتية التي أنشأها عبد اللطيف بن رشيد التكريتي سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، على مثال الصهاريج في القرن الثاني عشر الهجري، وهي أربع قباب صغيرة يحملها عامود رخامي، ومثله مسجد عبد القادر الجيلاني المعاصر له، والقريب منه. ورأيت مساجد مثلهما في مدينة غزة.

وما دمنا بالإسكندرية فلا تنسى الإشادة بعظمة تحصيناتها القديمة، ومنها باب رشيد الذي اكتشفته، وأبراجه المنشأة في دولة المماليك، وبقية الباب الشاهق وما يتصل به من أبراج أيوبية في حدائق الشلالات وطابية السلطان قايتباي المنشأة في سنة ٨٨٤هـ ١٤٧٩م، فإن لها طابعًا خاصًا أخرجها من خشونة التحصينات، فقد غلبت عليها رقة منشآت السلطان قايتباي ما بين زخرف في مدخلها، وأرضيات دقيقة في المدخل وفي صحن المسجد الملحق بها، وفي أرضيات الممرات في أدوارها العلوية فقد فرشت برخام دقيق ملون، وهذا ما كان يخطر لي على بال.

وعلى ذكر التحصينات في الإسكندرية تشير إلى سلسلتها المتنوعة على ساحلها من العجمي إلى رشيد، فقد جمعت تفاصيل هامة لأنواع التحصينات، بينها تحصينات فرنسية قليلة أصلحت وأضيفت إليها أجزاء، وباقيها تحصينات أنشأها الجيش المصري بإشراف مهندسين مصريين، وهي رغم تخريب الكثير منها تعطي فكرة عن طريقة التحصينات وطرزها في القرن التاسع عشر، وخاصة طوابى العجمي والمكس والملاحة وأبي قير وكوسه باشى.

رشيد:

نترك الإسكندرية إلى رشيد لنجتلى محاسن دورها ومساجدها وفي طريقنا إليها نجد مجموعة مبعثرة من طواحين الهواء المنشأة على الساحل، وعلى مقربة منه في القرن التاسع عشر، وباق منها طاحونة كاملة بأدواتها في ادكو. وفي ادكو انتشرت القباب المضلعة من الخارج بهندسة متقنة، وخاصة القباب المعروفة بالعراقية. فهي ثلاث قباب إحداها منفردة، وبابها عقده مدايني، وتقوم على قاعدة مربعة، مشطوفة الزوايا، ثم رقبة بها ١٢ شباك يعلوها إفريز منقوش كرنداز ثم القبة ذات القنوات الضيقة، أما القبتان الأخريان فيجمعهما بناء واحد، يتوسطهما ايوان وهما أقل ارتفاعًا من الأولى وفيهما اختلاف بسيط، القاعدة المربعة تنتهي زواياها بشطفة تعلوها رقبة مخضرفة بزوايا الخضراف في احدهما عمد رشيقة وفي الأخرى شطف رقيق، ثم رقبة القبة فالقبة المضلعة تضليعًا ضيقًا من الخارج. وهي نماذج قيمة لنوع من القباب شاع في رشيد بتضليع أوسع من ذلك.

ومدينة رشيد لها ماضي مجيد في التجارة والصناعة، انتشرت بها المساجد كما انتشرت بها المصانع والدور القديمة في مختلف أحيائها، ورحم الله الجارم الشاعر الرشيدي إذ يقول:

أرشـــيد مجـــدك في القـــديم صـــحيفة	بيضـــــاء لا لـــــبس ولا إبهـــــام
مـــلأت مآذنـــك الســـماء شـــوامخًا	بـــين الســـحاب كأنهـــا أعـــلام

ولدور رشيد طراز خاص من حيث التصميم أو الزخرف أو البناء والتجارة. وامتازت بمميزات عمارية تركزت فيها وانتشرت بالإسكندرية قديمًا، كما انتشرت بالبلدان الواقعة على فرع رشيد حتى مدينة فوه، كما أن لها مسميات لطيفة، فيطلقون على مدخلها الرئيسي دهليز الملك، وهو شارع حافل بأهم الدور الأثرية على جانبيه، كما كانوا يطلقون على جبانتها كوم الأفراح.

وكان لمصلحة الآثار فضل الاحتفاظ بكيان تلك المدينة، وطابعها القديم، فقد عملت جاهدة على الاحتفاظ بدورها، بل الاحتفاظ بشوارع وحارات كاملة فاشترت كثيرًا من دورها مثل شارع دهليز الملك وحارة الحاج يوسف وشارع الشيخ قنديل.

ولتلك الدور تصميم خاص ومسميات مخصوصة لأجزائها، فيطلقون على الطابق الأرضي الشادر، وغالبًا ما يكون معقودًا بعقود مخوصة، وبابه له خوخة وغالبًا ما يكون له

باب خاص وهو بمثابة مخازن أو اسطبلات.

وسلم المنزل متصل بالباب مباشرة ودرابزينه من قائم خشبي قطعة واحدة مثل الدرابزينات الحديثة. ويطلقون على الدور الأول: الدهليز، وهو عادة أفخم جزء في المنزل، ويشتمل على صالة بصدرها دكة من الخرط الدقيق يحيط بها الحجرات، ومنها ما هو مكسو بأنواع القاشاني حول الدواليب ومنها ما اشتمل على دواليب مطعمة بالسن تعلوها المغاني يتوصل إليها وإلى غيرها من سلالم صغيرة مسحورة. كما توجد أرضيات مطعمة بالقاشاني وبالرخام والشقف الأحمر، ويطلقون على الجناح المخصص للنوم وهو العلوي الحضير، وفي كثير من تلك الدور يرسم المحراب في الحجرة الرئيسية، إما من القاشاني أو الرخام مثل منازل محارم وفوز وعلوان والقناديلي.

وفي هذه الدور نرى الشبابيك ذات الدرف الجرارة، والأبواب الخشبية ذات المزالج الخشبية رأسية وأفقية وأبواب الخوخة، والعمد المتخذة من الخرط لتغطية العمد الرخامية والشبابيك الجصية، والعقود المحكمة البناء.

على أن مدينة رشيد قد اكتسبت شهرتها من طرز البناء بالطوب الملون الذي تتخلله اليد الخشبية. حقيقة أنه لم يجتمع في أية بلدة من بلدان القطر مجموعة قيمة من أعمال البناء بالأجر مثل ما اجتمعت في رشيد وقد أبدع فيها المهندس كما تفنن الصانع.

وطريقة البناء هناك مداميك من آجر أحمر وأسود، تتخلله ميد خشبية مفرزة على أبعاد متفاوتة في الدور الأرضي، ثم تكحل عراميس الآجر بالجص البارز. وفي الواجهات يتجلى جمال النجارة وتنوعها، والعقود ورشاقتها، والبرزات اللطيفة والمشربيات. أما زخارف الآخر فهي خمسة أنواع: أولا- تلوين الآجر في الواجهات، سواء أكان بالحريق وهو القديم الغالب، أو بالألوان وهو حديث. ثانيًا- تكوين زخارف جصية ملونة على وجه الآخر محاكاة للطوب المنجور بالأبواب والمحاريب.

ثالثًا- تكوين زخارف بالألوان على وجه الطوب.

رابعًا- تكوين زخارف بقطع شقف ملون بحالة أقرب إلى تجميع الرخام الخردة، بأشكال زخرفية وكتابات كوفية مربعة، وهذا النوع أدقها وأجملها ومنه نماذج ممتازة في أبواب منازل عصفور وجبري وأحمد باشا الضي والأمصيلى والمناديلى ومسجد عبد الوهاب بمطوبس

ومحراب مسجد زغلول.

وامتاز الخط الكوفي في رشيد بنوع ذي الفات طويلة نراه على باب قبة مسجد المحلى.

خامسًا– كتابات كوفية مربعة بإحدى الطرق المستعملة في زخرفة الآجر ومنها الكثير بالإسكندرية، ورشيد، ومطوبس، وفوه، وديروط بحري.

وامتازت دور رشيد بالحاق أسبلة بالكثير منها غطيت بشبابيك النحاس المصبوبة بأشكال زخرفية.

وهذه الدور ليست عريقة في القدم، فإن أقدمها يرجع إلى أوائل القرن الثاني عشر الهجري، أوائل الثامن عشر الميلادي، وأحدثها يرجع إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري أوائل التاسع عشر الميلادي، وتكاد تكون تفاصيلها متفقة متقاربة وانحصر جمالها في ألوانها مجتمعة وهذا نلمسه في شارع دهليز الملك، وفيه نرى منزل رمضان، ويرجع إنشاؤه إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري وله واجهة مرتفعة مكونة من أربعة أدوار محلاة بنجارة كاملة متناسبة الأوضاع، وبها مشربيات كبيرة وصغيرة انفردت بطرزها، يجاوره منزل محارم وتنحصر أهميته عدا واجهته في الحجرة المطلة على الشارع فقد كسيت جدرانها بالقاشاني مع الرخام بأشكال زخرفية، وبالدواليب المجمعة مع المغاني، وهو معاصر للمنزل بجواره ومكمل له.

وفي هذا الشارع منزل علوان، وله بابان مثل منزل رمضان احدهما يؤدي إلى الشادر، والثاني يؤدي إلى المنزل، وبالحوش المتصل بالشادر عقود مبنية بالآجر الدقيق محكمة البناء ترتكز على عمد رشيقة. على أن أهم ما يسترعى النظر فيه الحجرة المشرفة على الواجهة والقاشاني الذي يكسو جدرانها والمحراب بها وتنوع الخرط في المغاني كما وأن الأرضية أسفل المنور بالدور العلوي بها بقايا ترابيع قاشاني استعملت بدلًا من الرخام.

ومن الدور المشتملة على محراب لطيف منزل فوز بمدخل هذا الشارع، وهو كغيره محراب غير مجوف اتخذ من الرخام، ونقش عليه عودا سرو، مع شمعدان وقنديل، وكتب عليه (أدخلوها بسلام آمنين). وتاريخ إنشاء هذا المنزل سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م.

ومن دور رشيد القديمة منزل احمد باشا الضي المنشأ سنة ١١٢١هـ ١٧٠٩م فقد اشتمل مدخله الرئيسي على طوب منجور دقيق بتقاسيم هندسية، وسقف الحجرة المطلة

على الباب به زخارف ملونة، ومكتوب بازاره تاريخ الإنشاء. ويوجد بحجرة الدور الثاني فوهة للصهريج، كما توجد فوهتان أخريان بالسطح- ووجود فتحات للصهاريج في أنحاء الدار حتى السطح في بعض منازل رشيد، ميزة اقتصرت على رشيد لم أشاهدها إلا في منزل كان معروضًا للاستبدال بالقاهرة في درب الجماميز لعل صاحبه كان رشيديًا، ولعلها استعملت أيضًا في الاسكندرية حيث كانت تنتشر الصهاريج القديمة.

منزل عرب كرلي:

تنحصر أهمية هذا المنزل في موقعه وفي واجهاته المكونة من ثلاث طبقات وامتاز بسلمه البارز عن الواجهة المرتكز على عمود ضخم، وليس به من الداخل ما يلفت النظر سوى تخطيطه والدكة الخشبية بصدر الصالة.

منزل البقرولي:

من منازل رشيد القديمة، أنشئ سنة ١١٣١هـ ١٧١٨م، وأهميته تنحصر في واجهاته المرتفعة المحلاة بالشبابيك والبارزات الخرطة الدقيقة. وبأسفله سبيل يحيط بشباكه إطار من الرخام المزخرف. كما وأن داخله حافل بالمغاني والدواليب، وبه بقايا رخام دقيق، وبه دولاب لتوصيل الطعام فيما بين الدورين الأول والثاني.

ومن بابه العمومي يتوصل إلى الشادر، وإلى الدور العلوي، وبالدور الثاني فوهة للصهريج. ومنه ومن مسجد دومقسيس كونت مجموعة هامة.

منزل المازوني:

أنشأه الحاج عبد الرحمن البواب المازوني سنة ١١٥٣هـ ١٧٤٠م، وله واجهة كبيرة مرتفعة اجتمعت فيها مميزات كثيرة، منها المقرنصات والكرادي المتخذة من الخشب أسفل المواردة، ومبطنه بالخشب المحلي بالزخارف وبالواجهة سبيل حوله قاشاني مكتوب عليه اسم المنشئ، وتاريخ الإنشاء، ويلاحظ أن سلم هذا المنزل له درابزين خشبي من قطعة واحدة ملفوفة مثبتة في الجدار، مثل أحدث النظم للدرابزينات. ويحيط بمنور الدور الثاني شقق من الخشب الخرط، وبأرضيته مربعات من رخام وشقف أحمر وهو الشائع في أكثر المنازل.

منزل عثمان أغا البكباشي (الأماصيلي):

هذا المنزل من أهم منازل رشيد التي احتفظت بتفاصيلها المعمارية أنشئ سنة ١٢٢٣هـ ١٨١٨م، وله واجهتان اشتملتا على ثلاثة أدوار كاملة النجارة، وقد ارتكزت الناصية على عامود من الرخام. وحلى جانبًا مدخله بكتابات كوفية وزخارف بالشقف الملون. وبابه الرئيسي له مزاليج خشبية رأسية وأفقية تعتبر مثالًا لأبواب الدور هناك، وملحق به شادر كبير له باب خاص، أما الباب الرئيسي فيؤدي إلى دركاة بصدرها باب يوصل إلى الحوش وإلى الشادر، وقد رصت حول الحوش الأرائك الخشبية المزخرفة وبه حجرة لها سقف خشبي محلى بزخارف وصرة غطى وجهها بحجاب خشبي كما غطيت العمد الرخامية فيها بعمد من الخشب الخرط اقتصرت على هذا المنزل. ويشتمل الدور الأول على أهم مجموعة من النجارة لا توجد في منزل آخر برشيد، وخاصة الحواجز الخشبية المعروفة بالمغاني وقد اشتملت على خرط دقيق وكتابات كوفية، وزخارف منزلة بالسن في الخشب، وشبابيك جرارة، وأبواب مجمعة بأشكال زخرفية. ويتصل به منزل صغير ثم طاحونة كونت تلك المجموعة منطقة أثرية.

والطاحونة كاملة تمثل الطواحين المنتشرة في تلك البلاد بعقودها، وبها حجران كاملان بمعدات دورانهما، وأماكن للإضاءة.

منزل المناديلى:

من أهم منازل حارة الحاج يوسف، وهو من منازل القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، مكون من أدوار ثلاثة وله بارزات محمولة على عمد ضخمة من الجرانيت، وحول الباب زخارف بالطوب المنجور الملون. والدور الأول مكون من صالة ذات سقف معقود بصدرها دكة من الخشب الخرط. وعلى يمين هذه الصالة حجرة لها سقف قشر بلدي تتوسطه صرة. ولهذه الصالة حجرة صغيرة نقش بسقفها بالبوية دوائر كبيرة بها مواكب، ومسجد بمنارتين، ويلاحظ في هذا المنزل وفي غيره من دور رشيد أن شبابيك الدور الأول رماح ومخرزات كي يطل منها الرجال، بينما شبابيك الدور الثاني من الخرط الدقيق، وهذا بديهي للنساء. كما يلاحظ في كثير من هذه الدور أدراج مسحورة في أرضية الدواليب، وسلالم مسحورة تؤدي إلى نواحي مختلفة في الدار.

بهذا القدر نكتفي من عرض نماذج منازل رشيد، وتتولى الصور الفوتوغرافية شرح ما خفى منها، ولنول وجهنا شطر المساجد هناك.

نظرًا لهطول الأمطار بكثرة في رشيد فقد عقدت سقوف كثير من مساجدها بقباب صغيرة في مساجد زغلول والمحلي والمشيد بالنور وزاوية الشيخ قنديل، أما تصميمها فهو أربعة أيوانات حول صحن مكشوف أو مغطى، وفي مسجد الشيخ تقي سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م، وزاوية قنديل ومسجد المشيد بالنور نجد نوعًا غريبًا من الشبابيك أقرب إلى المزاغل، تنتهي من أعلاها بعقد صغير من الآجر الملون، كما وأن باب زاوية الشيخ قنديل المنشأة في القرن العاشر الهجري– السادس عشر الميلادي فريد في نوعه، فهو من الحجر أحيط عقده الخارجي بطاقات صغيرة وعقده الداخلي مسنن.

مسجد زغلول:

هذا المسجد من أكبر مساجد رشيد كان مكونًا من مسجدين كبيرين ضمًا إلى بعضهما، تخرب البحري منهما. وينسب إلى زغلول مملوك السيد هارون الذي كان موجودًا منذ أربعة قرون، وبه نحو ٢٤٤ عامودًا من الرخام والجرانيت تحمل عقودًا رشيقة، فوقها قباب صغيرة، ومحاريبه محلاة بالآجر الملون، ودكة المبلغ بها مقرنصات وزخارف ملونة، ودرابزين خرط دقيق تنوعت أشكاله، وعليها اسم الآمر بعملها الحاج محي الدين بن عبد القادر واسم صانعيها "ولدا الصيرفي". وكان للمسجد منارة حجرية هدمت نلحظ في قاعدتها ميد رخامية. كما يوجد بجانبها مرسوم مؤرخ سنة ٩٨٥هـ ١٥٧٧م، والمنارة الباقية بالمسجد هي أعلى منارة برشيد ومبنية بالآجر تقوم على قاعدة مربعة ومكونة من دورات ثلاث حلي بدن كل من الأولى والثانية بطاقات صغيرة محمولة على عمد رشيقة. ومقرنصات الدورات الثلاث متقنة.

يليها في الرشاقة والارتفاع منارة مسجد الجندي المنشأ سنة ١١٣٣هـ ١٧٢٠م وسقفه معقود بقباب صغيرة.

أما مسجد المشيد بالنور المنشأ سنة ١٧٦٤م فإن عقوده الداخلية على الطراز الفارسي محمولة على عمد من الرخام والجرانيت، فوقها قباب صغيرة مبنية بالآجر، والمحراب من الآجر الملون تعلوه قبة مرتفعة عن قباب المسجد.

جامع المحلى:

من المساجد الكبيرة أنشئ سنة ١١٣٤هـ ١٧٢١م، وله أربعة أبواب مبنية بالآجر المنسق وتصميمه أربعة ايوانات حول صحن مكشوف. وتتوسطه قبة جددت سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٦م، وهي على غاية من الأهمية، لأن صناعة الآجر المنجور والبياض الملون المحاكي له في بابيها بلغت شأوًا بعيدًا في الرقي– وكسى أسفل بابيها بترابيع من القيشانى مع ترابيع الرخام وما فوقها وحول العقد بالآجر والبياض الملون بأشكال زخرفية. وعلى أحد الأبواب كتابة كوفية مربعة، وعلى الباب الآخر كتب بالكوفي المربع ذو الألفات الطويلة (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله) أما طاقية المحراب وتواشيحه فإنها من طوب منجور ملون.

السجل العباسي:

لهذا المسجد موقع ممتاز على النيل، أنشأه السيد مُحَمَّد بك الطبوزاده سنة ١٢٢٤هـ ١٨٠٩م وواجهته مكونة من المدخل والمئذنة والقبة، على أن الذي يسترعى النظر فيه باب القبة وما حواه من زخارف دقيقة مع مصراعي الباب المطعمين بالصدف وعليهما اسم صانعهما، الحاج مُحَمَّد البالي، والقبة من القباب المضلعة مثل بقية قباب رشيد– ويلفت النظر في المنارة أحزمة القاشاني المتنوع الألوان.

مسجد دومقسيس:

من المساجد المعلقة أنشأه صالح اغا دومقسيس سنة ١١١٦هـ ١٧٠٤م، وتصميمه مثل تصميم مساجد الاسكندرية، وتحيط به أروقة من جانبيه الغربي والبحري وجزء من القبلي وداخله يتكون من رواقين تشقهما طرقة بمثابة رواق ثالث تنتهي من طرفيها بباب أحدهما القبلي العمومي والثاني يؤدي إلى الرواق الخارجي البحري، وجدار المحراب مكسو بالقاشاني الكبير مع ترابيع رخام. واشتملت الترابيع الرخام على كتابات بالخط الكوفي المربع (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله– نصر من الله وفتح قريب) وبالخط النسخى بقلم خطاط بارع وبتركيب جميل (الله مُحَمَّد وأسماء الخلفاء الراشدين– والحمد لله على نعمائه) بقلم بوسنوي الحاج عبد الله سنة ١٢٣٣هـ وغير هذا بقلم الملا الخطاط.

والمحراب جميعه من القاشاني الجميل، ترابيع كبيرة، يجاوره منبر نجارته دقيقة. وامتازت المنارة بوجود قاشاني مغربي في أحزمة دوراتها.

حمام عزوز:

وفي رشيد حمام عرف بحمام عزوز، وهو من الحمامات الكاملة المنشأة في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي له تخطيط خاص ممتاز، يتوصل إلى داخله من طرقات متعرجة مغطاة بعقود مصلبة مخوصة، وقد احتفظ باب أول بتفاصيله، كما احتفظ بيت الحرارة بكامل أجزائه، حيث تعلوه قبة كبيرة بها جامات زجاجية يحيط بها أربعة ايوانات حليت حوافي عقودها وباطنها بطوب منجور زخرفي، كما حليت زوايا القبة بدوائر زخرفية، وبالأركان أربعة مغاطس فرشت أرضياتها وأرضية الايوانات والصحن برخام دقيق ملون.

أما طرز القباب في قبة الصامت على جانبي باب رشيد ومسجد العباسي فهي من النوع المضلع مع تفاوت في سمك التضليع بظاهرها.

وفي عزبة البرج برشيد بقايا قلعة أنشأها السلطان قايتباي سنة ٨٧٦هـ ١٤٧١م عرفت خطأ باسم سان جوليان. وبها عثر على حجر رشيد.

نترك رشيد إلى البلاد الواقعة على ضفتي فرع رشيد فترى أن التفاصيل المعمارية من قباب ومنارات وشغل في الطوب برشيد امتدت إلى تلك البلدان حتى مدينة فوه- فنجد مسجد الحلبي بأدفينا كان مغطى بقباب صغيرة، وباطن عقود الشبابيك به اشتمل على زخارف متنوعة مستطيلة ومستديرة، وعلى باب القبة ألواح من القاشاني كبيرة الحجم، لم أرها إلا في هذا المسجد وفي مسجد عبد الوهاب بمطوبس، كما نرى نوعًا جديدًا من القباب في ادفينا ممثلًا في قبة تاج الدين، وقل حلى سطحها بزخارف دالية.

وفي بلدة مطوبس نرى مسجد عبد الوهاب المنشأ سنة ١١٤٩هـ ١٧٣٦م تجلت فيه صناعة الطوب المنجور في باب القبة- كما امتازت القبة بوجود إيوانين بها، وفيه نرى المنارة عادت إلى قاعدتها المربعة وفوقها المثمن وفي الوقت نفسه نرى زميلتها في الجامع الكبير بمطوبس تابعت منارات رشيد في الطرز وزادت عليها زخرفًا بازدواج العمد الحاملة لطاقات دورتيهما وزخرفتهما.

وفي ديروط بحري- المسجد الكبير لم يتخلف منه سوى منارته الرشيقة وهي شاهقة الارتفاع، وقبة بها مقصورة خشبية بها كتابات بالكوفي المربع (يا الله- يا محمد الشفاعة- إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا) وبابها مطعم بالسن، وعليها اسم النجار "عبد الرحمن يوسف النجار

الديروطي في سنة ١١٤٦ م" وعلى المنبر اسم الأمير حسن العادلي والنجار "على الديروطي وسنة ١١٠٨هـ ١٦٩٧م"

ومن المرجح أن الأمير حسن هو المنشئ للجامع، وأن البقايا الموجودة الآن وخاصة القبة والمنارة والمنبر ترجع إلى هذا التاريخ. ثم عملت المقصورة بعد ذلك بثمان وثلاثين سنة.

فوه:

هذه المدينة واقعة على النيل، ولها ماض صناعي، اشتهرت بصناعة النحاس، كما اشتهرت بصناعة الجوخ والطرابيش، وما زالت آثار مصانعهما موجودة هناك. والكثير من مساجدها كان يرجع إلى منشئات القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، ثم جددت في أزمان مختلفة، واشتملت على نماذج متنوعة للقباب ووجدت بها نماذج قيمة من شغل الطوب المنجور، ومنازلها أقرب شبهًا إلى منازل رشيد وما زال بها ربع الخطايبة ومنزل الشيخ اللقاني.

وبالرغم من أن الكثير من مساجدها تجدد أو تسوده البساطة إلا أن ما بقي بها من تفاصيل ومنارات وقباب أكسب المدينة طابعًا خاصًا. أذكر منها:

مسجد أبي النجا:

من المساجد القديمة فقد كان موجودًا في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وكانت له منارة شاهقة الارتفاع، ثم جدد المسجد سنة ١١٨١هـ ١٧٦٧م والمهم به الباب البحري وباب القبة مع القبة، وتتكون الواجهة البحرية منهما، وباب القبة مكسو بالرخام والقاشاني يعلوه تقاسيم هندسية بالأجر الملون ومكتوب عليه بالخط الكوفي المربع (الله كافي).

كما طعمت حشوات الباب المكون من أطباق اثني عشرية بالسن.

وفي زيارتي للمسجد سنة ١٩٣٠ عثرت فيه على مشكاتين من الزجاج المموه بالمينا، عليهما زخارف وآيات من القرآن يرجعان إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أودعًا متحف الفن الإسلامي. ومن طريف ما يذكر أنهما كانا مقيدان على عهدة المسجد بمبلغ خمسمائة مليم تحت عنوان قنديلان بسلاسل!

مسجد حسن نصر الله:

من المساجد الكبيرة الهامة أنشأه الأمير حسن نصر الله المتوفي سنة ٨٤٦م والمدفون بقبته بصحراء قايتباي– ثم جدده على سليمان ملتزم فوه سنة ١١١٥هـ، ١٧٠٣م وهو من الداخل يحوى مجموعة من العمد الرخامية تحمل عقودًا محكمة البناء، وتقوم منارته في الجهة البحرية مرتكزة على أعمدة من الجرانيت، وقد سقط جزؤها العلوى فاكتفي بإقامة خوذة فوق الدورة الأولى وهذا نراه كثيرًا في منارات هذا الفرع وفي هذه المدينة والاسكندرية ورشيد.

مسجد النميري:

أنشئ سنة ١٢٠٠هـ ١٧٨٥م وهو مع صغره اشتمل على تفاصيل معمارية هامة ما بين زخارف وكتابات في بابيه، على أن أهم شيء فيه قبته بطرزها وما كتب على بابها بالكوفي المربع سورة (انا أعطيناك الكوثر). والقبة مضلعة من الخارج تضليعًا منظمًا ورقبتها مخضرفة وبزوايا الخضراف عمد رشيقة.

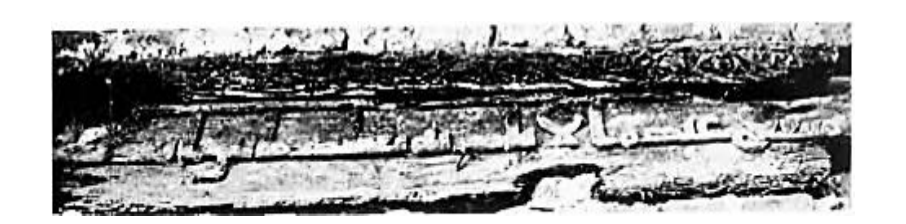
مسجد عبد الرحيم القنائي:

أنشئ هذا المسجد أو جدد حوالي سنة ١١٣٣هـ ١٧٢٠م، وله أربعة واجهات أهمها الواجهة الغربية التي تشتمل على القبة والمنارة، وهو مسجد كبير بداخله مجموعة كبيرة من العمد الرخام بتيجانها المتنوعة وبمحرابه زخارف بالطوب المنجور. ومنارته أكبر وأكمل منارة في فوه– تعطينا فكرة عن المنارات التي هدمت أعاليها فهي مكونة من دورات ثلاث تنوعت مقرنصاتها، وتحت كل مقرنص حزام من الآجر المنجور الملون.

وفي القبة نرى لونًا آخر من القباب فقد استعيض عن نحر الخضراف باثني عشر شباكًا تقوم عليها القبة المضلعة وقد أحكم تكوينها.

وأقدم قبة مؤرخة في فوه هي قبة تكية الخلوتية المنشأة سنة ١٠٠٠هـ ١٥٩١م وهي قبة رشيقة مرتفعة عن باقي القباب في فوه.

من هذا الوصف ومن تلك الصور التي تجلو محاسن العمارة في ريف مصر بددنا الأوهام السائدة عن بداوة طرز الريف، وأصبح لها مقام بين طرز العمارة الإسلامية.



طراز خشبي مكتوب بالخط الكوفي بجامع أبو المعاطي بدمياط القرن الرابع الهجري



صدر جلسة الخطيب بمنبر الصالح طلائع بقوص سنة ٥٥٠هـ.

لوحة ١

قبة مقلد بجامع قوص سنة ٥٦٨هـ ١١٧٢

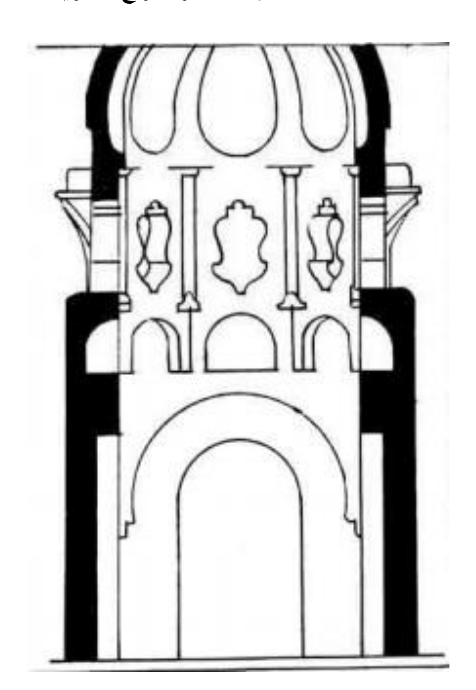


محراب من الجص بجامع قوص – نهاية القرن الثالث عشر الميلادي

لوحة ٢



قبة السيدة رقية بأسوان — القرن الرابع الهجري



كروكي لقطاع قبة السيدة رقية

لوحة ٣



منارة حنضل أسيو الفاطمية — قبل شلال أسوان

لوحة ٤



منارة بلال الفاطمية – قبل شلال أسوان



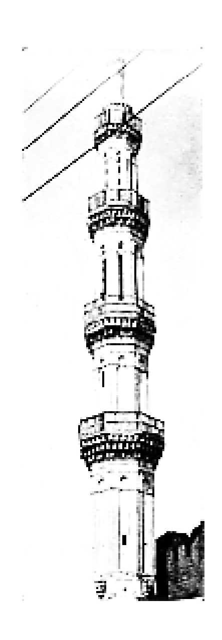
منارة بدر الجمالي بالجامع العتيق بأسنا سنة ٤٧٤هـ ١٠٨١م

لوحة ٥

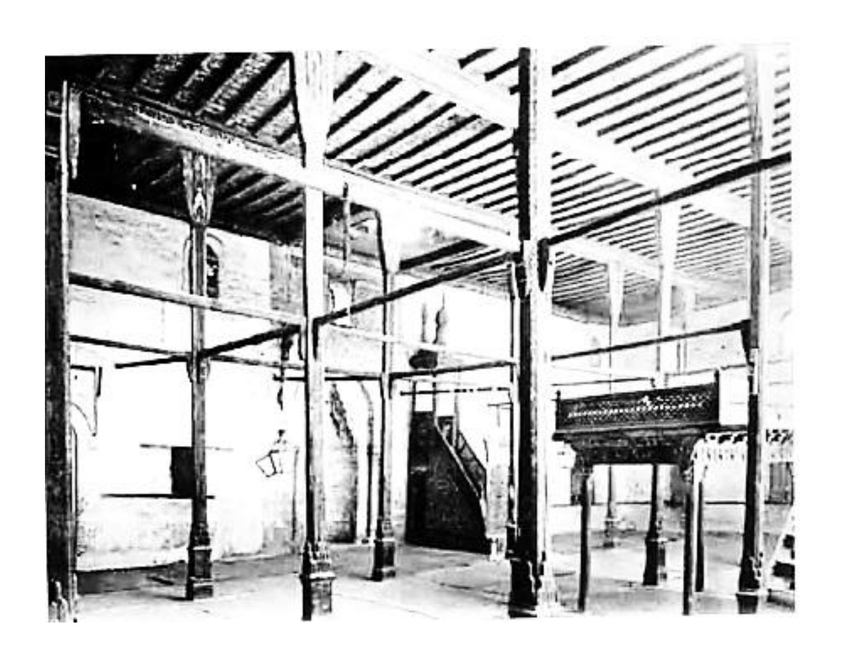


منارة جامع بهجورة — القرن الخامس الهجري

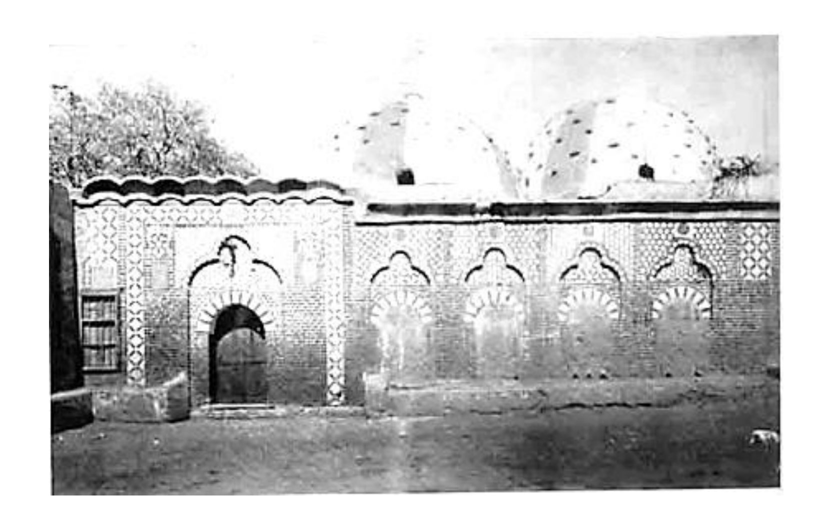
لوحة ٦



منارة مسجد المجاهدين بأسيوط سنة ١١٢٠هـ ١٧٠٨ م

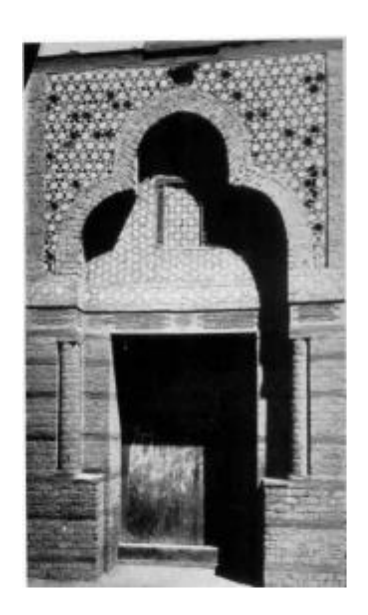


داخل مسجد الأمير حسن بأخميم سنة ١١١٦هـ ١٧٠٤م



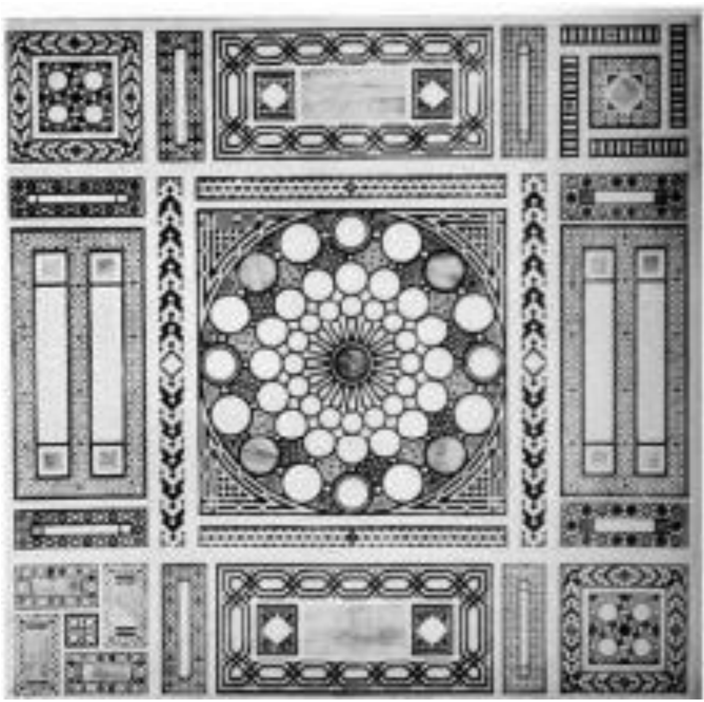
واجهة مدفن الشريف بقنا سنة ١٢٥٩هـ ١٨٤٣م

لوحة ٧



باب منزل بحيري بأخميم سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م

لوحة٨



أرضية من الرخام الدقيق الملوّن بصحن مسجد المعيني بدمياط

حوالي سنة ٨٥٤هـ ١٤٥٠م

لوحة ٩



الإيوان الغربي لمسجد المعيني بدمياط وتظهر في عقده دقة البناء بالطوب



منارة مسجد المعيني

لوحة ١٠



قبة الباز بكفر الباز دقهلية – القرن الثالث عشر الهجري

لوحة ١١



قبة عنبر بالمنزلة – القرن الثاني عشر الهجري



قبة ومنارة مسجد عبد الرحيم القنائي بفوه – سنة ١١٣٣هـ ١٧٢٠م

لوحة ١٢



قبة الموافي بالمنصورة ١١٩٩هـ ١٧٨٤م



منارة مسجد الطربي بالمحلة الكبرى حوالي سنة ٨١٠هـ ١٤٠٧م



منارة مسجد ابن كتيلة بالمحلة الكبرى قبل سنة ٨٨٧هـ ١٤٨٢م

لوحة ١٣

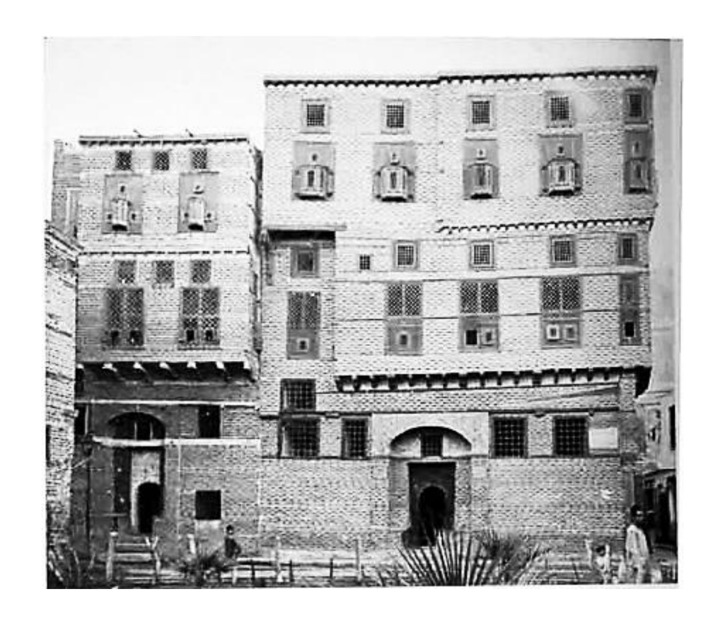


منارة مسجد القمري بميت غمر سنة ٩١٩هـ ١٥١٣م

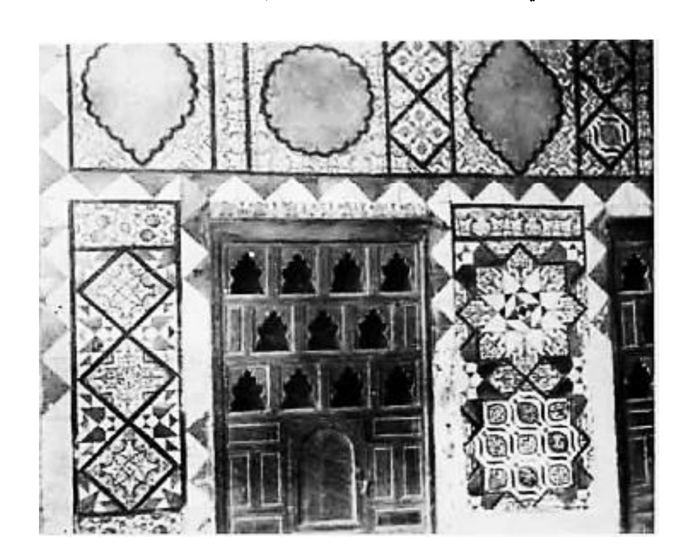


منارة الحاج عبد الله عاصي بالمحلة سنة ١١٣٥هـ ١٧٢٢م

لوحة ١٤

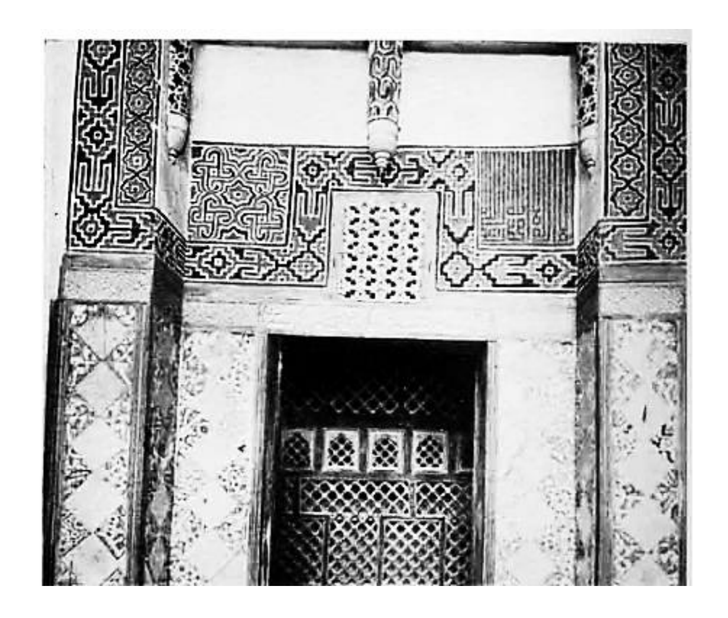


منزل الأمصيلي برشيد سنة ١٢٢٢٣هـ ١٨٠٨م وبجواره منزل حسيبه غزالة



كسوة جدار في منزل محارم برشيد — القرن الثاني عشر الهجري

لوحة ١٥



تفاصيل من شغل الطور المنجور وزخارفه والخط الكوفي ذي الألفات الطويلة في مسجد المحلي برشيد سنة ١١٣٤هـ١٧٢١م

لوحة ١٦



باب قبة مسجد العباسي الذي أنشأه السيد مُحَمَّد بك الطبوزاده برشيد سنة ١٢٢٤هـ ١٨٠٩م

لوحة ١٧



باب قبة مسجد النميري بفوة، ومكتوب فوق الباب بالكوفي المربع سورة "إنا أعطيناك الكوثر" سنة ١٢٠٠هـ

لوحة ١٨

المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية

يعاني المشتغلون بتاريخ العمارة الإسلامية في مختلف الأقطار مشقة في تفهم ما يكتبه الأثريون عن آثار بلادهم، وكثيرًا ما يجدون اختلافًا في التعبير عن المصطلحات المعمارية بين كتاب قطر واحد بحسب ثقافة كل منهم، بل أكثر من هذا فإن الدارسين للعمارة بلغة أجنبية يلجئون إلى التعبير عن المصطلحات بالإنجليزية أحيانًا وبالفرنسية أحيانًا أخرى وكثيرًا ما يعجزون عن وضع مصطلح عربي لها أو التعبير الصادق عنها.

وقد ظن بعض العلماء أن الرجوع إلى كتب اللغة والتقاط الكلمات اللغوية لتلك المصطلحات قد يفيد!. ونحا هذا النحو أستاذنا المغفور له أحمد تيمور باشا إذ كان يلتقط بعض الكلمات الخاصة بالعمارة من كتب اللغة، وعلى هذا النحو سار المجمع اللغوي في التقاط به أو نحت كلمات للمصطلحات الهندسية، وهي بعيدة كل البعد عن المصطلحات الفنية المستعملة في مختلف الأقطار والمدونة في الوثائق، اللهم إلا النزر اليسير منها.

وقد سبق أن طالبني المغفور له مُحَمَّد مسعود باستعمال المصطلحات اللغوية أو الاقتباس مما كتبه المؤرخون كابن عذارى في وصفه لجامع قرطبة، وقد فاته رحمه الله اختلاف المصطلحات واللهجات في الأقطار الإسلامية منذ القدم لا في العمارة وحدها بل في كل الفنون، وأوضحت له وقتئذٍ أن ما أستعمله من مصطلحات في بحوثي عن الآثار بمصر مقتبس مما هو مدون في الحجج وفي كتب الخطط منذ أقدم العصور، وضربت له الأمثال، فاقتنع يومئذ رحمه الله.

فنحن إذا استعملنا– مثلًا– كلمة رواق لجزء من أجزاء المسجد فليس من يلزم الأندلس وبلاد المغرب باستخدامها بدلًا من كلمة بلاط المستعملة عندهم لهذا الغرض، وإذا نحن أطلقنا على مستودع المياه لفظة حوض أو خزان، فلا نلزم أهل تونس والقيروان باستخدام هذا الاسم بدلًا من "ماجل" المتعارف عليه هناك.

والمصطلحات المعمارية المتداولة في مصر مرجعها ما اصطلح عليه عمال كل صناعة، وتابعهم فيها موثقو الحجج، فقد كان الموثق عندما يدون وصف مسجد أو عقار موقوف،

يستعين بالمعمار في إملاء الوصف المعماري وذلك منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). وقد يكون قبل ذلك، ولذلك نرى الوثائق الجيدة التحرير تتفق في الوصف منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) اللهم إلا في تغييرات طفيفة طرأت مع الزمن، أو لعدم إلمام المعماري الذي قام بالإملاء. والكثير من مصطلحات تلك الوثائق متداول إلى الآن، ومنها ما أهمل استعماله فتعذر فهمه.

كل هذا حدا بي إلى أن أتقدم إلى مؤتمر الآثار المنعقد بدمشق في سنة ١٩٤٧ باقتراح عمل معجم لتلك المصطلحات، وبعد المناقشة فيه أقره المؤتمر، وانتخب أعضاء لجنة المصطلحات، كما أقر تأليف مكتب في القاهرة يكون على اتصال بالآثاريين لتأليف هذا المعجم.

غير أنه مع الأسف لم ينشأ المكتب ولم تجتمع اللجنة، وهذا ما دعاني إلى أن أتقدم إلى المؤتمر الثاني للآثار المنعقد ببغداد سنة ١٩٥٧ باقتراح وضع قاموس للمصطلحات الفنية الأثرية جاء فيه:

"لوحظ أن أسماء التفاصيل المعمارية للعمارة- والآثار يختلف التعبير عنها في مختلف الأقطار مما يحول دون الانتفاع بما ينشر عن الآثار في تلك الأقطار، وخير وسيلة للقضاء على تلك الاختلافات معالجة الموضوع بالوسائل الآتية:

١- عمل قاموس موضح بالرسومات للتفاصيل المعمارية في مختلف الآثار وفي مختلف العصور يكتب أمام كل رسم الاسم الشائع في مختلف الأقطار، فإذا ما اتفق الاسم في أكثر من قطر ذكر الاختلاف في الأقطار الأخرى، حتى إذا ما تبين أن الاختلاف ناشئ عن تحريف أو متقارب توحد........

وقد اجتمعت لجنة المصطلحات في صباح يوم ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ وتليت تلك المذكرة، وعرضت مجموعة الرسومات لمختلف التفاصيل المعمارية مع مسمياتها المستعملة بمصر وما يقابل بعضها من مترادفات في الأقطار الأخرى.

وبعد المناقشة أقر المؤتمر، ووافقت جامعة الدول العربية "على إنشاء المعجم الآثاري" وطريقة تأليفه واللغات التي يترجم إليها، وتأليف لجنة فنية دائمة يعهد إليها بذلك العمل

ومخصص لها الاعتماد اللازم للتأليف والنشر.

وها نحن أولئك في انتظار تأليف تلك اللجنة وقد مضى على ذلك عام وأكثر.

ولبيان أهمية هذا المعجم وضرورة البدء فيه باللغة العربية أذكر نماذج مما تعانيه نحن الآثاريين من اختلاف المصطلحات بالرغم من تذوقها إلى حد ما تحكم الوصف. فما بالك بغير الآثاريين؟

فنحن نقرأ- مثلًا- في الحوليات الأثرية التي تصدرها دائرة الآثار بدمشق وصفة لقبة العصافير للأستاذ وصفي زكريا يقول فيه إن "القبة موضوعة على طنبور مثمن"، وهو ما نسميه في مصر "رقبة القبة".

وفي بحث آخر في المجلة المذكورة عن مدافن الملوك والسلاطين في دمشق وصف للشبابيك المسدودة في رقبة بعض القباب- بأنها كوى عمياء- وهي ما نطلق عليها في مصر "مضاهيات" لأنها لم تفتح من الأصل.

ويعبرون أيضًا عن الأعتاب الحجرية بأسكفة حجرية، ويعبرون عن المزررات بالمصاقبة، وعن جانبي المحراب بالحدين، ويقولون: إن الجدار فك سوفة بعد سوفة؛ وكأنهم يقصدون قولنا: مدماك بعد مدماك[1].

وفي التعبير عن النجارة المجمعة حشواتها يقولون مدككة.

وفي حلب يطلقون القسطل على المواسير الممتدة في باطن الأرض لتوصيل المياه النقية إلى المساجد والأسبلة.

وفي تونس يعبرون عن الأروقة المحيطة بصحن جامع الزيتونة "بالمجنبات" وعن الصهريج بالداموس، وعن المقرنص بالمقربص.

وقرأت في مجلة سومر التي تصدرها مديرية الآثار القديمة العامة في بغداد أوصافًا لتفاصيل معمارية، منها وصف لمصراع باب جامع "الإمام باهر" بالموصل "بأنه يتشكل من حشوة واحدة تملأ جميع سطحه وهي داخل عضادتين "وكفسيجين" بالأعلى والأسفل نطاق من "نحاس". ولولا أني رأيت الباب ما فهمت الكفسيجين ويعني بهما حشوتي الباب من

---

(١) المدماك: صف البناء بالحجر.

أعلى وأسفل.

ويعبرون عن البرامق[1] الخرط في المقاصير والحواجز الخشبية بـ "زكات"، وهي تعبيرات إن فهمها العراقي فلن يفهمها المصري ولا الشامي ولا المغربي. ولا أدري هل لهذه التعبيرات أصل في توثيقاتهم؟

لا أحاول التوسع في التعريف بدقائق التفاصيل المعمارية والصناعية الآن، ولكني أريد البدء بالوحدات أولًا. وإلا لو جارينا شرح دقائق تلك التفاصيل لدخلنا في خضم لانهاية له. وهو ما يجب أن نخوضه إذا ما قدر العمل في المعجم، وعلى سبيل المثال أذكر دقائق صناعية لجانب منبر من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) في مصر.

يشتمل جانب المنبر – ويعرف بالريشة – على: حشوات – كندة – صرر مخمسة شعب السقطة – خناجر – نصف كندة – كندة السقطة – نصف ترس المثمن – نصف ترس الاثني عشري – ثمن ترس الاتنشري – بيت غراب – نصف سقط – زقزوق –ترس الاتنشري –

ربع ترس المثمن – كندة جدار – صرر مخمسة – ترس المعشر – نصف خنجر – نصف جدار – صرر مسدسة – مقلة وهي قمة المنبر.

إنها مصطلحات لا تعرف إلا إذا شرح المنبر ورسمت تلك الأجزاء وكتب عليها مسمياتها

وفي كلمتي هذه أورد بعض مصطلحاتنا المستعملة مصر فيها بين الفنيين والصناع والتي دون الكثير منها في الوثائق وكتب التاريخ:

♦ المسقط الأفقي للمسجد وللمدرسة:

يتكون المسقط الأفقي للمسجد الجامع من سور يحيط بالمسجد تتوسطه الأبواب التي تؤدي إلى دركاة (طرقة مربعة) ومنها إلى الصحن الذي تحيط به أربعة إيوانات، يتكون كل إيوان من أروقة سقوفها محمولة على عقود وعمد، يعبر عنها أحيانًا ببوائك.

♦ الرواق:

والرواق هو الصف المحصور بين العمد، والممتد من قبلي إلى بحري، فإذا ما امتد من

(1) البرمق: جزء مستدير مقسم في الدرابزين.

الشرق إلى الغرب قاطعًا على المحراب فهو "المجاز". وهو لا يوجد في مصر إلا في جامعي الأزهر والحاكم بأمر الله، ثم أطلق "المجاز" على الطرقة الواقعة بين الإيوانين والتي تصل بابي المسجد. وقد ورد هذا التعبير في حجة مسجد مراد باشا المنشأ في العصر العثماني، وهو نوع من تخطيط مساجد هذا العصر.

والرواق مصطلح على استعماله في حجج المساجد والدور وكتب الخطط، فقد قال ابن دقماق في كتابه "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" عن زيادات جامع عمرو بن العاص سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨ م) "وزاد فيه أبو بكر مُحَمَّد الخازن رواقًا واحدًا"، كما ذكر عن الحاكم بأمر الله

أنه أزال كثيرًا من الفسيفساء [(١)] التي كانت في أروقة جامع عمرو، وأمر بعمل الرواقين اللذين في صحن الجامع.

وكتب المقريزى في كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" عن الجامع الأزهر والكتابة التاريخية التي كانت بدائر القبة "بالرواق الأول".

وكذلك كان تداول كلمة رواق لهذا الغرض في سوريا وفلسطين فها هو شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد ابن أحمد البناء المقدسي يقول في كتابه "أحسن التقاسيم" عن الجامع الأموي بدمشق:

"وداير على الصحن أروقة"، وفي فقرة أخرى يقول: "رواق طويل عقدت قناطره" ويصف المسجد الأقصى بقوله: "وعلى الصحن من الميمنة أروقة وعلى المؤخر أروقة".

ولا عبرة لما وصف به ابن جبير الأروقة بجامع دمشق بالبلاطات، فإنه عبر عنها بلغة بلاده (الأندلس)، ومثله ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه "العقد الفريد" فإنه يصف المسجد الحرام بأسلوب بلاده بأن له ثلاث بلاطات، وبأن لمسجد الحيف مما يلي المحراب أربع بلاطات.

---

(١) الفسيفساء: فصوص زجاجية ملونة ومذهبة تتألف منها أشكال هندسية وزخرفية، وهو ما يلتبس على كثير من الكتاب فيعبرون عن الرخام الملون في الوزرات والمحاريب بالفسيفساء.

♦ الإيوان:

إذا أطلقنا كلمة إيوان على القسم من أقسام الجامع الأربعة المشتملة على أروقة، فإن هذا يخالف المصطلح عليه لغويًا وفنيًا. لأن الإيوان كلمة فارسية معناها البيت المعقود بالآجر المرتفع البناء غير مسدود الوجه مثل إيوان كسرى. وهذا الوصف ينطبق على إيوانات المدارس فهي مكونة من عقد كبير معقود أحيانًا ومسقوف أحيانًا أخرى، ولا تكون بداخله أروقة بالوصف السابق، وعبر به المقريزي عند وصفه لمدرسة السلطان حسن إذ قال إن إيوانها مثل إيوان كسرى.

ووصفوا تخطيط المدارس في حججها بأنها مكونة من أربعة أواوين، كل منها معقود قنطرة مشهرة[1] بالحجر الأبيض والأحمر.

ومع ذلك فإننا غير مبتكرين لهذا التعبير ولكننا مقلدون. فقد عبر به المقريزي عند ذكره لجامع "المؤيد شيخ" بأنه أقيمت به الجمعة ولم يكمل منه سوى الإيوان القبلي... ومعروف أنه يشتمل على أروقة لأنه مسجد جامع.

وسبقه بهذا التعبير موثق حجة هذا الجامع عند وصفه للجامع بأن الإيوان البحري يشتمل على رواقين،

وأن الإيوان الغربي به رواقان. وفي هذا الوصف تمييز لإيوان الجامع من إيوان المدرسة.

وفي حجة الملك الأشرف قايتباي يصف مسجده المنشأ بالصحراء سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) وتصميمه متعامد مثل المدرسة "بأنه يشتمل على أربعة أواوين بينها دورقاعة" (صحن الجامع).

والإيوان الغربي في هذا الجامع مقسم إلى أقسام ثلاثة أكبرها هو الوسط، ومنخفض عن الجانبين. وقد عبر عن الجانبين بسدلات شاع استعمالها في وصف إيوانات المدارس والمساجد التي على شاكلته.

ثم تطور التعبير بهذين المصطلحين: الإيوان، والرواق. وسايرناه تبعًا لما جاء في حجة مسجد الأشرف برسباي بالخانكاه سنة ٨٤١هـ (١٤٣٧ م)– وهو مسجد جامع– وأن له

---

(١) المشهرة: المبنية بحجر ملون أبيض وأصفر أو أبيض وأحمر.

أربعة أواوين بها أروقة ذات عمد وقناطر، إذ أطلق اسم رواق على الحجرة الكبيرة علو القاعة. كما عبر بإيوان عن القسم المرتفع منها، وجاراه في هذا محرر حجة وكالة السلطان قايتباي بباب النصر فذكر أن بها أروقة بإيوان وأخرى بإيوانين. وهذا

ما سايرناه في وصف القاعات الكبيرة حيث نصفها كما وصفها موثق المؤيد بأنها ذات إيوانين بينها دور قاعة.

والدورقاعة: هي القسم المنخفض بين الإيوانين؛ وهي ساحة مربعة بها أحيانًا فسقية أو أرضية مفروشة بالرخام.

♦ الشرفة:

هذا ما يتعلق بتخطيط المسجد والمدرسة وكلاهما يشتمل على تفاصيل أخرى لها مصطلحات. فالوجهات سواء بنيت بالحجر أو الآجر، تنتهى من أعلاها بشرفة تنوعت أشكالها، فالشرفة الفاطمية تغاير الشرفة المملوكية المسننة، وهي تختلف أيضًا عن الشرفة المورقة عند المماليك الجراكسة ومن بعدهم.

♦ المقرنص والمزرر:

ويقال: حليت الأبواب والشبابيك بمقرنصات مختلفة الأشكال ومزررات متنوعة الألوان.

والمزرر كسوة رخامية ملونة على شكل شرفات مورقة متداخل بعضها في بعض. وهو على أشكال.

والمقرنص مجموعة من الأجر أو الأحجار تنحت وتجمع بأشكال تكون نتوءًا بارزًا، ومنها ماله دلايات، وهو في القباب يساعد على الانتقال من المربع إلى المستدير أو المثمن. وقد بدأ بطاقة واحدة تطورت إلى طاقتين في قباب الدولة الفاطمية ثم تطور وزادت حطاته[١] مع تطور القبة واتساعها وارتفاعها.

وهو في المنارات يساعد على إيجاد دورة للمؤذن بارزة عن جسمها المثمن أو المسدس أو الأسطواني، فهو كتكأة لجسم بارز.

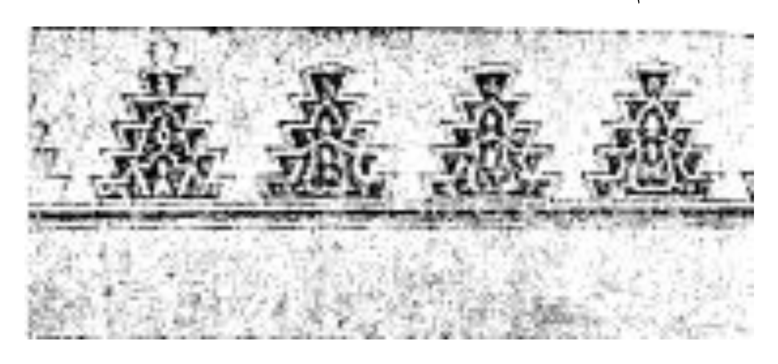
---

(١) الحطة: هي الطاقات التي يعلو بعضها بعضا.

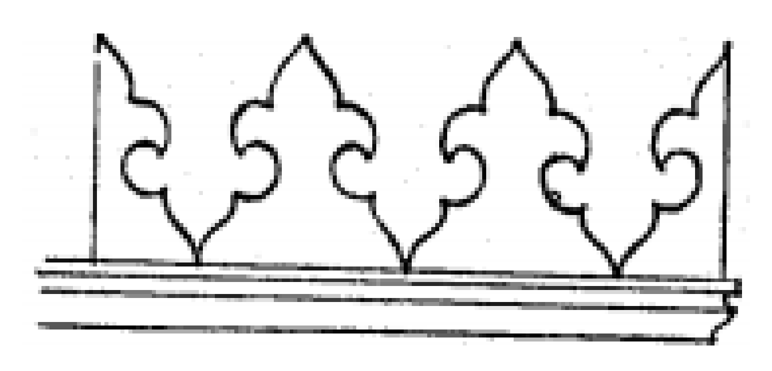
والمقرنص ورد بهذا الاسم في وثائق دولتي المماليك وفي خطط المقريزي.

♦ المسطبة:

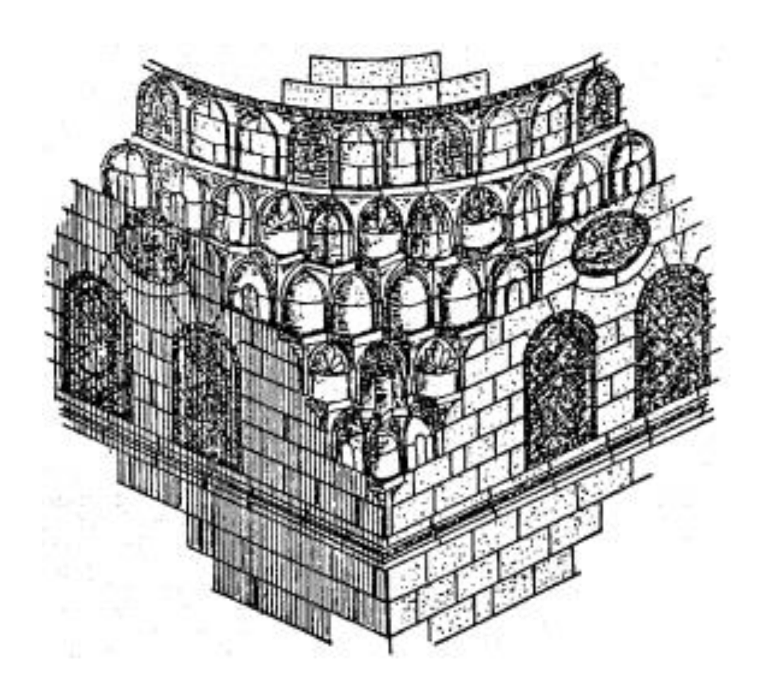
ويكتنف الأبواب العامة للمساجد والمدارس مسطبتان. ووردتا بهذا الاسم في جميع الحجج في دولتي المماليك. ثم عبر عنهما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين بمكاسل كما جاء في حجة مسجد مرزا ببولاق سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠م). وحجة وكالة بالجمالية مؤرخة سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م). ولعل تلك التسمية أطلقت عليها لتلكؤ الكسالى وجلوسهم عليها.



شرفة مسقنة منقوشة



شرفة مورقة



مقرنص حجاري مكون من أربع حطات

♦ الرنك:

وعلى بعض المدارس كانوا يقيمون رنك المنشئ لهذه المدرسة أي (شارته المثبتة عن وظيفته، مثل الكأس للساقي، والسيف للسياف.

♦ المصراع والخوخة:

فإذا كان المدخل يغلق عليه باب من مصراع واحد قيل يغلق عليه فردة باب، فإن توسطته فتحة بباب صغير في الوكالات والدور، قيل لها خوخة أو باب بخوخة.

ويتنوع وصف المصاريع ما بين مجمعة أو شغل عربي بسيط، أو سدة، أو مكسوة بالنحاس كلها أو بعضها، أو محفورة الحشوات بالأويمة الدقيقة. كما تختلف مسميات أجزائها ما بين عضائد وأنف ورؤوس وأسكفة وكوالين وأقفال وضبب؛ (والضبب أقفال خشبية) وحلقة ومقرعة سماعية.

♦ الدركاة:

ومن يتجاوز باب المسجد أو المدرسة أو باب الدار يجد دركاة، وهي الطرقة المربعة التي تؤدي إلى صحن المسجد، أو إلى دهليز المدرسة المؤدي إلى صحنها، أو إلى صحن الدار.

♦ الوزرة:

ومساجد ومدارس دولتي المماليك أزرت جدرانها وفرشت أرضياتها بالرخام بعدة رسوم وعدة ألوان، فيقال جدران لها وزرة رخامية من أشرطة ملونة أو رخام خردة ملون مطعم بالصدف، وأرض مفروشة بالرخام من مدورات ومراتب أو خردة دقيقة.

وهذه الأوصاف هي الواردة أيضًا في الوثائق، وقد قرأتها في حجي الأشرف برسباي بالخانكاه والقاضي يحيى بشارع الأزهر، وفي كتاب الضوء اللامع للسخاوي.

ولأجزاء الرخام وتقسيمها عند جمعها مسميات في الصنعة متعارف عليها بين الصناع على مثال ما هو موجود في تقاسيم أجزاء النجارة وغيرها من الفن العربي.

♦ المنبر والمحراب ومفرداتهما:

وفي أنحاء المسجد أو المدرسة نرى تفاصيل أساسية مثل المنبر والمحراب، وهما متفق على تسميتهما، مختلف على تسمية مفرداتهما:

فباب المنبر هو باب المقدم، والبابان الجانبيان بابا الروضة، وجانباه الريشتان، ثم جلسة الخطيب، والمقامة فوقها.

هذا عدا وصفه حسب تقسيم ريشته إن كانت من أطباق معشرة أو اثنى عشرية، أو حشوات مدقوقة أويمة أو مطعمة بالسن أو الأويمة، أو معقلي أو قشر.

ولكل من هذه الأصناف وصف لا يساعد على شرحه إلا الرسم.

وكذلك المحراب المكون من تجويفة تنتهي من أعلاها بطاقية مكسوة بأشرطة رخامية أو خردة دقيقة محوطة بعقد مزرر بالرخام تكتنفه توشيحتان من الرخام الدقيق وتجويف المحراب مكسو جزؤه الأسفل بأشرطة رخامية ملونة، ومن الوسط برخام دقيق مطعم بالصدف يكون أشكالًا هندسية.

♦ الوتر والكابولي:

وأمام كل محراب وتر من الخشب محمول على كابولين،

ومثله فيما بين العقود لتعليق المشكاوات ومصابيح الإضاءة. وقد ورد تعريفه بهذا الاسم في حجة مرزا.

♦ المزملة، المزيرة، الكلج:

وملحق بالمدارس وفي دهليز مدخلها حنية معقودة على وجهها حجاب من الخشب الخرط لإيداع أزيار الماء على كلجها (حواملها) الرخامية والمفرد كلجة عرفت في الوثائق القديمة "بمزملة" وفي الوثائق المتأخرة بمزيرة.

♦ الطراز، الإفريز:

ويتوسط وجهات بعض المدارس وبعض الإيوانات طراز مكتوب به نص وقفية أو نص تاريخي. وهذه التسمية موضع خلاف بين الآثارين: أهو إفريز أم طراز. والحقيقة أن الإفريز هو السطر المكتوب أو المنقوش تحت السقف أو تحت الشرفات بالوجهات كما جاء في المراجع التاريخية؛ إذ يقول ابن رسته عند وصفه للكعبة الشريفة سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م): "وسقف الكعبة منقوش بالذهب والزخرف ويدور تحت السقف إفريز منقوش مذهب" وتحت الإفريز إفريز من فسيفساء".

أما الطراز فهو السطر المكتوب بحروف كبيرة فإن كان به نص تاريخي على جانبي الباب سمي تاريخ طراز، حرف إلى رأس تاريخ.

وإن كان في منتصف الوجهة أو محيطًا بالإيوان عرف بطراز. فقد عبر عنه بهذا الاسم المقريزى في واجهة مدرسة الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بالنحاسين، وورد ذكره في حجة وقف مدرسة القاضي يحيي بشارع الأزهر فيقول "بالإيوان الشرقي طراز منقوش بما شرطه الواقف في كتاب وقفه".

وذكره أيضًا موثق حجة وقف جامع مرزًا ببولاق. وكلا الطرازين موجودان إلى الآن.

♦ الدكة:

وفي الإيوان الشرقي في كثير من المساجد والمدارس دكة المؤذنين، محمولة على عمد من

الرخام، وكثيرًا ما تكون

من الرخام محوطة بشقق رخامية تفصلها قوائم ذات رءوس رخامية مكورة نعبر عنها وعن مثيلاتها على سلالم مداخل المساجد: ببابات– عبر عنها في الوثائق القديمة بدكة لها رمامين (جمع رمانة). كما وردت في حجتي الملك المؤيد شيخ والسلطان قايتباي.

♦ القبة والمنارة:

ومن أبرز التفاصيل في المساجد والمدارس والخوانق القبة والمنارة، وتسميتها متفق عليها في سورية ومصر.

أما في شمال إفريقية فيطلقون عليها: صومعة؛ وعلى نوع منها سلمه من الخارج في العراق: الملوية. وكذلك يطلقون على القباب المخروطية هناك "ميل".

فإذا ما شرحنا تفاصيل المنارة نجدها إما أن تكون قاعدتها مربعة إلى دورتها الأولى وما يعلوها مثمن ينتهي برأس مضلعة مثل المنارات الفاطمية والأيوبية.

أما المنارة المملوكية فمنها ما قاعدته مربعة حتى الدورة الأولى يعلوها مثمن به دورتان بارزتان على مقرنصات وتنتهي بعمد رخامية رشيقة أو أكتاف تحمل الخودة المضلعة أو المكورة فوقها الهلال.

أما المنارة المنشأة في العصر العثماني فإنها تكون أسطوانية مثل القلم الرصاص، وعبر عنها موثق حجة مرزا فقال: "مثل الشمعة" تنتهي بمخروطي مصفح بالرصاص عرفه بخودة.

ومثلها القبة فإنها في كل أدوارها المعمارية لم تخرج عن مربع تحمل قبة تنوع شكلها من بسيطة إلى مضلعة من الداخل والخارج في العصر الفاطمي ومقرنصها من حطة واحدة أو حطتين.

ومنها ما حلى سطحها بقنوات أو بنقوش دالية أو هندسية أو مورقة. وتعددت حطات المقرنص فيها طبقًا لعصرها ولارتفاعها، ومنها ما أحيطت رقبتها من الداخل والخارج بطراز مكتوب أو منقوش، وفتحت بالرقبة شبابيك ومضاهيات.

♦ المضاهية:

الفتحة التي تحدث لتضاهي ما جاورها أو قابلها وتكون مسدودة. والعمارة الإسلامية بها الكثير منها لحرص مهندسيها على التماثل والمضاهاة.

أما النجارة فيطول شرح أجزائها سواء في الأبواب أو الدواليب أو الكراسي والمنابر أو الدكك أو السقوف أو أنواع الخرط وما أكثرها.

♦ السقوف:

وقديمًا عبروا عن السقوف: بمسقف غشيم للسقف غير المدهون، أو مسقف حريري أو نقي حريري للسقوف المنقوشة المذهبة، أو شيخوني للذي حاكت نقوشه البيضاء والزرقاء نقوش الخانقاه الشيخونية.

وعبروا عن السقوف التي من رقعة واحدة ومحمولة على كرادي، بأنه مسقف عجمي بكرديان كما جاء في حجة مسجد المؤيد شيخ وصفًا للطرف القبلي من سقف الرواقين الشرقيين.

♦ الكردي:

والكردي هو كابولي خشبي مستطيل للزينة ينتهي أسفله بمقرنص. ومنه ما يعبر عنه بكردي رومي، وهو نوع منبعج من الوسط شاع استعماله في السقوف التركية.

♦ القمريات:

وتزين جدران المساجد والمدارس بشبابيك من جص مفرغ بأشكال زخرفية وهندسية خلفها زجاج ملون يشع منه الضوء عرفت في الحجج القديمة بقمريات، وما كان منها مستديرًا فوق المحراب عرف بقمرية مدورة.

ولمفردات هذه الصناعة مصطلحات لا تقل تنوعًا عن مصطلحات النجارة والرخام، بل تتفق في التعريف بمصطلحات الوحدات الهندسية، فيوصف بعضها بأنه شباك من الجص المفرغ مدورات بداخلها وردة مورقة على ١٢ تحيط به سباحة ثم بردورة.

وفي شباك آخر نجد أنه يتكون من ترس، ١٢

كنجة، ١٢ نجمة مخمسة ومسدسة، وفي شباك آخر "مسدس بدقماق".

♦ الفسقية:

ويتوسط المساجد والمدارس فسقية تقوم عليها قبة فوق عمد يعبر عنها خطأ بميضأة لتحويلها مؤخرًا للوضوء.

وعلى ذكر الفسقية أذكر أنها تسمية من مسميات القبور وردت منذ القرن الخامس عشر وفي حجة وقف أم حسين بك.

♦ السبيل:

وملحق بالمدارس سبيل يعلوه كتاب مفتوح الوجه أو الوجهين إذ يشتمل على بائكتين يحملها عمود رخامي وينتهي من أعلاه برفرف خشبي محمول على كوابيل خشبية، وهناك نوع آخر من الرفارف المقامة على أسبلة القرن التاسع عشر الميلادي كبيرة البروز حلى باطنها بصرر زخرفية عبر عنه برفرف شكمه مثل الذي في أسبلة أم حسين بك بشارع الخليج وأم فاضل باشا بدرب الجماميز وغيرهما.

♦ الشاذروان (السلسبيل):

وبداخل السبيل شاذروان وهو ما نعبر عنه بالسلسبيل وهو لوح رخامي منقوش أو متموج نقشت على حافتيه صور حيوانات وأسماك تنساب عليه المياه. وملحق به صهريج في باطن الأرض لتخزين المياه العذبة على فوهته "خرزة" من حجر أو رخام.

مصطلحات الدار

وللدور مصطلحات معمارية يتفق الكثير منها مع مصطلحات المساجد والمدارس مثل المسطبة بمدخل الدار والباب بخوخته والدركاة والدهليز والقاعات ذات الإيوانين والدور قاعة بينهما والمزملة وعبر عنها "ببيت أزيار".

♦ الحرمدانات والماوردة:

وقد روعي في تطعيم وجهاتها البساطة إذ يتوسطها باب مقنطر (معقود) أو معتب يغلق عليه فردة باب بخوخته وبها كباسات وتعرف بحرمدانات، وهي كوابيل حجرية تحمل ماوردة؛ وهو البناء البارز عن سمت الوجهة بها شبابيك خرط أو مشربيات؛ ومن المشربيات ما هو محمول على كوابيل خشبية.

♦ الحوش والمقعد:

وعبر عن صحن الدار بالحوش يشرف عليه المقعد وهو استراحة صيفية مفتوحة الوجه بها عقدان يحملهما عمود بينهما شقة درابزين من الخشب الخرط وبه خرستانات "دواليب متقابلة" يحيط بها ويعلوها خورنقات.

♦ الخرستانة:

هي الدولاب في الجدار.

♦ الخورنقات:

هي فتحات صغيرة مزخرفة توضع بها أوانٍ خزفية للزينة. فإن كان المقعد مغلق الواجهة سمى مقعدًا قبطيًا.

♦ التختبوش:

وفي دور القرن التاسع عشر الميلادي ظهر التختبوش وحل محل المقعد وهو جزء من الحوش به عمود تحمل القاعة العليا ترص حوله الدكك الخشيبة يجلس علها صاحب المنزل في ندوته.

♦ الباذهنج (ملقف الهواء):

واشتملت الدار على القاعات الكبيرة المقسمة إلى إيوانين ودور قاعة بها الفسقية والصفة الرخامية، وبها الباذهنج (ملقف لجلب الهواء من اتجاهه البحري) وهو على أنواع. وأزرت القاعات بالرخام والقاشاني وشرعت فيها المحاريب غير المجوفة. وبها الدقيسي (الطقيسي) وهي حجرة صغيرة مسحورة. وهذا التعبير استعمل في قبة الصخرة منذ القرن الرابع عشر الميلادي.

واشتملت على الأروقة والحواصل والحجرات المتعددة والحمامات بتدرجها من باب أول إلى بيت الحرارة إلى السقوف المعقودة المغطاة بحامات الزجاج الملون.

لقد كانت تلك الدور بألوانها الأخاذة، وفراشها الوثير، وطنافسها المزركشة، وفساقيها الجميلة الملونة التي كانت تنبعث منها المياه شبيهة بالقباب، فيضفي كل هذا على الحياة سحرًا يبعث الخيال كما ينشر الدعة والهدوء.

هذه إلمامه عاجلة لجزء من مصطلحاتنا المعمارية في مساجدنا ومدارسنا ودورنا، والكثير منها مدون في وثائقنا التاريخية المجهولة.

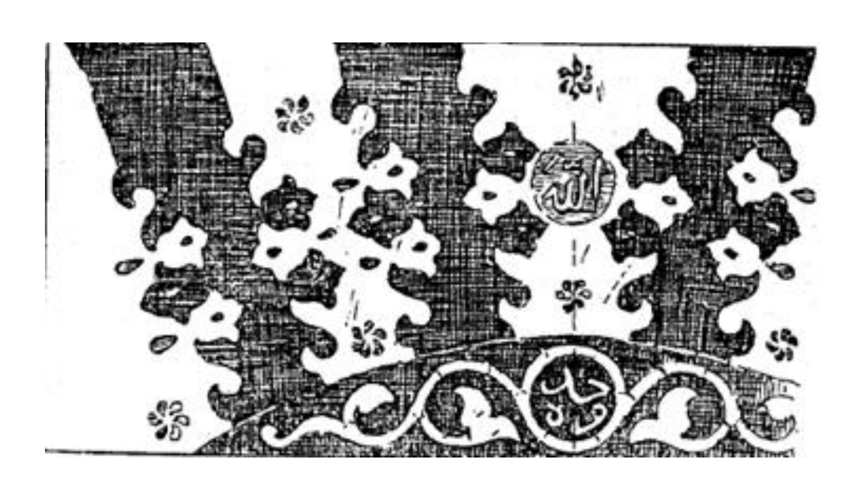
والحمد لله فقد أنشيء قسم الوثائق في الجامعة المصرية كما أنشئت دار الوثائق في وزارة الثقافة والإرشاد؛ ونأمل مخلصين في جمع الوثائق المبعثرة، وتصوير ما يتعذر ضمه إليها ثم صيانتها وتصويرها، وتيسير الاستفادة منها.

إن التعريف بتلك المصطلحات ليس مقصورًا على الوثائق فهي تضم شطرًا منها، ونحن في أشد الحاجة إلى

جمع تلك المصطلحات من أفواه نوابغ الصناع في العمارة والفنون في مختلف الأقطار ورسمها ثم التعريف بها فقد أوشك هؤلاء على الانقراض، وأصبحنا مهددين بجدب محزن في هذه الناحية من الفنون.

ولا شك أن الآثاريين والقراء يشاركونني في المطالبة بإخراج المعجم الآثاري الشامل للمصطلحات المعمارية في

البلاد العربية وما ورد في وثائقها وما اصطلح عليه صناعها. وفيه نتناول شرح كل التفاصيل ووحداتها بالرسوم فهي أبلغ وصف للتعريف بها.



مزرر رخامي

الفتوحات الإسلامية وخصائص العمارة الإسلامية

كانت الفتوحات الإسلامية سبباً في نشأة العمارة الإسلامية، ولقد نجح العرب في تعريب الأقطار التي افتتحوها حيث اندمجوا في أهل البلاد وتعلموا منهم الزراعة والصناعة، وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة. ويدحض هذا الرأي إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب حينما سأله من أين لك هذا «... وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله».

ولا شك في أن المسلمين في صدر دولتهم استعانوا بعباقرة الصناعة وغيرها ممن وجدوهم في الأقطار التي افتتحوها، كما أنه كان من بينهم عدد من ذوي الصناعات لأنهم لم يكونوا كلهم من البادية كما توهم الكثير. بل كان منهم من اليمن والشام. وهي بلاد حضارات عريقة.

ويبدو لي أن استعانتهم بصناعيي تلك البلاد في مستهل فتوحاتهم كان غالبًا في المنشآت المدنية. ولذلك نرى كل المساجد الجامعة عند نشأتها في صدر الإسلام كانت مثالا للبساطة لا أثر للفن المعماري فيها. فلا زخرف ولا حجارة ولا بياض ولا بلاط ولا محاريب. ولكنها لم تلبث طويلا حتى سايرت سنة التطور. وهذا نلمسه جليًا فيما سأذكره عن نشأة المسجد النبوي، وعن جامع عمرو بن العاص، وهما مثالان للمساجد الجامعة في الأمصار عند نشأتها.

المسجد النبوي:

بني هذا المسجد عند إنشائه باللبن على أساس من الحجارة بسقف بالجريد واتخذت عمده من جذوع النخل. وظل على بساطة هذا رغم توسيعه إلى خلافة عثمان بن عفان ﷺ فقد هدمه وأعاد بناءه بالحجارة وبيضه بالجص واتخذ له عمدا من الحجارة وسقفه بالساج وزاد فيه.

وفي سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م أمر الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وتجديده بما يتفق مع أهميته وبعث اليه بالرخام والفسيفساء مع صناع من مختلف الأقطار مصر والشام والأستانة

فهدمه عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة وكسا جدرانه بالفسيفساء والرخام. وعمل سقفه بالساج المموه بالذهب، وأقام به أربع منارات.

ثم توالت العناية على المساجد مسايرة للنهوض المعماري حتى بلغ منتهى الروعة في القرن الثالث وتمثلت فيه أرقى نماذج العمارة وفنونها.

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط:

ومثله سنة ٢١هـ/ ٦٤١م كانت مساحته ٥٠× ٣٠ ذراعا فرشت أرضه بالحصاه وبنى باللبن وسقف بالجريد والطين واتخذت عمده من جذوع النخل ولم يجعل له مئذنة ولا محرابا مجوفا ولا منبرًا.

ثم تدرجت أعمال الإصلاح مع الزيادة تبعا لاطراد التقدم والعمران. وهذا ما كان يبدو أثره عاما فعاما في تلك المنشآت، فما أن انتهى القرن الأول إلا وكان الجامع هدم وأعيد بناؤه أكثر من مرة مع الإضافة والتجميل، فقد هدمه في سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م قرة بن شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك وأعاد بناءه وأحدث فيه المحراب المجوف اقتداء بالمحراب الذي أحدثه بالحرم النبوي الأمير عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م وأقام به منبرًا خشبيًا جديدًا سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م وأحدث فيه المقصورة، ومن ثم سار الجامع في درجات الكمال ومسايرة التقدم المعماري في زخرفة المساجد وتزهيها وكسوتها بالرخام والفسيفساء، وهذا أكبر برهان على نهوضهم بالعمارة والصناعة. فإنهم ما إن تم لهم تمكين مكانهم الجديد وتوطيده، وما إن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار، حتى نشطوا للفتح الثاني وهو الفتح العلمي والصناعي، فأتوا في الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب.

وكان من أثر ذلك أنهم ملكوا ناصيتي العلم والصناعة كما ملكوا ناصية العالم وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم في كل مظهر من مظاهرها، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم الأوائل إما بالتنقيح والتهذيب أو الزيادة والاختراع. فكان للصناعة والعمارة نصيب موفور تجلى في منشآتهم من مساجد وقصور وغيرها.

وخير دليل على عصبيتهم وميلهم لطبع كل شيء بطابعهم أنه ما انتهى القرن الأول الهجري إلا والدواوين عربت والنقود ضربت باللغة العربية، وأخذت الفنون والصناعات في

الازدهار والانطباع بطابعهم.

نعم.. إن العمارة الإسلامية في نشأتها تأثرت بالبيئة التي نشأت فيها. إلا أن تلك التأثيرات مع الآثار التي وقعت عليها، زال غالبها من الوجود، اللهم إلا بقايا تأثيرات جزئية في الزخارف وعلى بقايا القصور في بادية الشام وشرقي الأردن والعراق وبخاصة في التخطيط وفي التصوير والفسيفساء. وهي تأثيرات بيزنطية وفارسية في سوريا وساسانية في العراق وهللينستية وبيزنطية في مصر، كما كانت الشام أيضًا ملتقى لتيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهللينستية والساسانية المصرية.

وبالرغم من التأثيرات التي وقعت عليها فإنها تغلبت عليها وطبعت بطابع عماري إسلامي جديد.

ومما لا شك فيه أن للدولة الأموية فضل النهوض بالعمارة الإسلامية والوصول بها إلى مدارج الكمال بما أنشأوه من قصور في المدن وفي البادية، وبما شيدوه وجددوه من مساجد النبوي والأموي والأقصى والصخرة والمعتبرة دعائم للفن الإسلامي.

ولا عجب فالدولة الأموية دولة بناء وتعمير كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية وإقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرين على تكوين حضارة عمارية تضاهي حضارتهم، وأن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفا حتى لا يتيهوا على المسلمين.

ولذلك ينسب إلى الوليد أنه قال لأهل دمشق، إني رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس.

وقد تجلى هذا الهدف السامي في مراقبة الوافدين من الأجانب لزيارة المسجد الأموي ومعرفة رأيهم في المسجد دون علمهم. وحينما نقلوا اليه آراءهم المليئة بالدهشة والإعجاب من فخامة بنائه ورخامه وفسيفسائه قال «لا أرى مسجد دمشق إلا غيظا على الكفار»

وحينما عرض عليه عمر بن عبد العزيز أن ينقل ما في محراب مسجد دمشق من ذهب كي لا يشغل المصلين. عرض عليه في هذا الوقت رأى زوارا آخرين بأنهم حينما وقفوا تحت قبة المسجد سأل كبيرهم. كم لإسلام! قالوا مائة سنة قال فكيف تصغرون أمرهم، ما بنى هذا البنيان إلا ملك عظيم» قال: إذا غايظ العدو فدعه.

ولما زار الرحالة أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد البشاري الجامع الأموي في القرن الرابع الهجري وفتن بما رآه فيه وزرات رخامية وفسيفساء مذهبة تكسو جدرانه وعقوده وبها صور الأشجار والأمصار والكتابات، ومصاريع مصفحة بالنحاس وغير ذلك من روائع الصناعة قال لعمه يا عم «لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق. ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل»، أجابه: «يا بني إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل، ذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعًا حسنة قد افتن في زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة ، فاتخذ للمسلمين مسجدًا شغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا. ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيأتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فتنصب على الصخرة قبة على ما ترى»

وخير دليل على أن الأمويين نهجوا في تشييد منشآتهم نهجًا عماريًا جديدًا طبع بالطابع الإسلامي، تصريح الخلفية المأمون عقب زيارته للجامع الأموي «إن بنيانه على غير مثال متقدم».

وقد نهجت الدولة العباسية سبيل المنافسة في تشييد المنشآت العمارية من مساجد وقصور وأبدعوا فيها أيما إبداع، وكان هدفهم أيضًا هو هدف الدولة الأموية. ذلك أن المأمون رد على من انتقد إسرافه في بهرجة قصوره. وبعد حوار معه ألزمه فيه الحجة قال: «هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ونعد السلاح والكراع وما بنا إلى أكثر حاجة».

ومنذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أخذت العمارة الإسلامية تتخلص من المؤثرات القديمة وما بقي منها بقي في عناصر قليلة في الزخرف حورت أيضا وأصبحت التأثيرات التي تقع على العمارة تأثيرات إسلامية جزئية بين الأقطار الإسلامية وبعضها، تنوعت بتعاقب الدول.

ومن خصائص العمارة الإسلامية أنها هيأت منشآت عادية لمختلف الأغراض، فإنها بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قطر فإنها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والربط. وثقافية كالمدارس والخوانق والكتاتيب، ساعدت المساجد في رسالتها الثقافية. ومالية بإنشاء بيوت المال في مساجدها الجامعة ومنها ما هو

موجود إلى الآن في مسجد دمشق وحماه. واجتماعية كدور كفالة المرأة وإيواء الفقراء والمنقطعين. وصحية كالمستشفيات والحمامات. وتجارية كالوكالات والأسواق والخانات. وحربية كالأسوار بأبوابها وأبراجها والحصون. ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والموانئ.

وكما اختلفت طرز العمارة عن بعضها في الأقطار الإسلامية، حتى أصبح كل طراز علما على دولته، فإنها اختلفت كذلك في طريقة الانتفاع ببعض تلك المؤسسات، فالمدرسة التي شيدت في مصر لتؤدي وظيفة المسجد وإقامة الجمعة والأوقات الخمسة حيث أقيم بها منارة ومنبر أو لحق بها سبيل وكتاب ومدفن للمنشئ ومساكن للطلبة وحوض لشرب الدواب، نراها في فاس ومكناس وبغداد، أنشئت كي تلقى بها الدروس فقط وتؤدى بها الأوقات الخمس دون الجمعة، ولذلك لا نرى بها منارة ولا منبرًا ولا بقية الملحقات.

وإذا كانت المدارس بمصر والعراق وشمال إفريقيا هيئت للتعليم ومنها علوم القرآن فإن سوريا امتازت بإنشاء دور القرآن لدراسة علوم القرآن خاصة، والمنبر في مصر والعراق والشام ثابت في مكانه بجوار المحراب بينما هو في كثير من بلدان شمال إفريقيا- تونس، والجزائر، وفاس- لا يظهر إلا يوم الجمعة حيث يخرج على عجل من الحجرة الخاصة به بجوار المحراب

وكما عرف قطر بما يجلب منه من طرائف وسلع فإنه عرف كذلك بأهم عمائره بل أصبحت من أهم خصائصه وعلما عليه، فمن خصائص دمشق: المسجد الأموي، وقبر صلاح الدين، والمدرسة الظاهرية، وقصر الحير وحصونها. ومن خصائص الأندلس- مسجد قرطبة[١]، وقصر الحمراء بغرناطة، ومنارة الجامع الكبير (الجيرالدا) وقصر بني عباد بأشبيلة. ومن خصائص القدس: المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وقصر هشام بخربة المفجر، والقصور الأموية في شرقي الأردن.

ومن خصائص العراق: المنارات الملوية، وزخارف القصور في سامرا، وقصر الأخيضر، والعتبات الشريفة: الكاظمية في بغداد، والإمام العسكري بسر من رأى، والإمام الحسين بكربلاء، والإمام علي بالنجف، تلك المشاهد الغنية بأنواع الزخرف والمكسوة قبابها ومناراتها برقائق الذهب وبالقاشاني ومقرنصات البللور والزخرف المتخذ من قطع المرايا. وصناعة

---

(١) وترى صورته من الداخل على غلاف هذا العمود

الطابوق (الآجر) المنقوش بشتى أنواع الزخرف، والقباب المخروطة.

ومن خصائص مصر: مقياس النيل، والجامع الطولوني، والجامع الأزهر، وأبواب القاهرة، ومدرسة السلطان حسن، ومدرستا السلطان قايتباي والغوري.

ومن خصائص شمال أفريقيا: مسجد القرويين في فاس، ومدرسة أبو عنان وأسواقها، ومسجد الزيتونة بتونس، وعقبة بالقيروان، وأبو مدين بتلسمان، وهكذا بقية الأقطار.

ولما كانت القاهرة أغنى الأقطار الإسلامية وأسعدها حظًا في المحافظة على تراثها المعماري، فإنها كذلك امتازت بخصائص لا توجد في غيرها، فقد تمثلت فيها الحضارات المتعاقبة عليها ممثلة في شتى التفاصيل العمارية من جص وأحجار ورخام ونحاس وأخشاب ما بين خرط وتطعيم وتجميع وحفر وفسيفساء ونقش، وببراعة الخطاطين وتكوينهم للعناصر الزخرفية في الخط الكوفي ما بين نباتية وهندسية.

هذا عدا التنوع في تصميم المسجد والمدرسة، وفي تصميم وجهات المساجد والمدارس، وتنوع أشكال المقرنصات والزخارف.

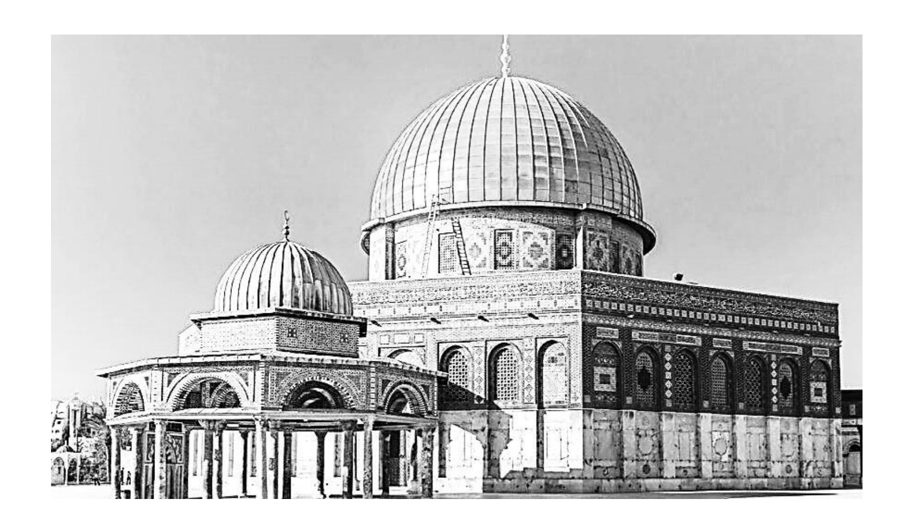
وسمة خاصة أخرى انفردت بها وهي تكسيه الزخارف الجصية الملونة برقائق الزجاج، ومنها نموذج وحيد بمصر في رباط أحمد بن سليمان.

ومن أبرز خصائصها جمال ورشاقة القبة والمنارة فكلاهما بلغ القمة في جمال التناسق، ودقة النقش وخاصة في دولة المماليك الجراكسة.

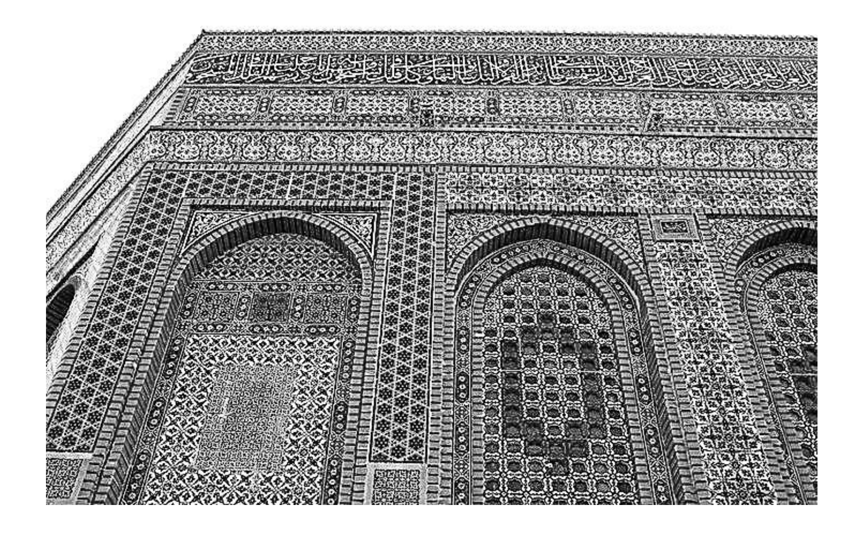
وعلى ذكر القبة أذكر أن مصر لها فضل السبق في إنشاء القبة ذات المنور، وفي أن مهندسًا سبق عصر برونيلسكي سنة ١٤٢٠م الذي ينسب إليه في وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية.

وإذا أردنا الإشارة إلى خصائصها في طرائف كل عصر، فهذا ما لا يتسع له المجال ويكفي أن نفتخر بالجامع الطولوني وزخارفه المتنوعة طولونية وفاطمية، وبالجامع الأزهر وبغيره من منشآت الدولة الفاطمية الغنية بدقائق صناعة الجص والحفر في الخشب ومثلها الدولة الأيوبية. وبمنشآت المنصور قلاوون وأفراد أسرته في هذا العصر الزاهر الذي تركزت فيه قواعد العمارة في مصر، وكفاه فخرًا مدرسة السلطان حسن إحدى عجائب العمارة

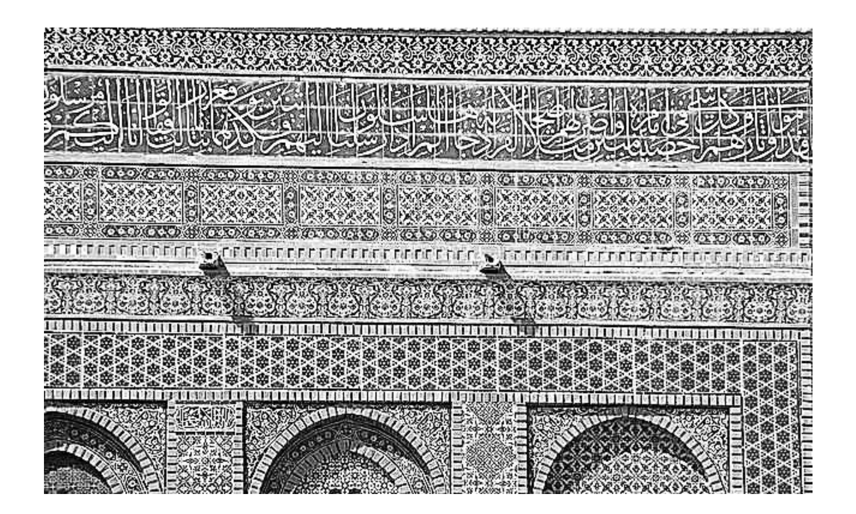
الإسلامية في العالم، ومنشآت أمرائه أمثال الأمير فجماس الإسحاقي، وأبو بكر مزهر، ثم منشآت السلطان الغوري، الزخارف في الآجر بالمدرسة المستنصرية بالعراق ببغداد ثم منشآت دولة المماليك الجراكسة، تلك المنشآت التي أخذت زخرفها وازينت، وكفاها فخرًا منشآت السلطان قايتباي وخاصة مدرسته بالصحراء:



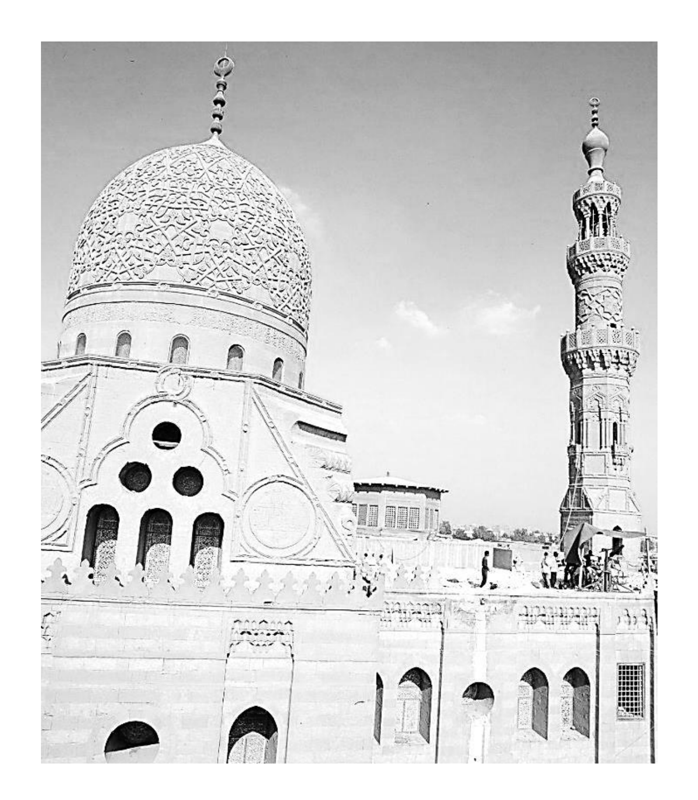
قبة مسجد قبة الصخرة بالقدس



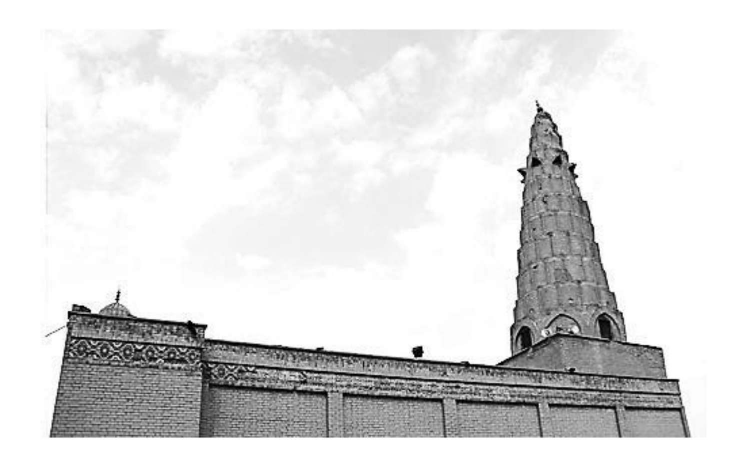
جدار من جدران مسجد قبة الصخرة من الخارج



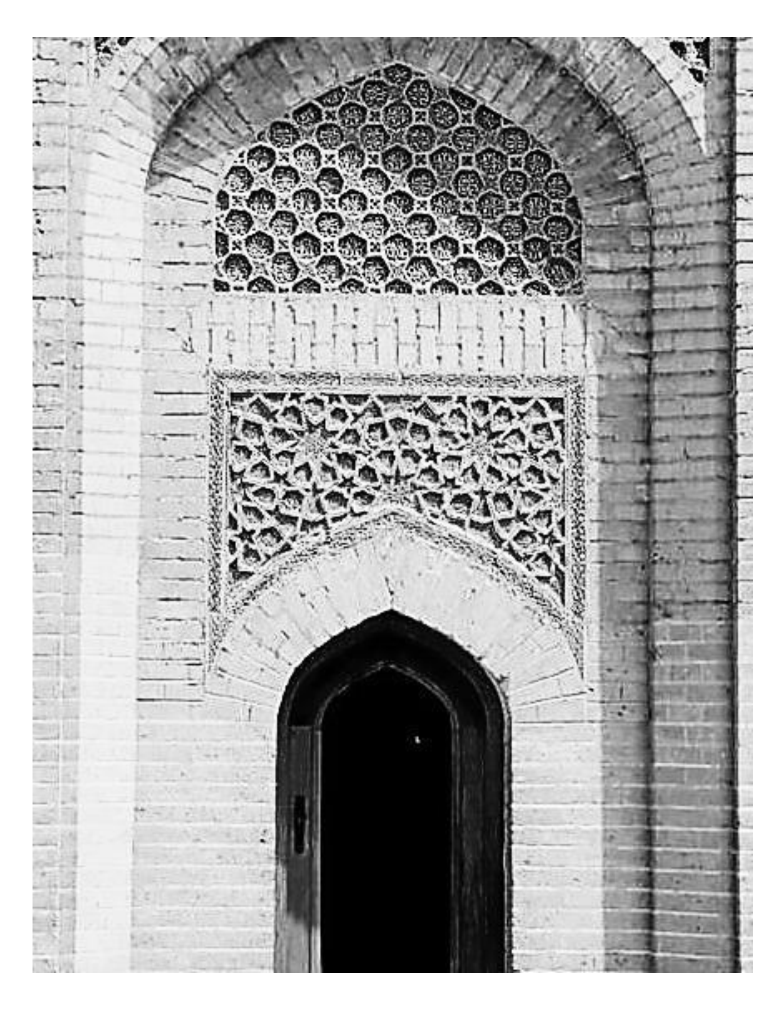
الخط العربي والزخرفة بالآيات القرآنية – مسجد قبة الصخرة – القدس



مدرسة السلطان قايتباي



مسجد عمر السهروردي في بغداد



الزخارف في الآجر بالمدرسة المستنصرية – بغداد – العراق



مسجد الزيتونة من الداخل

نشأة المساجد ورسالتها

مما لا شك فيه أن مصر بالرغم من فقد الكثير من آثارها فهي اغنى بلاد العالم بآثارها.. وامتازت بالمحافظة على تراثها الأثرى مبكرة. ولذلك نرى طرز العمارة في عصورها المختلفة ممثلة في هذا التراث أصدق تمثيل. وفيها يجد المؤرخ غايته، والمهندس ضالته والفنان والصانع طلبته. فهي مدرسة للعلوم والفنون.

سأتناول في تلك السلسلة من البحوث التعريف بدور العبادة. المسجد والجامع والمدرسة والخانقاة والرباط والمشهد والزاوية، مع تقديم النماذج الممتازة منها، وبينها تحف مطمورة سنكشف عنها ونجلوها

هذه المسميات لدور العبادة رسالتها الأولى اقامة الشعائر الدينية. وقد توهم البعض أن عددها كثير وانتقد مجاورتها لبعضها. وفاتهم أن لها رسائل أخرى. وأنها شيدت لتخدم عدة أغراض، ولكل منها تصميمه وتفاصيله التي تتفق وتنفرد.

المسجد:

المسجد الموضع الذي يسجد فيه. وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد: قال رسول الله ﷺ جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا"

والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه ندب السجود، جمعه مساجد. والمساجد من بدن الإنسان مواضع السجود وهي الجبهة والأنف واليدان والركبتان والقدمان.

وقيل أن المسجد بالكسر اسم لموضع العبادة سجد فيه أم لم يسجد فإذا نظر فيه إلى معنى الفعل قيل مسجد بالفتح.

الجامع:

نعت للمسجد. وإنما نعت بذلك لأنه علاقة الاجتماع. وما كانوا في الصدر الأول يفردون كلمة "الجامع" وإنما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد، وطورًا يصفونها فيقولون المسجد الجامع وآونة يضيفونها إلى الصفة فيقولون مسجد الجامع. ثم تجوز الناس بعد واقتصروا على الصفة فقالوا للمجسد الكبير وللذي تصلى فيه الجمعة وإن كان صغيرًا الجامع. لأنه يجمع الناس لوقت معلوم.

وأول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قباء الذي يقال له مسجد التقوى لقوله تعالى فيه "لمسجد أسس على التقوى من أول يوم"

وسئل النبي ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال هو مسجدي "أي مسجد المدينة" وهذا لا يعارض الأول إذ كل منهما أسس على التقوى غير أن قوله سبحانه وتعالى. من أول يوم يقتضي أن يكون مسجد قباء لأن تأسيسه كان أول يوم حلول الرسول ﷺ دار هجرته.

ويرى الحافظ بن حجر أن السر في جوابه ﷺ. دفع توهم أن ذلك مقصور على مسجد قباء.

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدًا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد. فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك. فكانت صلاة الجمعة تؤدي في المسجد الجامع.

ظلت صلاة الجمعة تؤدي في جامع عمرو بالفسطاط باعتباره أول جامع أنشئ فيها إلى أن قدم صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من العراق في طلب مروان بن محمد آخر

خلفاء بني أمية سنة ١٣٣هـ ٧٥٠م فنزل بعسكره في شمال الفسطاط وبنى هناك الأبنية فسمى هذا الموضع بالعسكر. ثم اقيمت صلاة الجمعة في مسجد بناه الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ١٦٩هـ ٧٨٥م عرف بجامع العسكر.

استمرت الخطبة تقام في هذين المسجدين حتى بنى أحمد بن طولون مسجده سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨م فأبطل صلاة الجمعة من جامع العسكر وظلت تقام بجامعه وجامع عمرو بن العاص إلى أن قدم جوهر القائد وبنى الجامع الأزهر سنة ٣٦١هـ ٩٧١م. فكانت الجمعة تقام في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر.

وفي سنة ٣٦٦هـ ٩٧٦م أنشأت السيدة تغريد أم الخليفة الفاطمي العزيز بالله جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء، ثم أنشأ العزيز بالله جامعه بباب الفتوح في سنة ٣٨٠هـ ٩٩٠م وأقام الجمعة فيه في سنة ٣٨١هـ ٩٩١م وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله وصلى فيه الجمعة في شهر رمضان سنة ٤٠٣هـ ١٠١٣م، كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامعي المقسى وراشدة. فكانت الجمعة تقام في هذه الجوامع كلها إلى أن انتهت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م وأبطلت الخطبة من الجامع الأزهر. واستمرت فيما عداه.

وهذا هو السر في كبر مساحة هذه المساجد. فقد أعدت لتجمع عددًا كبيرًا، بل أمة مجموعة، ثم كثر إنشاء المساجد والمدارس في أنحاء مصر والقاهرة وتعددت الخطبة.

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط:

هذا الجامع مثال لنشأة المساجد من حيث البساطة والتطور. وفيه تمثلت رسالة المساجد الجامعة في صدر الإسلام. انشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ ٦٤٢م. ويعرف بتاج الجوامع. والجامع العتيق، وكان وقتئذ مشرفًا على النيل. وقد وقف على تحرير قبلته جمع من الصحابة ﷺ. ولذلك وصفوه "بإمام المساجد، ومقدم المعابد، وقطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، موطن أولياء الله وحزبه. طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه. وواظب على القيام بنواحيه. وتقرب منه إلى صدر المحراب وخر إليه راكعًا وأناب".

وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ ذراعًا × ٣٠ ذراعًا يحيط به الطريق من كل جهة، ولا صحن له. تسوده البساطة. فليس له محراب مجوف، ولا منارة ولا فرش. وجدرانه عارية من البياض والزخرف، له بابان في بحريه وبابان في غربيه وبابان يقابلان دار عمرو.

واتخذ إليه منبرًا فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا: "أما يكفيك أن تقوم قائمًا والمسلمون جلوس تحت عقبيك" فكسره. ويقال أنه أعاده بعد وفاة عمر.

ظل الجامع على بساطته في عهد الخلفاء الراشدين، ثم ساير ركب الحضارة مع الدولة الأموية، حيث زاد في مساحته مسلمة بن مخلد الانصاري أمير مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان وزخرف جدرانه وسقوفه وأنشأ به أربع صوامع للمؤذنين في أركانه، نقش اسمه عليها، وأمر بفرشه بالحصر بدل الحصباء، وذلك في سنة ٥٣هـ ٦٧٢م.

وكذلك هدمه ووسعه والي مصر عبد العزيز ابن مروان في سنة ٧٩هـ ٦٩٨م. ولم يلبث طويلًا حتى هدمه الأمير قرة بن شريك العبسي والي مصر بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك وذلك في سنة ٩٣هـ ٧١٠م وزاد فيه وأحدث به المقصورة وذهب تيجان أربعة عمد أمام المحراب وأحدث به محرابًا مجوفًا ووضع به منبرًا جديدًا. وصار للجامع أربعة أبواب في شرقية ومثلها في غربيه وثلاثة في الجهة البحرية.

وهكذا نرى الجامع خرج من بساطته الفطرية وتطور مع حضارة الدولة الأموية. وناله ما نال مساجد عصرها من زخرف وتذهيب جعله يتيه على ما حوله من بيع وكنائس بالفسطاط.

وكما عنيت به الدولة الأموية وجعلته يساير نهضتها وحضارتها، فقد اهتمت به الدولة العباسية وتناوله ولاتها بالزيادة والتعمير. وقد ضوعفت مساحته في سنة ٢١٢هـ ٨٢٧م حيث أمر عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل الخليفة المأمون بتوسيعه. فأضيف إلى أرضه مثلها من الجهة القبلية. وبذلك بلغت مساحته ١١٢/٥٠ × ١٢٠,٥٠ وهي مساحته الحالية.



صحن المسجد

ونستطيع أن نتبين مقدار ازدهار الجامع في الدولة العباسية من بقايا الشبابيك المكتشفة في واجهتي الجامع الغربية والقبلية والتي تبين مقدار ازدهار الفنون فيه، تلك الشبابيك المجلدة أطرها من الداخل والخارج بخشب منقوش بنقوش مدرقة ويتصل هذا الزخرف بالشباك المجاور له. ويشمل الزخرف الحاجز المتوسط للشباك المملوء فراغه من أعلى وأسفل بجص مفرغ بأشكال زخرفية.

ويتجلى أيضًا هذا الزخرف في طبالي تيجان العمد بالشبابيك المذكورة. وفي عدد من طبالي عمد هذه الزيادة.

وهنا انتهت مرحلة توسعة الجامع، وأخذ زخرفه وازين مما جعل خلفاء مصر وملوكها تتجه عنايتهم به إلى مزيد من الزخرف، فلم ينتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حتى كان الجامع بالفا حد الزخرف. وصفه الرحالة أبي عبد الله مُحَمَّد بن احمد المقدسي البشاري قبل سنة **٣٧٥**هـ **٩٨٥**م حينما زار مدينة الفسطاط فقال:

"وأبطأت يومًا عن السعي إلى الجمعة فألفيت الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع، ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين، وفيه منبر. وهو حسن البناء في حيطانه شيء من الفسيفساء على أعمدة رخام.

أكبر من جامع دمشق، والازدحام فيه كثير قد التفت حوله الأسواق إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضاة، وهو أعمر موضع بمصر".

ثم توالت عليه عناية الخلفاء الفاطميين بالزخرف والهدايا. ففي سنة ٤٠٣هـ ١٠١٢م أهدى إليه الحاكم بأمر الله مصاحف وربعات. كما أهداه ثريًا كبيرة من الفضة، كما أمر الخليفة المستنصر بالله في سنة ٤٣٨هـ ١٠٤٦م بعمل منطقة من الفضة في صدر المحراب الكبير وجعل لعموديه أطواقًا من فضة. هذا عدا مقصورة خشبية ومحراب متنقل من خشب الساج منقوش بعمودين من الصندل وذلك في سنة ٤٤٢هـ ١٠٥٠م.

ويصفه الرحالة الفارسي ناصر خسروا وقد زاره سنة ٤٣٩هـ ١٠٤٨م: "بأنه قائم على اربعمائة عمود من الرخام. وجدار المحراب مغطى كله بالرخام الأبيض ومكتوب عليه آيات ومن القرآن بخط جميل. ويحيط بالمسجد من جهاته، الأربع الأسواق وعليها تفتح أبوابه، ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها".

وبعد أن وصف الثريا الفضية التي أهداها الحاكم. قال: "ويوقدونه في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل، ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض. ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل".

وكان لحريق الفسطاط سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨م أثر كبير في تخريب الجامع مما جعل العناية توجه إليه لإصلاحه وتدعيمه فأصلحه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٨هـ ١١٧٢م كما عنى بإصلاحه الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٦هـ ١٢٦٨م والمنصور قلاوون، ثم عمارة الأمير سلار سنة ٧٠٣هـ ١٣٠٣م. وبقى من تلك العمارة المحراب الجصي بالواجهة الغربية للجامع (في الزيادة الغربية) وهو الغربية للجامع، كما كان بها مجلس قاضي الحكم الشافعي ومجلس قاضى الحكم المالكي

وكان به بيت المال لحفظ أموال اليتامى. عاينه ابن رستة في القرن الثالث الهجري أمام المنبر، ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد. ثم نقل إلى صحن المسجد ولعله كان محل المطهرة وسط الجامع الآن.

وإلى الآن يوجد في الجامع الأموي بدمشق والجامع الكبير بحماة بيت المال.



جامع عمرو بن العاص

جامع عمرو

كانت حلقات الدروس تقام في الجامع لدراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب ولما قدم مصر الإمام مُحَمَّد بن ادريس الشافعي سنة ١٩٩ إلى ٢٠١هـ ألقى دروسه في جامع عمرو وظلت حلقات الدروس في ازدياد حتى انها بلغت ٣٣ حلقة في سنة ٣٢٦هـ ٩٣٧م منها ١٥ حلقة للشافعيين، ١٥ للمالكيين، ٣ حلقات الحنفيين.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بلغت حلقات الدروس بالجامع ١١٠ حلقه بتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الأدب والحكمة.

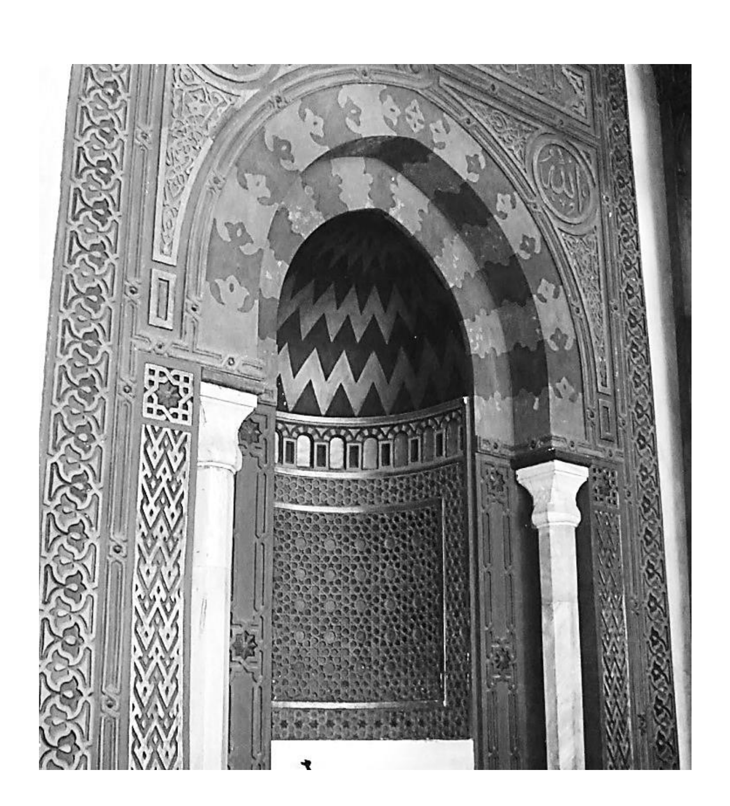
وقد أطلق على أماكن حلقات دروس كبار العلماء اسم زوايا. ومنها زاوية الإمام الشافعي والزاوية المجدية والزاوية الصاحبية والزاوية الكمالية.

وكانت الدروس تلقى فيه ليلًا ونهارًا. يقول البشاري: "وبين العشاء بن جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة".

وكان يقام بالجامع حلقات دروس ووعظ للسيدات تصدرتها في الدولة الفاطمية حوالي سنة ٤١٥هـ ١٠٢٤م واعظة زمانها أم الخير الحجازية.

وقد بلغت حلقات التدريس بالجامع سنة ٧٤٩هـ ١٣٤٨م بضعًا واربعين حلقة لا تكاد تنفض منه. ولم تنقطع أخبار التدريس بهذا الجامع إلا في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

ولجمال موقع الجامع وقربه من النيل في اقدم عصوره كان سطحه ندوة للأدباء والشعراء يحدثنا ابن ظافر الأديب المصري ومن أدباء القرن الثالث عشر الميلادي عن ندوة فوق سطح الجامع جمعت ابن قلاقسي وابن المنجم وابن مؤمن وشبحاح المغربي تبارو فيها في وصف الغروب بأشعار رقيقة وخيال رائق.



محراب جامع عمرو بعد ترميمه

الاحتفال بالصلاة في آخر جمعة من رمضان

نشأ هذا التقليد منذ الدولة الفاطمية فقد كان الخليفة الفاطمي يركب للاحتفال برؤيا شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه ويصلي الجمعة الثانية في جامع الحاكم والثالثة في الجامع الأزهر.

فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها في جامع عمرو بن العاص. فيقوم أهالي القاهرة بعمل الزينات من باب القصر بالنحاسين إلى جامع ابن طولون. ويقوم أهالي مصر القديمة بعمل الزينات حتى جامع عمرو. وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر.

ولما أتم مراد بك اصلاح الجامع في النصف الثاني من شهر رمضان سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧م أقيمت فيه آخر جمعة من رمضان فاتخذت عادة، احياء للعادة القديمة.

غير أني أرى في إقامة الصلاة في هذا الجامع في نهاية شهر رمضان كان فيه معنى ساميًا حبا الله به هذا القائد العظيم فهي بمثابة أحياء ذكرى وفاته إذ يوافق آخر أسبوع من رمضان الأسبوع الذي توفى فيه عمرو بن العاص، فقد توفى ليلة عيد الفطر سنة ٤٣هـ ٦٦٣م.

ولعمري أنه تكريم خليق به هذا القائد العظيم محرر مصر ورافع راية الإسلام فيها.

علاقة مصر بالسودان في العصر الإسلامي

كثيرًا ما نلاحظ اقتصار المشتغلين بتاريخ السودان على العصرين القديم والحديث تاركين أهم حقبة بينهما وهي "العصر الإسلامي". وهذا ما حداني إلى كتابة هذا البحث.

بعد أن فرغ عمرو بن العاص من فتح مصر، عهد إلى عبد الله بن أبي سرح بغزو النوبة سنه ٢١هـ – ٦٤١م على رأس جيش قوامه عشرون ألفًا، فمكث بها مدة ثم عقد صلحًا وعاد إلى مصر. ولما عزل عمرو عن ولاية مصر نقض أهل النوبة الصلح المعقود بينهم، وأغاروا على الصعيد، فأخربوا وأفسدوا. فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد، وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣١هـ – ٦٥١م، وحصرهم بمدينة دنقلة، وقاتلهم قتالًا شديدًا فقال شاعرهم:

لم تـــر عيـــني مثـــل بـــوم دنقلـــه   والخيـــل تعـــدو بالـــدروع مثقلـــه

ثم طلب ملكهم– واسمه فليدوروث– الصلح، وخرج إلى عبد الله مقدمًا الطاعة، فأكرمه وعقد معه صلحًا على أن يقدم سنويًا ٣٦٠ رأسًا؛ ووعده عبد الله بأن يهديه حبوبًا، وكتب لهم كتابًا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح العظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته؛ عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة. إن عبد الله بن سعد جمال لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين من جاورهم من أهل صعيد مصر، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله مُحَمَّد النبي ﷺ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربًا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم، أو طرقه؛ من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم؛ وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنكم؛ وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا، وعليك كنسه وإسراجه وتكرمته، وعليكم في كل سنة

ثلثمائة وستون رأسًا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب ما بين ذكور وإناث، ليس فيهم شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان؛ وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان، فإن أنتم آويتم عبدًا لمسلم، أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئًا من الثلثمائة والستين رأسًا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحوار بين وذمة من تعظمون من أهل دينكم وملتكم؛ الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك؛ كتبه عمرو بن شرجيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين".

ويقرر ابن خرداذ به أن العرب وصلوا إلى بلاد البجة إذ يقول: "وفي أعلى مصر النوبة والبهجة والحبشة، وكان عثمان صالحهم على ٤٠٠ رأس في السنة". وعزز وصولهم إلى بلاد البجة المؤرخ ابن عبد الحكم إذ يقول: "وتجمع لعبد الله بن سعد في انصرافه من النوبة على شاطئ النيل البجة فسأل عن شأنهم فأخبر أنه ليس لهم مالك يرجعون إليه، فاستهان بهم وتركهم ولم يكن لهم عقد صلح". وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولي، ويذكر أنه وجد في كتاب ابن الحجاب لهم ٣٠٠ بكر في كل عام حين ينزلون الريف، على أن يكونوا مجتازين تجارًا غير مقيمين، على أن لا يقتلوا مسلمًا ولا ذمياً.

ثم كثر اختلاط المسلمين بهم والتزوج منهم، فأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلامًا ضعيفًا؛ ومنهم جنس آخر يعرفون بالرفافج، وقيل الزنافج، وهم أكثر عددًا من الحدارب غير أنهم تبع لهم، واعتدوا على المسلمين، وكان ولاة أسوان من العراق فرفع إلى المأمون خبرهم فأخرج إليهم عبد الله بن الجهم، فكانت له معهم وقائع ثم هادنهم، وكتب بينه وبين كنون رئيسهم الكبير المقيم بقرية هجر كتابًا نسخته: "هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الأول سنة ٢١٦هـ لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان. إنك سألتني وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بيتك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانا علي وعلى جميع المسلمين فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانًا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد

أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكًا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون في بلدك ملكًا على ما أنت عليه في البجة، وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تحرم شيئًا عليك من الخراج. وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدًا رسول الله ﷺ أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدًا من المسلمين حرًا أو عبدًا، فقد برئت منه الذمة، ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم؛ وعلى أن أحدًا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال، أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لغرتهم، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه؛ وعلى أن أحدًا منكم إن قتل أحدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا أو خطأً حرًا أو عبدًا أو أحدًا من أهل ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالًا ببلد البجة أو بلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلد إن برًا أو بحرًا، فعليه في قتل المسلم عشر ديات، وفي قتال العبد المسلم عشر قيم، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرًا أو مقيمًا أو مجتازًا أو حاجًا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤوا أحدًا من أبقي المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين؛ وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إن نزلتم ريف الصعيد لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحًا، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال، ولا تمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًا ولا بحرًا، ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالًا، وعلى أن لا تهدموا شيئًا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصبحة وهجر وسائر بلادكم طولًا وعرضًا، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة؛ وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلًا يفي المسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال. وعلى أن أحدًا من البجة لا يعترض حد "القمر" إلى قرية يقال لها "قيان" من بلاد النوبة حدًا لا عمدة. عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان

على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين، فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلفه من الوفاء والميثاق، ولكنون ابن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ما وفي كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه، فإن غير كنون أو بدل أحد من البجة فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم، وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفًا حرفًا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله ابن إسمعيل القرشي". ومن هذه المعاهدة نشعر أن بلاد النوبة لم تذعن جميعها للإسلام، بل بقى الكثير منهم على دينه فهم مسيحيون يعاقبة.

ولم تحافظ البجة كثيرًا على عهدها فعادت إلى غزو الريف من صعيد مصر، وكثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، فندب لمحاربتهم مُحَمَّد بن عبد الله القمي، فأعد جيشًا قليل العدة، ولكنه مختار، وراعي في ذلك صعوبة المسالك في تلك البقاع. خرج إليهم من مصر وسارت المراكب في البحر، فاجتمع البجة لقتالهم في عدد عظيم قد ركبوا الإبل، فلم يلبث أن حمل علهم، وفي أعناق الخيل الأجراس، فنفرت الإبل، وتبعهم المسلمون وقتلوا منهم كثيرًا، وعلى رأسهم زعيمهم. فقام من بعده ابن أخيه وطلب الهدنة، فصالحهم على أن يقدم الطاعة إلى أمير المؤمنين، فسار إلى بغداد وقدم على المتوكل بر من رأى في سنة ٢٤١هـ– ٨٥٥م، فصولح على أداء الإتاوة والبقط، واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن. وأقام القمي بأسوان مدة، وترك في خزائنها ما كان معه من السلاح والأدوات الحربية فلما كثر المسلمون في المعادن، واختلطوا بالبجة قل شرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه، وتسامع الناس به، فوفدوا من البلدان. وقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة في سنة ٢٥٥هـ – ٨٦٨م ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب، فكثر بهم العمران في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمل المؤن إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب.

وقد كانت النوبة أشد من البجة إلى أن قوي الإسلام وانتشر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من أهل البجة، فقويت البجة، ثم صاهرهم جماعة من ربيعة فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار.

وفي سنة ٢٩٢هـ – ٩٠٤م ورد كتاب الخليفة المكتفي بالله إلى عيسى النوشري باستقراره في أعمال مصر جميعًا قبليها وبحريها حتى الإسكندرية وإلى النوبة والحجاز. وفي سنة ٣٤٥هـ – ٩٥٦م غزا النوبة مُحَمَّد بن عبد الله الخازن وفتح مدينة إبريم ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان أكثر جيشه من السودان، فقال الشاعر:

ولما غزا كافور دنقلة غدا	بجيش كطول الأرض في مثله عرض
غزا الأسود السودان في رونق	ولما التقى الجمعان أظلمت الأرض

التفكير في بناء الخزان

لم تغفل مصر عن تدبير ماء النيل والانتفاع به؛ وإن أول تفكير في بناء الخزان يرجع إلى أيام الحاكم بأمر الله، وتفصيل ذلك أن الرياضي الكبير والمهندس البصري الحسن بن الهيثم هو السابق في التفكير في بناء الخزان على النيل، وكان الخليفة الحاكم بأمر الله بلغته أخباره وأنه قال: "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملًا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فازداد الحاكم شوقًا لرؤيته، وأرسل إليه يرغبه في الحضور إلى مصر، فلما وصل إلى مصر استقباله الحاكم وأكرمه، ثم طالبه بما وعد به في أمر النيل، فسار ومعه الصناع. وما إن شاهد الآثار وإحكام هندستها ودقة تصويرها حتى تحقق أن مشروعه صعب التنفيذ، لأن من تقدمه لم يعزب عنهم علم ما علمه، ولو أمكن لفعلوه، فهبطت همته، ووصل إلى الشلال وعاين الموقع، وتحقق الخطأ فيما وعد به، ثم تظاهر بالجنون إلى أن مات الحاكم، فأظهر العقل وأقام بالقاهرة ينتفع بعلمه بالجامع الأزهر إلى أن مات في حدود سنة ٤٣٠هـ – ١٠٣٨م. ويعلق المغفور له أحمد تيمور باشا على هذه الرواية بأن إحجام ابن الهيثم عن تنفيذ مشروعه لم يكن عن يأس ولا خطأ في التقدير، ولكنه أظهر ذلك واعتذر بما اعتذر به خوفًا من بطش الحاكم، فرأى من الحكمة أن لا يقدم على مثل هذا العمل الخطير.

وفي سنة ٥٦٨هـ – ١١٧٢م غزاها شمس الدولة نور نشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين، وفتح حصن إبريم، وعاد بالسبي إلى أسوان ثم إلى قوص. وكان في صحته أمير يقال له إبراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعه إياها، وأرسل معه جماعة من الأكراد. وما إن وصلوا إليها حتى تفرقوا فرقًا وشنوا الغارة على بلاد النوبة، إلى أن وصلوا إلى جزيرة ذبدان فغرق أميرهم إبراهيم مع بعض أتباعه، وعاد باقيهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كان فيها، وأخلوها بعد إقامتهم بها سنتين، فعاد أهل النوبة إليها وملكوها. وأنفذ ملك النوبة رسولًا إلى شمس الدولة وهو مقيم في قوص بكتاب يطلب فيه الصلح، فأوفد معه مسعود الحلبي كي يصف إليه تلك البلاد، فلما دخل دنقلة وصفها بأنها بلاد ضيقة ليس فيها زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صفار، وليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص.

وفي المدة التي استقل فيها أولاد كنز الدولة بالنوبة وملكوها أنشؤوا بدنقلة جامعًا يأوي إليه الغرباء.

وفي الدولة الأيوبية فكر ملك مصر الصالح نجم الدين الأيوبي المتوفي سن٦٤٧هـ – ١٢٤٩م في أن يعرف منابع النيل، فأمر بشراء عبيد صغار من الزنوج لم يستعربوا، وسلمهم لصيادي السمك والبحارة ليعلموهم. مسالك البحر وصيد السمك، وأن يكون غذاؤهم السمك لا غير؛ فإذا مهروا في ركوب البحار تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوا بخبر النيل. ويعلق المغفور له أحمد زكي باشا على هذه الرواية بقوله: "والظاهر أن هذا المشروع لم يتم نظرًا للاضطرابات التي كانت حاصلة في مصر في ذلك الوقت أولًا لهجوم الصليبيين، وثانيًا بانقراض السلالة الأيوبية. وهذا المشروع قد تم بفضل إسمعيل خديو مصر الكبير".

وفي شوال سنة ٦٥٨هـ – ١٢٦٠م وردت إلى مصر مكاتبة من متولي قوص تفيد أنه استولى على جزيرة سواكن، وأن صاحبها هرب، وأرسل يطلب من الملك الظاهر الدخول في الطاعة وإبقاء، سواكن في حوزته، فوافق الملك الظاهر على ذلك. وفي سنة ٦٦٢هـ – ١٢٦٣م وردت إلى الملك الظاهر بيبرس البندقداري رسالة بأن متملك جزيرة دهلك ومتملك جزيرة سواكن يتعرضان إلى أموال من مات من التجار، فأوفد أحد رجال الحلقة ليبلغهما احتجاجه على ذلك. وفي سنة ٦٦٤هـ – ١٢٦٥م وردت مكاتبة من والي قوص

إلى ملك مصر الظاهر بيبرس بأنه وصل إلى عيذاب وأرسل عسكرًا إلى سواكن لغزوها ثم عاد إلى قوص بعد أن أخضعها لحكم السلطان وترك حامية بها. وفي سنة ٦٦٥هـ – ١٢٦٦م اهتم الملك الظاهر بيبرس باستخراج الزكاة من جهات سواكن وجزائرها. وفي سنة ٦٧١هـ – ١٢٧٢م قام والي قوص من أسوان على رأس تجريدة سارت حتى قربت من دنقلة، فقتل وأسر، ثم عاد بعد أن أخضع الخارجين.

وكانت أكبر حملة قامت لغزو السودان تلك التي جردها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سن٦٧٤هـ – ١٢٧٦م حينما كثر اعتداء ملك النوبة ونقضه للعهود وزحفه إلى قرب أسوان وإحراقه السواقي، فزحف لقتاله والي قوص وطارده. وظفر بنائبه المسمى بصاحب الخيل، فأخذه وأرسله مع الأسرى إلى قلعة الجبل. ولما عاد السلطان من الشام إلى الديار المصرية أمر بإعدام صاحب الخيل ومن أسر معه. وفي ذلك الوقت حضر إلى مصر ابن أخت ملك النوبة واسمه مشكد، وقيل إشكندة، متظلمًا من ابن عمه داود، وذكر للسلطان أن الملك كان له دونه، فأمر السلطان بقيام تجريدة على رأسها الأمير شمس الدين آقسنقر. الفارقاني الاستادار والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، ومعهم الذخائر وعدة الحرب، وصاحبهم في هذه الحملة مشكد وكانت أوامر السلطان تقضي بتسليم البلاد التي يفتحونها إليه.

خرجت هذه الحملة في مستهل شعبان سنة ٦٧٤هـ – ١٢٧٦م، ولما قربوا من بلاد السودان قابلتهم جنود الأعداء على النجب الصهب، وفي أيديهم الحراب وليس عليهم غير أكسية سود تسمى الدكاد يك فبادروهم بالقتال فانهزموا، وقتل منهم عدد كبير، وأسر أكثر من قتل. وفي ٨ شوال من سنة ٦٧٤ – ١٢٧٦م وردت مكاتبة من الأمير شمس الدين إلى الظاهر بيبرس تنبئ أن الأمير عز الدين الأفرم أغار على قلعة الدو وقتل وسبى، وأن الأمير شمس الدين في إثره ليستأصل شأفة من فاته، ورتب رجاله برًا وبحرًا لقتل من يجدونه، وغنموا مواشي كثيرة. ونزل الأمير شمس الدين. بجزيرة ميكائيل، وهي رأس جنادل النوبة، وهي وعرة المسلك، وهرب صاحب الخيل – واسمه قمر الدولة – إلى الجزائر، ثم أظهر الطاعة فأعطوه أمانًا واستمر على نيابته وحلف للملك مشكد، المصاحب للجيش، وصار عونًا للجند المصري، ثم ورد كتاب من الأمير شمس الدين إلى ملك مصر طالبًا به عتادًا وزادًا، واستمر يواصل زحفه هو والأمير عز الدين حتى التقيا بالملك داود، وما زال السيف يعمل فيهم

حتى انتصرا عليهم، وهرب الملك داود وأسر أخوه شنكو وأفراد أسرته، ثم دخل الجميع في طاعة السلطان. وعين مشكد المصاحب للجيش على الملك على أن يقدم سنويًا خيولا وأبقارًا وفيلة وزرافات وفهودًا، وأن تكون البلاد مشاطرة، النصف للسلطان، والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها لاحتمال أن يطرقها عدو، وأن تكون بلاد العلي وبلاد الجبل للسلطان. وهي قدر ربع البلاد النوبية لقربها من أسوان، وحمل ما يكون بها من الأقطان والتمر مع المقرر تقديمه سنويًا من زمن الملوك المتقدمة. ثم عرض عليهم الإسلام أو القتل أو الجزية فاختاروا القيام بالجزية، وأن يقوم كل واحد بدينار عينًا في السنة، وخرجت وثيقة بهذه الشروط، حلف عليها مشكد. وصدرت الأوامر إلى الرعية بأن يطيعوا نائب السلطان ما دام طائعًا، وأن يدفعوا دينارًا عن كل بالغ منهم، وخربت كنيسة سوس التي كانت على زعم داود تحدثه بما يؤديه، وكان داود المذكور قد بنى مكانًا سماه عيذاب، عمره على أكتاف المسلمين، وفيه منازل وكنائس وصورة ميدان صور فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسراه بأسوان، فمحيت الصور منه وخرب، وتقرر حمل ما تخلف عن الملك داود وأقاربه من الرقيق والأمتعة إلى السلطان، وفك أسر المأسورين، وقضى على أتباع الملك داود، ثم ألبس مشكد التاج طبقًا لعوائدهم، وأجلس مكان الملك داود، وحلف يمين الطاعة والولاء للسلطان، وحلفت الرعية أيضًا بتلك الجهات بأنهم يطيعون نائب السلطان، وهو الملك مشكد المقيم بدنقلة، وكل نائب يكون للسلطان. وقد أقام العسكر المصري بدنقلة بعد ذلك سبعة عشر يومًا حتى مهدوا البلاد، ثم عادوا إلى القاهرة ومعهم الأسرى، ومنهم أخو الملك داود.

أما الملك داود فإنه عقب هزيمته قطع البحر إلى البر الغربي وهرب إلى بعض الحصون، فتعقبه الأمير عز الدين الأفرم والأمير شمس الدين الفارقاني وطاردوه ثلاثة أيام؛ ولما أحس بمحاصرتهم له ترك أسرته وهرب، ثم ملكوا إشكندة وأشركوا معه كشي صاحب بلاد الخيل على أن يكون الدو وإبريم – وهما قلعتان حصينتان قريبتان من أسوان بينهما سبعة أيام – خاصتين بالسلطان، وفوضوا إليه أمر نيابة السلطنة. ثم عاد الأميران إلى القاهرة، وبعد أيام أرسل صاحب الأبواب، وهي فوق بلاد النوبة، الملك داود أسيرًا إلى السلطان فاعتقله بالقلعة إلى أن مات.

ثم صدرت أوامر الظاهر بيبرس إلى وزيره بهاء الدين بن حنا بتعيين الموظفين اللازمين لتحصيل الخراج والجزية من دنقلة وأعمالها.

وفي سنة ٦٨٠هـ – ١٢٨١م حصلت موقعة في صحراء عيذاب بين عرب جهينة ورفاعة قتل فيها عدد منهم، فكتب الملك المنصور قلاوون إلى الشريف علم الدين صاحب سواكن بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى صونًا لأمن الطريق.

وفي سنة ٦٨٦هـ – ١٢٨٧م نقضت النوبة العهد، فأمر المنصور قلاوون بقيام حملة على رأسها الأمير سنجر المروري المعروف بالخياط متولي القاهرة، والأمير عز الدين الكوراني لغزو بلاد النوبة، وجرد معهما طائفة من أجناد الولايات بالوجه القبلي، وكتب إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفي السلحدار متولي قوص أن يسير معهما بعدته ومن معه من المماليك السلطانية وعربان الأقاليم، وهم أولاد أبي بكر، وأولاد عمر وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبني هلال، وغيرهم. فسار الأمير سنجر المسروري في البر الغربي بنصف العسكر، وسار أيدمر بالنصف الثاني من البر الشرقي، وهو الجانب الذي فيه مدينة دنقلة. فلما وصل العسكر إلى أطراف بلاد النوبة أخلى ملاك النوبة سمامون البلاد، وكان سياسيًا قويًا، وأرسل إلى نائبه بجزائر ميكائيل وعمل الدو واسمه جريس، ويعرف صاحب هذه الولاية عند النوبة بصاحب الخيل "أو الجبل" يأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش الزاحف، فكانوا يرحلون والعسكر وراءهم منزلة بمنزلة حتي وصلوا إلى مالك النوبة بدنقلة فخرج لملاقاته سمامون، وقاتل الأمير عز الدين أيدمر قتالًا شديدًا، فانهزم ملك النوبة واستشهد عدة من المسلمين، وطورد ملاك النوبة مسيرة خمسة عشر يومًا من وراء دنقلة إلى أن أدركوا جريس وأسروه وأسروا أيضًا ابن خالة الملك، وكان من عظائهم، فرتب الأمير عز الدين في مملكة النوبة ابن أخت الملك وجعل جرس نائبًا عنه، وترك معهما حامية، وقرر عليه ضريبة تؤدي كل سنة ما بين رقيق وخيول وأبقار.

ثم ورد إلى المنصور قلاوون كتاب من الأمير علم الدين سنجر المسروري في أول جمادى الأولى سنة ٦٨٨هـ – ١٢٨٩م يبشره بفتح دنقلة والاستيلاء عليها وأسر ملوكها وأخذ تيجانهم ونسائهم؛ وكان يحمل الكتاب الأمير ركن الدين منكورس الفارقاني، فأنعم عليه وزوده بتعليمات تقضي بإقامة الأمير عز الدين أيدمر والي قوص بدنقلة ومعه حاميته من المالك والجند، على أن يعود الأمير علم الدين ببقية الجيش. وجهز من قلعة الجبل سعد الدين سعد بن أخت داود ليكون مع الأمير أيدمر لخبرته بالبلاد وأهلها، وأنعم عليه بسيف مكفت، فأقام بقوص. وفي ورجب سن٦٨٨هـ و١٢٨٩م وصل إلى مصر الأمير علم الدين

سنجر المسروري ومعه ملوك النوبة ونساؤهم وتيجانهم وبعض الأسرى، ومعهم غنائم كثيرة، فاحتفلت القاهرة بهم وكان يومًا مشهودًا. ووزع السلطان الأسرى على الأمراء وغيرهم فتهاداهم الناس، ورقي الأمير علم الدين إلى وظيفة مهندار.

ولم يلبث سمامون أن عاد إلى النوبة بعد مغادرة الجيش المصري، وحارب من بها وهزمهم، فغضب السلطان وأمر بإعداد الجيش لغزو النوبة بقيادة الأمير عز الدين الأفرم وكثير من الأمراء وسائر أجناد المراكز بالوجه القبلي وعربان الوجهين القبلي والبحري حتى بلغ أربعين ألف راجل، ومعهم متملك النوبة وجريس، فساروا في ٨ شوال سنة ٦٨٨هـ – ١٢٨٩موصحبتهم ٥٠٠ مركب ما بين حراريق ومراكب كبار وصغار تحمل الزاد والسلاح والأثقال، فلما وصلوا إلى أسوان مات متملك النوبة فدفن في أسوان، وأخطر السلطان بموته فجهز إليه من أولاد أخت الملك داود رجلا كان بالقاهرة، فأدرك الجيش بأسوان وسار معه. ثم قسم الجيش إلى فرقتين على رأس إحداهما الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق وجنودهما من الترك والعرب واتخذوا طريقهم في البر الغربي، وعلى رأس الثانية الأمير والي قوص والأمير بكتمر، واتخذوا طريقهم في البر الشرقي. وتقدمهم جريس نائب ملك النوبة ومعه أولاد الكنز ليؤمنوا أهل البلاد، ولتمهيد الطريق، فكان العسكر المصري إذا قدم بلدًا خرج إليه مشايخها وأعيانها وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان ثم عادوا، وذلك ابتداء من بلد الدو إلى جزائر ميكائيل وهي ولاية جريس. أما ما عدا ذلك من البلاد التي لم يكن لجريس عليها ولاية من جزائر ميكائيل إلى دنقلة فاستولى الجيش على ما فيها، وهرب الملك إلى جزيرة في النيل تبعد خمسة عشر يومًا، فتبعه والي قوص إلى أن وصل تجاه الجزيرة المتحصن فيها في جمادى الآخرة سنة ٦٨٩هـ – ١٢٩٠م فرأى بها عدة من مراكب النوبة، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدخول في الطاعة فلم يقبل، وخشي سمامون من القبض عليه، فهرب إلى جزيرة على بعد ثلاثة أيام، وترك حاشيته والأسقف والقسيسين ومعهم الصليب الفضة، الذي كان يحمل على رأس الملك، وتاج الملاك. فطلبوا الأمان فأمنهم والي قوص وأنعم على أكابرهم، ثم عاد إلى مدينة دنقلة واحتفل بمقدمهم. ثم أقيمت حفلة في كنيسة أشوس أكبر كنائس دنقلة، ثم أقاموا عليهم ملكًا وألبسوه التاج وحلفوه وسائر الأعيان، وقرروا البقط المستقر أولًا وعينوا طائفة من العسكر لتنفيذ المقرر من قبل وعينوا طائفة من العسكر تقيم عنده برئاسة الأمير بيبرس العزي مملوك الأمير عز الدين والي قوص ثم عاد الجيش إلى أسوان

بعد غيابه عنها ستة شهور، وساروا إلى القاهرة بغنام كثيرة.

أما سمامون فإنه عاد بعد رجوع العسكر إلى دنقلة مختفيًا، وصار يطرق باب كل واحد من السواكرة ويستدعيه، فإذا خرج ورآه قبل له الأرض وحلف له، وبهذا استطاع أن يجمع حوله سائر جنده وأتباعه، وزحف بهم على دار الملك وأخرج بيبرس العزي ومن معه إلى قوص. ثم قبض على من ولي الملك بدله ومثل به، وقتل جرس أيضًا. ثم كتب سمامون إلى السلطان قلاوون يسأله العفو مع تعهده بتقديم اليقط المقرر وزيادة، وأرسل له هدية كبيرة بها رقيق وأشياء أخرى فأقره السلطان بعد ذلك على النوبة بعد أن حررت معاهدة قرر فيها الطاعة والخضوع.

حدود مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون

في سنة ٦٩٨هـ — ١٣٩٨م أمر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بإغلاق الكنائس بمصر أو القاهرة، ثم أمر أن يكتب بذلك في جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات. وفي سنة ٧٠٤هـ — ١٣٠٤م وصل إلى مصر متملك دنقلة، وهو عبد أسود اسمه إياي وقيل أمي، ومعه هدايا كثيرة من رقيق وهجين وأبقار ونمور وشب، وطلب نجدة الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، فاستقبله وأمر بنزوله في دار الضيافة، ثم أمر بإعداد حملة قوامها نحو ٣٠٠ فارس عدا أجناد الولاة بالوجه القبلي والعربان تحت قيادة الأمير سيف الدين طقصا، فاجتمعوا من البر والبحر بقوص، ثم ساروا بقيادة طقصا مع متملك النوبة، وقد مكثت هذه الحملة تسعة أشهر.

وفي دولة المالية الجراكسة كان يمتد سلطان مصر إلى هذه البلاد، بل اتخذت سواكن منفي للمغضوب عليهم، ففي سنة ٨٩٤هـ — ١٤٨٨م غضب السلطان قايتباي على الطواشي خشقدم الزمام وأمر بنفيه إلى سواكن، وبقي بها إلى أن توفي.

العصر العثماني

بعد أن تم للسلطان سليم فتح مصر وإخضاعها للحكم العثماني أرسل تجريدة إلى بلاد النوبة سنة ٩٢٧هـ — ١٥٢٠م فاستولت عليها إلى الشلال الثالث، ثم عين عليها قوسي حسن قومندانا للعساكر وحاكمًا مستقلًا على النوبة على أن يرسل الجزية إلى مصر، وتوالت ذريته على حكم النوبة. وفي سنة ١٥٢٠ فتح السلطان سليم مدينة سواكن، وظلت تابعة

للدولة العلية إلى أن تنازلت عنها لمصر في سنة ١٨٦٦.

فتح محمد على للسودان

إن تاريخ السودان في عصر مُحَمَّد علي وذريته صفحة ناصعة في تاريخ مصر وإكليل فخار للجيوش المصرية، ففي سنة ١٨٣٠ أرسل المغفور له مُحَمَّد علي باشا نجله إسمعيل باشا على رأس حملة كبيرة قوامها ٥٤٠٠ جندي ما بين فرسان ومشاة مجهزة بأربعة وعشرين مدفعًا فتوغلت في السودان حتى وصلت إلى سنار. وفي العام الثاني ذهب البطل الباسل إبراهيم باشا إلى السودان فلحق بأخيه في سمار واشتركا معًا في تدبير خطة فتح ما بقي من السودان وعمل ما يلزم لاكتشاف النهرين الأبيض والأزرق والوقوف على حقيقة مجراهما، وتم اتفاقهما على أن يسير إسمعيل على البحر الأزرق لفتح البلاد الواقعة عليه حتى يصل إلى فازوغلي، وأن يجتاز إبراهيم جزيرة سنار متجهًا إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ويمد فتوحات مصر إلى أعالي النيل، وكان المقصود من هذه التجريدة وبهذه الكيفية، عدا الفتح. السير على النيل ومحاولة الذهاب إلى منتهاه ومشاهدة ينابيعه واكتشاف العيون التي ينفجر منها، وقالوا إنه على فرض اتصال البحر الأبيض بنهر النيجر فإن المراكب تسير في هذا النهر مصعدة وتذهب في مقصدها إلى حيث يشاء الله، وإنه على فرض عدم اتصال البحر الأبيض بالنهر المذكور فإن الجيش يواصل سيره ويستمد جيوش جيدة يجمعها في بلاد كردفان، ومن ثمة يتيسر لإبراهيم باشا أن يزحف على دارفور وبورنو ويعود إلى مصر عن طريق طرابلس الغرب. ولكن إبراهيم باشا مرض حينما وصل إلى جبل القربين فعاد إلى القاهرة ووصلت جنوده إلى جبل دنكا على البحر الأزرق.

وأما إسماعيل باشا فإنه سار على البحر الأزرق حتى بلغ فازوغلي ومر بسفنه من غدير التومت، الذي يصب في البحر الأزرق، حتى وصل إلى بلدة سنجة. وقد انتظم في هذه الحملة كثير من العلماء الأجانب منهم مسيو كايو، وكان قد عهد إليه البحث عن معادن الذهب، وهو الذي دون تاريخ هذه الحملة في خمسة أجزاء تحت عنوان: "السياحة إلى مروي والبحر الأبيض وما وراء فازوغلي" وحينما كان هذان الأميران يغنمان ويستطلعان مجاهل المناطق الشرقية من السودان، كان صهرهما مُحَمَّد بك الدفتر دار يعمل على فتح إقليم كردفان، وقد تم له الاستيلاء عليها وإدخالها في حوزة صاحب مصر. وفي سنة ١٨٤٠ تم

لأحمد باشا غزو قسم التاكا الذي مركزه مدينة كسلا وألحقه بمصر.

محمد على باشا في السودان

في سنة ١٨٣٨م سافر المغفور له مُحَمَّد علي باشا إلى السودان، وسار حتى وصل إلى دنقلة ومنها توجه إلى الخرطوم ونادى فيها على رؤوس الأشهاد بإلغاء الرقيق، ثم سار حتى وصل إلى فازوغلي؛ وفي أول فبراير سنة ١٨٣٩ وصل إلى جانب مدينة كانت تبني تخليدًا لاسمه وتمجيدًا، وقد جعل اسمه علمًا عليها.

ويقرر المرحوم مختار باشا أنه بعد مغادرته للخرطوم وصل إلى سنار، ثم عاد إلى القاهرة.

وفي عهده وصلت حدود السودان المصري شرقًا إلى البحر الأحمر، وضمت إقليم التاكا "كسلا" الواقع شرقي نهر عطبرة، ووصلت من جهة الحبشة إلى القضارف والقلابات، ودخلت سواكن ومصوع في نطاقها. وبلغت الحملات جنوبًا إلى جزيرة "جونكر" تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض.

السودان في عصر إسماعيل

في عهده فتحت مصر مديرية فاشودة، وضمت محافظتي مصوع وسواكن نهائيًا إليها، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملكه أو نيورو، وبسطت حمايتها على مملكة "أوغندة" وفتحت إقليم بحر الغزال، ثم سلطنة دارفور. واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح بلاد سنهيت وبلاد البوغوش.

وفي سنة ١٨٧٠ تم إلحاق بلاد البوغوس وبركد وقضارف، وبعد ذلك ببضع سنين دخل في حوزة مصر تلك الوديان الشرقية التي تصب فيها مياه الخماسين. وبذلك وسع نطاق السودان وبسط الحكم في أنحائه ومد الحضارة والعمران على ربوعه.

تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها

عنيت الشعوب الإسلامية بتخطيط المدن التي أنشأتها عقب الفتوحات الإسلامية، وراعوا في تخطيطها القواعد الصحية من شق شوارع، وعمل ميادين ورحاب، وتقسيمها إلى شوارع وسكك وحارات وأزقة.

وقد تضمنت قوانين تخطيط المدن الخروج بالمدافن والمصانع المقلقة إلى أطراف المدينة، كالحدادة، ومصانع الزجاج، وقماين الجير والطوب، والبعد بالأسواق عن مقر الحكم.

وكذلك خصصت لكل صناعة سوقاً خاصة بها، كما خصت التجارات بأسواق لاحقت بعضها عرفت بها الأخطاط الواقعة فيها.

وعندما كانت تنشأ مدن جديدة، امتداداً لمدن أخرى سبقتها، كانت تخصص المدينة الجديدة أولاً لسكنى الوالي، أو الخليفة وحاشيته، والمقربين منه، وهذا ما فعله القائد جوهر حينها أنشأ مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ-٩٦٩م امتداداً للفسطاط والعسكر والقطائع. فإنه أعدها لتكون دار خلافة ينزلها الخليفة وعساكره وخواصه، وهكذا كانت الحالة في أطراف المدينة حينما كان يسكنها الخلفاء أو الملوك، فإنها تكون سبباً في عمران ما حولها.

شرع جوهر في بناء سور حول المدينة، وأذن للقبائل بأن تختط كل قبيلة خطة عرفت بها ثم أنشأ جامع القاهرة الأزهر)، والقصر الشرقي الكبير، واحتفر الخندق في الجهة الشمالية، وقد لوحظ أن الحارات التي اختطها القبائل كانت قريبة من الأسوار والحارات كحارات: الروم، وزويلة، والبرقية.

ومن دراسة القاهرة على ضوء ما كتب عنها، تبين أنها خططت وقسمت إلى ميادين ورحاب أمام القصور وفيما بينهما، وأمام مبانيها الرئيسية ومساجدها.

وكان أمام القصر الكبير وفيها بين القصرين الكبير والصغير في الدولة الفاطمية، ميدان فسيح كانت تقام فيه حفلات استعراض الجيش، حيث كان يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس وراجل. وعلى الجانب الغربي لهذا الميدان، أقيم القصر الصغير الغربي. وعلى جزء

من أرضه الآن منشآت المنصور قلاوون. فعرف هذا الميدان ثم الشارع فيا بعد (بين القصرين). وكان يوجد بجوار القصر الغربي ميدان آخر، موضعه المنطقة المعروفة بالخرنفش، وبجواره البستان الكافوري المطل على الخليج.

وباستقصاء مواقع ملحقات القصرين الفاطميين، عرفنا أنه كان يتوصل إليها من شوارع متسعة، وحولها الميادين والرحاب، وهذا ما نراه بصورة مقربة على الخريطة التي وضعها مسيو رافيس استناداً إلى المراجع التاريخية، وأخالفه في وضعه باب الفرج على الخليج، فقد كان في شارع تحت الربع.

وقد وصف القاهرة الطبيب أبو الحسن علي بن رضوان "بأن ارتفاع الأبنية[١] فيها دون أبنية الفسطاط، وأن أزقتها وشوارعها أنظف منها، وإذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالاً".

وقال ناصر خسرو الرحالة الفارسي وقد زارها سنة **٤٤١هـ-١٠٤٩م** يصف تخطيطها: "ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به أي بناء، وكل ما حوله فضاء.... ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة...."[٢].

واستطرد في الوصف إلى أن قال: "وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة. وكل قصر حصين. ومعظم العمارات يتألف من خمس أو ست طبقات".

غير أن المعز لدين الله حينما قدم إلى القاهرة سنة **٣٦٢هـ-٩٧٣م** لم يرق في نظره موقعها لأنها بغير ساحل، ووجه اللوم إلى جوهر وقال له: "فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقس (ميدان المحطة)، فهلا كنت بنيتها على الجرف؟ (منطقة الرصد)[٣]، وله كل الحق في نقده، فإن منطقة الرصد التي أشار اليها منطقة جميلة تشرف على النيل والجبل وبركة الحبش، وجمعت بين السهل والجبل، وبين الخضرة والماء، وقد وصفها الشاعر الأشبيلي أبو

---

[١] ٣٦٥-٦٦ ج١ مقريزي (المواعظ والاعتبار).

[٢] سفرنامه ص٤٨ تعريب الدكتور الخشاب.

[٣] ص١٢٨ ج١ المواعظ والاعتبار للمقريزي، ٣٧١ ج٣ صبح الأعشى، اتعاظ الحنفا ص٧٤، وهذا المرتفع الصخري على يسار الذاهب إلى المعادي، تجاه منطقة أثر النبي.

الصامت أمية ابن عبد العزيز بقوله:

يا نزهة الرصد المصري قد جمعت   من كل شيء حلا في جانب الوادي
فذا غدير وذا روض وذا جبل   والضب والنون والملاح والحادي

وخير وصف لها، ذلك الذي وصفها به أمير مصر موسى بن عيسى، إذ خرج يوماً إليها فقال لمن حوله:

"أتتأملون الذي[1] أرى؟ قالوا وما الذي يرى الأمير؟ قال: أرى ميدان رهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهراً عجاجاً، وأرض زرع، ومراعى ماشية، ومرتع خيل، وساحل بحر، وصائد نهر، وقانص وحش، وملاح سفينة، وحادي إبل، ومفازة رمل، وسهلاً وجبلاً، فهذه ثمانية عشر متنزهة في أقل من ميل في ميل".

وإذا كان فات جوهر ما أشار به المعز لدين الله واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتهم مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجزيرة، فانتفعوا بها وبشاطئ النيل، وحافتي الخليج، وشبرا، حيث كانت الخضرة والماء، فأنشأوا المناظر والحدائق وكانوا يقضون فيها أوقاتاً سعيدة. وكان لانتفاعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم والمقربين منهم، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة.

وفي سنة ٤٨٠هـ-١٩٨٧م وسع القاهرة الوزير بدر الجمالي من حديها الشمالي والجنوبي، وأجاز السكنى فيها، فامتد عمرانها إلى أطرافها وخارج أسوارها، فصار يقال لأبنية مدينة القاهرة داخل السور. ولما خرج عن أسوارها ظاهر القاهرة، وأنشئت فيها أخطاط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين، هذا عدا حدها الشرقي فيها بين السور والجبل، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة، فصار منها تلك الكيان التي تعرف بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة، وهي الجاري رفعها الآن بهمة مشكورة.

وفي دولة السلطان صلاح الدين، ثم في دولة المماليك، امتد العمران، وخاصة في دولة الناصر محمَّد بن قلاوون، حيث زادت القاهرة بمقدار النصف، وصارت القاهرة والفسطاط

---

[1] المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٥٣.

مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومن النيل إلى المقطم[١].

وكان لتحولات النيل فضل كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة.

ويصفها ابن فضل الله العمري المؤرخ الجغرافي في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله:

"ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها، وتتجدد معالمها، خصوصاً بعد خراب الفسطاط[٢] سنة ٥٦٤هـ-١١٦٨م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العلية، والدور الضخمة، والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة، والمدارس الرائعة، والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار".

هذه لمحة عن نشأة القاهرة، وتطورها الذيساير الزمن فامتدت شمالاً وجنوباً وغرباً، وها هي ستمتد شرقاً بفضل إزالة كيمانها، تلك النقطة السوداء وسط صحيفتها البيضاء. وإنشاء مدينة المقطم، ومدينة النصر بالعباسية الشرقية.

هذه المدينة الزاهرة كانت موضع رعاية الحكومات المتعاقبة عليها، والإشراف على جميع مرافقها حتى نمت وتدرجت مع الزمن، كما توضحها المصورات الجغرافية.

تنظيم القاهرة

لم يكن تخطيط المدن جزافاً ولا ارتجالاً، فقد وضعت القوانين للتخطيط منذ الفتح الإسلامي، وعنيت الشريعة الإسلامية بتنظيم تخطيط المدن، في سنن أبي داود: أن النبي ﷺ أمر بأن ينادى في معسكره، بأن من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له، وذلك حينما لاحظ تضييق صفوف الأخبية في ميادين القتال[٣].

وقال شارح السنن: إنه لا يجوز تضييق الطريق التي يمر فيها الناس ونفى جهاد من فعل ذلك على طريقة المبالغة في الزجر والتنفير.

وقد وضع عمر بن الخطاب دستوراً لإنشاء المدن، أذاعه على فاتحي الأمصار

---

[١] المقريزي المواعظ الاعتبار ج١ ص٣٦٥.

[٢] صبح الأعشى ج٣ ص٣٧٠.

[٣] التراتيب الإدارية ص٢٨٢ ج١.

ومنشئيها في صدر الإسلام، فجعل محور المدينة المسجد بحيث تتفرع الشوارع حوله، وأن تكون المناهج أربعين ذراعاً. وما يليها ثلاثين، وما بين ذلك عشرين، والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين[١].

وكذلك تناول المشرع الإسلامي قوانين سعة الشوارع والطرق، وتناولها في أحكامه، واتفقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل إنسان لأنه حق للمسلمين، فليس لأحد أن يبني فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم فلا[٢] يبرز عنه، كما وضعوا قوانين لإقامة الأسبطة[٣]، واشترطوا أن تكون مرتفعة بحيث يمر المحمل، أو الفارس على جواد ورمحه قائم، وحرموا بناء المساطب وغرس الأشجار أمام الدور، ما دام يترتب على غرسها تضييق الطريق).

ووضعوا في حكم المنافع العامة الشوارع الخاصة التي أبيح استعمالها، ومثلها الشوارع التي اصطلح الملاك على تركها من أملاكهم، والطرق التي تشقها الدولة، فلا يجوز شغلها، ولا تضييقها صوناً لنقوش الجدران في وجهات المساجد والدور، وتيسيراً للمرور، ولتوفر الهواء والنور، شددوا على سعة الشوارع.

وقد تركوا الحرية لمن ينشئ شارعاً خاصاً، ولكنهم فضلوا أن يكون متسعاً على أن لا يقل عن سبعة أذرع.

وفي مشروعات نزع الملكية، لتوسيع الشوارع والحارات، ولتوسيع المساجد، اتبعت طريقة المفاوضة مع المالك، فاذا لم يتم الاتفاق يودع الثمن المقدر في بيت المال، ويستولي على العقار[٤] وهو ما نتبعه الآن.

على ضوء هذه القوانين، وما استجد بعدها تبعاً لتدرج العمران، وضعت القوانين الخاصة بتنظيم الطرق، وإزالة ما يعترضها، وحددت سلطة المحتسب الذي يقوم بتنفيذها.

والحسبة قانون مدني، فيدخل في اختصاص المحتسب وأعوانه حمل الناس على المصالح

---

[١] الفوائد الباهرة في حكم شوارع القاهرة (خط).

[٢] الساباط: ممر بين منزلين من أعلى.

[٣] التراتيب الإدارية ص٢٨٢ ج١.

[٤] ٤٦ فتوح البلدان طبع أوروبا.

العامة في المدينة، وقد جمع اختصاصه بين الشرطة والصحة والبلدية، فيدخل فيه إصلاح الشوارع، والإشراف على نظافتها وإضاءتها وتوسيعها، والتشديد على أن يكون البناء على خط التنظيم، فلا يخرج في الشارع عن سمت جارة. يمنع الجلوس على الأفاريز والخروج بالميازيب أعلى الجدران والبروز بسقائف أو مساطب أمام الحوانيت والحكم[١] على الملاك بإزالة المباني المتداعية وهدم ما يتوقع منه ضرر على السابلة[٢]، وقفل الطريق عند إزالة الخلل صوناً للأرواح[٣]، وهذا ما حصل عندما هدمت منارة جامع المؤيد سنة ٨٢١هـ ١٤١٨م فإن باب زويلة أغلق ثلاثين يوماً.

ومن سلطة المحتسب، أن لا يرخص بإقامة مصانع للصناعات الثقيلة أو مدابغ أو مصانع زجاج أو قماين طوب أو جير إلا خارج المدينة.

وقد بلغ من التشديد في تنفيذ تلك القوانين، النص على إزالة المباني المعترضة للطريق، أو التي تقفله وهدمها، ولو كان المبنى مسجداً[٤].

ومن اختصاص المحتسب منع شغل الطريق بتشوين المون[٥] وأدوات البناء، إلا لفترات قصيرة مدة نقلها، وله حرية إباحة الخروج بالمشربيات، وإقامة الأسبطة وميازيب المياه وآبار المجاري طبقاً لسعة الشوارع.

وفي مستهل القرن الرابع عشر الميلادي، كان من واجبات والي القاهرة، القيام بتحسين المدينة وتزيينها، فيأمر بعمارة ما في الدور من خلل، وتعمير ما فيها من خراب، والاهتمام بتوسعة رحابها، وتعلية ساباطاتها وسقائف أسواقها، ولا يمكن أحداً من تضييق الطريق أو إحداث ما يضر بالمارة. وأن ينظر في تنظيف الطرق والرحاب من الأوساخ إن كانت من بيت المال، وإلا فيأمر السكان بنظافة ما حولهم[٦]. وكذلك الخروج بالصناعات المقلقة، وقماين حريق الجير، والمدابغ ومسابك الزجاج إلى خارج المدينة.

---

[١] ابن الأخوة (معالم القربة) ص٧٨-٧٩.

[٢] خطط الشام ج٥ ص١٣٦.

[٣] ١٢٥ ج٥ على باشا مبارك (الخطط الجديدة).

[٤] نهاية الأرب ج ٦ ص٣١٤.

[٥] نهاية الأرب ج ٦ ص٣١٤.

[٦] آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٦٥.

وكذلك وجدت وقفيات يصرف منها على تعديل الطرق ورصفها[١] ذكرها ابن بطوطة عند ذكر الأوقاف بدمشق بقوله:

"ومنها الأوقاف على تعديل الطرق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد، منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك.

النظافة

ويدخل في اختصاص المحتسب منذ إنشاء القاهرة، الإشراف على النظافة ومنع إلقاء القمامة في الشوارع، وعد الإفراط في رش الماء مما يتسبب منه الزلق.

كما يلزم الملاك بإزالة الأوحال من أمام دورهم ومحالهم. ويمنع هز المون وسط الطريق أو ترك مخلفات العمارة، ويشدد على أصحاب الأسواق بكنسها ورشها[٢] ومداومة نظافتها، ومنع طرح القمامة بجوار الطرق.

أما المساجد فقد رصد في وقفيتها مبالغ تصرف لمن يقوم بالنظافة والرش أمامها وحولها. وهذا ما تضمنته وقفية الغوري[٣] فقد رصد فيها مرتب للكناس والرشاش للطرقات تجاه بابي المدرسة، وحول القبة والخانقاه.

كذلك يحتم على ناقلي السماد إحكام تغطيته عند نقله، حتى تنقطع رائحته فلا يتأذى الناس منها، ويأمر بمنع ربط الدواب في الطريق حتى لا تعوق السير.

وإلى سنة ١٢٢٩هـ-١٨١٣م كان والي القاهرة وأعوانه من الشرطة يمرون في الشوارع والأسواق ملزمين السكان والتجار بنظافتها ورشها[٤].

ظل المحتسب يشرف على تنفيذ أوامر النظافة إلى أن أنشئت أقسام البوليس في أوائل القرن التاسع عشر، وأذيع على أقسام البوليس ورؤسائها ومشايخ الأقسام التعليمات الواجب عليهم اتباعها والمنشورة في الوقائع المصرية الصادرة في ١٧ صفر سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م وقد جاء فيها:

---

[١] رحلة ابن بطوطة ج١ ص٦٠.

[٢] معالم القرية ص ٧٩.

[٣] الخطط الجديدة ج٥ ص٦٣.

[٤] الجبرتي ج٤ ص٢٠٤.

"ينبغي عند صبيحة كل يوم أن يقوم أهل الأسواق بكنس ورش المنطقة أمام دكاكينهم وأن سكان المنازل يكنسون ويرشون أمام بيوتهم، فإذا ضبط مندوب أميرالاي المحروسة أناساً يلقون القاذورات، بضربهم ضرباً خفيفاً، ويحذرهم من العودة إلى ذلك، وعلى أقسام البوليس تأديب من يتأخر عن النظافة أمام بيته أو دكانه؛ ويجب المناداة بذلك والتنبيه على مشايخ الحارات بمراقبة التنفيذ.

أما المنشآت الحكومية، فينبه على نظارها بالإشراف على نظافة ما حولها وما يكون حول القلعة يكلف بنظافته سقّا باشى القلعة.

ويقوم بنظافة المحلات الخربة سقا الحارة، وأجرته على الموسرين من السكان.

وفي سنة ١٨٣١م عينت الحكومة الموظفين لمراقبة النظافة ومراقبة تنفيذ[١]تلك التعليمات، كذلك حددت أماكن لإلقاء الأتربة (المقالب)، فلا يلقى فيها إلا بإذن. كما حددت أماكن لإيداع القمامة تودع فيها إلى أن تنقل وتلقى في البحر، وهذا ما حدده الأمر الصادر من مجلس الملكية في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٩هـ-١٨٣٣م وقد أذن بخروج الأتربة المخلفة من عمارات قصور قنطرة الدكة، والأزبكية من أبواب القاهرة، المعتاد إخراج الزبالة وفضلات القاهرة منها، إلى خارج المدينة.

وأن يأمر كذلك ناظر الترسانة بإتمام إنشاء القوارب اللازمة لنقلها إلى خارج المدينة، والتي تجمع بشونة المسكنة بساحل البحر إلى البحر الأبيض المتوسط مراعاة للصحة العامة[٢].

مكافحة التسول

لم يكن الاهتمام بالقاهرة قاصراً على نظافتها من القاذورات، بل شمل نظافتها من المناظر المنفرة، فقد كوفح أصحاب العاهات ومفتعلوها، ذلك أنه في سنة ٦٦٤هـ ١٢٦٥م، أمر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بجمع أصحاب العاهات، فجمعوهم بخان السبيل بالحسينية[٣]، ثم نقلوهم إلى الفيوم، وأفردت لهم بلدة تغل للصرف عليهم بما يكفيهم،

---

[١] تاريخ الإدارة الصحية ص٣٦.

[٢] وثيقة رقم ١٨ دفتر ٧٩٦ ديوان خديوي.

[٣] السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٢، ص٥٥٣ والتحفة الملوكية ص١٩.

وأراحوا الناس من مضايقاتهم، غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا، ورجع كثير منهم إلى القاهرة.

والعناية بالفقراء ووقايتهم شر السؤال موجودة في جميع أدوار التاريخ منذ فجر الإسلام، ومنذ الدولة الفاطمية انشئت الربط لإيواء الفقراء من الرجال والنساء، وما خصص منها للنساء كان بمثابة دور كفالة للمرأة، وكان للنساء فضل إنشاء الكثير منها في دولتي المماليك، إلى القرن الثامن عشر، وكانت تلك الربط تؤوى النساء الفقيرات والعجائز والأرامل والبنات حتى يتزوجن، والمطلقات حتى يعدن إلى أزواجهن أو يتزوجن.

وكان يختار لرآسة تلك الربط، سيدات اشتهرن بالعلم والحزم لتعليم المقيمات بها وصيانتهن، وإلى الآن ما زالت بقايا تلك الربط موجودة "كرباط خوند زينب بالخرنفش".

وكثيراً ما كانت الحكومات تجمع المتسولين إذا لاحظت عليهم تمرداً دعاها ذلك إلى مكافحتهم بشتى الوسائل، ذلك أنه في سنة ٧٧١هـ-١٣٦٩م أمر السلطان شعبان بجمع المتسولين وتوزيعهم على الأمراء والتجار لإعالتهم، كل حسب مقدرته وثرائه، وتودي في القاهرة بعد ذلك أن لا يتصدق أحد على متسول[١].

وفي سنة ١١٠٦هـ-١٦٩٤م وقع غلاء بمصر، فعزت الأقوات على الفقراء فاهتم بهم اسماعيل باشا وإلى مصر، فجمع الفقراء والمتسولين ووزعهم على الأمراء والتجار للإنفاق عليهم، وخص نفسه بجانب منهم، إلى أن انقضى الغلاء[٢].

وفي ٢٣ جمادي الثانية سنة ١٢١٥هـ-١٨٠٠م صدرت الأوامر بجمع المتسولين وخصصوا أماكن لإقامتهم، وعهدوا إلى نظار الأوقاف بالصرف عليهم[٣].

وفي أوائل القرن التاسع عشر جمع الغلمان المشردون وألحقوا بالمصانع المنشأة وقتئذ.

مكافحة المناظر المحزنة والدجالين

وكذلك وجهت العناية إلى مكافحة المناظر المحزنة والدجالين التي تخالف تعاليم الدين فكان المحتسب منذ الدولة الفاطمية يمنع النساء من الخروج خلف الجنازات كاشفات

---

[١] عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان العيني ج٢٤ قسم ٢ ص١٨٣.

[٢] تقويم النيل ج٢ ص٦٥.

[٣] عجائب الآثار للجبرتي ج٢ ص١٣٨.

وجوههن ورؤسهن، ويعاقب النائحات إلى حد النفي[١].

وفي سنة ٨٢٤هـ-١٤٢١م منع المحتسب النساء من النياحة على الأموات[٢]. وفي شوال سنة ٩١٠هـ-١٥٠٤م أمر السلطان الغوري بأن ينادي في القاهرة بأن لا يعمل عزاء بطارات، ولا نائحة تنوح على ميت. ثم أوعز إليه على نائحة عملت عزاء بطارات، فقبضوا عليها، ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً في عنقها وأركبوها حماراً، وشنعوا عليها في أنحاء القاهرة. وكان هذا سبباً في إقلاع النساء عن تلك العادات[٣].

وكذلك كافحوا الدجالين الذين ينصبون على النساء ويغررون بهن. فقد صدرت أوامر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ-١٣٢٣م بالقبض على المنجمين وتسليمهم إلى والي القاهرة، فضربوا وحبسوا، ومات منهم تحت العقوبة أربعة[٤].

ومن ذلك ما فعله الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٣هـ من ذبحه للعنزة التي كان يدجل بها الشيخ عبد اللطيف خادم السيدة نفيسة، وتوبيخه والتشهير به بوضع جلدها على عمامته وطوافه بالقاهرة وسط الطبول والأشاير[٥].

تمهيد الطرق

لم تقف العناية عند تنظيم الطرق وتوسعتها ونظافتها، بل شملت تمهيدها وتعبيدها حتى يمكن السير والجر عليها، فقد كان عمر بن الخطاب يعهد إلى أهل الذمة بإصلاح الجسور والطرق[٦] كما ثبت أن عبد العزيز بن مروان في ولايته على الفسطاط سنة ٦٥هـ-٦١٤م اهتم بتعبيد الطرق، وأعد لها الأدوات اللازمة، ليمكن السير والجر عليها[٧] وكذلك تضمنت التعليمات التي كانت تصدر إلى والي الفسطاط عند تعيينه[٨]، التشديد على نظافة

---

[١] معالم القربة في أحكام الحسبة ص٥١.
[٢] نزهة النفوس والأبدان ص١٠٣ (خط).
[٣] ابن إياس ج٤ ص٧٦.
[٤] البداية والنهاية ج١٤ ص١٦١.
[٥] عجائب الآثار ج١ ص٣٦٢.
[٦] التراتيب الإدارية ج١ ص٢٨٣.
[٧] التراتيب الإدارية ج١ ص٢٨٤.
[٨] صبح الأعشى ج١ ص ٣٣٦.

المسالك والساحات، ومنع توعير السبل، والطرقات، وكانت الدول الإسلامية المتعاقبة على حكم مصر تقوم بين آونة وأخرى، بتمهيد الطرق وقطع ما ارتفع منها[1] باعتبار ذلك من الأعمال الرئيسية للدولة.

وقد بلغ من الاهتمام بتنظيم الطرق وإعدادها وتنسيقها، احتساب الاهتمام. بها من حسنات الملك أو الوالي المهتم بها. كما ورد في ترجمتي الأمير منجك[2] اليوسفي والملك[3] الأشرف أينال؛ فقد عد من حسناته أنه وسع شارع بين القصرين.

وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، اشترك والي الشرطة مع المحتسب في تنفيذ تلك الأوامر، فكان يلزم سكان الدور والحوانيت بتمهيد الطريق أمامهم[4].

وممن لهم أثر مشكور في العناية بالطرق، الأمير يشبك من مهدي دوادار الملك الأشرف قايتباي، فإنه في سنة ٨٨٢هـ-١٤٧٨م شرع في توسعة الطرق والشوارع والأزقة، وخاصة الشارع الرئيسي للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، وتبييض الدكاكين ووجهات الربوع، وعهد إلى القاضي فتح الله السوهاجي أحد نواب الشافعية، بأن يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعي، من أبنية، وسقائف، ورواشن، ومساطب[5] واستمرت تلك العملية إلى سنة ٨٨٣هـ-١٤٧٩م حيث أمر أيضاً بإصلاح وجهات المساجد، وطلاء رخامها، فحصل بذلك نفع كبير.

وكان لتوسيع الطرق وتمهيدها أثر كبير في الكشف عن وجهات المساجد المطلة على الشارع الرئيسي (المعز لدين الله). وعين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال، ملاحظة للطرق[6]. كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال البياض والدهان، حتى صارت القاهرة كأنها مستجدة البناء والزخرف، وكذلك اهتم بتجميل شوارع القاهرة السلطان

---

[1] المقريزي ج٢ ص١٠٧ (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).
[2] المنهل الصافي لابن تغرى بردى ج٣ قسم ٣ ص٣٦٧.
[3] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.
[4] التبر المسبوك في ذيل السلوك السخاوي ص٣٦.
[5] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.
[6] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.

الناصر[1] أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباي، فإنه أمر في سنة ٩٠٤هـ-١٤٩٨م بأن ينادي في القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التي بالأسواق والشوارع يبيضون وجوهها، ويزخرفونها بالدهان، ثم أمر بتبييض وجوه الرباع المطلة على الشوارع.

وكذلك اهتم السلطان الغوري بتمهيد الطرق وتعبيدها. فألزم السكان بالقيام بهذا العمل في سنة ٩٠٩هـ-١٥٠٣م[2].

وإلى سنة ١٢٣٣هـ-١٨١٧م كانت الحكومة تلزم السكان بتمهيد الطرق، إذ في هذه السنة كلف بهذه المأمورية مصطفى أغا المحتسب، فنادى في المدينة وأمر الناس بقطع أرضية الطرقات والأزقة حتى العطف والحارات الغير نافذة[3].

ولم تغفل كتب اللغة شؤون الطرق، فعالجت مسمياتها في معاجمها، وقد عكف على جمعها الباحث المدقق السيد سليم الجندي وسماها "رسالة الطرق" ونشرها تباعاً في تسع مقالات في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بدأها في الجزأين السابع والثامن من المجلد الثامن عشر (جمادى الآخرة ورجب سنة ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م)، وانتهى منها في المقال التاسع المنشور في الجزأين السابع والثامن من المجلد العشرين سنة ١٩٤٥.

تجميل القاهرة

من تلك الأخبار نقف على أمر هام، وهو أن العناية لم تقتصر على تعبيد الطرق وتمهيدها بالقاهرة، بل تعدتها إلى تجميلها، مما دعاهم أيضاً إلى ستر الخرائب عن العيون، كما نفعل الآن بوضع لوحات الإعلانات عليها.

ذلك أنه لما استولى الخراب في زمن المستنصر بالله أمر الوزير أبو محمد اليازورى ببناء جدار يستر الخرائب عن نظر الخليفة الفاطمي حينما يتوجه من القاهرة إلى الفسطاط، وذلك فيما بين العسكر والقطائع، وكذلك أقام جدارة آخر عند جامع أحمد بن طولون[4].

وفي خلافة الأمر بأحكام الله عهد إلى وزيره أبي عبد الله محمد بن فاتك بتعمير الخرائب

---

[1] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.

[2] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.

[3] الضوء اللامع السخاوي ج٢ ص ٣٢٩.

[4] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٢٠.

والفضاء فيها بين باب زويلة والسيدة نفيسة، فنادى في القاهرة وأمر بأن من كانت له دار في الخراب أو مكان يعمره، ومن عجز عن عمارته ببيعه أو يؤجره من غير نقل شيء من أنقاضه، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له في شيء منه، ولا حكر يلزمه. فعمرت الخرائب وأصبحت المنطقة عامرة، وأصبحت القاهرة لا تتخللها خرائب[١].

وكذلك نقلت أنقاض مدينة العسكر ومهدت، فصار الفضاء فيما بين السيدة نفيسة إلى كوم الجارح (وهي المنطقة التي مهد جزء من كيمانها. والمعروفة بتلال زين العابدين).

ولأهمية بركة الفيل باعتبارها من أجمل متنزهات القاهرة، عنى الناصر محمد بن قلاوون، بتجميلها والمحافظة على رونقها، فأمر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، بإقامة حائط بطولها[٢] ليحجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم.

فرش الرمل الأصفر

وعلى ذكر تجميل القاهرة أذكر أن مصر عرفت فرش الرمل الأصفر في حفلاتها الرسمية منذ ألف عام، فقد كان نظام حفلات الاستقبال في الدولة الفاطمية يقضى بفرش الرمل في الطريق المؤدي إلى القصر الفاطمي[٣] وأمامه، وهذا ما كان متبعاً بمصر إلى وقت قريب جداً .

ظلت العناية بتعبيد الطرق، وإصلاحها وتجميلها موكولة إلى سكان القاهرة حتي عنيت بها الحكومة وأصدرت أوامرها في سنة ١٨٤٨م، بتعيين أربع بلوكات من ديوان الجهادية للقيام بتسوية وتمهيد الطرقات والشوارع في كل من نواحي الموسكي، والأزبكية[٤] وبولاق.

القضاء على الخرائب

وكذلك وجهت العناية إلى إزالة الدور المتخربة، والقضاء على الخرائب التي تشوه القاهرة، فصدرت الأوامر في سنة ١٨١٦م بإعداد تجريدة من المهندسين للكشف على دور

---

[١] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٢٠.

[٢] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص١٦٥.

[٣] المواعظ والاعتبار للمقريزي ج١ ص٤٣٣.

[٤] الوقائع المصرية العدد ١٠٦ الصادر في ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٦٤هـ.

القاهرة، فان وجدوا بها خللاً أمروا بإصلاحه أو هدمه، وذلك على أثر[1] سقوط منزل.

وتعجيلاً لعمرانها والقضاء على خرائبها، صدر قرار آخر بتعمير الخرائب، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة، وذلك في سنة ١٨٣١م بعد إحصائها جاء فيه:

"يؤذن بالقرار الصادر بشأن خرائب القاهرة التي أحصتها اللجنة برئاسة أمين أفندي، وعضوية الباشمهندس الحاج مصطفي قوله، والشيخ حسن أبو صفيحة مندوب المحكمة الشرعية، والتي تبين من إحصائها أن عدد الخرائب بأقسام البوليس السبع[2] بالقاهرة بلغ ٢٥٨ خرابة ليس في مقدور مالكيها القيام بترميمها، فهذا القرار يعرض بأن تقسم هذه الخرائب إلى قسمين قسم تراه الحكومة لازماً لها فتأخذه وتعمره، والقسم الآخر تتخذ الإجراءات اللازمة لبيعه لمن حوله من الجيران الموسرين الذين يستطيعون بناءه وتشييده".

هذا ما يتعلق بالأعيان المملوكة، أما الأعيان الموقوفة فقد صدر بشأنها أمر في سنة ١٢٤٧هـ-١٨٣١م نصه:

"يؤذن بقراره الصادر بشأن ٩٧٨ عيناً من عقارات الأوقاف كانت لجنة إحصاء خرائب القاهرة ذكرت في تقريرها أن نظار الأوقاف التابعة لهم أخذوا على عهدتهم أن يرمموها[3].

وبما أن معظم هذه المحال لم تمسها يد الإصلاح إلى الآن، فالمجلس يرى وجوب قيدها في الديوان الخديوي، مع إرغام نظارها على الوفاء بعهدهم، على أن لا يضن عليهم بتقديم المعونة اللازمة من قبل ناظر الأبنية الأميرية.

وفي سنة ١٨٣٧م صدر قانون بمعاينة المساكن الآيلة إلى السقوط وإزالتها هي والحيشان والدور المتخربة المستعملة كزرايب ومستودعات للقاذورات، والتنبيه على أصحابها ببنائها مساكن، وذلك في ظرف ثلاثين يوماً، وإلا عرض العقار للبيع، فإن لم يتقدم مشتر اشترته الحكومة، وإن كان تابعاً لوقف تنبه على ناظره بالبناء، فإن لم يستطع يصير

---

[1] عجائب الآثار للجبرتي ج٤ ص٢٥٣.

[2] وثيقة رقم ٨٦ (١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٧) دفتر تركي ٧٨٤.

[3] وثيقة رقم ١٩١ (١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٧).

استبداله[1].

إزالة الكيان وغرس الأشجار

وفي سنة **١٨٢٩**م أزيلت الكيمان المجاورة للقصر العالي (جاردن سيتي) والمعروفة بكوم العقارب، وكان مسطحها تسعة أفدنة، فأزيلت في **٣٩٣** يوماً.

وكذلك أزيلت التلال فيا بين الناصرية وجاردن سيتي ومساحتها **٣٨** فداناً وغرست بأشجار الزيتون وغيرها[2].

وكذلك أزيلت الأكمة، التي كانت تسد الطريق إلى شبرا، بجوار قنطرة الليمون وحولت إلى منتزه عام[3].

وفي سنة **١٤٨٦** استعجل الأمر الصادر بتوسيع أزقة وفتح شوارع الموسكي وقطع كوم سلامة، وشوارع بولاق وفي الخليج والقلعة[4].

وفي سنة **١٢٦٠–١٨٤٧**م حولت المنطقة عند كوبري الليمون إلى متنزه عام غرست فيه أنواع الزهور والأشجار[5].

وفي سنة **١٢٦٣**هـ–**١٨٤٧**م شرع في توسعة الشارع من باب الحديد إلى الظاهر، والمتصل بطريق السويس[6]، كما أجرى توسيع شوارع درب الجماميز، وباب الخلق، والمشهد الحسيني، ثم غرست الأشجار في الشوارع، ومهد طريق متسع بين مصر وشبرا غرست على جوانبه أشجار الجميز واللبخ، كان من أجمل متنزهات مصر.

وكذلك ردمت بركة الأزبكية وحولت إلى متنزه عام[7].

ثم غرست الأشجار على جانبي الشوارع الكبيرة. وحينها ظهرت آثارها من تجميل

---

[1] تاريخ الإدارة الصحية في مصر ص٣٨–٣٩.

[2] الوقائع المصرية رقم ١١٤ (٢ رمضان سنة ١٢٤٥).

[3] تقويم النيل ج٢ ص٥٣٢.

[4] الوقائع المصرية.

[5] الوقائع المصرية.

[6] الوقائع المصرية عدد ٧٥ (١٣ شعبان سنة ١٢٦٣).

[7] الوقائع المصرية رقم ٨٩ في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٦٤.

المدينة وتلطيف الجو صدرت الأوامر بغرسها على حافتي طريق الرميلة وقره ميدان[١].

التغييرات الجوية

وكانت تصدر نشرة عن الظواهر الجوية في الوقائع المصرية تحت عنوان (ميزان هواي مصر).

ظهرت لأول مرة في الوقائع المصرية الصادر في غاية ذي القعدة سنة ١٢٤٤هـ ١٨٢٩م.

مجلس الإشراف على تجميل القاهرة

في ٨ ذي الحجة سنة ١٢٥٩ – ديسمبر سنة ١٨٤٣م، صدر أمر بإنشاء مجلس للإشراف على تزيين وتجميل المحروسة، وتعديل طرقها، أسوة بما استحدث في الإسكندرية، وهذا المجلس مؤلف من: [٢] رشيد أفندي مفتش الأبنية الأميرية، لينان أفندي مهندس القناطر، مصطفى بهجت رئيس قلم الهندسة بديوان المدارس.

مجلس تنظيم المحروسة

ورد ذكر هذا المجلس سنة ١٢٦٤هـ–١٨٤٧م في الأمر الصادر بترقيم الدور وتسمية شوارع المحروسة.

وفي ٥ شعبان سنة ١٢٨٤هـ– ٢ ديسمبر سنة ١٨٦٧م، صدر أمر بتشكيل مجلس بلدي وفصل إيراد مدينة القاهرة ومصروفها من نظارة المالية، وإسناد إدارتها إلى هذا المجلس ليعمل على تنظيم المدينة، وليكون له الحق في تنظيم ميزانيته، وصرف ما يراه مناسباً للأعمال النافعة، شأنه في ذلك شأن المجالس البلدية في سائر الممالك[٣].

من ذلك الوقت أخذت الحكومة في الإشراف بنفسها وعلى نفقتها القيام بأعباء كل تلك الأعمال.

---

[١] الوقائع المصرية عدد ٩٧ بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٦٤.

[٢] دفتر ٢٠٩١ ورقة ١٤ ديوان المدارس.

[٣] إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ١١٦.

كورنيش النيل

وعلى ذكر العناية بالنيل، وتنفيذ عمل الكورنيش عليه من حلوان إلى القناطر الخيرية ذلك العمل الخالد في تاريخ مصر الحديث. وأنصع صفحة من صفحات حكومة الثورة العمرانية. أذكر أن النيل كان موضع الرعاية والاهتمام بترك شاطئه خالياً من البناء، ولكنهم قديماً صيغوا قوانين تخليته بصبغة دينية، فحذروا الناس من السكنى على شاطئه مباشرة، وقالوا: إن الجالس على النيل كالجالس على الطريق[1]، لأن البحر طريق للمرور فيه بالمراكب، وذلك منعاً لكشف عورات المسلمين، وللبعد عن سماع فحش الكلام من النوتية وغيرهم، صوناً للبنات والنساء.

ثم ذكروا أن العلاء نصوا على أن حرم العيون خمسمائة ذراع، وحرم الأنهار ألف ذراع.

وفي أخريات سنة ٧٠٨هـ–١٣٠٨م أمر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بإقامة جسر على النيل من القاهرة إلى دمياط، وذلك حينما وصلت إليه الأخبار بأن ملك قبرص تآمر مع غيره من ملوك الفرنج على غزو دمياط، فاجتمع الأمراء واتفقوا على تنفيذ الجسر من القاهرة إلى دمياط. خشية أن تكون حركة الفرنج في زيادة النيل فيتعذر الوصول إلى دمياط، وعهد إلى الأمير آقوش الرومي بتنفيذه. فكتب الأمراء إلى بلادهم بخروج الرجال مع الأبقار كل في منطقته، وصدرت الأوامر إلى الولاة بمساعدة الأمير آقوش بالرجال والأبقار. فسارت الأعمال مهمة خارقة، حيث عمل في تنفيذه ٣٠٠ جرافة بستمائة رأس بقر، وثلاثين ألف رجل، إلى أن فرغ في نحو شهر واحد، فكانت المسافة من قليوب إلى دمياط تقطع في يومين. وعرض الطريق من أعلاه أربع قصبات ومن أسفله ست قصبات يسير فيه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً.

فعم النفع به. وسلكه المسافرون بعد ما كان يتعذر المرور فيه أيام فيضان النيل لغمره بالماء.

الإضاءة

كانت الإضاءة تعم الشوارع والحارات في الفسطاط ثم في القاهرة، ذلك أنه في سنة ٣٨٣هـ–٩٩٣م أمر الخليفة العزيز بالله بإضاءة المصابيح على الدور وفي الأسواق[2]. وفي

---

[1] المدخل لابن الحاج ج١ ص٢٤٦–٢٤٨.

[2] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ج٢ ص١٠٨.

ذي الحجة سنة ٣٩١هـ-١٠٠٠م أمر الحاكم بأمر الله أن توقد القناديل في سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة، فنفذت أوامره. ولازم الحاكم بأمر الله الركوب في الليل، وكان ينزل كل ليلة إلى المدينة متفقداً شوارعها وأخطاطها وأزقها، فتباري السكان في الإضاءة، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة[١].

ولم تكن الإضاءة قاصرة على الدور والشوارع والحوانيت، بل ألزم بها المشاة، فكل إنسان يحمل فانوساً يضيء له، ومنها الصغير للفرد والكبير يسير به الضوى أمام سادته. هذا عدا المشاعل التي تتقدم المواكب.

والطريف في أمر الإضاءة في المواكب ما اتخذ منها لمنع التصادم ومنع الخطر في الليل، وأول من حمل الشمع معه على البغال في الليل مُحَمَّد بن طغج الأخشيد منذ عشرة قرون ونصف. فكانت الشمعة تحمل على مؤخر البغل وفراش راكب أمامها يلتفت إليها بين آونة وأخرى يصلحها أو يضيئها، ولاشك في أنه كان يسير في مؤخر الركب، بل وفي مقدمته أيضاً[٢].

ومنذ ذلك الوقت شاع استعمال الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام وخلف ركب الملوك في الليل. وظلت أوامر الإضاءة على الدور والأسواق منفذة على سكان مصر نصدر بشأنها الأوامر بين آونة وأخرى[٣]، إلى أن كان عهد الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٨م فإنهم أمروا بإبطال القناديل التي كانت توقد في الليل على الدور والدكاكين. وأن يوقدوا عوضاً عنها في وسط السوق مجامع في كل مجمع أربع قناديل، وبين كل مجمع ٣٠ ذراعاً، يقوم بذلك الأعيان دون الفقراء، ثم عادت الإضاءة إلى نظامها القديم.

مكافحة الحريق

كان في مدينة الفسطاط في عهد والي مصر عبد العزيز بن مروان، فرقة إطفاء مكونة من خمسمائة عامل لمكافحة حريق طارئ في البلد[٤] أو هدم، ولقد شملت أوامر الإضاءة أمام الدور والدكاكين منذ الدولة الفاطمية ضرورة وضع زير مملوء بالماء أمام كل حانوت

[١] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ج٢ ص١٠٨.

[٢] صبح الأعشى ج١ ص٤١٦.

[٣] عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص٤١.

[٤] المقريزي المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٧٨.

مخافة حدوث حريق في مكان فيطفأ بسرعة[1].

ولما كثرت الحرائق في سنة ٤٠٥هـ-١٠١٤م أمر الحاكم بأمر الله باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة، وإزالة السقائف التي على أبواب الحوانيت والرواشن التي تظلل الباعة فنفذت أوامره بالفسطاط والقاهرة[2].

وفي سنة ٥١٧هـ-١١٢٣م أمر الوزير المأمون الواليين بمصر والقاهرة، بإحضار رؤساء السقائين وأخذ التعهدات عليهم باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً. ورتب عدداً من العتالين كي يبيتوا على باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق والقرب مملوءة بالماء. على أن تتكفل الحكومة بنفقاتهم[3].

وبمناسبة الحرائق التي حدثت بمصر والقاهرة سنة ٧٢٠هـ-١٣٢٠م نودى في القاهرة بوضع زير أو دن مملوء بالماء عند كل حانوت، وأن يقام مثل ذلك في الحارات[4] والأزقة.

وإلى القرن الخامس عشر كان وإلى الطواف (صاحب العسس) يجلس كل ليلة بعد العشاء في منطقة الغورية وأمامه مشعل وحوله عدة من الأعوان وكثير من السقائين، والنجارين، والقصارين، والهدادين بنوب مقررة لهم، خوفاً من أن يحدث في القاهرة حريق بالليل، فيتداركون إطفاءه، ومن حدث منه في الليل خصومة، أو وجد سكراناً، أو قبض عليه من السراق، تولى أمره وإلى الطوف، وحكم عليه بما تقتضيه الحال[5].

مصلحة الإطفاء

ظل الشعب بالاشتراك مع الحكومة يكافح الحرائق إلى حوالي سنة ١٨٤٥م حيث أنشئ قسم لطلمبات الحريق (مصلحة الإطفاء) وإلحاق تسعين جندياً به، وإيداع طلمبة في كل خط من أخطاطها، واستحضرت الأدوات اللازمة لصنع آلات الإطفاء بمصر.

ثم صدرت التعليمات إلى المشرفين على المطاف بأن يرفعوا عقب كل حريق تقرير عن

---

(١) المقريزي المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٠٧.

(٢) المقريزي المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٠٨.

(٣) المقريزي المواعظ والاعتبار ج١ ص٤٦٣.

(٤) المقريزي المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٥١٤.

(٥) المقريزي المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص١٠٣.

أسباب الحريق، وبيان الخسائر، والمدة التي أخمد فيها الحريق.

وتحدثنا الوقائع المصرية عن نماذج لبعض الحوادث ووصفها، ننشرها بنصها:

"في ١٠ شوال سنة ١٢٦٣هـ-١٨٤٧م وصل الخبر إلى الضبطية بظهور حريق في الساعة الرابعة من ليلة ٢٧ رمضان الماضي في منزل على الزيات بباب الشعرية، فأرسلت الضبطية ما لزم من الطلمبات والطلومبجية، وحصل تدارك الحريق بطلومبة الخط المذكور أيضاً، فحصل إخمادها سريعاً، ولكنه نفق بسببها بقرتان وثوران وحمار.

ونشرت في العدد الصادر في ١٧ شوال سنة ١٢٦٣هـ-١٨٤٧م أن مخزن الليف ببولاق ملك الشيخ مُحَمَّد صقر، ظهرت به حريقة في الساعة الثانية من يوم الجمعة الموافق نهاية الشهر الماضي، ولما وصل خبره إلى الضابطخانة أرسلت من طرفها ومن طرف الطلومبخانة بعض الطلمبات مع مأمورها وبذلوا جهدهم الزائد مع الطلمبجية المختصين ببولاق، فأخمدوها، ولم يحترق سوى جانب من ليف كان موجوداً بالمخزن[١].

وفي فبراير سنة ١٨٧٥م تحرر من وزارة الخارجية إلى الحكومة الانجليزية بطلب انتداب اليوزباشي شو رئيس فرقة المطافئ بلوندرة، لاستشارته في الإجراءات التي تتخذ ضد الحريق، وتنظيم فرقة المطافئ بالقاهرة، والإقامة لهذا الغرض بضعة أيام للإدلاء برأيه في هذا الشأن[٢].

وكان الإطفاء بواسطة آلات تدار بالبخار، تجرها جياد دربت أحسن تدريب كانت تتحرك من أماكنها بمجرد سماعها جرس الحريق وتقف في مكانها من سيارة الإطفاء، وظلت مستعملة إلى أن استبدلت بسيارات الإطفاء في سنة ١٩٢٠.

تسمية الشوارع وترقيم الدور

عهدنا بالشوارع والحارات والرحاب في القاهرة أن تطلق عليها أسماء التجارات والصناعات التي تشغلها، كما أطلق عليها أسماء بعض القبائل والأفراد كما هو واضح ومدون في أول الجزء الثاني من خطط المقريزي، وما هو وارد في الحجج القديمة.

وفي سنة ١٨٤٧م وبعد أن نظمت القاهرة وشقت فيها الشوارع، وغرست بها

---

[١] الوقائع المصرية عدد رقم ٨٣ سنة ١٢٦٣هـ-١٨٧٤.

[٢] إسماعيل كما تصوره الوثائق ص١١٧.

الأشجار وأضيئت، رؤى تسمية الشوارع وترقيم الدور، فصدر الأمر بذلك في سنة ١٢٦٢هـ-١٨٤٧م مستهلاً بتلك الديباجة:

"لما كانت كتابة أسماء الأزقة بمصر المحروسة على محل يناسبها فوق زواياها، وتنمير البيوت الكبيرة والصغيرة برقم نمرها بأعلى أبوابها أو بجانبها، كأسلوب أوروبا، مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقاً أو بيتاً، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب، استقر الرأي بمجلس تنظيم المحروسة، على التدابير اللازمة لذلك، طبق الإرادة السنية، واندرج بيانها تفصيلاً في نسخ الوقائع المنمرة برقم 64 وحصل في هذه الأيام الشروع في إجراء ذلك ابتداء من باب الخلق بمقتضى الترتيب الآتي ذكره أدناه وهو خمسة عشر بنداً:

(البند الأول)

حيث إن خليج مصر المحروسة ماراً من وسطها تقريباً، وكان باب الخلق متصلاً بالخليج المذكور، ومركزاً لمصر المحروسة، استنسب أن تكون الجادة الممتدة من باب الخلق إلى القلعة، تسمى بشارع القلعة[1]، ويكتب على رأس زوايا تلك الطرق اسم شارع القلعة وتكتب نمر البيوت الكائنة هناك على أرضيات بيضاء بمداد أسود، يحيط بها برواز لونه كلون مداد الأحرف، وتنمر البيوت التي عن يمين المار بباب الخلق بنمرة الوتر، والتي عن يساره بنمرة الشفع، أي تكون التي في الجهة اليمنى غير مزدوجة، والتي في الجهة اليسرى مزدوجة إلى انتهائها بناحية القلعة.

(البند الثاني)

أن تسمى الطريق الممتدة من باب الخلق إلى مبرك النوق المعبر عنه الآن بباب اللوق بشارع باب اللوق. وابتدأ بالمر من باب الخالق على الوجه المشروح بالنسق المذكور في الأحرف والبرواز والأرضية.

(البند الثالث)

إن الجادة الممتدة من باب السيدة زينب البراني، إلى غاية قره قول باب الخلق تسمى بشارع السيدة زينب، ويكون لون أرض لوحتها أصفر، ولون أحرفها وبروازها أحمر.

---

[1] كان الشارع الرئيسي الموصل الى القلعة من باب الخلق هو تحت الربع، فالدرب الأحمر فالتبانة، فباب الوزير حيث لم يكن شارع محمد على موجودة وقتئذ.

(البند الرابع)

إن الطريق الممتدة من باب الخلق إلى زاوية الموسكي، تسمى بشارع باب الخلق ويكون لون أحرفها أحمر كذلك، وأرضية لوحتها صفراء.

(البند الخامس)

إن الجادة التي من زاوية الموسكي إلى غاية باب العدوي، تسمى بشارع الشعراني، وتكون أحرفها حمراء أيضاً، وأرض لوحتها صفراء.

(البند السادس)

إن الطريق الممتدة من قره قول السيدة زينب إلى القلعة، تسمى بشارع الرميلة، وتكون أحرفها وبروازها بالمداد الأسود، وأرضيتها بيضاء.

(البند السابع)

إن الجادة الذاهبة من قره قول الصليبة إلى باب زويلة، تسمى بشارع الصليبة، ويكون لون خطها أحمر على أرضية صفراء.

(البند الثامن)

إن الطريق الممتدة من السيدة نفيسة إلى قره قول الصليبة، تسمى بشارع السيدة نفيسة، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند التاسع)

إن الجادة المتمدة من باب زويلة إلى سبيل الجمالية، تسمى بشارع الغوري، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، على أرضية صفراء.

(البند العاشر)

إن الطريق الممتدة من سبيل الجمالية إلى باب الفتوح، يعبر عنها بشارع باب الفتوح، ويكون لون خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند الحادي عشر)

إن الجادة التي من السبيل المذكور إلى باب النصر، تسمى باب النصر، ويكون لون

خطها وبروازها أحمر، وأرضيتها صفراء.

(البند الثاني عشر)

إن الجادة الكائنة من قره قول باب الشعرية إلى الباب الجديد، يعبر عنها بشارع الباب الجديد، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

(البند الثالث عشر)

إن الطريق التي من القره قول المذكور إلى باب الفتوح، تسمي بشارع مرجوش، ويكون لون خطها وبروازها أسود.

(البند الرابع عشر)

إن الطريق الممتدة من زاوية الموسكي إلى الاستبالية[1] الملكية الكائنة بالأزبكية تسمى بشارع الموسكي، ويكون لون خطها وبراوزها أسود.

(البند الخامس عشر)

إن الطريق الممتد من شارع باب الخلق، إلى شارع الغوري، تسمى بشارع الحمزاوي، ويكون خطها وبراوزها أسود.

وأعقب البند الخامس عشر هذا التعليق:

"لما كانت الشوارع المحررة أعلاه إذا كتبت أسماؤها على الحيطان يحصل فيها مشقة على من يكتبها ولا تتحصل بسرعة كما ينبغي، بل تطول مدتها ولا يمكن كتابتها مع الراحة بسبب ذهاب الناس وإياهم في الأزقة، ومرور الحيوانات ذوات الأحمال والعربات أيضاً، استنسب أن تحرر أسماؤها على ألواح ثم تعلق عليها وتسمر بالمسامير.

ومن حيث أن نمر البيوت ليست بالمثابة المذكورة لزم أن تكون كتابها فوق الأبواب أو بجانبها حسب الاقتضاء. وإذا كانت النمر المذكورة ترتب على قدر طول الشوارع كما ذكر. ومن المعلوم أن كل شارع منها يشمل محلات كثيرة مسماه بأسماء مشهورة، استنسب أن تكون كتابة اسم الشارع المشتمل على النمر في ألواح الزوايا بخط جلي وأن يكتب اسم

---

[1] هي دار الشفاء التي كانت بالعتبة الخضراء.

المحل تحته بخط رفيع بالنسبة إليه، حتى أن كل من نظر إلى اللوحة يعلم اسم المحل الذي هو فيه.

ولما كان من مقتضيات الإرادة السنية إتمام مأمورية تنمير البيوت التي في الأزقة الآتي ذكرها بسبب ما حصل من اجتهاد المأمورين والعمال الذين عينوا لذلك وشرع في وضع نمر ما بقي من البيوت. وعند انتهائها بدرج ذكرها في الوقائع ليكون معلوماً للعامة.

(البند السادس عشر)

إن الجادة الممتدة من قنطرة السيدة زينب إلى باب حارة الزير المعلق بآخر شارع درب الحجر، تسمى بشارع الناصرية، تكتب نمرتها بالمداد الأحمر.

(البند السابع عشر)

إن الطريق الممتد من قنطرة سنقر إلى باب الزير المعلق، تسمى بشارع درب الحجر، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الثامن عشر)

إن الطريق التي من باب قره قول سويقة السباعين، بشارع الناصرية إلى حارة السقايين، تسمى بشارع درب الحمام وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

(البند التاسع عشر)

إن الطريق التي من باب الزير المعلق الكائن بدرب الحجر إلى بيت شربتجي باشا، تسمى بسكة الزير المعلق، وتكون نمرتها بالمداد الأحمر.

(البند العشرون)

إن الطريق التي ابتدأوها من شارع درب الحجر المارة من عابدين المنتهية إلى جادة باب اللوق، تسمى عابدين، وتكون نمرتها حمراء.

(البند الحادي والعشرون)

إن الجادة الممتدة من شارع باب اللوق المارة نجاه بيت حضرة الباشا مدير المالية المنتهية إلى الجبانة، تسمى بشارع البيدق، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثاني والعشرون)

إن الطريق التي تمتد من باب الخوخة إلى شارع باب اللوق، تسمى بشارع البلاقسة، ونمرها تكون حمراء.

(البند الثالث والعشرون)

إن الطريق الممتدة من باب درب أبي الليف إلى شارع الشيخ ريحان، تسمى بشارع حارة السقايين، ونمرها تكون حمراء.

(البند الرابع والعشرون)

إن الطريق الممتدة من درب باب أبي الليف بشارع الناصرية إلى باب حارة السقايين، تسمى بشارع أبي الليف، وتكون نمرها حمراء.

(البند الخامس والعشرون)

إن الجادة الممتدة من شارع الأستاذ الحنفي إلى جادة الناصرية، تسمى بدرب القرودي، ونمرها تكون حمراء.

(البند السادس والعشرون)

إن الطريق الممتدة من قنطرة السيدة زينب إلى عطفة عمر شاه؛ تسمى بشارع الدرب الجديد. والطريق الممتدة من باب عطفة عمر شاه الموصلة إلى شارع الهياتم ودرب القرودي، تسمى بشارع سويقة اللالة، والطريق الممتدة من الشارع المذكور إلى جادة الناصرية، تسمى بشارع الحنفي، وتكون نمر هذا الطريق بالمداد الأحمر، والطريق التي من جادة الحنفي إلى سبيل الخليج، تسمى بشارع الهياتم، وتكون نمرها سوداء.

(البند السابع والعشرون)

إن الطريق الممتدة من قنطرة عمر شاه إلى شارع الدرب الجديد، تسمى بشارع عمر شاه، وتكون نمرها سوداء.

(البند الثامن والعشرون)

إن الطريق الممتدة من جادة درب الجماميز إلى عطفة كور أغلى، تسمى بشق العرسة،

ونمرتها تكون سوداء.

(البند التاسع والعشرون)

إن الطريق التي تمتد من جادة حضرة السيدة زينب إلى عطفة الشيخ السادات، تسمي بعطفة كور أغلى، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الثلاثون)

إن الجادة التي تمتد من قنطرة درب الجماميز إلى شارع الحنفي، تسمى بشارع خليل طينة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الحادي والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة زينب المارة نحو بيت الشيخ السادات المنتهية إلى بركة الفيل، تسمى بشارع السادات، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الثاني والثلاثون)

إن الجادة المبتدئة من أمام مسجد السيدة زينب الممتدة إلى الجهة الغربية من الخليج، تسمى بحارة السيدة زينب، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الثالث والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من جانب قنطرة سنقر إلى عطفة قرا على بجوار الخليج تسمى بشارع الخليج، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الرابع والثلاثون)

إن الطريق المبتدئة من الباب المحاذي لقنطرة الذي كفر المنتهية إلى شارع عابدين، تسمى بشارع رحبة عابدين، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الخامس والثلاثون)

إن الطريق المبتدئة من باب حارة النصارى المارة من سوق الجمعة الممتدة إلى سويقة السباعين بجادة الناصرية، تسمى بشارع سوق الجمعة، وتكتب نمرتها بالمداد الأسود.

(البند السادس والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من باب حارة النصارى الكائن بشارع سوق الجمعة المتصل بقنطرة سنقر، تسمى حارة النصارى، ونمرتها تكون حمراء.

(البند السابع والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من الباب القريب من درب الجماميز إلى شارع سوق الجمعة، تسمى بسوق مسكة، وتكون نمرتها حمراء.

(البند الثامن والثلاثون)

إن الزقاق الممتد من شارع الحنفي إلى سوق الجمعة، يسمي بعطفة الفقوسة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند التاسع والثلاثون)

إن الطريق الممتدة من شارع السيدة نفيسة إلى سوق العصر المعادلة لجادة طولون، تسمى بشارع درب الحصر، ونمرتها تكون سوداء.

(البند الأربعون)

إن الطريق الممتدة من شارع طولون المنتهية إلى شارع الرميلة تسمى بسكة بير الوطاويط، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الحادي والأربعون)

إن الطريق الممتدة من أمام بئر الوطاويط الواصلة إلى باب البركة، تسمى بسكة أزبك، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثاني والأربعون)

إن الطريق الممتدة من عمارة حسنى باشا المارة على الشيخ نور الظلام، الواصلة إلى جادة الصليبة قريباً من بيت محمود بك، تسمى بسكة الشيخ نور الظلام، ونمرتها تكون حمراء.

(البند الثالث والأربعون)

إن الطريق المتمدة من المحجر أمام بيت المرحوم ابراهيم باشا يكن، الواصلة إلى شارع سوق السلاح، تسمى بسكة الكومي، ونمرتها تبدأ من جادة سوق السلاح، وتكتب بالمداد الأسود.

(البند الرابع والأربعون)

إن الطريق الممتدة من أمام قره قول باب الوزير إلى سكة الكومي، تسمى بعطفة الكوم الوسخة، وتكون نمرتها سوداء.

(البند الخامس والأربعون)

إن الطريق المبتدئة من شارع القلعة الممتدة إلى سكة الكومي، تسمى بدرب القزازين، وتكون نمرتها حمراء.

(البند السادس والأربعون)

إن الطريق الممتدة من جامع ابراهيم أغا الكائن بشارع القلعة إلى جامع أصلان (أصلم)، تسمى بدرب شغلان، وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند السابع والأربعون)

إن الطريق الممتدة من قره قول التبانة إلى الدرب المحروق، تسمى بشارع النبوية وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند الثامن والأربعون)

إن الطريق الممتدة من الدرب المحروق إلى باب المحجر، تسمى بالدرب المحروق وتنمر بالمداد الأحمر.

(البند التاسع والأربعون)

إن الجادة الممتدة من جامع قجماس الكائن بالدرب الأحمر بشارع القلعة إلى الدرب المحروق، تسمى بيرالمش[1] وتنمر بالمداد الأسود.

---

[1] رأيت هذه اللافتة على منزل خلف مسجد قجماس (أبو حريبة). من الجهة البحرية الشرقية وقد هدم وأعيد بنائه.

(البند الخمسون)

إن الطريق المبتدئة من باب الخلق الممتدة إلى جادة الحمزاوي، تسمى درب سعادة، وتنمر بالمداد الأحمر[١].

ونشرت الوقائع المصرية في عددها رقم ٨٤ في ٧ شوال سنة ١٢٦٣هـ، أن الإرادة السنية تعلقت بتنمير المساكن والدكاكين والأزقة وجميع المحال بمصر والاسكندرية. كما صدر أمره العالي أن يتبع هذا النظام أيضاً في رشيد ودمياط، ثم باقي بنادر الوجه البحري، كالمنصورة، وسمنود، وفوه وطنتدا، وأسيوط وغيرها من البنادر المماثلة لها ويكون ذلك بمعرفة الضباط الأربعة المكلفين بالتنمير بمصر المحروسة.

***

نخرج من هذا البيان بعدة فوائد: أولها تخطيط القاهرة في القرن التاسع عشر مع بيان هام لأكبر شوارعها وبعض سككها المتفرعة منها، وبواباتها وتحديد بعض قره قولات البوليس بها، غير أني أقرر أن هذا البيان ملحقاً لم أقف عليه، لأنه لم يتناول أسماء الشوارع في مصر القديمة ولا بولاق، بالرغم من وجود لافتات بها، ومع أني عثرت على الكثير من لافتات الشوارع ونمر الدور في المناطق الواردة في هذا البيان وخاصة الشوارع الرئيسية، فإني وجدت الكثير منها في شوارع بولاق، ومصر القديمة، غير أنها لم ترد في هذا البيان، وهي مناطق أثرية آهلة بالسكان. كما أنه لم يتضمن مسميات الحارات في المناطق التي سمي شوارعها[٢]. بالرغم من وجود لافتات بها.

وقبل التحدث عنها، أناقش التعليق الملحق بالبند الخامس عشر، والمتضمن صعوبة كتابة أسماء الشوارع على الجدران، لما فيه من مشقة على كاتبها بسبب مرور الناس والعربات ذات الأحمال، واستحسان كتابتها على ألواح خشبية تعلق وتثبت.

والأمر الثاني تلوين بعض اللوحات في مختلف الأحياء. فأذكر أن جميع اللوحات التي عثرت عليها من الجص المثبت على الجدران. وأن مسمياتها وألوانها تتفق مع ما جاء في بنود

---

[١] الوقائع المصرية العدد ٨٣ في ٢٩ رجب سنة ١٢٦٣هـ وتقويم النيل ج٢ ص٥٤٧-٥٥٢.

[٢] لعل البيان الذي ننشده هو المشار إليه في العدد ٦٤ من الوقائع، أو لعله السابق الوعد به في التعليق على البند الخامس عشر. والقائل فيه "عند انتهاء التسميات يدرج ذكرها في الوقائع ليكون معلوماً للعامة.

البيان. كما أن الكثير من الكتابات بالمداد الأسود، ووجدت في أرضيات بعضها أثر التلوين، وهذا يجعلني أؤكد أنه حصل عدول عن كتابتها على ألواح خشبية وعن التلوين في بعضها واستعيض عنها بألواح جصية. صبت وكتبت ثم لونت وركبت أو عملت على (بيتها) حسب اصطلاح الصناع وهو سر بقائها للآن. وكانت ملونة وفقدت تلوينها حيث وصلت إلينا مع مضي الزمن بيضاء أو حروفها بيضاء.

ومما يعزز أن تلك اللوحات عملت تنفيذاً للأمر الصادر سنة ١٨٤٧، مطابقة نصوصها للبيان كما أسلفت، وأن جميع ما عثرت عليه منها مثبت على منشآت أثرية تسبق عصر مُحَّد علي أو على منشآته أو منشآت عصره، وأذكر على سبيل المثال بعض الأماكن المثبتة عليها: باب الفتوح – باب زويلة – مسجد قجماس الإسحاقي بالدرب الأحمر – سبيل عمر أغا بشارع التبانة – مسجد إيتمش البجاسي برأس باب الوزير – سبيل العقادين (مُحَّد علي) بحارة الروم – مسجد الغوري منزل أوده باشي بالجمالية – بوابة السلحدار برأس حارة برجوان – دار المحفوظات بالقلعة، وسور بالعلقة – باب درب اللبانة بالمنشية – مسجد مرزا ببولاق مسجد القاضي يحيي بشارع المحكمة ببولاق، سبيل حبيش تحت الربع – سبيل السلطان مصطفى بميدان السيدة زينب - سبيل السلطان محمود بدرب الجماميز - مسجد قراقجا الحسى باللبودية - باب قايتباي بالسيدة عائشة - مدفن تمربای الحسيني بشارع القادرية بالخليفة - سبيل القبرصلي بالفحامين - بوابة كنيسة أبي سرجة وحارة مار جرجس بمصر القديمة - وكالة المشنات ببولاق - سبيل مُحَّد كتخذ بالداودية.

وجميع الأماكن التي ذكرت تسبق سنة ١٨٤٧م ومنها ما هو من منشآت القرن التاسع عشر المنشأة قبل صدور الأمر بعمل اللوحات.

كما أنها لم توجد على منشآت معمارية بعد سنة ١٨٤٧ مما يجعلني أؤكد أن جميع ما عثرت عليه منها رجع إلى أول القرن التاسع عشر، وفقط استعيض عن اللوحات الخشبية بلوحات جصية كانت أيسر تثبيتاً وبقاء.

وبدراسة الشوارع الرئيسية طبقاً لما ورد في بنود هذا البيان، وجدت لوحاتها الموجودة مطابقة لها. فقد نص البند الأول على تسمية الشارع الممتد من باب الخلق إلى القلعة، باسم شارع القلعة، فوجدت أن اللوحة المثبتة على البدنة الغربية لباب زويلة مكتوب عليها (شارع

القلعة) بحروف سوداء تحتها لوحة بيضاوية صغيرة كان بها اسم الشارع الفرعي –لعله الدرب الأحمر[1]– وهذا يطابق ما ورد في التعليق الملحق بالبند الخامس عشر من كتابة اسم الشارع بخط جلي وكتابة اسم المحل تحته بخط رفيع بالنسبة إليه –كما وجدت لوحة مثبتة على سبيل عمر أغا أما مسجد آق سنقر (إبراهيم أغا مستحفظان) بشارع باب الوزير مكتوب عليها شارع القلعة وعلى اللوحة البيضاوية تحتها الخربكية بخط فارسي صغير، وقد اتفقت نصاً وتلويناً.

وجاء في البند التاسع أن الجادة الممتدة من باب زويلة الى الجالية، تسمى بشارع الغوري، ويكون لون خطها وبروازها أحمر وأرضيتها صفراء.

وبفحص اللوحة الموجودة على البدنة الشرقية لباب زويلة، وجدتها مكتوبة عليها (شارع الغوري) وقد بدت بقايا الحروف بيضاء وبالأرضية أثر تلوين يميل إلى الصفرة وعلى اللوحة البيضاوية تحتها كتب بخط فارسي (السكرية)، وتبدو الحروف بيضاء لزوال التلوين. وقد اتفقت نصاً وتلويناً.

وينص البند العاشر على أن تسمية الطريق من سبيل الجمالية إلى باب الفتوح، باب الفتوح تكتب باللون الأحمر – ويفحص اللوحة المثبتة على باب الفتوح تبين أنه كان مكتوباً عليها بالمداد الملون (باب الفتوح).

وينص البند الثالث على تسمية الشارع الممتد من باب السيدة البراني إلى قره قول باب الخلق، شارع السيدة بحروف حمراء على أرضية صفراء وبرواز أحمر. وبفحص اللوحات التي عثرت عليها وجدت إحداها على مسجد قراقجا الحسنى مكتوب على الرئيسية منها شارع السيدة والفرعية درب الجماميز، ويغلب على الحروف البياض مما يفيد فقدان اللون، وفي الأرضية اصفرار.

والثانية على سبيل السلطان محمود ومكتوب عليها شارع درب الجاميز؛ والفرعية ضلع[2] السمكة، ويغلب على الحروف البياض مما يفيد فقدان اللون وفي الأرضية اصفرار.

---

[1] هو فعلاً الدرب الأحمر لأن البند رقم ٤٩ اعتبر جامع قجماس الأسحاقي بشارع الدرب الأحمر.

[2] لم يرد في البنود ذكر التسمية الفرعية (ضلع السمكة) وقد ذكرها علي باشا مبارك عند ذكره لمسجد كاتم السر الذي هدم في توسعة الخليج وعند ذكره لتكية السلطان محمود في الجزء الثالث ص٩ الخطط التوفيقية.

وهذا يعزز ويؤكد اتفاق ما عثرت عليه في أهم الشوارع مع ما جاء في البنود نصاً وتلويناً.

وقد وجدت أثر التلوين في أرضية لوحة سكة باب الوزير على مسجد إيتمش البجاسي بشارع القلعة القديم، وجلياً في الإطار الأحمر حولها.

وقد اتفقت تلك اللوحات في الوصف والمقاس، فاللوحات الرئيسية مستطيلة مقاسها ٠.٨٧ × ٠.٤٧ سم والفرعية تحتها بيضاوية، مقاس ٠.٤٩ × ٠.٤١ سم.

أما نمر الدور فيوجد الكثير منها على الدور السابقة للقرن التاسع عشر ومنشآت أوائله، وهي مربع صغير من الجص أحيط بإطار من البوية السوداء أو الحمراء يتوسطه الرقم باللون الأسود، أو الأحمر، ومنها ما هو مثبت على جانب الباب أو فوق عقده، وقد وجدت منها الكثير في مصر ورشيد والمنصورة.

ومن البلدان التي عثرت فيها على لافتات بأسماء الشوارع (أسيوط) حيث وجدت لوحة على مسجد الكاشف، ومدينة رشيد، حيث وجدت عدة لوحات، منها ما هو على مسجد الشيخ تقي، وعلى منزل الأمصيلي، وعلى منزل المناديلي والحاج يوسف بحارة الحاج يوسف، وكلها أماكن منشأة في القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي وهي تطابق مثيلاتها في مصر، غير أنها خالية من اللوحات الفرعية.

ولا شك في أن ما وجدته من لوحات أسماء الشوارع ونمر الدور في مصر والأقاليم باقية من وقت صدور الأمر بعملها.

بوابات الحارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة وأحدثت في أسوارها أبواب جديدة لتعدد مسالكها، أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقات، ذلك أنه في سنة ٨٦٤هـ-١٤٥٩م كثرت السرقات، فاهتم[١] الأغنياء بإقامة البوابات على الحارات والدروب، وعينوا لها البوابين فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب بقليل.

وقد نبهت الكتب المؤلفة في سياسة الدول الإسلامية على ضرورة يقظة حارس

---

[١] حوادث الدهور لابن تغري بردي قسم ٢ ص٣٣٢.

الدرب، وعدم السماح للغرباء بالدخول إلا بعد التحقق[١] منهم، والتحري عنهم، وأن يقوم بالتبليغ عن الحرائق والسرقات، ولا يدلي بأسرار السكان لوالٍ أو لغيره.

وقد ورد ذكر أبواب الدروب والخوخات في عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر فقرات منها.

في سنة ٩٠٣هـ-١٤٩٧م أمر والي القاهرة، بأن ينادي باسم السلطان. بأن سكان الأسواق والحارات يعملون عليها دروباً، فامتثلوا لأمره، وبنيت بالقاهرة عدة دروب: منها ما هو على سوق تحت الربع وعلى سوق أحمد بن طولون، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والحارات. لأن المناسر كانت كثرت في تلك الأيام، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات[٢].

وفي سنة ٩٢٢هـ-١٥١٦م أمر الأمير الماس وإلى الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على الحارات والأزقة دروباً في أماكن شتى، فعمروا دروباً في رأس سوق الدريس، وفي الحسينية، وعلى قنطرة الحاجب، وعند المقس[٣] وعدة دروب في أماكن شتى، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلاً، وأن لا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء، وذلك اتقاء لشر اللصوص وحدوث الحرائق المفتعلة.

وحينما كانت تقع اضطرابات سياسية أو غيرها كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والخوخات التي بالحارات. وهذا ما حدث في[٤] ٢٩ذي القعدة سنة ٩٢٣هـ-١٥١٧م.

وقد حدثنا عن تلك البوابات الجبرتي في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر فقال: في سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٨م شرع الفرنسيون في تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون أبواب الدروب والعطف والحارات. كما خلعوا أبواب الدروب الغير نافذة أيضاً، ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب.

---

[١] معيد النعم ومبيد النقم ١٤٥.

[٢] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج٢ ص٣٣٦.

[٣] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج٣ ص٣٣.

[٤] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج٣ ص١٤٣.

وفي جمادي الأولى من تلك السنة خلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة الغير نافذة، وهي التي تركت وسومع أصحابها وبرطلوا عليها. وكذلك دروب الحسينية ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية، ثم كسروها وباعوها للوقود[١].

ومن وصف الجبرتي نعلم أن البوابات استعملت بكثرة للحارات والدروب.

وفي أوائل القرن التاسع عشر وحينما استتب الأمن[٢] صدرت الأوامر بنزع البوابات التي على الدروب مبالغة في استقراره.

ورغم ما أصاب البوابات من التخريب فقد بقيت منها بقية صغيرة في أنحاء القاهرة كان الفضل في بقائها تسجيلها ضمن الآثار العربية مثل باب حارة زقاق المسك بالخيمية، وحارة الألايلى بالغورية وبوابة طرباى بباب الوزير وباب درب الميضة بالجمالية، وباب حارة برجوان بالنحاسين، وباب متصل بقبة تتر الحجازية بالقفاصين قسم الجمالية، وبوابة بيت القاضي بجوار قسم الجمالية.

هذا عدا ما هو موجود منها في سوق الفحامين ومصر القديمة على الدرب المؤدي إلى قاعة العرسان، وعلى الدرب المؤدي إلى كنيسة أبي سرجة. وباب حارة سعد الدين بالقرب من مسجد أصلم السلحدار بدرب شغلان، وباب حارة زعيتر بشارع بولاق الجديد، وباب درب البارودية لصق قبة الغوري بالغورية.

وكانت تلك البوابات تغلق في الليل ويعين لها الحراس، فيظلون طول الليل في موضع المراقبة وهم مسلحون، فيغلقونها عقب صلاة العشاء، ولا يفتحونها لطارق مجهول أو قادم إلا إذا أسر إليه بكلمة السر المتفق عليها مع السكان في تلك الليلة. أو قدم له بطاقته الشخصية.

البطاقات الشخصية

في ٢٣ ربيع الأول من سنة ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م قرر مجلس المشورة بالقاهرة أن يكون بيد كل إنسان تذكرة مختومة بختم مصر يقدمها عند خروجه[٣] من أبواب مصر أو

---

[١] عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص٢٩.

[٢] عبر البشر في القرن الثالث عشر ص٤١ (خط).

[٣] الوقائع المصرية الصادرة في ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ.

دخوله فيها وعند انتقاله من بلد إلى أخرى.

ونصت المادة ١٩٤ ضمن البنود المنتخبة من[1] الجمعية الحقانية في ٩ شعبان سنة ١٢٦٠هـ-١٨٤٤م على "أن كل من يوفق تذكرة مرور بالزور، أو بصنع حيلة في تذكرة مرور يكون أصلها صحيحاً، أو يستعمل تزويرات مثل ذلك، أو تذكرة مرور ذات حيلة فإنه يجازى بإرساله إلى اللومان بمدة من ستة أشهر إلى سنتين".

وكان يعهد إلى (البصاصين) رجال البوليس الملكي بمراقبة مداخل القاهرة والاطلاع على البطاقات، حتى إذا تبين أن أحداً لا يحمل بطاقة عذر وأنذر، فقد ضبط سالم أحد عربان العبابدة داخلاً من باب القرافة وهو بزي امرأة، وبالتحقيق معه وسؤاله عن تذكرته اعتذر عن تركها، وقال إنه لم يززى بزي النساء، بل كان يحمل قميص والدته على كتفه، وبعد معاقبته أطلق سراحه (الوقائع المصرية عدد ١٩٣-٩ ربيع آخر سنة ١٢٤٦).

والبطاقات الشخصية ليست وليدة القرن التاسع عشر. فقد كانت نواتها موجودة بمصر منذ القرن الرابع عشر الميلادي. فإن ابن بطوطة حينما زار مصر وذهب إلى دمياط قال "إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج إلا بطابع الوالي. فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به[2] وهذا بلا شك (جواز مرور أو بطاقة شخصية) للوافدين على مصر من الأغراب. ثم حدثنا عن جوازات الدخول إلى مصر والخارجين منها حينا وصل إلى بلدة قطيا باعتبارها الحد الفاصل بين الشام ومصر وفيها الجمرك والدواوين فقال:

"ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين، وكان يعهد إلى العرب بحراسة الحدود عند هذه البلدة، وطريقها في ضمان العرب، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل فلا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل، فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار

---

[1] قانون منتخبات ص١٠٣.

[2] رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج١ ص١٦.

مؤثره[١]، فيذهبون في طلبه فلا يفهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء".

وللصديق المحقق ميخائيل عواد بحث ممتع في جوازات السفر حوي معلومات جديدة طريفة نشرت في مجلة الكتاب ص٤٠-٥٠ عدد مايو سنة ١٩٤٦ يرجع إليه من رغب التوسع في هذا الموضوع. ويعتبر ما ذكرناه مكملاً لبحثه.

تقسيم القاهرة

مما سبق يتضح أن القاهرة قسمت إلى مناطق سكنية، ومناطق صناعية. كما قسمت أيضاً إلى مناطق لهو بريء، وغير بريء، ومتنزهات خلوية، فن مواطن اللهو غير البريء قنطرة الحاجب على الخليج المصري حيث كانت مقر أهل الطرب والخلاعة. وكانت العامة نقول في هزها:

ستي، أين كنتي، وأين رحتي، وأين جيتي؛ قالت: من ربع الزيتي[٢].

هذا عدا المناطق المخصصة لعصير الخمر وبيعه وغالبها أماكن نزهة أو يسكنها غير المسلمين مثل حارة السودان، وحارة الساشا، وكوم دينار، وبركة اليقطين، وحارة عكا، والجزيرة، والمريس، والباطلية، وشبرا، ومنية السيرج، وحارة زويلة، وحارة الروم الجوانية، وسويقة صفية، وقنطرة الفخر[٣].

وكانت مواطن اللهو البريء في رحبة باب اللوق، وكانت تجمع رحاباً خمس وبها كان يجتمع في القرن الخامس عشر الميلادي أرباب الملاعب المسلية كالمشعبذين ولاعبي خيال الظل والحواة والبهلوانية وغيرهم[٤].

وكانوا في القرن الرابع عشر يجتمعون في منطقة أخرى متاخمة لها عند جامع الطباخ القريب من ميدان (عابدين).

أما متنزهاتها فكثيرة على ضفاف النيل، وعلى حافتي الخليج، وحول برك الفيل والحبش والرطلى، والأزبكية، وشبرا وخارج الحسينية وجزيرة الروضة وغير هذا كثير.

---

[١] رحلة بن بطوطة ج١ ص٣٠.

[٢] المقريزي (المواعظ والاعتبار) ج٢ ص٧٨.

[٣] حلبة الكميت ص٤٠.

[٤] المقريزي (المواعظ والاعتبار) ج٢ ص٥١.

وعلى الجزائر وضفاف البرك أقيمت السرادقات والأخصاص في فصل الصيف في سنة ٧٤٧هـ-١٣٤٦م ظهر في النيل جزيرة حليمة فاتصلت بجزيرة الزمالك وأقبل سكان مصر على التصييف فيها فأنشأوا بها عدة أخصاص (عشش) تفننوا في تشييدها حتى بلغت نفقات الخص نحو[١] مائة وخمسين جنيهاً ما بين رخام ونقوش وحدائق حوله. وكانت الإقامة في تلك الأخصاص وفي أخصاص جزرة الطينة أمام أثر النبي بمصر القديمة يستغرق ستة شهور.

وبذلك انتفع سكان مصر والقاهرة بجزائر النيل ابتداء من بولاق وجزيرة الروضة وما يتصل بها من جزائر إلى مصر القديمة وهي مساحة تزيد عن مساحة رأس البر.

وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وفي القرون الثلاثة التالية له، كانت منطقة الأزبكية حول بركتها من أجمل متنزهات مصر. حيث عنى بها الأمير أزبك من ططخ كبير أمراء السلطان قايتباي، فأزال كيمانها، وأعاد حفر البركة، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري، ثم أنشأ مناخاً لجماله، كما أنشأ قصراً له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه.

وما أن تم عمرانها حتى أنشأ بها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة، وأنشأ حوله حماماً ووكالة وقياسر للتجارة، وقد رقع الفراغ من تلك المنشآت حوالي سنة ١٤٧٧م. وكان من جراء حفر البركة وعمل رصيف حولها أن رغب سراة مصر في سكني الأزبكية، فشادوا القصور وغرسوا الحدائق حتى صارت مدينة عامرة تبارى الشعراء والأدباء في وصف جمالها.

ومن طريف ما وقفت عليه في مدحها مقامة الشيخ شمس الدين مُحَمَّد بن أبي بكر القادري التي سماها "عرف الروضة الذكية في وصف محاسن الأزبكية[٢]" اقتطف منها تلك الفقرات.

فهي أحسن ما عمر في عصرنا. وبها البركة التي ليس في القاهرة أعظم منها، ومن أيامها المعدودة ذلك اليوم الذي تنساب فيه إلى البركة مياه النيل، حيث تضاء البركة والدور حولها، وتدخل إليها المراكب مزدانة وتقام حولها حفلات الطرب.

أما في زمن الربيع فان هذه البركة تزرع كلها قرطاً، وتضرب الخيام حولها وتتحول إلى

---

[١] المقريزي (المواعظ والاعتبار) ج٢ ص١٨٦.

[٢] نزهة الأمم لابن إياس ص ٢٤٦ خط.

ربيع في وسط المدينة يتمتع بها خلق كثير.

"ويعجبني وصفه للمباني بقدر ما يسمح له خياله فيصف المسجد بأن[١] أعمدته كشموع كبيرة ناصعة البياض، ورخامه المدبج قد استعار من البستان خضرة رياضه، ومن الليل والنهار لون سواده وبياضه، وكأن شرفاته المرتفعات، حسان نساء في أزرهن متربعات، وكأنه في الليل والبدر غير محتجب، سرادق من الفضة قد ضرب".

ثم أخذ في وصف منشآت الأمير أزبك حول البركة بأسلوب بليغ تحايل فيه ببلاغته على وصف تفاصيل العمارة الإسلامية أبلغ وصف.[٢]

فمن وصفه لقاعات القصر ورخامها: "وافتخرت على البقاع بقاعاتها التي هي كجنات تجري من تحتها الأنهار، تطرد بها آناء الليل وأطراف النهار، من كل شاذروان[٣] تقر به العينان، إذا انكسر ماؤه وانسكب، تسلسل كالفضة على أرض من ذهب، وقام بعد أن تكسر يجري في أخدود، يسر الوارد عند الورود، ينتهي من تلك الأخاديد إلى فساقي، تسع لسقيها عند الورود ألف ساقي.

وتلك القاعات بها رخام ملون، كأنه من بديع الزهر قد تكون، فكأن بستانها أهدى لرخامها من رياضه حللاً؛ محكمة النسيج لا ترى خلالها خللاً.

وكل مبيت يفضح الشموس والأقمار بقمرياته، ويدهش العيون إذا نظرت إليه بحسن

---

(١) هذا المسجد كان في ميدان العتبة الخضراء حيث مدخل شارع الأزهر وقد هدم سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م واهتم بتصويره تجران باشا.

(٢) نزهة الأمم لابن إياس ص٢٥٥ (خط).

(٣) الشاذروان هنا يفيد أنه السلسبيل الذي تنساب عليه المياه متعرجة على نقوشه المموجسة وعادة يكون في صدر السبيل أو الفسقية تنساب عليه المياه إلى الحوض أو في صدر الأيوان تنساب عليه المياه إلى الفساقي، وكذلك في قاعات القصور تنساب عليه المياه من أفواه الطيور فتسير في قنوات حفرت عليها أنواع الأسماك حتى تصل إلى الفسقية أو البركة.

ولعلماء اللغة تفسيرات أخرى تغاير هذا.

وهذا الأديب في وصفه البليغ أعطى للأثاريين مصطلحات معمارية دقيقة فيمن شرفات المسجد بحسان النساء في أزرهن متربعات، وفسر الشاذروان بأنه السلسبيل، ووصف الرخام الدقيق بأشكاله وألوانه ووصف القمريات (الشبابيك المستديرة ذات الزجاج الملون) أبدع وصف كما وصف جامات الحمام.

ولا شك في أن هذه المقامة وصفت التفاصيل المعيارية أجمل وصف. وما أحوجنا إلى الكثير من وصف تلك التفاصيل.

دهاناته، إذا قابلت قمرياته الشمس إذا بزغت والقمر إذا طلع، يظنان أن قوس السحاب وقع عليها لحبه إياها وقطع يقابلها الدهانات البعلكية، التي تدهش العيون برؤيتها السنية؛ وشى كالنقش الأخضر على ترائب الأتراب الحسان، وجسم جمال النقش يكاد أن يتحرك بروح حسنه وعروقه اللاعبة.

وتظن رخامها الملون في حسنه من زهر الرياض، وأسوده في أبيضه كسواد العيون منها في البياض.

ثم وصف الحمامات بقوله: يا لها من حمامات يستوقف النواظر حسن رخامها الوسيم، ويستوقف الأسماع صوت مائها الرخيم، وتحير في حسن بهجتها النظار، إذا أشرفت أقمار جاماتها بالنهار".

ثم وصف البركة بقوله "إنها بركة محفوفة بالمتفرجات والمناظر، ترتاح إليها، النفوس وتقر بها النواظر، فهي بركة أنيقة المنظر، صافية المخبر، أرضها كالعنبر وعرفها كالمسك الأذفر.

ثم تدرج إلى وصف الحدائق حولها، وما يقام بها من حفلات بوصف لا يدع مجالاً للشك في استعمال الألعاب النارية في هذا الوقت، فيقول:

كأني أراها حين سعي الناس إليها من كل مكان في ليلة أحرقت مردة الهموم، بشهب من نيران النفط كالنجوم الرجوم، فبينما الناس في لهو وفرح، وبسط من الأنس ومرح إذ أطلع فلك سماء الماء فلكاً تحمل أشجاراً من نار، يقذف النفط منها أنواعاً من الأزهار، من مفضض ومذهب ومدبج من ألوان اللهب، وأسهم تنسب مع إصابتها إلى الخطأ، وضوء شمس يكشف عن وجه الظلام الغطا في ليلة ينجاب عن وجهها الظلام، وشاهد الناس فيها العجب، لما اصطلح الماء مع اللهب، وطار على وجه الماء فراس من ذهب، ودارت بأكف اللاعبين دواليب من نار، من غير رياش ندور على قلب ولا زنار؛ فيالها من نار أثلجت الخواطر، وأقرت برؤيتها من الحاضرين كل ناظر.

ولا شك في أن هذا وصفاً صادقاً للألعاب النارية التي عرفتها مصر منذ أربعة قرون ونصف.

ثم استطرد في وصف البركة فقال: "فيالها من بركة ماؤها بتجعيد الرياح كالمبرد يجلو عن القلوب الصدأ، افتخرت سماء مائها، بكواكب أسماكها؛ وإن افتخرت بشموسها

وبدورها، افتخرت بشموس حسانها وبدورها، فهي في زمن النيل بمناظرها كالسماء ذات البروج، وفي زمن الخريف ذات شطوط ومروج؛ فإذا نضب عنها الماء خرج من سجن طينها من زغب الحب ما كان من المحابيس، وبرزت في حلل من زهر الربيع كأذناب الطواويس؛ يا لها من بركة إذا رآها الناظر أعلن بالتهليل والتكبير، ودعا بطول البقاء لمنشئها الأمير الكبير.

وختم هذا الوصف بما كانت عليه حوانيت التجارة حولها من رواج يشبه رواجها الحالي.

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالدور والقصور حولها يسكنها أعيان مصر وسراتها. وألحقوا بدورهم الحدائق وأباحوها للشعب ينعم بالتنزه فيها. فكانت فرحة لسكان القاهرة يهرعون إليها في الصيف والربيع ينعمون بالتنزه حول مياها والتمتع بمباهجها. وعند جفافها ينعمون بخضرتها وزهورها وتقام حولها أهم الحفلات.

وحينها زار مصر الرحالة عبد الغني النابلسي سنة ١٦٩٣م نزل في دار[١] أسرة البكري المطلة على البركة وكانت وقتئذ مزروعة فتناقش في مساحتها وهل هي أعرض من مرجة دمشق أم المرجة أعرض منها؟ مما دعاه إلى قياسها بالذراع الذي حدده بثلاثة أشبار، فكانت مساحتها ١٠٥٠ ذراعاً طولاً في ٤٤٢ ذراعاً عرضاً.

وفي سنة ١٧٧٦م وقع حريق كبير في أحد[٢] الأحياء حول البركة كان سبباً في تلف كثير من الدور الكبيرة، غير أن ولاة الأمور وقتئذ حتموا سرعة تعميرها بدرجة أنهم ألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يمتلكون لمن يستطيع التعمير. وهكذا تم تعميرها في أقرب وقت، فلم يحل ميعاد الفيضان الثاني حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه، وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه.

وعند احتلال الفرنسيين لمصر اغتصبوا كثيراً من قصورها وأقاموا فيها وأنشأوا في سنة ١٨٠٠[٣] مسرحاً كوميدياً كما أقاموا مطاعم وملاهي خاصة بهم حولها.

وكان يشرف على البركة حي الأقباط المعروف الآن بحارة النصارى.

وكانت دوره كبقية دور القاهرة حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط. وهو الطراز

---

[١] الحقيقة والمجاز رحلة النابلسي ص٢٣٢ خط.

[٢] عجائب الآثار ج٢ ص٢-٣.

[٣] عجائب الآثار الجبرتي ج٢ ص١٤٢.

السائد لأحياء القاهرة.

ومن الدور التي كانت تشرف على البركة وأبيحت حدائقها للجمهور. دار السيد ابراهيم بن السيد سعودي. وكانت من الدور الكبيرة التي عني بتشييدها وصرف عليها مبالغ كبيرة. أباح حدائقها المتاخمة لبركة الأزبكية لعامة[١] الناس يتنزهون فيها.

وهذه الدار هي التي آلت إلى الأمير مُحَمَّد بك الألفي سنة ١٧٩٦م فهدمها وتعالى في بنائها. ولم يسكن بها سوى أياماً حتى وقع الاعتداء الفرنسي الممقوت فاغتصبها الفرنسيون وأقام بها ساري عسكر بونابرت ثم الجنرال كليبر. وبها قتل.

ومن تلك الدور دار الشرايبي، وكانت على الحافة الشرقية للبركة. وهي إحدى دور المجد، ألحقت بها مكتبة قيمة حفلت بكتب العلم في مختلف الفنون. عرضت للجمهور على الطريقة الحديثة. فيدخل الطالب فيختار ما يحلو له ليطالعه في المكتبة أو يستعيره خارجها[٢].

وقد تنقلت ملكية هذه الدار حتي آلت إلى الأمير رضوان كتخدا الجلفى فأدخل عليها تعديلات، ووسع حدائقها وأباحها[٣] للنزهة وخاصة أيام فيضان النيل. ثم آلت إلى طاهر باشا ناظر الجمارك ثم عباس باشا الأول فهدمها وأعاد بناءها. ومنذ ذلك الوقت أطلق على تلك المنطقة اسم العتبة الخضراء بدلاً من[٤] العتبة الزرقاء. ومحلها الآن الحديقة وسط ميدان العتبة الخضراء.

وكانت مدرسة الألسن على البركة، ثم حولت إلى فندق للإنجليز عرف فيما بعد بفندق شبرد.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ردم أكبر قسم من البركة فأزيلت الكيمان التي كانت مجاورة لها وأقيمت المتنزهات وشيدت المنتديات.

وفي سنة ١٨٦٤م ردم البركة وضمت إلى الحديقة التي أعيد تنظيمها.

---

[١] عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص٢٤٣.

[٢] عجائب الآثار للجبرتي ج١ ص٢٠٤.

[٣] عجائب الآثار للجبرتي ج١ ص١٩٢.

[٤] عبر البشر في القرن الثالث عشر ص٤٨ خط.

وأقيمت بها البرك والأكشاك والجبلاية ووضعت بها[1] الطيور المغردة، وأضيئت بغاز الاستصباح، وشقت بها الشوارع حسب تخطيطها الحالي. وأنشئ بجوارها ثاني مسرح كوميدي. ثم أنشئت دار الأوبرا سنة ١٨٦٩م.

وفي سنة ١٨٩٩م تم إنشاء فندق الكونتننتال واحتفل بافتتاحه.

وفي ٢٧ أبريل سنة ١٩٥٤ شقها شارع ٢٦ ذلك الشارع العظيم مضرب الأمثال في سرعة التنفيذ، وفتحت أبوابها للشعب ينعم بها ففرجت كرب الفقراء المحيطين بها وتنفسوا هواء نقياً أستخلص الحمد والدعاء الخالص بدوام التوفيق للقائمين بهذا العمل الجليل.

وكذلك أباح الكثير من أغنياء مصر حدائق دوره لجيرانهم ينعمون بالتنزه فيها. وكانت حدائق الدور الكبيرة وسط أحياء القاهرة بمثابة حدائق عامة تنفس بسعتها عن سكان الحي.

وممن أباح حديقة قصره وعلى نطاق واسع الأمير قاسم بك أبو سيف المتوفي سنة ١٢١٦هـ-١٨٠١م. فقد كان قصره يشغل مساحة كبيرة من أراضي البركة الناصرية، يحيط به حديقة كبيرة تشقها قنوات الماء التي تصل إلى البركة أيام فيضان النيل، وأحكم جريان الماء في قنوات مرتفعة، وغرس فيها الزهور والفواكه والنخيل والأشجار[2].

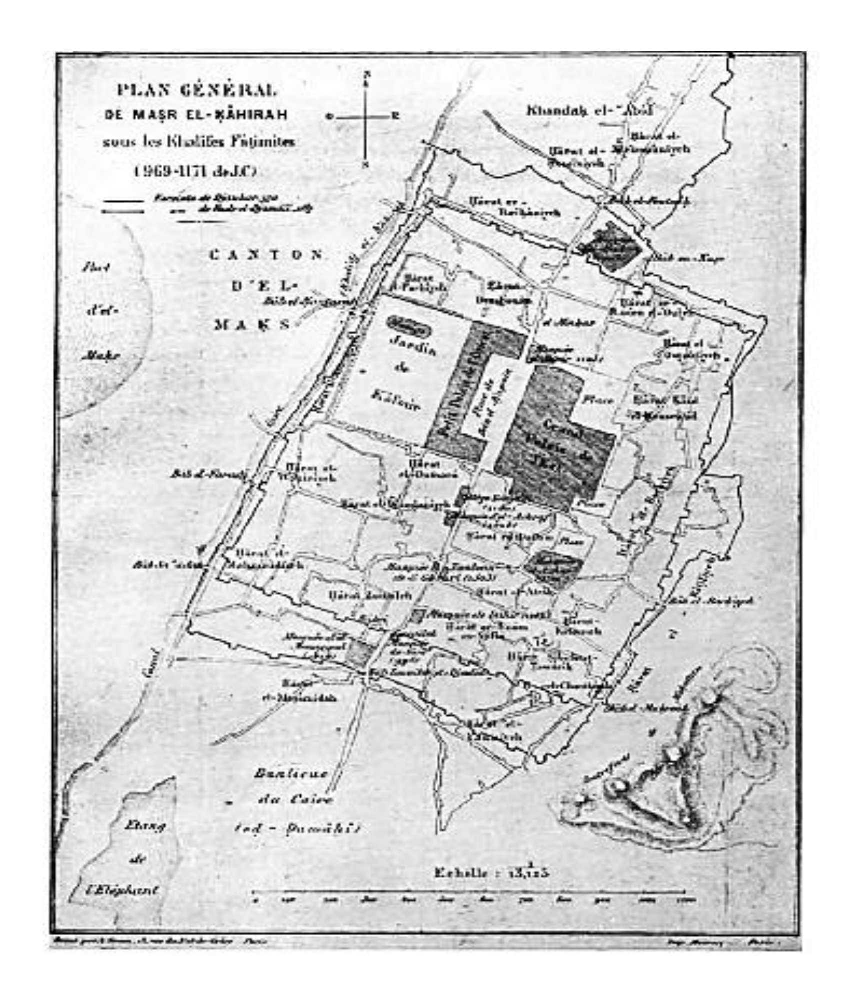
ونسق بها جلسات مفروشة لخاصته ظلها بالزهور، وأباح للناس الدخول إليها، والتنزه في رياضها ووضع لافتة على أحد الأشجار بمدخلها كتب عليها:

(حديقة الصفصاف والآس، لمن يريد الحظ والائتناس).

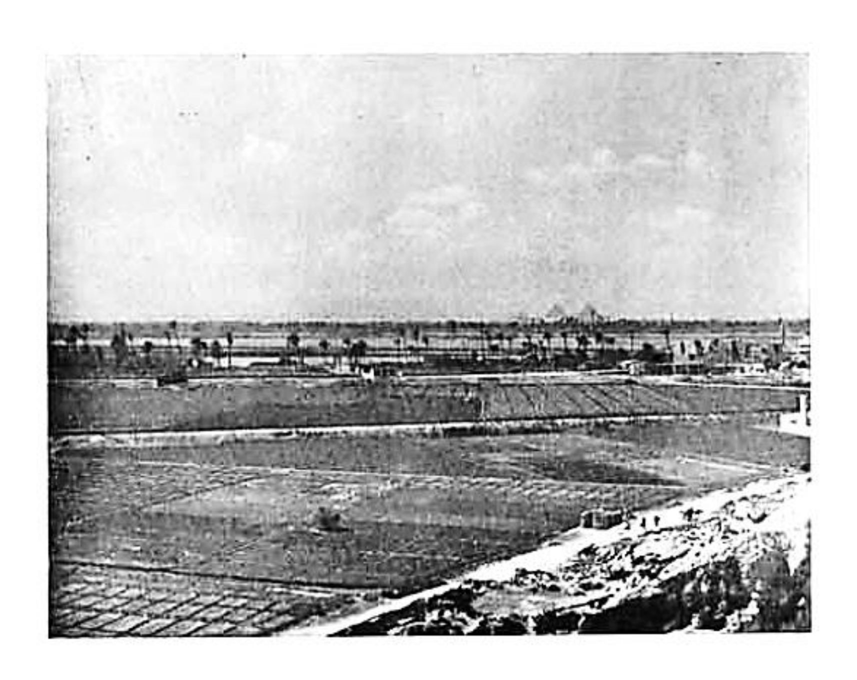
---

[1] المحاسن البهية في حديقة الأزبكية ص٥-٧.

[2] عجائب الآثار للجبرتي ج٣ ص٢١٩.



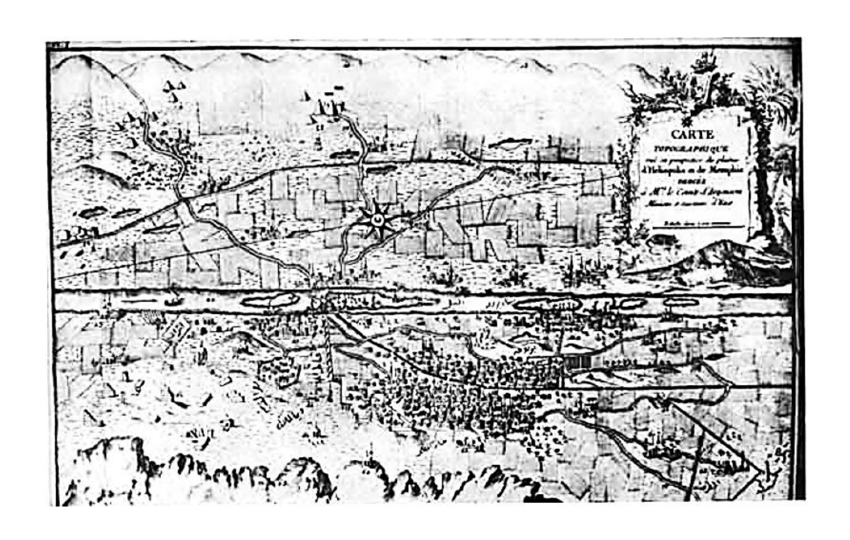
القاهرة الفاطمية والميادين حول القصرين الفاطميين عن رافيس



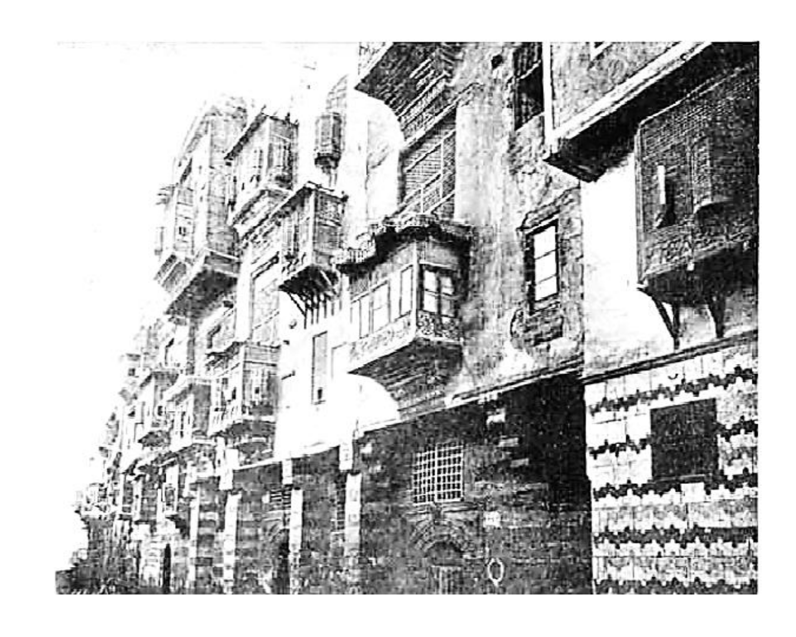
منظر للجيزة والأهرام مأخوذ من منطقة الرصد التي تمنى المعز لدين الله أن تكون بها القاهرة



القاهرة سنة ١٥٦٩ عن براون وهاجتبرج



القاهرة سنة ١٧٥٠ عن فرمون



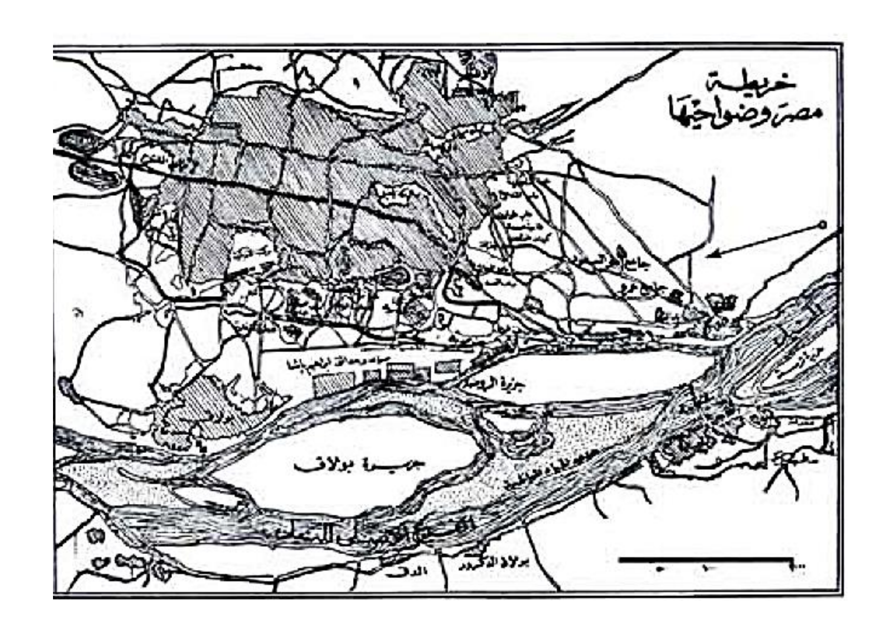
شارع الزيادة بجوار الجامع الطولوني (القاهرة في القرن الثامن عشر)



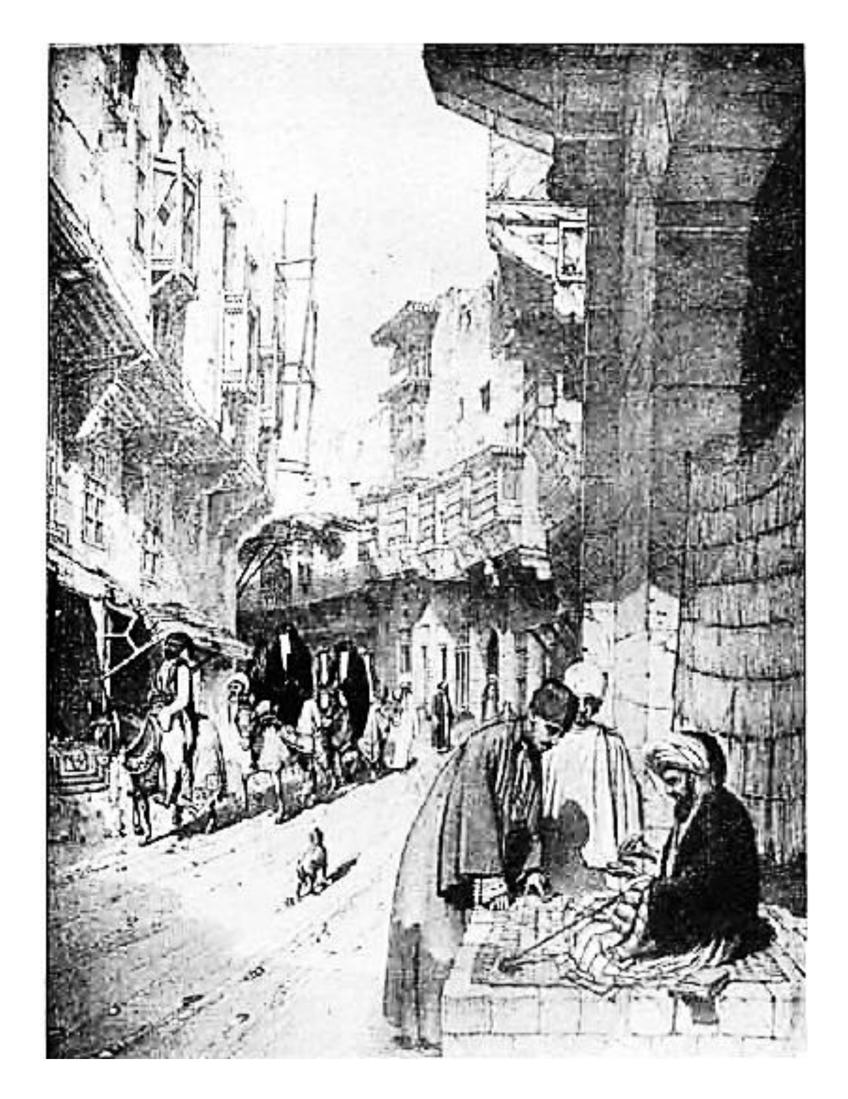
خان الخليل في القرن الثامن عشر



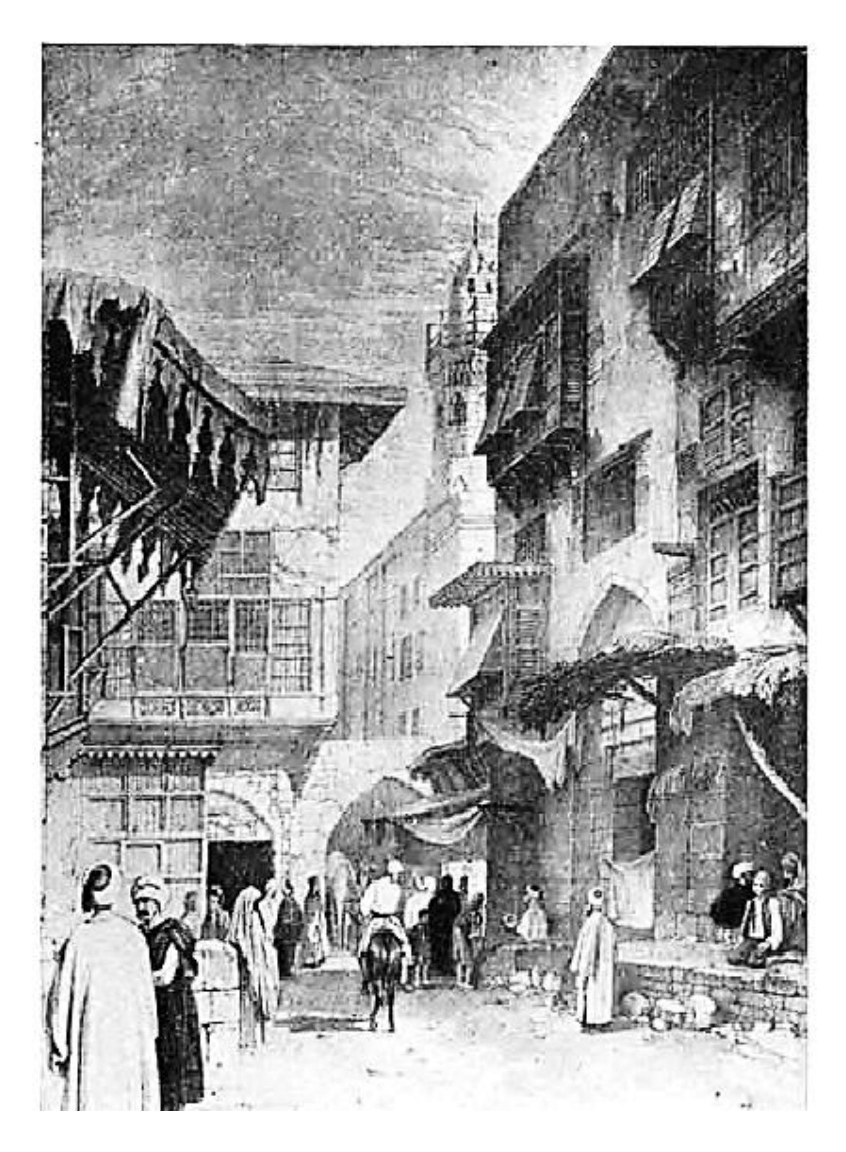
بركة الأزبكية في القرن الثامن عشر



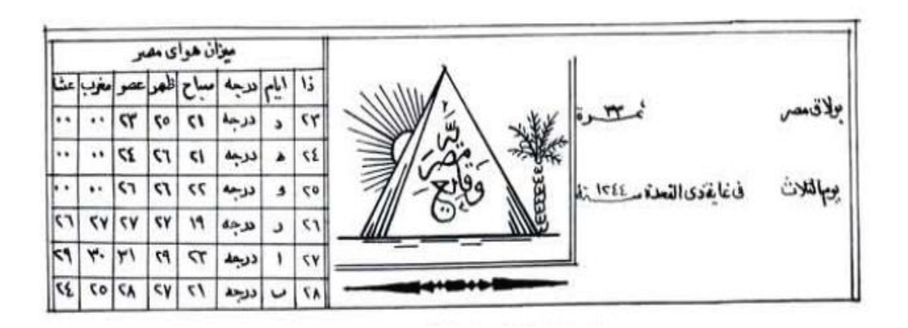
القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر من كلوت بك



شارع باب الخلق (القرن التاسع عشر)



وكالة ذو الفقار وخط الجمالية – القرن التاسع عشر



بولاق مصر نمرة ٣٣

يوم الثلاث في غاية ذى القعدة سنة ١٢٤٤

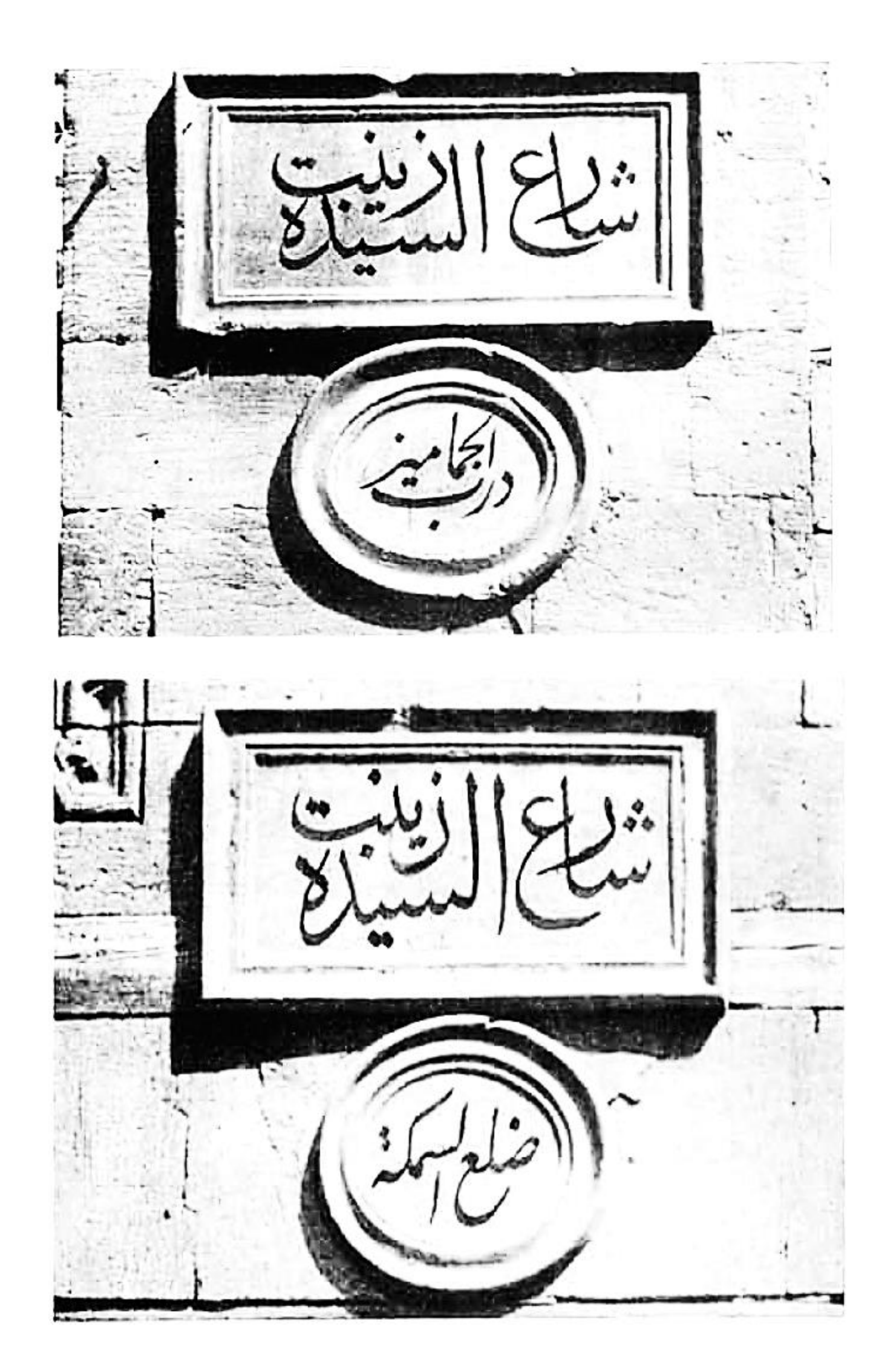
ميزان هواى مصر

ذا	ايام	درجه	صباح	ظهر	عصر	مغرب	عشا
٢٣	د	درجه	٢١	٢٥	٢٣	٠٠	٠٠
٢٤	هـ	درجه	٢١	٢٦	٢٤	٠٠	٠٠
٢٥	و	درجه	٢٢	٢٦	٢٦	٠٠	٠٠
٢٦	ر	درجه	١٩	٢٧	٢٧	٢٧	٢٦
٢٧	ا	درجه	٢٣	٢٩	٣١	٣٠	٢٩
٢٨	ب	درجه	٢١	٢٧	٢٨	٢٥	٢٤

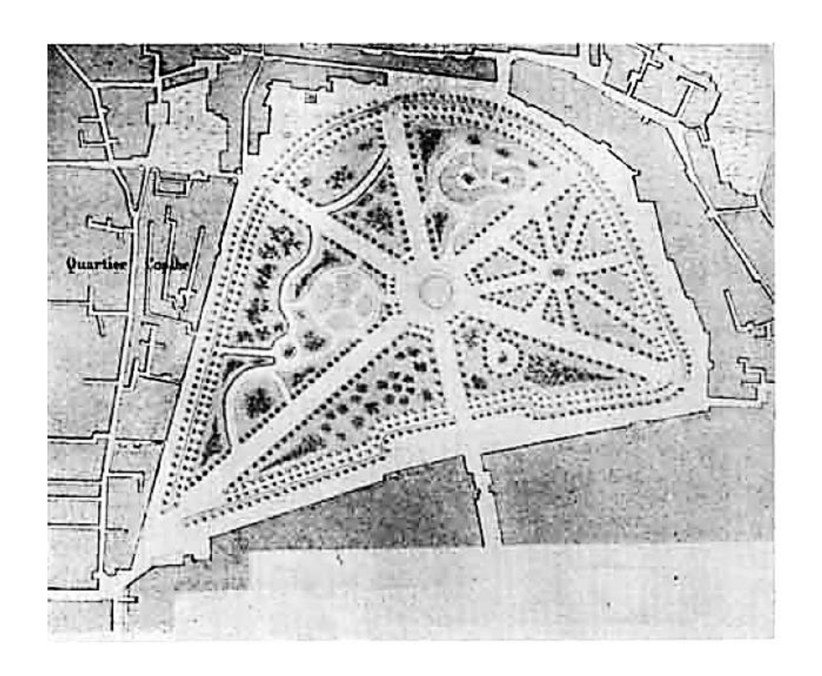
النشرة الجوية الصادرة يوم الثلاثاء آخر ذي العقدة سنة ١٢٤٤هـ سنة ١٧٢٨م



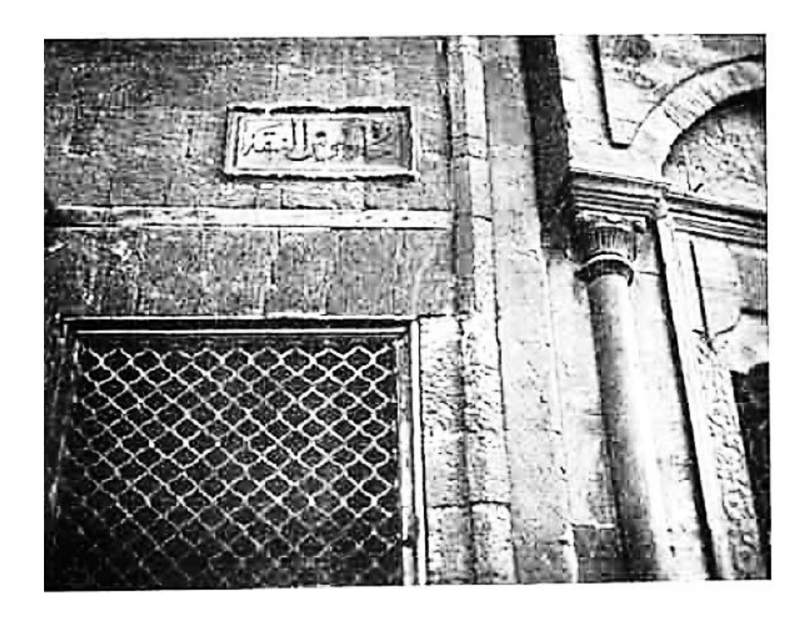
شارع شبرا في منتصف القرن التاسع عشر



لافتات الشوارع الرئيسية والفرعية مازالت موجودة على مسجد قراقجة الحسنى وعلى سبيل السلطان محمود



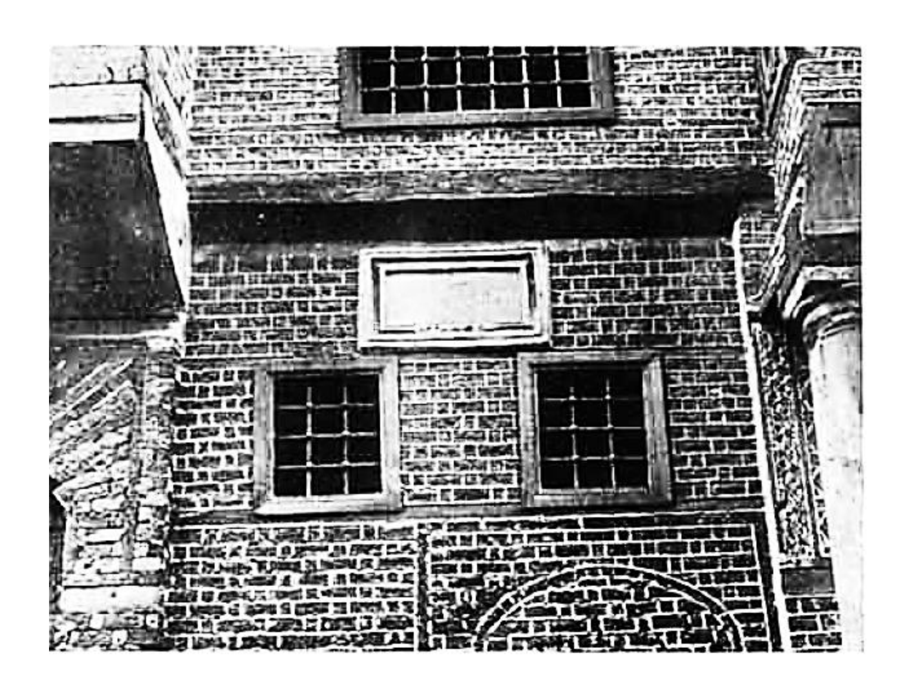
حديقة الأزبكية وما حولها – حوالي سنة ١٨٤٠ عن لينان دي بلفون



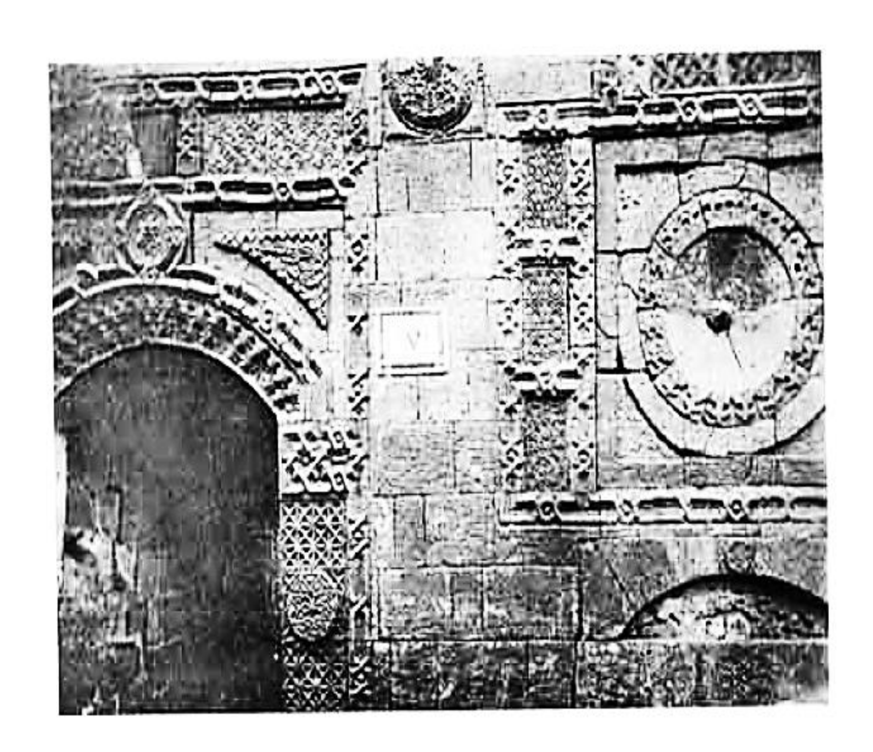
لافتة لإسم إحدى الحارات



لافتات الحواري. وهذه اللوحة مازالت موجودة على سبيل السلطان مصطفى بميدان السيدة زينب



لافتة حارة الحاج يوسف رشيد

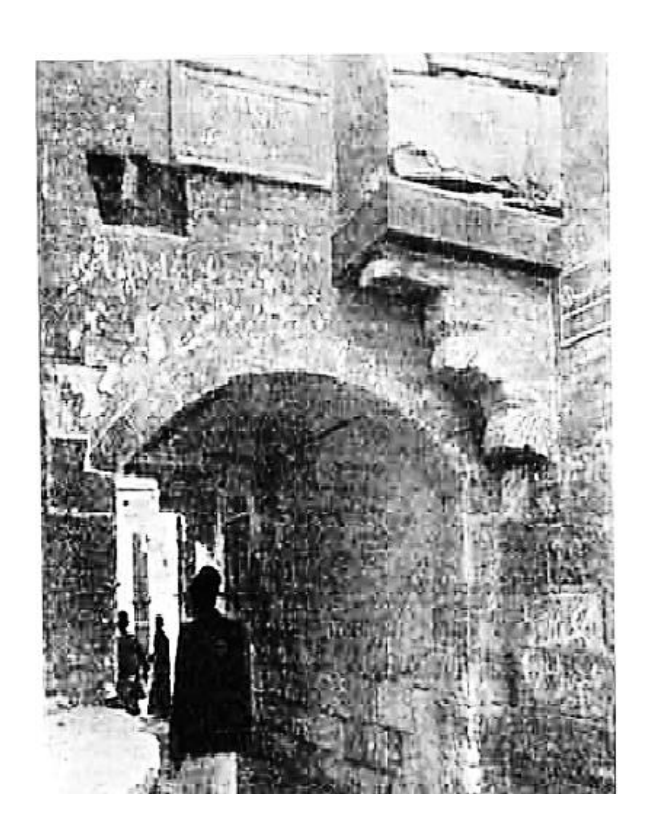


رقم تنظيم المنزل بشارع علوة السمك بمصر القديمة



رقم تنظيم منزل المناديل الأثري رشيد





بوابة عطفة الحمام بالسكرية وعليها لافتة باسم العطفة

جامع أحمد بن طولون .. مفخرة العمارة العربية

الجامع الطولوني بالقاهرة، هو ثالث جامع أنشئ للجمعة والجماعة في مصر، ويعد بحق من أقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية وهيكلها الأصلي العظيم.انشأه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون،ووضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة.

صحن كبير مكشوف، تحيط به أروقة ذات عقود.. وهو ذو شكل مربع تقريباً: (١٦١.٥٠× ١٦٢.٢٥ متراً)، وتحيط به من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات وهي من المسجد، ومثلها موجود في جامع "سر من رأى" بالعراق وفي جامع سوسة جنوبي تونس.

وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة، فتحت بها أبواب الجامع، تتوجها من أعلى شرفة مفرغة، كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيكعلوية بينها حنايا وطاقات مخوصة تتوجها من أعلى شرفات.

الجامع به ٢١ باباً

وعدد أبواب الجامع ٢١ يقابلها مثلها في الزيادات. ويوجد في بعض الأبواب معابر خشبية قديمة محفور بها زخارف مورقة. وهذه الأبواب تعددت كي تؤدي إلى المساكن والأسواق حول الجامع حيث كان العمران كبيراً والتجارة رائجة، حتى قيل أن مسطبة كانت خلف الجامع مساحتها ذراع في ذراع بلغت أجرتها كل يوم ١٢ درهماً يستغلها ثلاثة أفراد، أحدهم في بكرة النهار لبيع الغزل والثاني بعد الظهر إلى العصر، والثالث من العصر إلى المغرب لبيع الحمص والفول.

الأيونات

فاذا تجاوزنا سور الزيادة فمن أي باب من أبواب الجامع نصل إلى الأيوانات التي يتوسطها صحن كبير، وهنا تتجلى عظمة هذا الأثر الخالد الحافل بشتى الصناعات والفنون.

ولنيمم وجهنا شطر المحراب بالأيوان الشرقي، وهو عادة يكون أكبر الأيوانات وأكثرها أرووقة وأحفلها زخرفاً، وهذا شأن الإيوان المذكور،فهو يشتمل على خمسة أروقة: ويتوسط

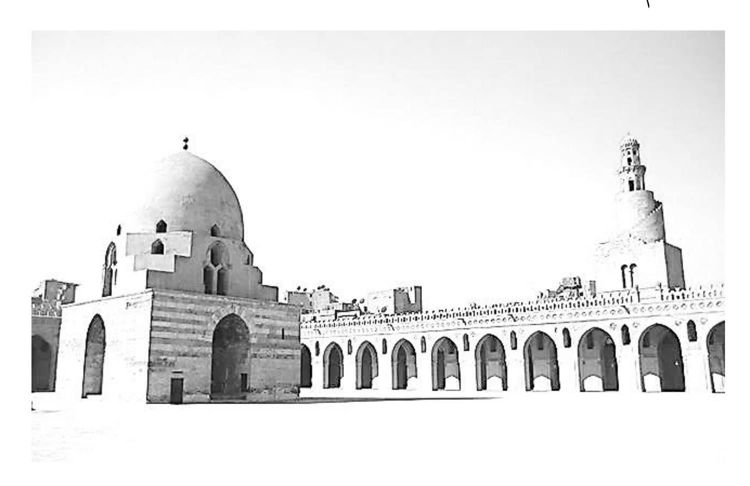
جدارهالشرقي المحراب، وبه منبر وبه بقية لوح رخامي به تاريخ إنشاء الجامع. وتوجد به محاريب طولونية وفاطمية ومملوكية.

دعائم مبنية بدل الأعمدة المسروقة

ونظرة إلى المسقط الأفقي نرى أن الأيوان الشرقي اشتمل على خمسة أروقة، وواقين في كل من باقي الأيوانات. وهذه الأروقة مكونة من دعائم مبنية بالطوب مقاس كل دعامة منها ٢.٥٠ × ١.٣٠ متراً مخلق في نواصيها الأربع عمد وتيجان تحمل عقوداً ستينية، حليت حافاتها بزخارف جصية نباتية. وقد لجأ المهندس إلى التخفيف عن ظهر العقود ففتح فيها شبابيك خلقت بأكتافها عمداً رشيقة، وحليت حافاتها بزخارف متنوعة واختيار المهندس لهذه الدعائم بدل العمد برهن علي حسن ذوقة، فقد تخلص بها من العمد الرخامية المتجمعة من هنا وهناك، مع عدم تماثلها، لا في الطول ولا في السمك. وهو بذلك نفذ رغبة طيبة لابن طولون حيث تورع عن أخذ العمد من الكنائس والأديرة المتخربة.

وقد اتبعت طريقة بناء الدعامات في مشهد آل طباطبا جهة عين الصيرة، وفي جامع الحاكم بأمر الله.

ويعلو العقود أفريز زخرفي من الحصى، يعلوه أزار خشبي يحيط بأروقة الجامع مكتوب فيه بالخط الكوفي سورتا البقرة وآل عمران. وقد جددت إدارة حفظ الآثار العربية السقف على مثاله القديم.



ساحة جامع أحمد بن طولون

١٢٩ شباكاً

ويحيط بجدرانه الأربعة من أعلى مائة وتسعة وعشرون شباكاً من الحصى، مفرغة بأشكال هندسية وأخرى نباتية تنوعت أشكالها واحتفظت بزخارف أطرها الخارجية، كما احتفظت بالكثير من زخارف باطن عقودها المتنوعة، بينما طرا تجديد على بعض حشوها المفرغ وبعض الأطر حولها، المكتوبة والمنقوشة، في عهد الدولة الفاطمية وفي عمارة المنصور حسام الدين لاجين، وفي العصر الحديث، ومن بينها أربعة شبابيك في جدار المحراب ترجع إلى عصر إنشاء الجامع.

والمحراب بزخارفه طولوني مع السطر المكتوب بالخط الكوفي أعلاه عدا التيجان الأربعة فوق عنده فهي من الرخام المفرغ كل اثنين منها متشابهان، وهي دقيقة الصنع من الطراز البيزنطي القديم.

أحمد ابن طولون

هو الأمير أبو العباس أحمد ابن طولون. ولد ببغداد سنة ٢٢٠هـ (٨٥٣م) وكان أبوه مملوكاً تركياً من بلاد منغوليا. فتلقى علومه العسكرية في مدينة "سُرَّ من رأى"، ونشأ نشأة حسنة، وتثقف ثقافة دينية فلقى شيوخ المحدثين وسمع منهم، واشتغل بالعلم حتى حصل على قسط وافر منه. وكان هذا من أكبر الأسباب للثقة به. هذا فضلاً عما اشتهر به من شجاعة واقدام. ولما خلع المستعين بالله وولى المعتز، تقرر نفي المستعين إلى واسط، فوقع اختياره على أحمد بن طولون لمرافقته فخرج معه وأخلص له. ولخوف السيدة قبيحة والدة المعتز على ولدها من المستعين، كتبت إلى ابن طولون بقتل المستعين، على أن توليه مدينة واسط. فكتب إليها "والله لا يراني الله عز وجل اقتل خليفة، له في رقبتي بيعة وإيمان مغلظة أبداً".

ولما عاد من واسط بعد قتل المستعين، ودخل "سر من رأى" وافق دخوله تقليد الأمير باكباك حكم مصر وطلبه من يخلفه عليها. فأشاروا عليه بأحمد بن طولون، الثقة الأمين، فقلده مصر نيابة عنه وضم إليه الجيش.

وبعد وفاة باكباك عين ماجور التركي، وكان ابن طولون زوج ابنته، فترك له الولاية على مصر، وضم إليه الإسكندرية أيضاً.

وفي سنة ٢٥٩هـ (٨٧٢م) عهد إليه الخليفة المعتمد على الله بأمر الخراج على مصر

والولاية على الثغور الشامية. فكان لقسوته وسطوله خير أثر في الحكم، فسادات السكينة البلاد، ونمت ثروتها، ونجح في الاستيلاء على حكم مصر واستقلالها وجعله وراثياً في أسرته.

وقد دفن بالقرافة الصغرى بالقرب من بابه القرافة. وكان قبره معروفاً وقد عاينه ابن الزيات المؤرخ المتوفي سنة ٨١٤هـ (١٤١١م).

كان رحمه الله حاكماً حازماً. نمت ثروة البلاد في عهده وتقدمت، واهتم بالأسطول المصري فأنشأ كثيراً من المراكب الحربية. وكان محباً للعلم كثير الصدقات، كما كان شغوفاً بالعمارة، فقد أصلح منار الإسكندرية ومقياس النيل، وأنشأ حصن الجزيرة وسجد التنور، ومدينة القطائع والقصر والميدان والبيمارستان ودار الامارة وقناطر المياه ثم الجامع الكبير.

والفسيفساء

وبتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهبة كتب بها بالخط النسخي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وهذه الفسيفساء والطاقية الخشب بالمحراب والقبة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م).

المنبر

يجاور المحراب منبر خشبي جميل،اتخذت حشواته من خشب الساج الهندي (التك) والأبنوس،دقت بالأويمة الدقيقة بنقوش مورقة في منتهى الدقة، وليس هو المنبر القديم للجامع، بل هو في عمل الملك لاجين المنصوري سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م). وهو الذي نقل المنبر القديم إلى الجامع الظاهري والمنبر، ولم يبق لهما أثر.

أما منبر لاجين فقد بقي حتسنة ١٨٤٥م حينما عاينه ورسمه مستر جيمس ويلد، أمين متحف سوان بلوندرة، ثم امتدت إليه الأيدي بالسلب والنهب، إلى أن عنى المرحوم هرتسباشا بجمع حشواته من أوروبا، وصورٍ لحشوات أخرى أستعان بها مع الباقي منه على إصلاح المنبر واعادته إلى أصله. ومكتوب على مصراعي بابه من وجهيه "أمر بعمل هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصوري في العاشر من صفر سنة ست وتسعين وستمائة من الهجرة النبوية الشريفة".

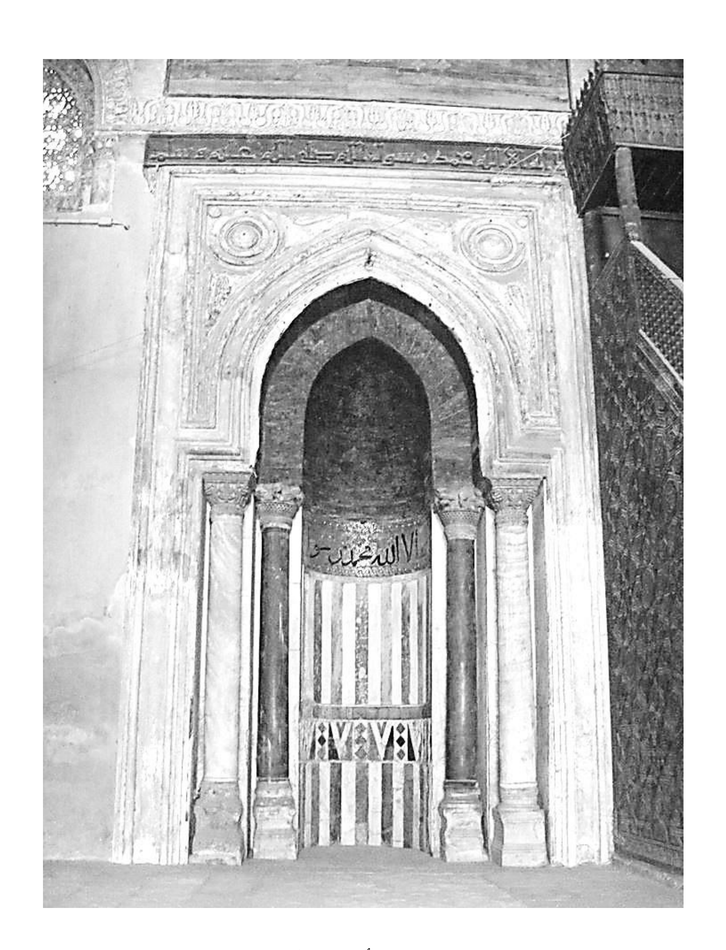
الملك المنصور

والملك النسور حسام الدين لاجين المنصوري ولي ملك مصر بعد خلع الملك العادل كتبغا في نصف صفر سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م). وهو الذي قام بعمارة كبيرة في الجامع تناولت إصلاحه إصلاحاً ًشاملاً وإصلاح الشبابيك، وعمل القبلة أعلى المحراب، المنبر والمنار والقبة بوسط الصحن.

والسبيل الذي جدده فيما بعد السلطان قايتباي في الزيادة القبلية. وقالت وفاء لنذر نذره لتعمير هذا الجامع حينما اختفى في منارته، وهو خرب في فتنة قتل التالي الأشرف خليل بن المنصور قلاوون.

وقد وفى بنذره.

وبهذا الإيوان عدة محاريب جصية غير مجوفة، منها اثنان بالدعامتين القائمتين بمنتصف حبل الطارات الثاني مما يلي الصحن الأيمن منهما، وتحيط به زخارف دقيقة وكتابات كوفية.



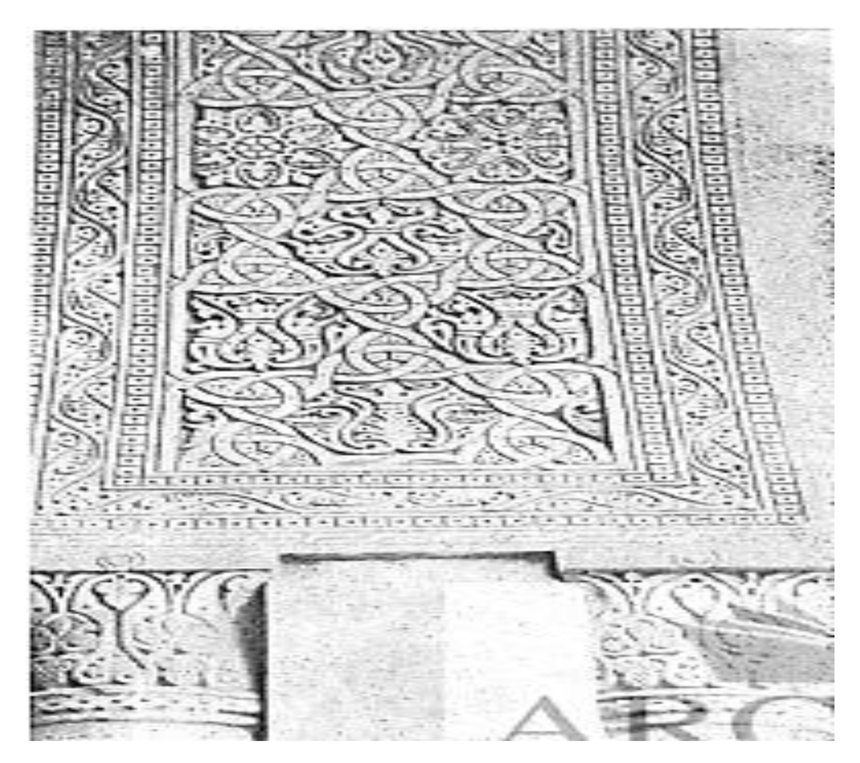
محراب جامع أحمد بن طولون

أما المحراب الأيسر فهو تقليد للأيمن عمله المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م). وكتب عليه اسمه بالخط الكوفي بما نصه: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أمر بإنشاء هذا المحراب المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان الإسلام والمسلمين..". وقد تطرق التلف إلى هذا المحراب.

وتعدد المحاريب رأيناه في المساجد في جميع عصورها، ويبدو لي أن الدافع إلى عملها هو تعدد المذاهب. يعزز هذا الرأي ما أثبته ابن كثير من أن الصاحب تقي الدين بن مراجل ناظر الجامع الأموي بدمشق عمل فيه محرابين الحنفية والحنابلة سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢م).

دار الإمارة

وعلى يمين المنبر باب كان يؤدي إلى دار الأمارة التي أنشأها ابن طولون، وأثثها بالفرش والستور كانت مخصصة لنزوله حينما يذهب إلى صلاة الجمعة، فيجلس فيها، ويجدد وضوؤه؛ ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد. وقد ذهبت هذه الدار ولم يبق منها سوى مدخلها وبه بقايا كوابيل للسقف تمثل رأس فيل بنابيه. وهي طرفة نادرة ترجع إلى عمارة المنصور لاجين. وقد وقعت عليها تأثيرات أندلسية.



زخرفة متنوعة يشهدها الزائر منقوشة في باطن العقود القائمة فوق الدعائم

ويلاحظ أن العقود الحيطة بالصحن وما يتصل بها من عقود الإيوانات كان باطنها محلى بزخارف جصية بقيت منها ثلاث قطع في الإيوان البحري.

أما الإيوان القبلي فقد احتفظ بالكثير من هذه الزخارف، وكان محتجباً تحت البياض واكتشفته لجنة من الآثار العربية. أما الموجود منها بالإيوان الغربي فحديث، عدا العقد

البحري منه فإن زخارفه قديمة.

ونظرة إلى الزخارف القديمة الباقية بباطن العقود تكشف لنا عن عبقرية الصناع التي تجلت فيها فهي مكونة من خطوط متقاطعة بداخلها زخارف مورقة تنوعت إلى درجة أنها اختلفت في كل عقد منها.ولم تقف عبقرية الصناع عند هذا الحد، بل شملت زخارف الجامع بأكمله،فبينما نرى الزخارف حول عقود الأروقة والشبابيك اتفقت، نراها اختلفت وتنوعت فيما حول عقود الطاقات بخواصر العقود وفي الإفريز الجصي أسفل السقف. وكما تنوعت أشكال الشبابيك تنوعت كذلك الزخارف في باطن عقودها وفي أشكال التيجان الجصية والصرر المحلى بها الصحن، مما يدل على أن هذه الزخارف عملت "على بيتها"حسب اصطلاح الصناع ولم تعمل لها "فرم".وبذلك اشتمل هذا الجامع على أغنى مجموعة وأقدمها من الزخارف الجصية.

اللوحة التذكارية

وعلى إحدى دعائم الإيوان الشرقي ثبت النصف الأول الذي عثر عليه من اللوحة التذكارية لإنشاء المسجد مكتوبة بالخط الكوفي البسيط، وقد نقشت عليها بعض آيات كتاب الله الكريم، وتاريخ بناء هذا المسجد بأمر الأمير أحمد بن طولون في شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين.

القبة وسط الصحن

هذه ثالث قبة أقيمت في هذا الصحن. فقد احترقت قبة الفوارة الأولى التي أنشأها ابن طولون. وقد كانت مشبكة من جميع جوانبها.وفيها قبة مذهبة قائمة على عشرة عمد من رخام، يحيط بها ستة عشر عموداً في جوانبها، وكانت مفروشة كلها بالرخام، وتحت القبة قصعة من رخام سعتها أربعة أذرع في وسطها فوارة. وفي السطح علامات الزوال، ولها "درابزين" من خشب الساج. وقد احترقت هذه القبة سنة ٣٧٦هـ (٩٨٦م).

وهدمت الثانية وهي التي أنشأها العزيز بالله، وقيل أمه تغريد، سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م).



تجويف القبة

وحلت محلها القبة القائمة الآن التي أنشأها المنصور لاجين سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) وهي قبة كبيرة مقاس كل من ضلعيها البحري والقبلي ٧٥ و١٢ متراً والشرقي والغربي ١٠ و١٤ متراً محمولة على أربعة عقود، كانت شبابيكها محلاة من الخارج بزخارف وكتابات كوفية. وبرقبتها من الداخل كتبت آية الوضوء ويتوسطها فسقية. ويسترعي النظر فيها وجود سلم في سمك جدرانها يوصل إلى سطح قاعدتها المربعة.



المنبر والقبلة – جامع أحمد بن طولون

(١٢٩٦م) على مثالها القديم ضمن عمارته للجامع. بينما يرى البعض الآخر إنها لابن طولون عدا قمتها فهي من عمل لاجين. واختلط الأمر على فريق ثالث فلم يجزم بشيء.

المنارة

أقيمت المنارة في الزيادة الغربية لصق حائط الزيادة على مسافة ٠.٤٠ سم وهي مبنية بالحجر، مقاس قاعدتها ٧٨و١٢× ٦٥و١٣ متراً، وسلمها من الخارج بأربع قلبات، يصعد منه إلى سطح، فسلم حلزوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي، وهو على هيئة مبخرة. وهي المنارة الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي. وهي تشابه منارة

سامرا.

وهذه المنارة موقع خلاف بين الآثاريين فالبعض يرى أن المنصور لاجين جدد إنشاءها سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) على مثالها القديم ضمن عمارته للجامع. بينما يرى البعض الآخر أنها لابن طولون عدا قيمتها المثمنة فهي من عمل لاجين. واختلط الأمر على فريق ثالث فلم يجزم بشيء.

المهندس

نأسف جد الأسف لخلو آثارنا من أسماء مهندسيها اللهم إلا النزر اليسير مما نلتقطه من بين السطور في كتب التاريخ، ولذلك نرى الخلاف قائماً على جنسية مهندس ابن طولون. فبينما نرى القريزي يعبر عنه بالنصراني نرى آخرين يرجحون أنه مهندسي المقياس أحمد بن محمد الحاسب الذي قدم من العراق لبناء المقياس الجديد سنة ٢٤٥-٢٤٧هـ (٨٥٩-٨٦١م) بالروضة.

وسواء أكان نصرانياً أم الحاسب فكلاهما عراقي لأن نشأة ابن طولون كما أسلفنا كانت في سامرا عاصمة العباسيين. ومن المعقول أن ينقل إلى مصر الثقافة الفنية العراقية التي نشأ في ظلالها فأدخل إلى وادي النيل أساليب العراق في العمارة والفنون.

وهذا التأثير نراه مجسماً في زخارف الجامع ومنارته.

والصناع

أما الصناع فالغالب أنهم من أهل مصر، ويحتمل أن يكون بينهم عراقيون، ولم نعثر على اسم أحد منهم عدا بعض النجارين، فقد عثرت على اسمي اثنين منهم: أحدهما محمد بن عينو والآخر محمد بن.. مكتوبان على أجزاء من السقف القديم.

وبمناسبة الصناع أشير إلى السنة الحسنة التي استنها ابن طولون في بناء مسجده، حينما عاينه في شهر رمضان أثناء العمل، فرأى العمال يشتغلون إلى وقت الغروب، فسأل: متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطاراً لأولادهم؟ وأمر بصرفهم وقت العصر. فاتخذ هذا سنة من وقتها.

رسم الجامع

لم نعثر حتى الآن على رسومات لتصميمات عمارية قديمة للآثار، ولكن وجدنا في ثنايا التاريخ أن هناك رسوماً كانت تعمل للعمارة قبل تنفيذها.

أما ما يتعلق بالجامع الطولوني فقد ثبت أن مهندسه رسم الجامع على ورق وعرضه على ابن طولون فأقره.

ومعلوم أن الجامع أقيم على جبل "يشكر"، ولذلك نرى أساسه في حدوده القبلية على الصخر مباشرة، بينما هو في حدوده البحرية على عمق خمسة أمتار. والمواد المستعملة في بنائه هي الطوب الأحمر، وهي المادة الأساسية المستعملة في المنشآت العمارية حتى أوائل الدولة الفاطمية.

أعمال الإصلاح

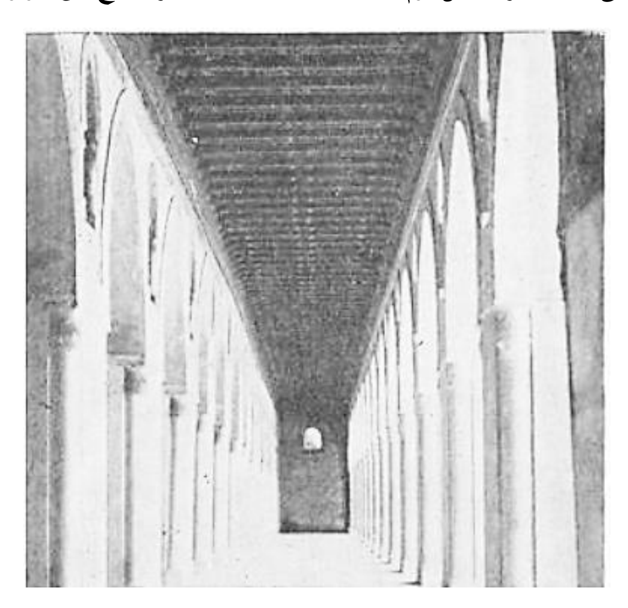
أجريت بالجامع عدة إصلاحات في عصور مختلفة. منها عمارة بدر الجمالي الوزير الفاطمي سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م)، وقد أثبتها في لوح رخامي فوق باب بسور الزيادة البحرية ونصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: (١٨)]. نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين. أمر بتجديد هذا المارقون فيه، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام أبو النجم بدر المستنصري، وطلب مرضاته، وذلك في صفر سنة سبعين وأربعمائة. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلم تسليماً".

ثم جاءت بعدها عمارة للخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م).

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اتخذه المغاربة مأوى لهم ينزلون فيه عند مرورهم بمصر للحج. وقد تشعث الجامع وتخرب وقتئذ، كما اتخذ مخبزاً، فقد جاء في حوادث سنة ٦٦٢هـ. (١٢٦٣م) أن الظاهر بيبرس البند قداري أمر أن يفرق من الشئون

السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم مائة أردب بعد عملها خبزاً بجامع ابن طولون.



رواق بالايوان الشرقي، بين الدعائم المبنية من الحجر وفي أعلاها عقود محلاة أطرافها بزخارف جصية.. ويربو عدد الدعائم على مائة وخمسين.



جانب من رواق الجامع

عمارة السلطان حسام الدين لاجين

هي أهم وأكبر عمارة أجريت بالمسجد سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) أثبت تاريخها في لوح خشبي فوق قاعدة القبة مكتوب فيه:

"أمر بإنشاء هذه القبة المباركة والفسقية والساعات الشريفة مولانا السلطان الملك منصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصوري في سنة ست وتسعين وستمائة".

وقد صرف على عمارته من خالص ماله ٢٠ ألف دينار، وابتاغ الملك المنصور لاجين من بيت المال منية اندونة من أرض الجيزة، ووقفها على المدرسين والمشتغلين والموظفين في الجامع، ورتب فيه دروساً للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة، ومدرساً للطب. وأنشأ كتاباً وسبيلاً في الزيادة القبلية، جدده السلطان قايتباي.

وفي دولة الناصر محمد بن قلاوون ولى نظارته القاضي كريم الدين الكبير، وأنشأ فيه منارتين على طرفي جداره الشرقي بناهما بالطوب، وكانتا اسطوانيتي الشكل، هدمت الأولى في القرن الثالث عشر الهجري، والثانية البحرية الشرقية في سنة ١٩٣٣ لخلل بها.

وفي سنة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م) أنشأ الحاج عبيد ابن محمد بن عبد الهادي البازدار رواقا بجوار المنارة وجدد ميضاة بجانب الميضاة القديمة، وقد زالتا كما زالت التربة والمصلى اللتان أنشأهما الشيخ شرف الدين المديني سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) في عمارة سور الزيادة الغريبة سنة ١٩٤٣.



قبة يخرج من تحتها الماء، تتوسط صحن الجامع الطولوني، إن هذا الصحن في حاجة ماسة لتغطيته بطبقة من الأسمنت أو البلاط، فالأتربة المنبعثة منه تجعل عملية المحافظة على الجامع مستحيلة...

مصنع للصوف فملجأ للعجزة!

وفي القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) كان الجامع مهملاً فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية، وظل على إهماله حتى سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م)، حيث أجريت فيه إصلاحات وتحول إلى ملجأ للعجزة والطاعنين في السن تحت إشراف كلوت بك سنة ١٢٦٣ و١٨٤٧م.

عناية لجنة حفظ الآثار بالمسجد

أدركت إدارة حفظ الآثار العربية هذا الجامع سنة ١٨٨٢م. فوجدته مغلقاً وعقوده مسدودة ومحولة إلى دور وسقوفه آيلة للسقوط، والدور تحجبه من جميع نواحيه، ومنبره يكاد يكون معدوماً، وزخارفه مشوهة ومحتجبة، وتنقص منه البائكة المشرفة على الصحن بالإيوان الشرقي. فوجهت إليه عنايتها. فقامت في المدة بين سني ١٨٩٠-١٩١٨ بإزالة الأبنية المستحدثة التي كانت بداخل الإيوانات، وأزالت الأتربة والأنقاض، وأصلحت القبة التي فوق المحراب، والمنارة الكبيرة، والمنبر والشبابيك الجصية، وجزءً من السقف.

كما قامت بالمحافظة على الزخارف الجصية بالكشف عنها وإصلاحها، وأقيمت فيه صلاة الجمعة في ٢٢ رجب سنة ١٣٣٦هـ مايو ١٩١٨م.

ثم سارت إجراءات تخلية واجهات المسجد من الدور التي كانت تحجبها، فأخليت الواجهة البحرية وفتحت أبوابها وأصلحت أسوارها وأزيلت الأبنية المحدثة بالزيادة القبلية. كما أخلى قسم كبير من الواجهتين الشرقية والغربية، وأصلحت الزخارف الجصية بباطن العقود. وأصلح السبيل الذي أنشأه المنصور لاجين وجدده السلطان قايتباي في الزيادة القبلية. وأعيد بناء حبل الطارات المشرف على الصحن من الإيوان الشرقي.

واكتشفت زخارف باطن عقود الإيوان القبلي وأكملت. كما عمل لجميع الأروقة سقف من الأسمنت المسل برسم السقف القديم، ثم علقت بأخشاب أدخلت فيها الأجزاء القديمة، وأعيد تركيب الآزار الخشبي المكتوب فيه سورتا البقرة وآل عمران بالخط الكوفي.

وقد بلغت نفقات هذه الإصلاحات ٤٠.٠٠٠ جنيه كما بلغت نفقات نزع ملكية الأبنية المجاورة ٤٥.٠٠٠ واستمرت العناية موجهة إلى هذا الأثر الخالد، فأخليت بقية واجهاته من الدور اليت كانت تحجبها.وأصبحت واجهات الجامع مكشوفة تبدو بأسوارها العالية وشرفاتها كالعرائس تختال في أزرها. كما أصلح الكثير من الشبابيك الجصية. وكذلك أصلح المحراب المستنصري، وهو من أدق وأجمل المحاريب الجصية. وما زال الجامع ملحوظاً بالعناية الإلهية البالغة باعتباره من مفاخر العمارة الإسلامية ومن مفاخر مساجد مصر.

التأثيرات العثمانية على العمارة الإسلامية في مصر

نسبت طرز العمارة الإسلامية في مصر إلى الدول التي أنشئت في عصرها. وإن في مصر بطائفة ممتازة من الآثار ترجع إلى الدول المتعاقبة على حكمها، ولكل منها طابعه ومميزاته. وهذه الآثار وإن وقع على بعضها تأثيرات متنوعة ما بين عراقية وفارسية وأندلسية، إلا أن هذه التأثيرات تكاد تكون جزئية ومحدودة، فلم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى كانت العمارة في مصر مصرية الطابع، ثبتت قواعدها، وانفردت بطرزها إلى تميزها على سائر الطرز.

ومن الخطأ الشائع إطلاق اسم العمارة العثمانية على الآثار التي أنشئت في فترة الحكم العثماني بمصر، فهي في الحقيقة عمارة مصرية فقيرة وقعت على بعض منشآتها تأثيرات عثمانية، وقليل منها عثماني وقعت عليه تأثيرات مصرية، لأن السلطان سليم عقب استيلائه على مصر سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) أخذ معه إلى استامبول حوالي ١٨٠٠ صانع من مختلف الفنون والصناعات، فتعطلت في مصر نحو نيف وخمسين صناعة من أدق صناعاتها.

ولا شك في أن خروج هذا العدد الوفير من خيرة مهندسيها وصناعها كان له أثر كبير في هبوط المستوى الفني والمعماري، إلى جانب ما كانت تعانيه مصر في تلك الحقبة من اضطراب وعدم استقرار ، على أن أهم حادث أثر في حالة مصر اقتصادياً وفنياً هو تحول طريق التجارة بين أوروبا والشرق إلى طريق رأس الرجا الصالح، إذ أحدث انقلاباً ذا شأن في عالم التجارة نضبت بسببه منابع الثروة، وظهر أثرها في مختلف نواحيها، لاسيما تراثها الفني والمعماري.

هذان السببان كان لهما أسوأ الأثر في هبوط المستوى الفني للعمارة الإسلامية في مصر طفرة واحدة دون تدرج؛ لا في الزمن ولا في الفن. ويبدو هذا جلياً عندما نقارن المنشآت المعمارية في أول القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي بالمنشآت المعمارية في منتصف القرن المذكور، إذ نرى الأولى بلغت الذروة في الرقي المعماري والزخرفي، على حين أخذت الثانية تسودها البساطة في الواجهات والقباب والمنارات وغيرها. ويعزى هذا إلى

اضطراب الحالتين: السياسية والاقتصادية خصوصاً وقد عاد إلى مصر كثير من صناعها وفنانيها.

غير أن صناعتين قد احتفظتا برقيهما، الأولى: صناعة الرخام في الأرضيات والوزارات والمحاريب، والفساقي التي انتشرت في دور هذا العصر وفيها المعجب والطرب، وتراكيب القبور الرخامية وشواهدها، وفيها من دقة النقش وجمال الفن وزخرفة الخط طرائف ونوادر.

والأخرى: صناعة النجارة وخاصة في السقوف ونقشها بتقاسيمها، وكلتاهما لا تقل دقة عما هو موجود منها في دولة المماليك الجراكسة.

ويروي المؤرخ ابن إياس أن السلطان سليم حينما أخذ الصناع من مصر أرسل صناعاً غيرهم من استامبول ليحلوا محلهم، وهذه الرواية مشكوك فيها، لأنها إن صحت كان عدد الصناع قليلاً جداً، لأن الآثار التي شيدت عقب الفتح العثماني إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي مع كثرتها لم يصطبغ منها بالطرز العثمانية سوى:

١- مسجد سليمان باشا بالقلعة

وهو أول مسجد شيد على الطرز العثمانية وأغناها زخرفاً. فقد جدد إنشاءه سليمان باشا الخادم سنة **٩٣٥**هـ (**١٥٢٨**م)، وتصميمه جديد على مساجد مصر، وهو من قسمين: القسم الشرقي ويتكون من قبة كبيرة يحيط بها ثلاثة أنصاف قباب حليت جميعها بنقوش ملونة ومذهبة وكتابات تعانقت ألفاتها. وقامت دكة المبلغ على كوابيل منقوشة في الجانب الغربي.

وصنع المنبر من الرخام وهو منقوش الجوانب كالمنابر التركية الرخامية المنتشرة في مساجد استامبول.

أما الوزرات والمحراب والأرضيات الرخامية فهي مصرية الطرز. فالوزرة تنتهي بإفريز مكتوب فيه بالخط الكوفي المزخرف آيات من القرآن، هذا النوع من الخط بزخرفه شائع في منشآت نهاية القرن التاسع وأول القرن العاشر الهجري (الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلادي).

ويلاحظ أن تجميع الرخام الدقيق الملون في المحراب والتطعيم فيه مقتبس من معاصريه

في المساجد المملوكية. والقسم الثاني من المسجد الصحن، قد فرش بالرخام الدقيق الملون، وأحيطت به أربعة أروقة ذات قباب معقودة. كانت هي والقبة الكبيرة وقباب المصلى الملحقة بالمسجد مغطاة بالقاشاني الأخضر.

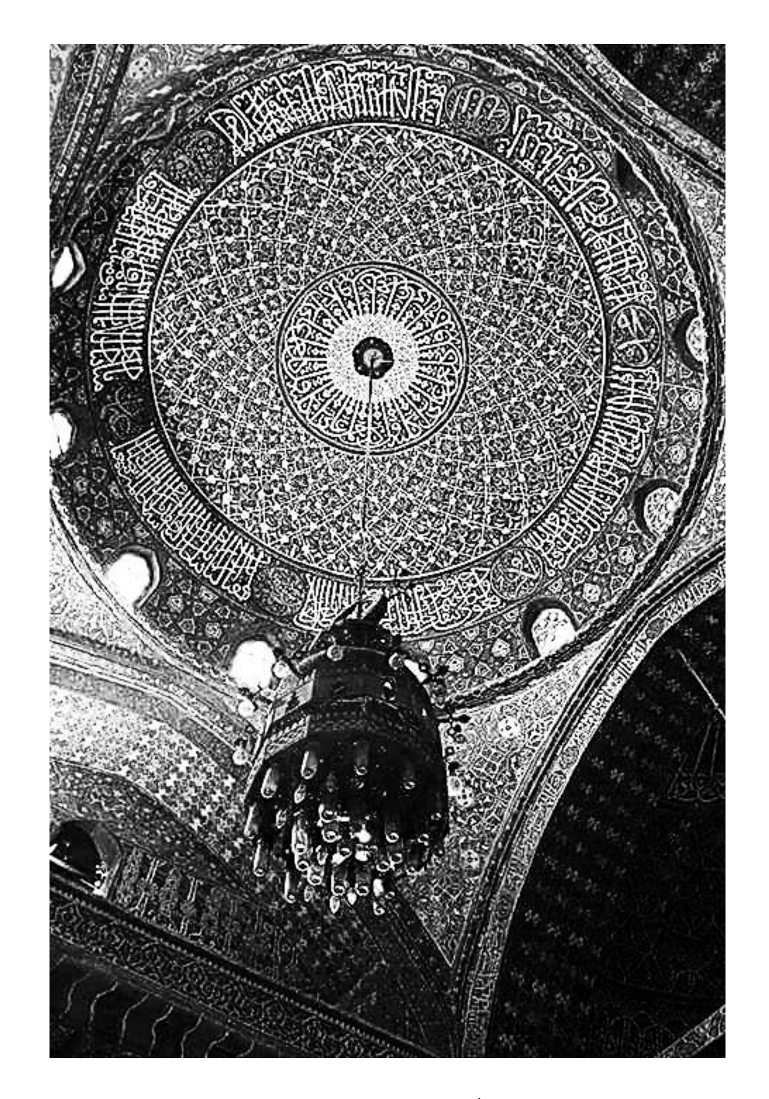
ولأول مرة تظهر المسلة في المنارة بدلاً من الخوذة المكورة في هذا الجامع، وانفردت تلك المسلة هي ومسلة منارة مسجد جاهين الخلوتي بسفح المقطم سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) بتكسيتها بالقاشاني الأخضر الداكن.

وتكسيه القباب بالقاشاني الأزرق أو الأخضر، وجدت بمصر قبل العصر العثماني لأن قبة الإمام الشافعي كانت مكسوة بقاشاني أخضر من عمل السلطان قايتباي الذي حدد قبة مسجد الناصر مُحَمَّد بن قلاوون بالقلعة في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكساها بالقاشاني، فعرفت بالقبة الخضراء.

ومثله السلطان قانصوه الغوري، فقد كسا قبته بالغورية بالقاشاني الأزرق سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣م). وقد هدمت سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م).. هذا عدا ما وجد من تكسية رقاب القباب بقاشاني أخضر وأزرق، ومكتوب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)؛ وأكثره قاشاني فارسي.



مسجد سليمان باشا بالقلعة



تفاصيل من زخارف وكتابات قبة مسجد سليمان باشا بالقلعة



القبة والمنبر – مسجد سليمان باشا

٢- تكية سليمان باشا بالسروجية

أنشئت هذه التكية في عصر السلطان سليمان بن السلطان سليم باشا وتمت بعد وفاته سنة ٩٥٠هـ (١٥٤٣م) وهذه التكية– وإن وضع تصميمها من الداخل على الطراز العثماني: صحن مكشوف تحيط به أروقة، بها حجرات معقودة بقباب نصف كروية مغطاة بقاشاني أخضر– فإن مدخلها بنقوشه الحجرية ومقرنصاته وأعتاب شبابيك الواجهة القبلية بنقوشها الحجرية مصرية الطراز، مملوكية العصر.



التكية السليمانية

ويلاحظ أن اللوحة التذكارية لإنشائها نعتها بالمدرسة، وهو تعبير اقتصر في العصر العثماني على هذا التكية وعلى تكية السلطان محمود مع مخالفتهما في التصميم لتخطيط المدرسة المملوكية، فكلتاهما غير متعامدة التخطيط، ولا منبر لهما ولا منارة.

ومع أن سليمان باشا أنشأ مسجده بالقلعة على تصميم المساجد العثمانية، فقد أنشأ مسجده ببولاق ٩٤١هـ (١٥٤٣م) مع تفاصيله من منارة وغيرها على طراز المساجد المصرية.

٣- مسجد سنان باشا ببولاق

أنشأ هذا المسجد والي مصر سنان باشا سنة ٩٧٩هـ (١٥٧١م) وتصميمه عثماني بحت فهو مكون من قبة كبيرة تقوم على أربع زوايا معقودة. وبرقبتها مجموعة من الشبابيك الجصية والدوائر الحجرية. ويحيط بالقبة من جوانبها الثلاثة: البحرية والقبلية والغربية إيوانات مغطاة بقباب صغيرة يتوصل إليها من القبة من أبواب ثلاثة.

أما المحراب الرخامي بنقوشه وألوانه الأرضيات الرخامية الملونة والمنبر فإنها مملوكية الطرز. وبالرغم من أن الأتراك قد أنشأوا الكثير من الآثار في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) إلا أنها شيدت على طراز العمارة الإسلامية المصرية مثل: مسجد جاهين الخلوتي تحت المقطم سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م)، وسيبل خسرو

بالنحاسين سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م)، وقبة الأمير سليمان القرافة الشرقية سنة ٩٥١هـ (١٥٤٤م) فإنها تعتبر من أرقى القباب. ومساجد داود باشا سنة ٩٥٥هـ (١٥٤٨م)، ومراد باشا ٩٨٦هـ (١٥٧٨م)، ومحمود باشا بميدان صلاح الدين سنة ٩٧٥هـ (١٥٦٨م) ومسيح باشا ٩٨٣هـ (١٥٧٥م)، عدا مناراتها التي شيدت على الطراز التركي.

– القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) هذا هو القرن الثاني من الحكم العثماني لم ينشأ فيه على الطراز العثماني إلا مسجد الملكة صفية بالداودية، وهو مسجد أنشأه عثمان أغا أغاه دار السعادة مملوك الملكة صفية زوجة السلطان مراد الثالث سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) وتصميمه من نوع آخر غير سابقيه: سليمان باشا وسنان باشا، فالقسم الشرقي به القبة الكبيرة وقد حملت على ستة عمد من الجرانيت؛ يحيط بدائرها فوق العقود ممر صغير يحيط برقبتها، واتخذت المنطقة الواقعة بين عقود المسدس قباب صغيرة، كما تعلو المحراب قبة، ويجاور المحراب منبر رخامي فرغت جوانبه وقاعدته بأشكال زخرفية وهو على مثال أرقى المنابر التركية.

القسم الغربي– الصحن يحيط به أربعة إيوانات ذات قباب صغيرة. ويتوصل إلى كل من إيواناته الثلاثة البحرية والغربية والقبلية بسلم كبير مستدير.

وقد توافرت في المسجد مميزات العمارة العثمانية من تصميم ومن عقود موتورة ونجارة ومنارة.

أما باقي منشآت هذا القرن فإنها مصرية الطرز وقع على بعضها تأثيرات جزئية مثل:

تشكيلة من عقود التخفيف والزينة وبعض التيجان أعرضها في لوحة واحدة، ولذلك بسطت بعض الشبابيك الجصية ودخلت فيها الجامات؛ والكثير منها محتفظ بدقته وألوانه.

ووجدت نماذج ممتازة من الشبابيك النحاسية المصبوبة غاية في الروعة، وعرفت مصر صب الشبابيك في العصر المملوكي، ولكنه كان في نطاق ضيق.

وتأثر بعض المساجد والزوايا بتخطيطات جديدة لا تعزى إلى العصر العثماني، ولكن تعزى إلى سنة التطور مثل: الطرقة التي تشق إيواني المسجد مثل مسجدي مراد باشا والمحمودية، وتغطية المساجد بقباب صغيرة نصف كرية أو مصلبة تحملها عمد حجرية أو رخامية أمثال: مسجد عبدي بك بمصر القديمة سنة ١٠٧١هـ (١٦٦٠م)، ومسجد "التي برمق" بسوق السلاح ١١٢٣هـ (١٧١١م) وغيرهما.

ومن منشآت هذا القرن ما انطبع بطابع العمارة المملوكية تصميماً وزخرفاً مثل مسجد "البرديني" بالداودية.

وقد أنشئ هذا المسجد سنة ١٠٢٥- ١٠٣٨هـ (١٦١٦- ١٦٢٩م)، وهو بتفاصيله أكبر دليل على أن العمارة الإسلامية بفنونها وزخرفها كانت كامنة بسبب صعف الثروة، فإذا وجد من يستطيع الصرف عليها أبرزت.



مسجد البرديني



منبر ومحراب مسجد البرديني



محراب مسجد البرديني مطعم بالصدف والسن

ويعتبر هذا المسجد تحفة من تحف العمارة الإسلامية وهو مع صغره جمع شتى الفنون، فقد أزرت جدرانه بوزرة رخامية انتهت بإفريز منقوش كتب عليها بالكوفي المربع، والمحراب من الرخام الدقيق لا يقل أهمية عن أجمل المحاريب المملوكية، والسقوف منقوشة مذهبة. ويقوم إلى جانب المحراب منبر صغير طعمت حشواته.



شبابيك من الجص المحلى بزجاج ملون

أما المنارة فقد عادت إلى رشاقتها وهي منارة حجرية حافلة بالنقوش والكتابات كالمنارات المملوكية. وكذلك مسجد يوسف أغا الحين بميدان باب الخلق المنشأ سنة ١٠٣٥هـ (١٦٢٥م)، فإن تصميمه تصميم مدرسة له أربعة إيوانات متعامدة، مثل المدارس المملوكية.

وفي هذا القرن، وبسبب الحالة الاقتصادية، انتشر إنشاء السبيل والكتاب كوحدة معمارية مستقلة: السبيل للشرب والكتاب لتعليم اليتامى وغيرهم، ورصدت عليها الأوقاف للصرف عليها، ومع أن الكثير من منشئيها أتراك، إلا أن طراز بنائها مصري بحت، وكذلك الدار الإسلامية ظلت محافظة على طرازها القديم من تصميم ومشربيات وفساقي ومقاعد

وزخارف، كمنازل الجريدلية بجوار الجامع الطولوني ١٠٤١هـ (١٦٣١م)، ومنزل عبد القادر الحداد أمامه سنة ١٥٤٠م، وجمال الدين الذهبي بحارة خشقدم بالغورية ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م) والسحيمي ١٠٥٨هـ (١٦٤٨م)، والسادات ١٠٧٠- ١١٦٨هـ (١٦٥٩- ١٧٥٤م) وغيرها من الدور التي أنشأها الأتراك أيضاً في هذا القرن والقرن الذي يليه.

وقد اشتملت تلك الدور على مقاعد لا تقل في دقة تفاصيلها المعمارية والزخرفية عن مثيلاتها المملوكية، وعلى قاعات أزرت بالرخام الدقيق والأرضيات الرخامية الدقيقة والسقوف الملونة والمذهبة كقاعة منزل جمال الدين الذهبي وهي لا تقل عن القاعات المملوكية عظمة وفناً.

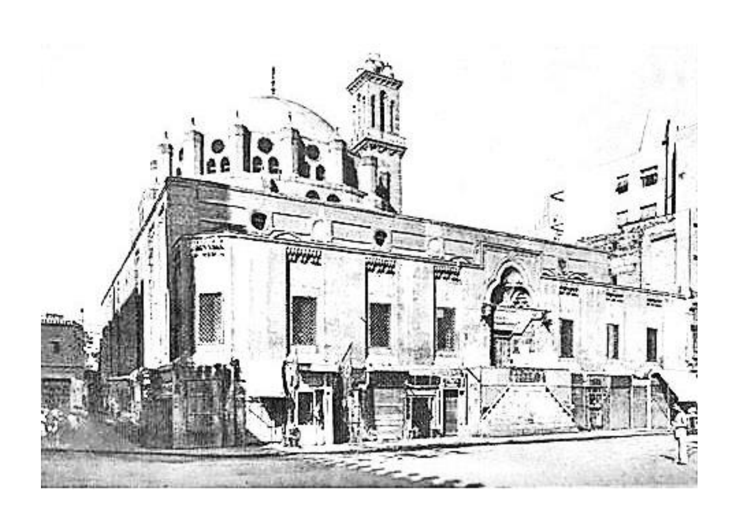
ومع أن القبة سادتها البساطة شأن بقية التفاصيل إلا أنها ظلت محافظة على مصريتها. وبين آونة وأخرى نراها تحن إلى العودة إلى جمالها كقبة سيدي عقبة جهة الإمام الليث وهي التي أنشأها الوزير التركي محمد باشا سلحدار سنة ١٠٦٦هـ (١٦٥٥م)، وقبة أبو جعفر الطحاوي بالإمام الشافعي والتي أنشأها والي مصر حمزة باشا سنة ١٠٩٨هـ (١٦٨٦م)، وقبة الشاطبي والقاضي الفاضل اللتين جددهما والي مصر محمد باشا خسرو بإشراف كتخداه يوسف سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٢م) ، وتمتاز تلك القباب كالقباب المملوكية بالرشاقة ونقش سطوحها.

- القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)

هو القرن الثالث من الحكم العثماني، وهو مثل القرن الماضي؛ كثر فيه إنشاء السبيل والكتاب والزوايا والوكايل. ووجد بين منشآته ثلاثة آثار عثمانية:

١- مسجد محمد بك أو الذهب- أمام الأزهر

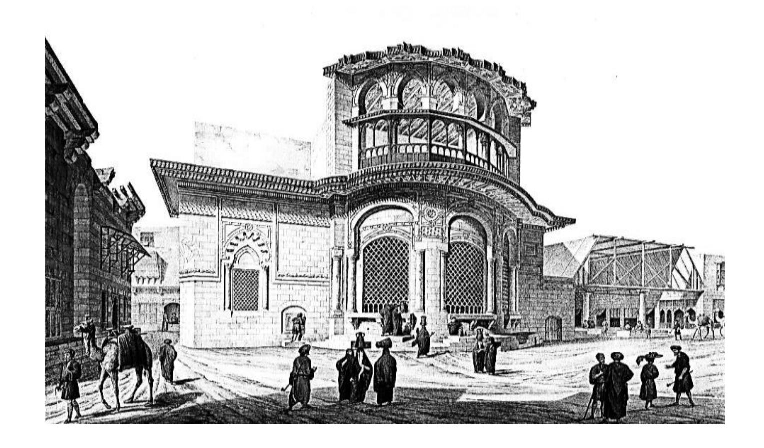
أنشأ هذا المسجد الأمير محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٨هـ (١٧٧٤م) وهو في تصميمه يتفق مع تصميم مسجد سنان باشا مع اختلافات قليلة، كما يتفق معه في التأثيرات المصرية المملوكية التي وقعت عليه من حيث صناعة الرخام في الأرضيات وفي المحراب وفي تطعيم المنبر بالسن والزرنشان وتطعيم الأبواب. ومع أن المسجد عثماني التصميم إلا أن منارته مملوكية، وأقرب شبهاً إلى منارة الغوري.



مسجد محمد بك أبو الذهب

٢- سبيل وتكية السلطان محمود بدرب الجماميز

أمر بإنشائهما السلطان محمود بن السلطان مصطفى سنة ١١٦٤هـ (١٧٥٠م) بإشراف بشير أغا دار السعادة والتكية كبيرة تمثلت فيها العمارة العثمانية. فهي من الداخل أربعة إيوانات حول صحن مكشوف تتوسطه مبضأة فوقها قبة، وقد غطيت الإيوانات بقباب، كما غطيت الحجرات بها بقباب، كما غطيت الحجرات بها بقباب أكبر منها.



سبيل وتكية السلطان محمود –كما رسمهما أحد المستشرقين

أما السبيل الملحق بها فهو نصف مستدير بواجهته ثلاثة شبابيك نحاسية كبيرة مصبوبة بأشكال زخرفية.

وكان لتصميم هذا السبيل أثر في غيره من الأسبلة المنشأة بعده فقد شيد بعضها مستديراً مثله، وحليت واجهته المكسوة بالرخام بزخارف نباتية وزهور، كما حوى أنفس وأجمل مجموعة متنوعة من الشبابيك النحاسية المصبوبة بأشكال زخرفية متنوعة ، وقد كسى من الداخل بقاشاني تركي ومنه أجزاء قليلة هولاندية. ونقش سقف السبيل بنقوش تمثل زخارف القاشاني وزهرة التوليب، وهي من الزخارف الجديدة التي شاعت في هذا العصر.

ويسترعى النظر في هذه التكية طرازها الممتاز الذي يعزز أن السلطان محمود حينما أبدى رغبته في إنشائها أوفد مهندساً تركياً مع خاماتها لتنفيذها على الطراز العثماني. لأن بشير أغا دار السعادة المشرف على بنائها أنشأ سبيلاً وكتاباً باسمه تجاهها سنة ١١٣١هـ (١٧١٨م) على الطراز التركي.

٣- سبيل وكتاب السلطان مصطفى بميدان السيدة زينب :

أمر بإنشائه السلطان مصطفى خان سنة ١١٧٣هـ (١٧٥٩م) وهو مشيد على الطراز العثماني تصميماً وزخرفاً. فهو نصف مستدير وواجهته مكسوة بالرخام، وغطيت الشبابيك بنحاس مصبوب بأشكال زخرفية نقشت أطرها بزخارف وزهور.

أما من الداخل فقد كسبت أسفل الجدران بوزرة رخامية دقيقة وأعلاها بقاشاني هولاندي؛ به مناظر تمثل الريف الأوروبي وسفناً وغير ذلك.

واستعمال القاشاني الأوروبي في هذا السبيل وفي سبيل السلطان محمود وفي مسجد تربانه بالإسكندرية ١٠٩٧هـ (١٦٨٥م) متابعة لما حدث في فترة باستامبول: فإن بعض المباني التي أنشئت في عهد السلطان عثمان الثالث ومصطفى الثالث وعبد الحميد الأول اشتملت على بعض ترابيع القاشاني الأزرق المصنوع في فينا. وفي هذا الوقت كان صناع مصر ينقشون الوزرات الخشبية بنقوش تحاكي القاشاني.

وعلى ذكر القاشاني المنقوش والملون بالأزرق وبالأخضر والأحمر على الأرضية البيضاء أقول. إنه صناعة آسيا الصغرى، بل منه ما هو صناعة دمشق. وقد وجد في بعض الآثار المنشأة بمصر في العهد العثماني ولم تكن صناعته من القاشاني محلية بل كان يستحضر من

تركيا وما اشتمل على زهور حمراء من رودس، وأكبر مجموعة منه موجودة في الإيوان الشرقي لمسجد آق سنقر بالتبانة، وفي حجرة مدفن إبراهيم أغا الذي أمر بعمل تلك التكسية سنة ١٠٦٢هـ (١٦٥٢م) وهي أجمل مجموعة من القاشاني منسجمة مع بعضها عملت خصيصاً للمسجد وللمدفن فأكسبته شهرة بين الزوار الأجانب. وأطلقوا عليه اسم الجامع الأزرق.



سبيل السلطان مصطفى

وما وجد من القاشاني في بعض المنازل والأماكن الأثرية منه ما هو معاصر لها، ومنه ما هو منقول إليها وغير متجانس، مثل: المجموعة الموجودة في واجهة قبة الجلشي بشارع تحت الربع ٩٢٦- ٩٣١هـ (١٥١٩- ١٥٢٤)م فإنها ألصقت عليها سنة ١٥٢٨هـ ـ١٨٤٢م) بغير فن أو ذوق. وقد جمعت شتى أنواع القاشاني وأرقاها.

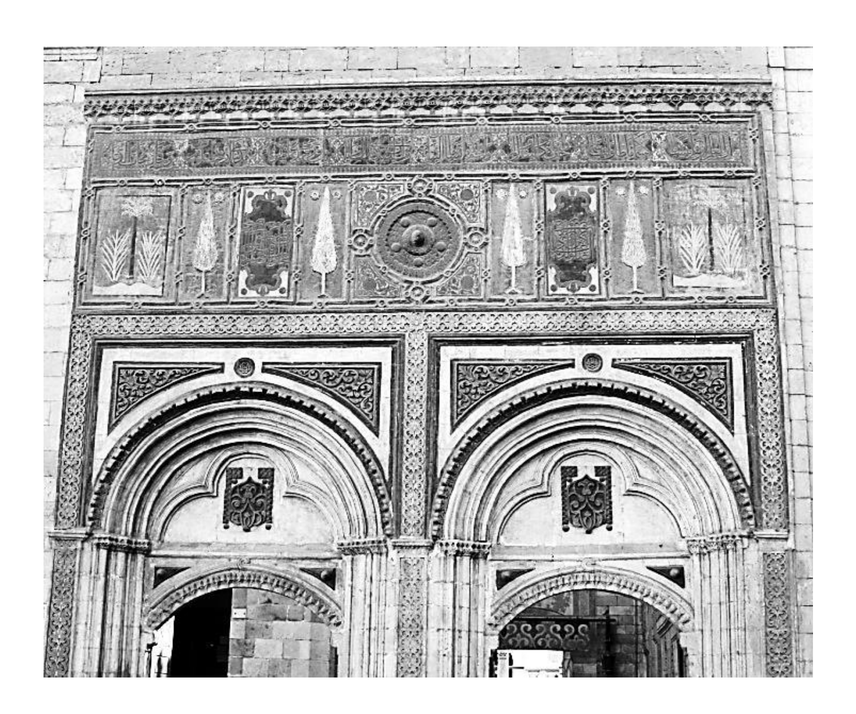
وفي هذا العصر عاد الحنين إلى التخلص من المنارة الاسطوانية التركية. فأنشئت

منارات مساجد الكردي بسويقة الالا سنة ١١٤٥هـ (١٧٣٢م)، وأبو بدير العريان بشارع العروسي سنة ١١٨٤هـ (١٧٧٠م)، ومُحَّد بك أبو الذهب سنة ١١٨٨هـ (١٧٧٤م)، والسادات الوفائية سنة ١١٩٩هـ (١٧٨٤م) وغيرها على الطراز المملوكي.

وامتاز هذا القرن بمنشآت الأمير عبد الرحمن كتخذا فقد كان مشغوفاً بالعمارة وفي منشآته تجلت دقة الصناعة في هذا العصر بل تركز طابعها. فقد اهتم بتجديد إنشاء مشاهد آل البيت وغيرها من المساجد. هذا عدا ما أنشأه من أسبلة ومساجد انطبعت كلها بطابع الدقة والجمال وبطابع العمارة المصرية الإسلامية في هذا العصر.

ومن تلك المنشآت سبيله الجميل الذي أنشأه في شارع بين القصرين سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٤م) فقد حليت وجهاته الثلاث برخام مزخرف وبرخام مجمع ملون، وبشبابيك نحاسية مصبوبة، حليت أطرها بزخارف نباتية، كما حلى الباب بالمقرنصات وبالرخام المنقوش وفرشت أرضية المدخل دقيق ملون.

أما داخل السبيل فقد كسبت جدرانه بالقاشاني التركي الجميل تتوسطه صورة الكعبة المشرفة وهي من القطع النادرة. وترى هذه الدقة في واجهة سبيله الملحق بجامع المطهر بأول الصاغة الذي جدد إنشاءه سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٤م) ودفن فيه والدته. ويسترعى النظر فيه من الداخل محرابه الرخامي الدقيق الذي لا يقل دقة عن المحاريب المملوكية، ومنبره الخشبي المجمع بتقاسيم المنابر، المملوكية وهو وإن خلا من التطعيم، إلا أنه حاكاه بنقوش البوية. وفي هذا المسجد حلت الشبابيك الخرط بنقوشها محل الشبابيك الجصية.



الباب الغربي – الجامع الازهر

وفي الباب الكبير الذي أنشأه هذا الأمير للجامع الأزهر سنة ١١٦٧هـ (١٧٥٣م) نرى ألواناً، جديدة من الزخارف الحجرية دمعت بين القديم والمبتكر، ولوناً جديداً من الزخرف في الرخام متأثراً إلى حد ما بزخارف القاشاني والصرر ووسطها النهود البارزة وأعواد السرو ، ونرى فيه كذلك تفنن الخطاط في كتابة "الصلاة عماد الدين"، و"عجلوا بالصلاة قبل الفوت" طرداً وعكساً.

ونذكر هنا أن خطاط هذا الأمير كان خطاطاً بارزاً، كما أن معاصريه في هذا العصر كانوا نوابغ في الخط وخلفوا لنا منه ثروات بالمساجد والقبور، ومنه ما هو مكتوب طرداً وعكساً، ومنه ما هو بأشكال زخرفية بلغت حد الإتقان.

ونلحظ في المحراب الذي أقامه في الجامع الأزهر الضخامة والفخامة، فهو يعد في مصاف أفخم المحاريب الرخامية. على يساره لوحة مثمنة من الرخام لبس فيها بالكوفي المربع أسماء العشرة المبشرين بالجنة وهم:

أبو بكر– عمر – عثمان– علي – طلحة بين عبيد الله– الزبير بن العوام– سعد بن

أبي وقاص– سعيد بن زبد– عبد الرحمن بن عوف– أبو عبيدة الجراح، فقد كتبت أوائل أسمائهم بشكل زخرفي نادر.

وقد بدأ ظهور الخط الكوفي المربع في آثار مصر في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وظل مستعملاً كزخرف إلى دولة المماليك الجراكسة. ثم شاع استعماله في هذا العصر وبخاصة في آثار الأقاليم على الخشب والطوب المنجور.

وفي مسجد الشواذلية الذي أنشأه عبد الرحمن كتخدا بالموسكي سنة ١١٦٨هـ (١٧٥٤م) نرى لوناً آخر من العقود المسننة ومن الزخارف الحجرية الجميلة مما نعتبره من مميزات هذا العصر.

أما الزاوية اللطيفة التي أنشأها بالسروجية سنة ١١٤٥هـ (١٧٢٩م)، فإنها رغم جمال مدخلها فقد أعطانا فيها لوناً مختصراً من المنارات بإيجاد شرفة بارزة محمولة على مقرنصات بالواجهة يحوطها درابزين حجري مفرغ، وهو ابتكار وحيد مقبول. وتعتبر منشآت هذا الأمير ثروة عمارية غنية تمثلت فيها طرز العمارة المصرية في حقبة الحكم العثماني. وقد أحدث أبواباً نحاسية مثل: الأبواب المملوكية، كما أنه عمل أبواباً كساها بالفضة لأضرحة مشهدي الإمام الحسين والإمام الشافعي وغيرهما مما هو مودع في متحف الفن الإسلامي.

وهنا نشير إلى أهمية جامع عثمان كتخدا بميدان الأوبرا سنة ١١٤٢هـ (١٧٢٩م) وإلى محرابه الدقيق وشبابيكه الجصية الجميلة وبابه المغشي بالنحاس فهو مكمل لسلسلة الأبواب النحاسية المملوكية، كما أشير إلى مسجد الأمير يوسف بالهياتم ١١٧٧هـ (١٧٦٣م) فلقد اشتملت واجهته على زخارف أقرب إلى سعف النخل شاعت في هذا العصر. كما اشتمل بابه الخشبي على نقش جميل انفرد به. وفي هذا القرن ارتقت صناعة الرخام في تراكيب القبور، واقتبست من التراكيب التركية في بعضها، وانفردت برقي منقطع النظير في البعض الآخر.

ومن الأنواع القيمة النادرة تراكيب مقبرة رضوان أغا الرزاز سنة ١١٦٨هـ (١٧٥٤) لقد جمعت من دقة الزخرف وجمال الخط ما لا نظير له. ومثلها تراكيب مقبرة سليمان أغا الحنفي والجلفي.

وفي مجموعة تراكيب القبور بمدفن إبراهيم باشا خلف الإمام الشافعي نجد ثروة فنية في

نقش الرخام وأقلام الخطاطين، وفيها نجد مجموعة طريفة من أزياء غطاء الرأس للرجال والنساء وبعض الحلى. وقد حوت زخارف نباتية وزهور توليب وأعواد سرو التفت عليها عناقيد العنب بأوراقها، وعلى جوانبها أصص الزهور بزهورها وصحاف الفواكه بفواكهها وجلها تأثيرات عثمانية.

- القرن الثالث عشر الهجري (نهاية الثامن عشر وأول التاسع عشر الميلادي).

هو القرن الرابع من الحكم العثماني بصرف النظر عن فترة الاحتلال الفرنسي الممقوت. وفي هذا القرن نرى أن التأثيرات العثمانية مقصورة على منشآت مُحَمَّد علي من مساجد وقصور وأسبلة أنشأها هو وأفراد أسرته. وهذا مرجعه إلى أنه استقدم من استامبول في سنة ١٨١٣، ١٨١٧، ١٨٣٦م، عمالاً وصناعاً ما بين أتراك وأرمن ويونانيين ، وقد نقل هؤلاء الصناع معهم الطرز المعمارية والزخرفية التي شاعت في تركيا وتتمثل في القصور والأكشاك الخشبية المجدلة بالبياض، وفن الروكوكو الزخرفي بعد أن هذبه العثمانيون واستبعدوا منه كل ما يشير إلى الإنسان وجعلوه يحوي مناظر الطبيعة والمنازل والمتنزهات والزهور.

وتتمثل تلك الطرز في مسجده الكبير بالقلعة. وقد فرغ من بنائه سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) وهو في تصميمه وزخرفه قطعة كاملة من الفن العثماني ولم تقع عليه تأثيرات مصرية. كما يتمثل الفن العثماني في سبيليه: العقادين برأس حارة الروم سنة ١٢٣٦هـ (١٨٢٠م) والنحاسين ١٢٤٤هـ (١٨٢٨م) بالنحاسين. وعلى مثالها أنشئت أسلة أخرى مثل: سبيل سليمان أغا السلحدار بأول حارة برجوان بالنحاسين سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م)، وسبيل والدة مصطفى فاضل بدرب الجماميز ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م). وسبيل أحمد باشا أمام المشهد الحسيني ١٢٨١هـ (١٨٦٤م)، وسبيل أم عباس بشارع الصليبة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م)، وسبيل أم حسين بك المنقول خلف مسجد القاضي يحيى بشارع الأزهر سنة ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م)، وسبيل الشيخ صالح أمام مسجد الشيخ صالح بالحنفي سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م).

وكل هذه الأسبلة متفقة مع أسبلة مُحَمَّد علي ومع بعضها طرزاً وزخرفاً، وحوت مجموعة قيمة من الرخام المنقوش ومجموعة نادرة من الخطوط والشبابيك النحاسية غاية في الجمال.

وأنشئت كذلك قصوره على الطراز العثماني البحت: قصر الجوهرة خلف مسجده بالقلعة سنة ١٨١٤م، وهو قصر مبني على طرز الأكشاك العثمانية، وقصور الحرم بداخل القلعة ١٨٢٧م وبها الآن المتحف الحربي. فقد تنوعت زخارفها بالجدران والسقوف، وهي تطابق مثيلها في قصور استامبول وخاصة قصر والدة سليم الثالث وجناح الحرم به، وكشك السلطان أحمد. وفي قصر الحرم سلسبيل رخامي نادر تتدفق المياه من أفواه الطيور على أحواض تنحدر منها على مجراة حفرت بها الأسماك المختلفة. ومثله سلسبيل آخر في قصر المنسترلي بجزيرة الروضة.

أما كشك قصر شبرا ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م) الغريب في تصميمه، فقد أقيمت في وسطه بركة بوسطها جزيرة تحملها التماسيح وتحيط بها العمد الرشيقة والحجرات التي نقشها الفنانون الأجانب والأتراك.

أما بقية منشآت هذا القرن السابقة لعصر محمد علي والمعاصرة له، فقد شيدت على الطرز المصري. فقد أنشئ سبيل ومدفن سليمان أغا الحنفي بحي الأزبجية بالمقطم سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) على طراز مصري جميل عدا تراكيب القبور فقد تأثرت بالتراكيب التركية.

وجامع محمود محرم بالجمالية ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) فإنه منشأ على الطراز المصري من الداخل والخارج ، ومثله مسجد الجوهري بالسكة الجديدة سنة ١٢٦١ – ١٢٦٥هـ (١٨٤٥ – ١٨٤٨م)، وبينما قبة أحمد باشا طاهر خلف مسجد السيدة زينب منشأة على الطراز التركي طرزاً وزخرفاً سنة (١٨١٨م)، ينشأ مسجد حسن باشا طاهر ١٢٢٤هـ (١٨٠٩م) على طرز العمارة المصرية، وتنشأ منارته على الطراز المملوكي.

وفي الوقت الذي أنشأ فيه محمد بك طبوزاده التركي سبيله بحارة جوهر سنة ١٨١١م على الطراز العثماني الفقير تجدد إنشاء مسجد جوهر المعيني القريب منه سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) على الطراز المصري ولم يتأثر بالطراز العثماني.

وإذا استعرضنا الآثار الباقية في القاهرة مما أنشئ في العصر العثماني وعددها ٢١٤ أثراً أمكننا تقسيمها إلى ما يلي:

٥١ مسجداً؛ منها تسعة عثمانية الطراز.

٦٥ سبيلاً؛ منها ١٢ عثمانية الطراز.

٦٤ ما بين زاوية وتكية ووكالة؛ منها ١٢ عثمانية الطراز.

٣٥ ما بين منازل وقصور، منها ٤ عثمانية.

ومن هذا الإحصاء تكون الآثار المنشأة على الطراز العثماني بنسبة ٢٤% وقد وقع على الكثير منها تأثيرات مصرية.

وإن كانت قد وقعت تأثيرات عثمانية على العمارة الإسلامية بمصر إلا أنها جزئية، على أن تلك التأثيرات كانت مقصورة على القاهرة. أما في الأقاليم فقد ظلت العمارة هناك في تلك الحقبة مسايرة لروح العمائر المملوكية، ولم تتأثر بالطرز التركية. وفيها نرى تشكيلة من القباب والمنارات متنوعة الأشكال لا نظير لها بين آثار مصر في هذا العصر.

الجامع الأموي بدمشق

الآثار الإسلامية في مصر وسورية خير وثيقة للوحدة العربية، لأنها تربطها برباط وثيق تاريخياً، وفنياً، وثقافياً، واقتصادياً، منذ الفتح الإسلامي؛ وعماد تلك الرابطة وقوامها اللغة والثقافة والتقاليد.وكان أحمد بن طولون أول من اقتطع جزءاً من المملكة الإسلامية عن الخلافة العباسية، وجمع بين ملك مصر والشام فقويت شوكته، وأخذ ملك الروم يهادنه، ويطلب رضاه لاتساع مملكته ومكانتها بين مملكة الشرق ومملكة الغرب الإسلاميتين.

وفي عهد ابنه أبي الجيش خمارويه بلغ الجيش في الشام ومصر نحو أربعمائة ألف فارس، وشعرت الأمة أنها مستقلة عن العباسيين، ورأت مصر والشام أنهما بتأليف حكومة واحدة تصبحان دولة قوية يرهب بأسها.

ولا شك أن قوة جيش أحمد بن طولون وتقوية ابنه له جعلته أول جيش هيئ على الدوام تحت السلاح وعلى أهبة الطلب .. استولت الدولة الفاطمية على دمشق، وأصبحت جزءاً متمماً لمصر، ولم يكتب للشام أن تكون دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية، لأنها في دولتي المماليك وبعد انفضاض الصليبيين من السواحل والقضاء عليهم أصبحت مصر والشام لا يتخللهما أرض لغاصب، ولا ينازعهما سلطان غير المسلمين، وصارت كل واحدة متممة للأخرى.

وإزاء تلك الوحدة في تلك الحقبة تبودلت الولاة والأمراء وكبار الموظفين وأجلة العلماء والقضاة، ينتقلون في الوظائف بين مصر ودمشق وحلب وحمص وحماة؛ ولذلك نرى الكثير من أسماء ملوك مصر وأمرائها مسطورة على آثار لهم بمصر والشام ما بين مساجد ومدارس وخوانق، وعلى التحصينات ما بين قلاع وأسوار وأبواب، ووقفوا عليها أعياناً بمصر والشام ما زالت مسطورة في الوثائق الشرعية؛ وهذا كان سبباً قوياً للتبادل الفني بين مهندسي مصر والشام، وبين صناع مصر والشام؛ ومن هنا وقعت التأثيرات المعمارية بين آثار مصر والشام.

ورحم الله أستاذنا مُحَمَّد كرد على مؤرخ سورية إذ يقول في محاضرة له سنة ١٩١٢: "ومن يبحث في أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية، وشاركوا مصر في سعودها

ونحوسها من العلماء والصناع والتجار يجد بينهم كثيراً من الشاميين، وكذلك الحال في المصريين ببلاد الشام، فلا عجب إذا كان حظ مصر والشام واحداً في السراء والضراء؛ لأن مصر وسورية قطران بالاسم، ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم، وكل منهما متمم لصاحبه".

ومنذ أقدم العصور والقطران يتبادلان التجارات والمصنوعات، وتنقل التجار بين مصر والشام؛ فقد خصص بالقاهرة فندق مسرور الذي كان بالصاغة لنزول أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم، وكان من أكبر الفنادق وأهمها.

وكانت وكالة قوصون بشارع باب النصر والمنشأة حوالي سنة ٧٤٠هـ - ١٣٤٠م في حكم الخانات والفنادق ينزل فيها التجار ببضائع الشام الواردة بطريق البر، ومنها الفستق والزيت والصابون والجوز واللوز والخرنوب، كما كانت وكالة الجوانية التي أنشأها جمال الدين الإستادار سنة ٧٩٣هـ، ١٣٩٠م مخصصة لتجارات الشام الواردة عن طريق البحر، وفندق طرفطاي خارج باب البحر، مخصصاً لنزول تجار الزيت الواردين من الشام، وفندق التفاح المنشأ بعد سنة ٧٤٠هـ- ١٣٤٠م وكان أمام باب زويلة، وقد خصصت حوانيته لبيع الفواكه على اختلاف أنواعها، مما ينبت في بساتين ضواحي مصر، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواردة من البلاد الشامية، وكان باعة الفاكهة يتأنفون في عرض الفواكه وإحاطة الرياحين والأزهار بها. وما بين الحوانيت كان مسقوفاً حتى لا يصل حر الشمس إلى الفواكه.

ومن لطيف ما يذكر أن أبا البقاء عبد الله بن مُحَمَّد البدري المصري الدمشقي المؤرخ من علماء القرن التاسع الهجري يذكر في كتابه "نزهة الأنام في محاسن الشام" أنه يحمل من الشام إلى مصر عشر قافات انفردت بها وهي: قصب ذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين من المشمش، قريشة، قنب.. هذا عدا ما يرد منها من مصنوعات نحاسية وزجاجية ومنسوجات دقيقة، وكان يرد منها الثلج لملوك مصر وأمرائها في دوريات متلاحقة في شهور الصيف من شهر يونية إلى شهر نوفمبر بطريق البر والبحر مع متخصص في صناعته؛ حتى يخزن في صهاريج بالقلعة.

وكان الطريق فيما بين مصر والشام مأموناً به محطات البريد مزودة بكل ما يحتاج إليه المسافر.. ويقول المقريزي مؤرخ مصر: "ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من

القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة ومترجلة ولا تحمل زاداً ولا ماء".

أما التبادل الثقافي فقد كان على نطاق واسع بين الطلبة والعلماء والأدباء والشعراء، ينتقلون بين معاهدها: عمرو، والأموي، وطولون، والأزهر، وفيما بين مدارس القطرين، وكثيراً ما كان ينعت العالم بالدمشقي المصري، أو المصري الدمشقي؛ فقد ينشأ ويتعلم في دمشق أو حلب أو حماة، ثم يستوطن مصر، أو ينشأ في مصر، ثم يستوطن الشام وهكذا. ومن أكبر معاقل العلم وأقدمها بدمشق "الجامع الأموي".

الجامع الأموي "جامع دمشق":

هو أقدم جامع بدمشق ، أم بإنشائه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ ٧٠٥م، وعني به عناية فائقة، وحشد له العمال والمهندسين من جميع الأقطار، واستحضر له مواد البناء والزخارف من أنحاء العالم حتى جعل منه مفخرة من مفاخر الإسلام، ضاهى بها المعابد المسيحية حوله، وفاقها فناً وجمالاً. وقد فتن بجماله كل من شاهده إبان مجده وازدهاره، فأطنبوا وبالغوا في وصفه إلى حد الإعجاز. وقد استمرت العمارة فيه عشر سنوات، وبلغت نفقاته ٥,٦٠٠,٠٠٠ دينار مما جعله من إحدى عجائب الدنيا، وجعل الوليد يقول لأهل دمشق: "يا أهل دمشق، غنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم، ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم؛ فأحببت أن أزيدكم خامسة، وهي هذا المعبد".



ساحة المسجد



الرواق الخارجي

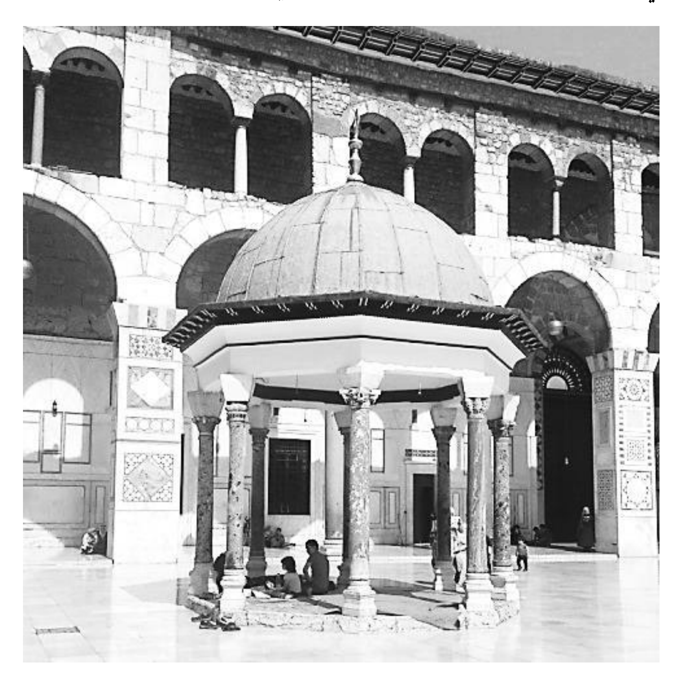
ولأهمية وصفه في مختلف الحقب وهو الذي يصوره لنا إبان ازدهاره قبل توالي المحن عليه – نذكر وصف واصفيه بحسب تدرجهم التاريخي، والكل مجمع على روعته ، فقد وصفه الخليفة المهدي العباسي بقوله: "لا أعلم على وجه الأرض مثله أبداً".

ووصفه الخليفة المأمون: "بأن بنيانه على غير مثال متقدم".

ووصفه الجاحظ بأنه مبني على أعمدة رخامية طبقتين: الطبقة التحتانية أعمدة كبار، والتي فوقها أعمدة صغار – يشير بذلك إلى عقود التخفيف فوق العقود الكبيرة –يتخلل ذلك صورة كل مدينة وشجرة على الجدران بالفسيفساء المذهبة والملونة، وفيه قبة النسر ليس في دمشق أعلى منها، وله ثلاث منارات.

وقرأ أبو يوسف يعقوب بن سليمان في صفائح مذهبة بمحرابه: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نعبد إلا إياه وحده، وديننا الإسلام، ونبينا مُحَمَّد. أمر ببناء هذا المسجد وهدم

الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي القعدة من سنة ست وثمانين.



القبة التي بنيت في عام ٧٨٠م



المئذنة

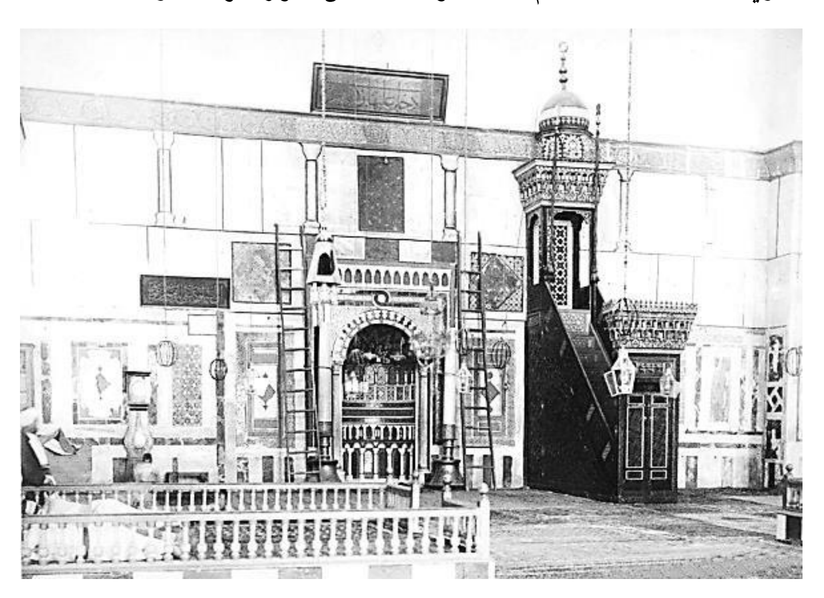
وقرأ المسعودي المؤرخ في سنة ٣٣٢هـ ٩٤٣م في حائط المسجد بالذهب على اللازورد: أمر ببناء هذا المسجد، وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين.

وهذا النص يعزز ما قرره الزميل الدكتور سليم عادل عبد الحق مدير آثار سورية من

أن بناء الجامع كله من عمل الوليد مخالفاً بذلك رأي الكثير من الأثريين القائلين بأن به بقايا من الكنيسة التي حل محلها.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فكر في تجريد المسجد مما فيه من ذهب ورخام وفسيفساء وسلاسل لبيعها وإدخال ثمنها بيت المال، فبلغ ذلك أهل دمشق، فتأثروا وخرج أشرافهم، وعلى رأسهم خالد بن عبد الله القسري، فلما دخلوا سلموا عليه، وقال له خالد: "يا أمير المؤمنين، بلغنا أنك هممت في مسجدنا بكذا وكذا"؛ قال: "رأيت أموالاً أنفقت في غير حقها، وأنا مدرك ما استدركت منها فراده إلى بيت المال"؛ فقال له: "والله ما ذاك لك يا أمير المؤمنين؛ لأنا كنا معشر أهل الشام وإخواننا من أهل مصر والعراق نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزاً من فسيفساء وذراعاً من رخام، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب، ويستأجر على ما حملوه إلى دمشق، ويحمل أهل حمص إلى حمص فيستأجر على ما حملوه إلى دمشق، ويحمل أهل الشام ومن ورائهم (مصر) حقهم إلى دمشق؛ فذاك قولي وما ذاك لك"، فسكت عمر.

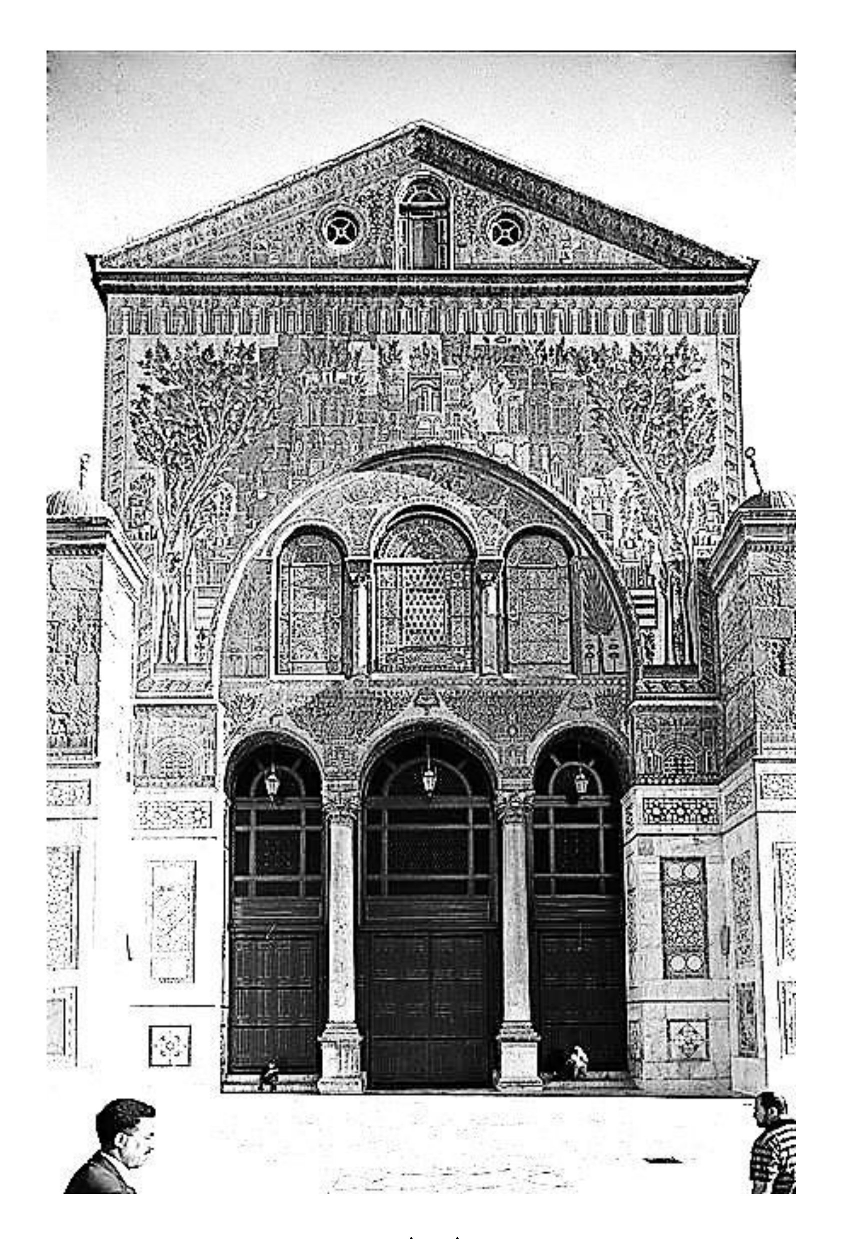
وفي سنة ٣٩٦هـ ١٠٠٥م أقيمت بوسط الصحن الفوارة الرخامية وقبتها.



المحراب والمنبر



قبة الخزنة، بنيت عام ٧٨٩م



الباب الغربي

ولما زاره في القرن الرابع الهجري (نهاية العاشر الميلادي) والمؤرخ الجغرافي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري وصفه بقوله: "والجامع أحسن شيء، للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه، قد رفعت قواعده

بالحجارة، وجعل عليها شرف بهية، وجعلت أساطينه أعمدة سود على ثلاثة صفوف واسعة جداً، وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة.

"وأدير على الصحن أروقة متعالية فوقها عقود صغيرة وقد بلط جميعه بالرخام، وكسيت جدرانه إلى ارتفاع قامتين بالرخام المجزع، ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة المذهبة وبها صور أشجار وأمصار وكتابات في غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقلما كان شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الجدران، وطليت رءوس الأعمدة بالذهب. وعقود الأروقة وجدرانها كلها مرصعة بالفسيفساء، والشرافيات مكسوة من الوجهين بالفسيفساء والسطوح كلها مكسوة بالرصاص، وعلى المثمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد، مرصع حيطانه بالفسيفساء، وفي المحراب وحوله فصوص عقيقة وفيروزية كأكبر ما يكون من الفصوص، وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا، وقد كان تشعث وسطه، فسمعت أنه أنفق عليه خمسمائة دينار حتى عاد إلى ما كان.

"وعلى رأس القبة أترجة فوقها رمانة، كلتاهما ذهب ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع، كل شامة إلى أختها؛ ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صنعة.

"ويدخل إليه العامة من أربعة أبواب: باب البريد عن اليمين كبير، وهو مكون من ثلاث فتحات، غشيت مصاريعها بالنحاس المذهب. وعلى الباب وجانبيه ثلاثة أروقة كل باب منها يفتح إلى رواق طويل، قد عقدت قناطره على أعمدة رخام، وكسيت جدرانه بالرخام والفسيفساء.

"وجميع السقوف مزوقة أحسن تزويق، وفي هذه الأروقة موضع الوراقين ومجلس خليفة القاضي".

"وهذا الباب بين المغطى والصحن يقابله عن اليسار باب جيرون على ما ذكرنا، غير أن الأروقة معقودة بالعرض يصعد إليها في درج يجلس فيه المنجمون وأضرابهم".

"وباب الساعات في زاوية المغطى الشرقية عليه مصراعان ساذجان؛ وفوقه أروقة يجلس فيها الشرطيون وأشباههم".

"والباب الرابع باب الفراديس تجاه المحراب في أروقة بين زيادتين عن يمين وشمال، عليه

منارة محدثة مرصعة بالفسيفساء".

وبعد أن زار المسجد وأعجب به وأشبعه وصفاً قال لعمه: "يا عم، لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل".

قال: "لا؛ يا بني، إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة، قد بولغ في زخارفها، وانتشر ذكرها كالقيامة وبيعة لد والرها، فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن، وجعله إحدى عجائب الدنيا.

"ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظمة قبة القيامة وهيبتها خشى أن تعظم في قلوب المسلمين، فأقام على الصخرة قبة على ما ترى".

من هذا التصريح الحكيم وقفنا على سر نهوض الدولة الأموية بالعمارة في المنشآت المدنية والدينية، وأنه كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب الأخرى، وإقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرون على تكوين حضارة عمارية تضاهي حضارتهم، وأن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفاً حتى لا يتيهوا بها على المسلمين.

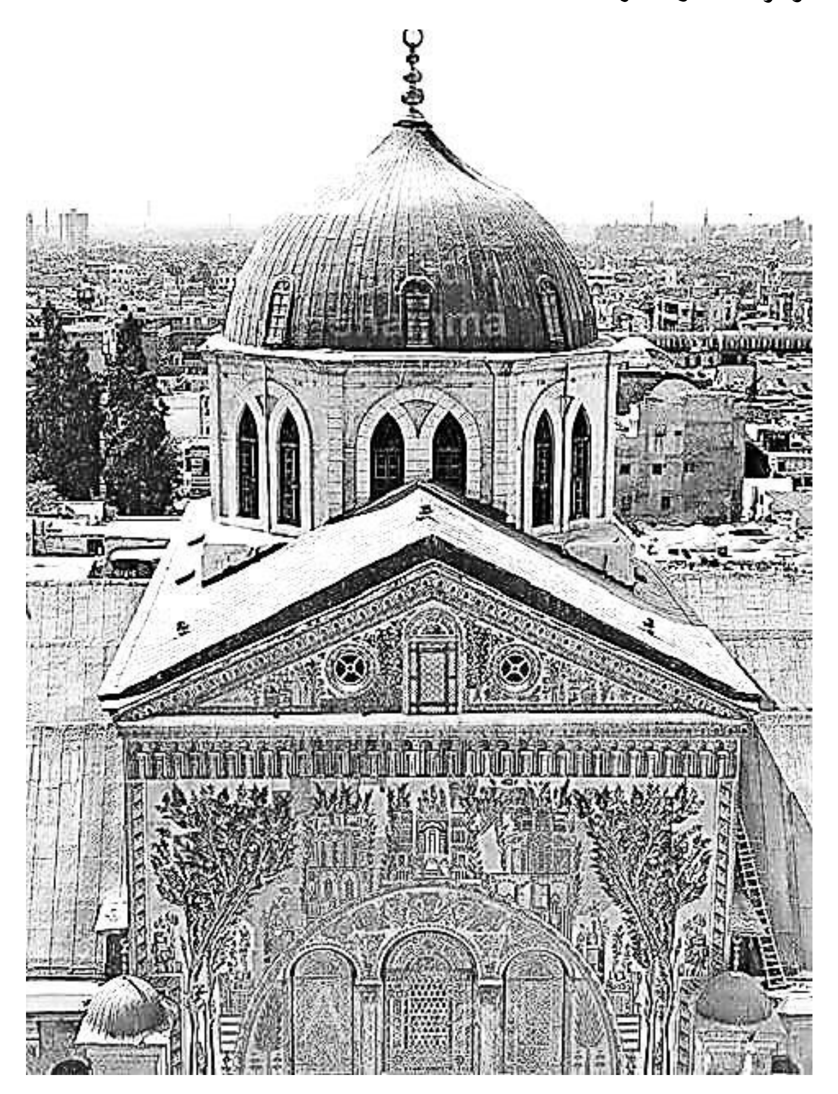
وقد تجلى هذا الهدف السامي في مراقبة الوليد للوافدين من الأجانب عند زيارتهم للمسجد الأموي ومعرفته رأيهم في المسجد دون علمهم وحينما نقلوا إليه آراءهم ودهشتهم وإعجابهم من فخامة بنائه ورخامه وفسيفسائه قال "لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على الكفار".

وحينما عرض عليه عمر بن عبد العزيز أن ينقل ما في محراب مسجد دمشق من ذهب كي لا يشغل المصلين، عرضه عليه في الوقت نفسه رأي زوار آخرين بأنهم حينما وقفوا تحت قبة المسجد، سأل كبيرهم: كم للإسلام؟ قالوا: مائة سنة؛ قال: فكيف تصغرون أمرهم؟

"ما بنى هذا البنيان إلا ملك عظيم؛" (قال: إذا غايظ العدو فدعه).

ويصفه الرحالة الجغرافي أبو بكر أحمد بن مُحَمَّد الهمذاني المعروف بابن الفقيه: بأن الإنسان لو بقى به مائة سنة لرأى فيه كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل! ثم وصفه: "بأنه مكسو بالرخام والفسيفساء، مسقف بالصاج، منقوش باللازورد والذهب، والمحراب مرصع

بالجواهر المثمنة والحجارة العجيبة".



منظر خارجي للقبة



ضريح يوحنا المعمدان (أو النبي يحيى) داخل قاعة الصلاة في المسجد



قبة الوضوء



من الداخل



المئذنة والقبة

ولما زار دمشق سنة ٤٣٢هـ ١٠٤٠م إبراهيم بن أبي الليث الكاتب، وزار الجامع قال: "وأفضيت إلى مسجدها، فشاهدت فيه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ولا الرائي أن يعرفه: وجملته أنه بكر الدهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة الزمان، وغريبة الأوقات، ولقد بقيت أمية به ذكراً يدرس، وخلفت أثراً لا يخفى ولا يدرس".

وظل الجامع على روعته وجماله، مفخرة لدمشق، بل للإسلام إلى أن أصابه الحريق الأول سنة ٤٦١هـ ١٠٦٨م في حرب الفاطميين مع العراقيين، فأحرقوا داراً مجاورة للجامع، فامتدت إليه النيران، فذهبت بمحاسنه، وتشوه منظره، واحترقت سقوفه وفسيفساؤه، وسقطت قبته.

ثم أصلح وأعيد إليه رونقه، ونقل إليه في سنة ٥٠٧هـ ١١١٣م طغتكين مصحفاً من طبرية يقال: إنه مصحف عثمان، ووضعه في مقصورة الخطابة.

ولما زاره الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠هـ ١١٨٤م أعجب به، ووصفه وصفاً هندسياً، وذكر مساحته، وأن بلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاطة منها ١٨ خطوة، والخطوة ذراع ونصف الذراع، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً: منها أربع وخمسون سارية. وثماني أرجل جصية تتخللها، واثنتان مرخمتان ملصقتان معها في الجدار الذي يلي الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالاً غريبة في البلاط الأوسط، نقل فيه الرصاص مع القبة التي تلي المحراب، سعة كل رجل منها ١٦ شبراً وطولها عشرون شبراً. وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة، وفي العرض ثلاث عشر خطوة؛ فيكون دور كل رجل منها ٧٢ شبراً.

ويستدير بالصحن بلاط من جهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية عدد قوائمه سبع وأربعون، منها ١٤ رجلاً (دعامة) من الجص، وباقيها سوار، فيكون الصحن عدا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع.".

ثم استطرد في وصف المسجد ووصف قباب المجاز الثلاث وعدد شبابيكه ومقصوراته، إلى أن قال: "وبالجامع المكرم عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس".... "وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً متصلة بطول الجدار، قد علتها قسى

جصية محرمة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها أجل منظر وأحسنه، والأروقة المحيطة بالصحن من ثلاث جهات على أعمدة، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله. ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها. وللجامع ثلاث صوامع، وفي الصحن ثلاث قباب: إحداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها، على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حسناً، وعليها قبة "مغشاة" بالرصاص يقال: إنها مخزن لمال الجامع.

"وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام على أربعة عمد صغار من الرخام تحتها فوارة للشرب.

والقبة الثالثة في الجانب الشرقي على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة..

وكان هذا الجامع ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة، مزخرفاً بأبدع زخارف، وقد أدركه الحريق مرتين فتهدم وجدد، وذهب أكثر رخامه، فاستحال رونقه.

وأسلم ما فيه اليوم قبلته مع ثلاث القباب المتصلة بها ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة، يتقد ذهباً كله. وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويرات مفتولات فتل الإسورة كأنها مخروطة لم ير شيء أجمل منها، وبعضها حجر كأنها مرجان؛ فشأن قبلة هذا الجامع المبارك على ما يتصل بها من قبابه الثلاث (بالمجاز) وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها، وانعكاسه إلى كل لون منها حتى ترمق الأبصار منه أشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي،– كله عظيم لا يلحق وصفه، ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه. والله يعمره بشهادة الإسلام بمنه.

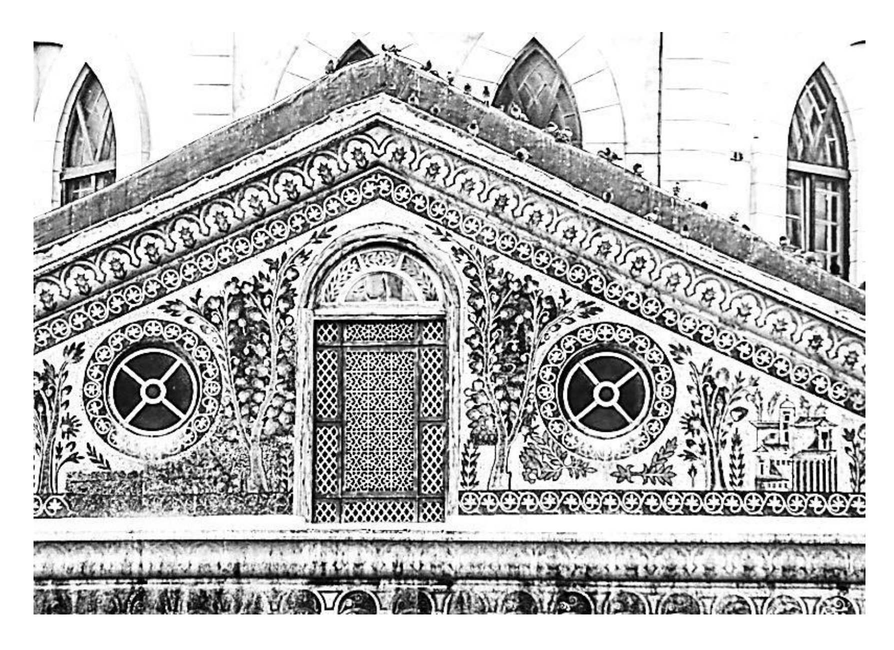
ثم استطرد في ذكر ملحقات الجامع ومشاهده، ومعالم دمشق، وعاد ثانية إلى وصف قبة النسر بالجامع، ووصف دخوله تحت القبة المكسوة بالرصاص، وطاف حول القبة تحتها، ووصفها بأنها غابة خشبية شدت بقوائم خشبية وأخرى حديدية، ثم وصف القبة الثانية بأنها كلها مذهبة بأبدع صنعة من الذهب مزخرفة التلوين بديعة المقرنصات، وقد شدت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخشب الضخم موثقة الأوساط بنطق الحديد".

واسترسل إلى الوصف حتى قال: "ويقال: إنه ما على ظهر المعمور أعجب منظراً ولا أبعد سمواً ولا أغرب تبياناً من هذه القبة إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس (قبة الصخرة)؛

فقد ذكر أنها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه".



الميضأة وخلفها يظهر باب من أبواب الجامع



زخارف وفسيفساء تعلو بوابات الدخول

إن ابن جبير وقد طاف العالم الإسلامي تأخذه روعة المسجد، فيسترسل إلى وصف تفاصيله وأجزائه، ويصف قبة النسر وصفاً فنياً ينطبق هو ووصف قبة الصخرة المشرفة، وهي أكبر أنها فوق الصخرة، وفيه النسر فوق سطح المجاز، غير أن وصفه لها ينطبق هو وما عليه قبة الصخرة. وقبة الصخرة تعطينا فكرة صادقة عما كانت عليه قبة النسر وعما كان عليه الجامع وقت أن زاره ابن جبير؛ لأنها من عجائب العمارة الإسلامية، ولا تقل روعة عما وصف به المؤرخون المسجد الأموي، ولا عجب فمنشئ الصخرة عبد الملك بن مروان والد الوليد، وامتاز ابن جبير على من زار المسجد بوصفه لساحة المسجد وصفاً دقيقاً فيصفها بقوله:

"وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان نحاس قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً: فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من نحاس من فمي "بازيين" مصورين من نحاس قائمين على طاسين من نحاس تحت كل واحد منهما. أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والآخر تحت آخرها، والطاسان مثقوبان، فعند وقوع البندقتين فيهما

تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازيين يمدان عنقيهما بالبندقتين إلى الطاسين، ويقذفان بهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً. وعند وقوع البندقتين في الطاسين يسمع لها دوي، وينغلق الباب، ولا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات، ثم تعود إلى حالها الأولى.

"ولها بالليل تدبير آخر: ذلك أن القوس المنعطفةعلى تلك الطيقان المذكورة اثنتا عشرة دائرة مخرمة، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة. مدبر ذلك كله فيها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة،

فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل، وتحمر الدوائر كلها. وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها، وهي التي يسميها الناس المنجانة".

وفي سنة ٥٩٥هـ – ١١٩٨م أزيلت الصناديق والخزائن الخاصة بالمجاورين من الجامع، ثم أعيدت. وفي سنة ٥٩٧هـ – ١٢٠٠م حدث زلزال كبير في مصر والشام وقعت بسببه قمة المنارة الشرقية بالجامع، وسقطت ١٦ شرفة، وتشققت قبة النسر، وسقطت.

وفي سنة ٦٤٦هـ – ١٢٤٨م احترقت المنارة الشرقية بالجامع. وكان للملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري عناية بالجامع، فأزال في سنة ٦٦٨هـ – ١٢٦٩م الصناديق والخزائن من الجامع، ومنع المجاورين من المبيت فيه، وأصلح وزرات المسجد والفسيفساء، وغسل العمد، وذهب تيجانها، وبنى مشهد زين العابدين بالمسجد، وصرف على تلك العمارة عشرة آلاف دينار.



رواق خارجي للجامع

ومن أظرف ما اتخذ لصيانة الجامع وتنزيهه مما يشوهه ما أمر به الملك العادل في سنة ٦١٦هـ بوضع سلاسل عند مداخل الطرق المؤدية إلى المسجد لمنع وصول الخيل إلى أبواب الجامع لصونه من النجاسات، ولعدم تضييق الطريق.

وكان للجامع محاريب خشبية متنقلة، استعيض عنها في عمارة سنة ٧١٨هـ ١٣١٨م بمحاريب ثابتة في الجدار القبلي.

وقد عنى بالجامع الملك الناصر مُحَّد بن قلاوون، فأمر بإصلاح الوزارات، وفي عصره أذن لناظر الجامع تقي الدين بن مراجل بجمع فصوص الفسيفساء المتفرقة في جدران الجامع وتركيبها في الجدار القبلي.

وعاين ابن فضل العمري المسجد في القرن الرابع عشر الميلادي، ووصفه بحسب مشاهدته له، وخير ما في وصفه ذكره للفسيفساء وصناعتها وما كان منها من فصوص زجاجية مذهبة، وما كان حديثاً منها متخذاً من معجون ملون، ثم علق على ذلك بان النوع المتخذ من المعجون عمل منه في عصره شيء كثير برسم الجامع الأموي فسد في حريق سنة ٧٤٠هـ ١٣٤٠م؛ لأنه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر؛ ثم

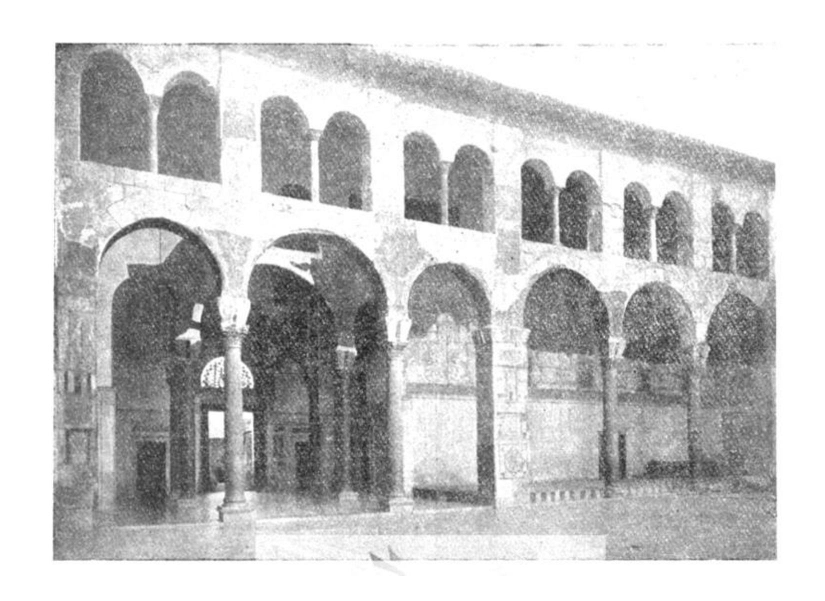
شرح الفرق بين القديم والجديد؛ لأن القديم قطعة متماسكة على مقدار واحد والجديد قطعة مختلفة؛ وبهذا يعرف الجديد من القديم؛ ثم وصف المسجد، وكان دون أوصافه السابقة لما طرأ عليه من تغيير؛ ووصل في وصفه إلى أن قال: ... وكل أروقته بالعمد والعضائد عليها طاقات القناطر المعقود بعضها على بعض، وأزرت جدران هذه الأروقة بالرخام الأبيض، والمجزع، والأحمر المنقط والأخضر المرشوش والأسود الغرابي". ثم وصف قبة النسر بأن أركانها مكسوة بالفسيفساء، وأن السقوف مموهة بالذهب واللازورد؛ ثم ذكر المشاهد التذكارية بأركان المسجد الأربعة بأسماء الخلفاء الراشدين.

وأشار إلى ساعة أخرى في باب الساعات وقال: إنها ساعة مائية يعلم بها كل ساعة تمضي، عليها عصافير من نحاس وحية وغراب من نحاس أيضاً؛ فإذا تمت الساعة خرجت الحية، وصفرت العصافير، وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطست.

ولأن الأسواق الصناعية والتجارية يحيط بالجامع كانت سبباً في حدوث الحرائق التي كانت تمتد إلى الجامع، فتحدث به تلفاً جزئياً، وأحياناً تلفاً شاملاً.

وقد سبقت الإشارة إلى حريقين قبل سنة ٥٨٠هـ – ١١٨٤م ، وفي سنة ٦٨١هـ– ١٢٨٢م، احترق سوق اللبادين وسوق جيرون، وامتد الحريق إلى جدار الجامع، وكوفحت النيران واحترق سوق الكتبيين، ثم احترق في سنة ٧٤٠هـ –١٣٤٠م، وبسببه أعيد بناء منارة عيسى. وهذا الحريق شمل الجامع وما حوله من أسواق، عقبه حريق آخر سنة ٧٥٣هـ – ١٣٥٣م.

وفي سنة ٧٩٤هـ – ١٣٩١م حدث حريق عظيم في دمشق احترق فيه كثير من النساء والرجال وأسواق الزجاجين والجلوديين والنحاسيين والوراقيين والصاغة واحترق فيه الجامع عدا "قبة زكريا".



جزء من الرواق الغربي بالصحن وبه تظهر الفسيفساء في خواصر العقود



العقود حول الصحن ومنارة المسجد

وفي محنة تيمورلنك في الشام سنة ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م احترقت دمشق، واحترق معها الجامع، فسقطت سقوفه من الحريق، وزالت أبوابه، وتساقط رخامه، ولم يبق غير جدرانه قائمة، وبالرغم من تخربه أقيمت فيه الجمعة في رجب سنة ٨٠٥هـ -١٤٠٢م.

وفي كل محنة من محن الجامع كانت توجه إليه عناية ولاة دمشق ونظار الجامع وغيرهم من أهل الخير، فيسارعون إلى إصلاحه. وفي سنة ١١٧٣هـ- ١٧٥٩م حدث زلزال شديد بدمشق، فتخربت قبة النسر والرواق الشمالي، وأعيد بناؤه.

ولما كانت سنة ١٣١٠هـ -١٨٩٣م حدث حريق كبير، فسرت النار إلى سقوف المسجد، فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات ودثر آخر ما بقى من آثاره وأثاثه.

وكما هي العادة فقد جمعت الأموال من إعانات وغيرها لإصلاح ما تلف منه، فأصلح القسم الشرقي منه في سنة ١٣١٧هـ، واستمرت العمارة فيه إلى أن تم إصلاح القسم الغربي من الإيوان القبلي وهو الموجود إلى الآن. وقد أدمج فيه الكثير من عمد الجامع القديم، وأدمج فيه بعض الدعائم وبعض التفاصيل القديمة من المجاز، وقد بلغت نفقات العمارة ستين ألف ليرة عثمانية من الذهب، عدا من تطوعوا بالعمل فيه بلا أجر.

وقد حرصت على إيراد أوصاف الجامع في حقبه المختلفة؛ لأنها هي المتبقية لنا، ولأن الأجزاء القديمة الباقية فيه تؤيد الكثير من تلك الأوصاف، وخاصة الأروقة حول الصحن، فنجد عقودها على ما وصفها به المؤرخون، ونجد بقايا الرخام المجزع في بعض الأبواب، كما نجد في بعض عقود الأبواب والعقود حول الصحن كسوة الفسيفساء بأشكالها الزخرفية وفي خواصر العقود أشجار الفسيفساء وبقايا الكسوة أعلى العقود. هذا عدا الشبابيك الرخامية المفرغة بأشكال هندسية.

وفي سنة ١٩٢٧ كشف الأستاذ دي لوريه عن قسم كبير من الفسيفساء كان محتجباً تحت الجص بجدران الجامع بلغت مساحته ٣٤,٥٠ × ٧,١٥ تمثل نهر بردي، وعلى ضفتيه أشجار ضخمة، والدور على جانبيه بسقوفها الجمالونية بألوان زاهية، وهي تؤيد ما وصفها به المؤرخون وتعطي فكرة عن جزء مما كان عليه الجامع من روعة إبان ازدهاره.

وقد أدرك المسجد قبل حريق سنة ١٨٩٣م مسيو فيني سبيرز، ورسم له منظراً بالألوان المائية يمثل الإيوان القبلي وقبة النسر بعد تجديدها، كما صور فوتوغرافياً بقايا

الشبابيك الجصية المفرغة أعلى مدخل المجاز وبعض العقود القديمة حول الصحن.

ومن الأجزاء القديمة الباقية في صحن الجامع قبة بيت المال، وهي بناء مستطيل مثمن قائم على ثمانية عمد رخامية لها تيجان يعلوها إفريز زخرفي، ولها في أحد أضلاعها باب، وتنتهي من أعلى بقبة مكسوة بالرصاص، وبأضلاعها بقايا فسيفساء مما كان يكسوها، هذه القبة خصصت لإيداع اليتامى فيها، شأن المساجد الجامعة في صدر الإسلام، ولها نموذج آخر باق إلى الآن في المسجد الجامع بحماة.

هذه القبة ينسبها بعض المؤرخين إلى الوليد، وبعض ينسبها إلى الفضل بن صالح بن علي سنة ١٧٢هـ ٧٨٨م ظلت هذه القبة مغلقة تحوطها الشكوك والأقاويل عما حوته بداخلها، إلى أن فتحت في سنة ١٨٩٩، وحضر افتتاحها الشيخ طاهر الجزائري، وكتب في مذكراته أنه وجد فيها جزء من القرآن مكتوب عليه أنه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة سنة أربعمائة وسبعين ونيف وأجزاء من مصاحف شتى كتبت بالخط الكوفي، وكانت أول ورقة خرجت مكتوباً عليها بالخط الكوفي قوله تعالى: "فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون".

ومن الآثار القديمة الباقية النصوص التاريخية المبعثرة في أنحائه، والمودعة بمتحف دمشق، ومناراته الثلاث المجددة، ومنها منارة السلطان قايتباي، وعليها اسم مهندسها سلوان بن علي.

هذا المسجد كعبة زوار دمشق، وحرمها الأقدس الذي عاصر دمشق، وقاسمها سراءها وضراءها، ومن على منبره أذيعت أوامر الدولة ومراسيمها، وفي حرمه جلس القضاة للحكم بكتاب الله، ومن أرجائه ومن تحت قبته "قبة النسر" انتشر العلم وذاع، وقرئ القرآن والبخاري في المدلهمات وللاستسقاء، فكان الله يفرج الكروب، وينزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته، وهو الولي الحميد.

بغداد وآثارها الإسلامية

بغداد (مدينة السلام) اسم حبيب إلى القلوب، إذا ذكرت تمثلت أمام سامعيه حضارة الإسلام في أزهى عصورها؛ ولا عجب فهي مدينة العلم كما هي مدينة الفن؛ فقد وصفت بأنها أم الدنيا وسيدة البلاد.

ويصفها اليعقوبي المؤرخ الجغرافي –وقد افتتح مؤلفه "البلدان" بالعراق– بأنها "وسط الدنيا وسرة الأرض" وذكر بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمي التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعةً وعمارة وكثرة مياه وصحة وهواء، يجري في حافتيها النهران العظيمان دجلة والفرات، فتأتيها التجارات والمؤن براً وبحراً بأيسر السعي؛ حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب؛ فإنه يحمل إليها بضائع الهند والسند والصين والتُّبَّت والترك والديلم والحبشة وسائر البلدان؛ حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما فيها".

ولم تكن بغداد مدينة في أيام الأكاسرة والأعاجم، بل كانت قرية صغيرة لم يكن بها إلا دير على موضع مصب الصراة إلى دجلة المعروف بقرن الصراة، وهو الدير الذي يسمى: "الدير العتيق".

ولما رغب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في إنشاء مدينته الجديدة عاين بغداد، ووقع اختياره عليها، وكان من مرغباته فيها أنها جزيرة بين دجلة والفرات، دجلة شرقها والفرات غربها، يرد إليها كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك، وكذلك يرد إليها في دجلة كل ما يحمل من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية، وما يحمل في الفرات من ديار مضر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب.

وما إن وقع اختياره عليها حتى أحضر مهندسي المساحة ومهندسي العمارة والبنائين وعهد إليهم بتخطيطها وبناء قصره ومسجده ومرافق الدولة. وبعد أن أعد المشروع طلب مشاهدته، فخططت المدينة بالرماد، وتنقل في أنحائها، فخططت المدينة بالرماد، وتنقل في أنحائها، واستعرض مشملاتها، ثم أمر أن تبنى طبقاً لذلك الرسم، وذلك في سنة ١٤٥هـ،

٧٦٢م، وجعلها مدورة، ووضع أول لبنة بيده وقال: "بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين"، ثم قال: "ابنوا على بركة الله".

وقد أشرف على هندستها وتخطيطها عبدالله بن محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير.

وكان من تعليمات "المنصور" أن يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربض (خطة) سوق جامعة، وأن يجعل في كل ربض من السكك النافذة وغير النافذة ما تعتدل به المنازل، وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه أو الرجل النبيه الذي ينزله أو أهل البلد الذي يسكنوه، وأمرهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً والدرب ست عشرة ذراعاً، وأن ينشئوا في جميع الأخطاط والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفى به.

وسميت بغداد بالزوراء أيضاً، لأن أبوابها الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية "وهو نوع من التحصين"، ثم بنى المنصور قصراً على دجلة مما يلي باب خراسان وسماه الخلد تشبيهاًبجنة الخلد لما حواه من العجائب.

ثم اهتم المنصور بتثبيت دعائم دولته، وتكملة بناء بغداد والعمل على اتساعها، وكان يهتم بالتنجيم، وهو أول خليفة قرب المنجمين، وعمل بأحكام النجوم، فترجمت له كتب في الكواكب وأحكامها وكتب الهندسة، وكذلك ترجمت له كتب الطب من اليونانية، ترجمها له الطبيب جورجيس بن بختيشوع.

وقد اتسعت بغداد في ظل الخلافة العباسية وأنشئت بها المساجد والقصور والربط، وازدهرت فيها العلوم والفنون؛ فقد كان بها العدد العديد من العلماء والحكماء والأدباء والشعراء الذين وفدوا إليها من كل فج سعياًللعلم وطلباً للصلات من خلفاء بني العباس وآل برمك.

وكانت زاهية زاهرة بمجالس العلم وأندية الأدب؛ فقد أنشأ الخليفة المأمون بن هارون الرشيد دار الحكمة، وألحق بها خزانة كتب قيمة جمع فيها كتب الطب وغيرها في مختلف العلوم.

ثم أخذ الخلفاء في تشييد القصور، واقتدى بهم وزراؤهم، فأقاموا قصوراً عرفت بأسماء منشئيها كقصور الرشيد والأمين، وقصور البرامكة في الشماسية، وقصر ابن الخصيب وقصر

أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد، وغير ذلك. وأخذت رغبتهم في بناء القصور تنمو كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا في الترف.

وكانت تلك القصور على جانب عظيم من فخامة البناء والزخرف البرّاق والفرُش الثمينة والجواهر النادرة، ولعل في وصف هذه الحفلة ما يجلو لنا صورة عما وصلت إليه هذه الدولة من أقصى مراتب الحضارة:ذلك أنه في خلافة المقتدر بالله جعفر (سنة ٣٠٥هـ، ٩١٧م) قدم رسول ملك الروم يطلب المهادنة والفداء، فأقيمت له الحفلات، وزينت بغداد، وأستعرض الجيش بملابسهالرسمية وأسلحته، وكان عدده ١٦٠ ألفاً ما بين فارس وراجل، هذا عدا الحرس الخاص والحجاب والخدم والخواص بملابسهم الرسمية.

ولما وصل إلى قصر الخليفة شاهد ما هاله من فخامة الستور المتخذة من الديباج المذهب والبسط وحدائق الحيوانات، ثم أخرج إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركة فيها ماء صافٍ، والشجرة ثمانية عشرة غصناً بكل غصن منها فروع كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر أغصان الشجرة فضية، وبعضها من ذهب، وهي تتمايل، ولها ورق مختلف الألوان، وكل طائر من هذه الطيور يغرد.

ثم أدخل إلى قصر الفردوس وكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى، ويطول شرح ما شاهده الرسول من العجائب إلى أن وصل إلى المقتدر وهو جالس على سرير أبنوس قد فرش بالديبقي المطرز، وعن يمين السرير تسعة عقود معلقة، وعن يسرته تسعة أخرى من أفخم الجواهر يعلو ضوئها على ضوء النهار، فلما وصل الرسول إلى الخليفة وقف عنده، وعلي بن مُحَمَّد بن الفرات قائم بين يديه، والترجمان واقف يخاطب ابن الفرات، وابن الفرات يخاطب الخليفة. ثم انصرف وطاف بأنحاء الدار، ثم استعرض الفيلة مزينة والزرافة والسباع والخيول مزينة بالديباج والوشي.

ولندع بذخ البرامكة وأعطياتهم فهي لا حصر لها؛ لنتكلم عن أفراح زواج المأمون بالسيدة خديجة المعروفة ببوران بنت الحسن بن سهل؛ فقد كانت تلك الحفلة في سنة ٢٠٩هـ، ٨٢٤م، وظلت مضرب الأمثال؛ إذا عنى بها الحسن بن سهل عناية تجاوزت حد التجميل والكثرة. ولما دخل المأمون بالعروس نثرت عليها جدتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون، كذلك نثر والدها على القواد وغيرهم بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء

جوار، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها،فيجد فيها على قدر حظه وسعده، فيمضي إلى الوكيل، فيقول له: ضيعة في كذا أو جارية اسمها كذا، ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك، وفرش للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب نثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال: قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول:

كأن صغري وكبري من فقاقعها حصباء در عـــلى أرض من الذهب.

ويحدثنا المقريزي أنه وجد في خزانة الطرائف بالقصور الفاطمية حصيرة من ذهب وزنها ١٨ رطلاً ذكر أنها الحصيرة التي جليت عليها بوران.

هذا قطرة من غيث من حضارة بغداد وأيامها الزاهرة، وهي التي ترتسم في الأذهان، وتلازم الزائر لهذا القطر الشقيق، ولكن عند زيارته لبغداد يتبدد من الحلم الجميل، ويجد نفسه في مدينة تتجدد، عفي على آثارها وحضارتها الزمن، ويعجبني قول الصديق مصطفى جواد مؤرخ العراق في ذلك:

"حدثنا التاريخ حتى أسهب عن عظمة بني العباس وقصورهم ودورهم وجوامعهم ومدارسهموربطهم ودور ضيافتهم وأسوارهم وأنهارهم، ولكن الزمان لم يبق إلا على قليل من تلك الآثار، فليس للرصافة أثر ولا لقصر المهدي وجامعه وقصور البرامكة من باقية، فأين ذهبت محلة الكرخ ومدينة التصوير المستديرة وقصر الخلد وقصر الذهب وجامع المدينة والقبة الزرقاء؟ أمست يباباًخراباً، وأين قصر الفردوس ودار التماثيل وقصر التاج وقصر المأمون؟ لقد عفت، فلا تعرف إلا أخبارها، إنها في ضمير التاريخ مثل بها على مسرح الأرضي، ثم نسخها الزمن".

زرت بغداد وبالرغم من علمي بحال آثارها الإسلامية وما طرأ عليها من محو وتجديد، فإن هذا الشعور كان يلازمني حتى جست خلالها، وتفقدت أطلالها، فتلاشت أحلامي، وأسفت على فقدان هذا التراث الذي لم يبق لنا منه إلا ذكرياته ننعم ونفتخر بها.

بغداد اليوم يشقها شارع الرشيد محاذياً لنهر دجلة، وهو أهم شوارعها، وسوقها التجارية. ومن شوارعها الهامة شارع "أبو نواس"، وبه مجموعة من المقاهي على شاطئ دجلة ومطاعم السمك (المسقوف) على حافة النهر.

على أن أحياءها الجديدة في ضواحيها البعيدة تشعر بالحياة وتقدم العمران، كأحياء الكرادة والوزيرية وبغداد الجديدة.

وقد انتشرت في أحياء بغداد القديمة وعلى حافتي دجلة المنارات والقباب بألوانها الخضر والفيروزية؛ فقد

كسيت بالقاشاني الملون بأشكال زخرفية وكتابات كوفيةمتأثرة بالعمارة الفارسية، وهي قباب ومنارات لا ترجع إلى العصر العباسي، بل ترجع إلى القرون المتأخرة كالثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

وكما عُرف كل قطر ما يجلب منه من طرائف وسلع، عرف العراق بأهم عمائره التي أصبحت من أبرز خصائصه دلالة عليه.

ومن خصائص العراق المنارات الملوية ذات السلم الخارجي وزخارف الجص في قصور سامراً (سر من رأى) وقصر الأخيضر في البادية والعتبات الشريفة الكاظمية في بغداد والإمام العسكري بسر من رأي والإمام الحسين بكربلاء والإمام على بالنجف، وزخارف الآجر (الطابوق) في مساجد بغداد ومدارسها: في المدرسة المستنصرية وفي القصر العباسي ومسجد مرجان، والمنارة الحدباء بالموصل، والقباب المخروطية المعروفة بالميل في بغداد من أظهر مميزاتها.

على أن المخالفات المعمارية الباقية توحي بما كان للعمائر المندرسة من روعة وتفاصيل معمارية كان لها السبق على عمائرنا بمصر وكان لها تأثير عليها. وترى هذا في الزخارف الجصية والخشبية للجامع الطولوني؛ فقد نقل إليه مهندسه العراق أساليب الزخارف والعمارة من مدينة سامرّا، كما تأثرت منارته ذات السلم الخارجي إلى حد كبير بمنارة سامرًا.

وكذلك فقد سبق العراق مصر في تطعيم الرخام بألوانه بين زخرفة وكتابة؛ فقد انتشر في منشئات الموصل منذ القرن الثالث عشر الميلادي على حين ظهر بمصر في القرن الرابع عشر في نماذج قليلة، وفي الوقت الذي ازدهرت فيه صناعة الجص في مصر؛ فإنها عوضت بازدهار منفرد في زخارف الآجر. الذي انفردت به العراق منذ العصر البابلي.

وقد ازدهرت صناعة النحاس المكفت بالذهب والفضة في الموصل وخاصة في عصر الدولة الأتابكية، وانتشر صناعه في الأقطار الإسلامية، كما انتشرت طرفه في متاحف العالم

موقعة بأسماء صانعيها النوابغ،

أذكر منهم أحمد بن بارة الموصلي صانع صندوق الربعة الشريفة المكفت باسم الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وهو مودع بمكتبة الأزهر، ومنهم إبراهيم ابن مولود في أول القرن الثالث عشر، وبن مولود الموصلي سنة٦١٦هـ (١٢١٩م)، ومن إنتاجه علبة في متحف أثينا، وقاسم ابن علي تلميذإبراهيم بن مولود الموصلي سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) ومن إنتاجه إناء في متحف نيويورك مصنوع لشهاب الدين كاتب الملك العزيز، وأحمد بن عمر الذكي الموصلي، ومن آثاره إناء في باريس سنة ٦٢٠هـ، (١٢٢٣م)، وإناء في متحف متروبوليتان سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م)، وإبريق للملك العادل "أبو بكر" الأيوبي في متحف اللوفر بين سنتي ١٣٢٨، ١٢٤٠م.

وعبد الكريم بن الري الموصلي، ومن إنتاجه إناءمؤرخ بسنة ٦٢٧هـ، (١٢٢٩م)، في متحف الآستانة.

وشجاع بن منعة الموصلي بالموصل، ومن إنتاجهإناء مؤرخ بسنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) في المتحف البريطاني.

ومحمد بن فتوح، الموصلي تلميذ شجاع الموصلي ومنصناعته شمعدان بمصر متحف الفن الإسلامي.

وداود بن سلامة الموصلي، ومن صناعته شمعدان أثيناعليه نقوش موصلية سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) في متحف الفنون الزخرفية بباريس، وإناء للأمير بدر الدين بن البيساري سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م).

ومحمد بن هتلة الموصلي، وله خريطة فلكية سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) في المتحف البريطاني.

ومحمد بن عبصون، ومن آثاره إبريق للسلطان لؤلؤ بين سنتي ١٢٣٣ ١٢٥٩م في المجموعة الوطنية "ميونيخ".

وعلي بن حمود الموصلي، ومن آثاره إناء سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦م) في المتحف الوطني في فلورنسا، وإناء مؤرخ سنة ٦٧٣هـ للأمير أتمش في متحف كلستان بطهران، وإبريق في

التاريخ نفسه وفي المتحف نفسه.

وحسين بن محمَّد الموصلي في دمشق، ومن آثاره إناء للملك ناصر يوسف الأيوبي سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) في متحف اللوفر.

وعلي بن حسين بن محمَّد الموصلي في القاهرة، ومن آثاره إناء منقوش عليه اسم السلطان مظفر يوسف اليماني سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) في متحف الفنون الزخرفية بباريس، وشمعدان مؤرخ سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) في متحف الفن الإسلامي.

وعلي بن حسين بن سورهاك الموصلي في القاهرة، ومن آثاره شمعدان مؤرخ سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) في المجموعة المصرية.

ومحمَّد بن حسين الموصلي، في القاهرة، ومن آثاره شمعدان مؤرخ سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م).

وحسين بن أحمد بن حسين الموصلي، ومن آثاره لوحة للسلطان مؤيد الدين اليماني في متحف متروبوليتان بين سنتي ١٢٩٧، ١٣٣١م.

ومحمَّد بن هلال الموصلي بالموصل: كرة أرضية مؤرخة سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) في المتحف البريطاني.

وعلي بن عمر بن إبراهيم الموصلي، ومن إنتاجه شمعدان مؤرخ سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) في متحف أثينا.

وعلي بن عبد الله العلوي له إناء وإبريق في المتحف الوطني ببرلين.

وقرأت على الباب النحاسي لقبة بدر الدين لؤلؤ بالموصل اسم صانعه عمر بن الحصر ولي آل محمَّد الملكي البدري سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م).

كانت بغداد حافلة بأكبر مجموعة من المساجد والمدارس التي ساهمت في ثقافة العراق، ومنها تخرج صفوة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرحالة، وكان لهم القدح المعلى في ميادين العلم في مختلف العصور.وهي الآن تسعد بنخبة من علية العلماء والمؤرخين والآثاريين أمد الله في حياتهم النافعة.غير أن عوادي الزمن والمحن التي مرت ببغداد قضيت على أسوارها وعلى جميع آثارها اللهم إلا النزر اليسير، فأعيد بناؤها أو تجديدها في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.



المدرسة المستنصرية في بغداد

جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان

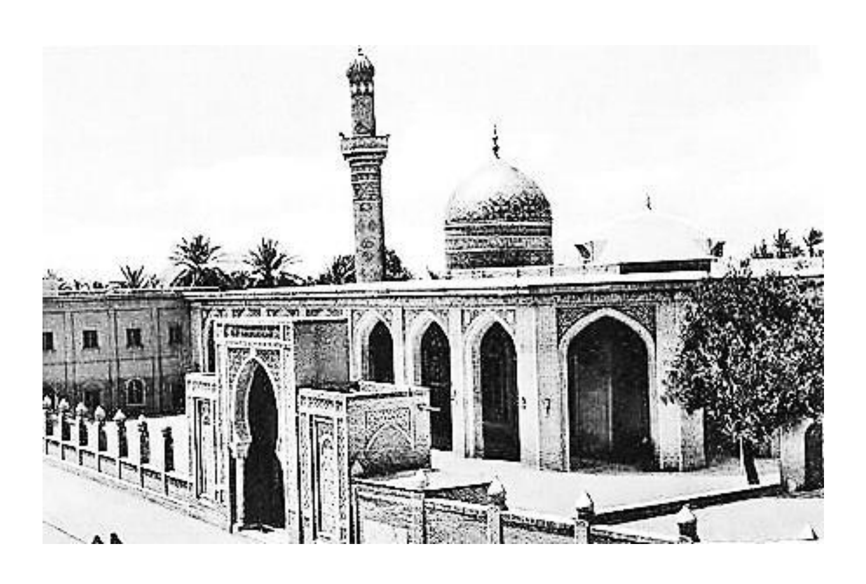
من بين الآثار اليت جددت على مر العصور واحتفظت بشهرتها بالنسبة لمن دفن فيها جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان؛ فإنه لما مات سنة ١٥٠هـ، (٧٦٧م) دفن في مقبرة الخيزران، وكانت بمثابة مقبرة للعظماء دفن فيها مُحَّد بن إسحق الطبري وغيره. وقد عنى بها شرف الملك أبو سعد مُحَّد بن منصور الخوارزمي، فأنشأ على مقبرة الإمام الأعظم قبة، وبنى بجوارها مدرسة كبيرة للحنفية، وذلك في سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م)، ثم توالت عليه العناية

بالإصلاح والتجديد إلى أن جدد إنشاءه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م).

ثم اعتدى عليه، فجدده السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ، ١٦٣٨م. وفي سنة ١٠٩٢هـ، ١٦٨١م بنى عمر باشا القبة العظيمة والمنارة الجميلة بأمر السلطان أبي الفتح مُحَمَّد العثماني.

وفي سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٢م) ذهبت منارة التربة الوزير سليمان باشا الكبير والي بغداد، وكان الذي تولى تذهيبها مرزا ربيع وهو معمار فارسي ، ثم جددا المرقد وما حوله دون القبة والمنارة سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م).

وكان للإمام أحمد بن حنبل في بغداد مسجد ومشهد يزار، ولما طغى نهر دجلة في سنة ١٩١٣ جرف المسجد والمشهد وما حولهما فاندثر القبر.



جامع الإمام أبي حنيفة النعمان

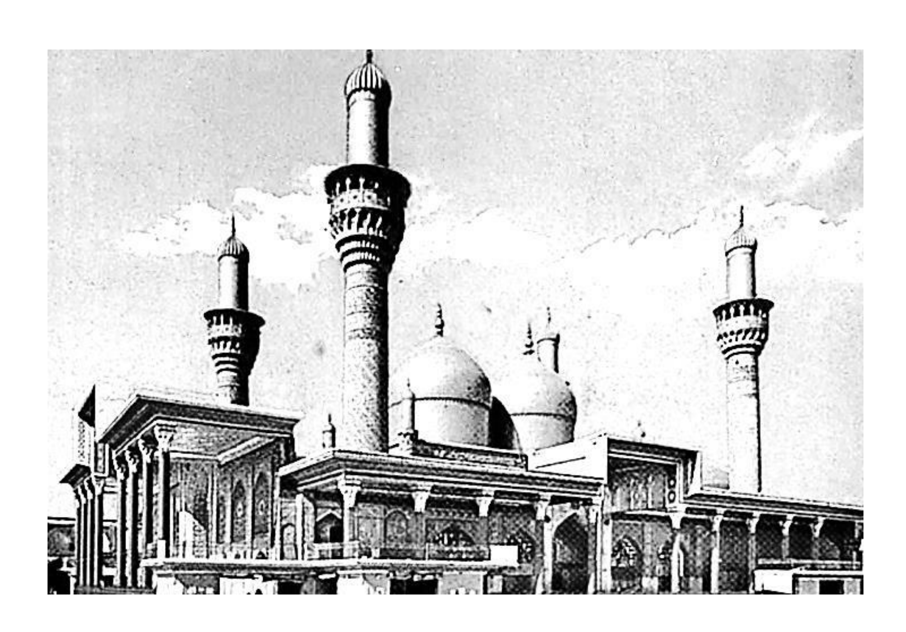
جامع الكاظمية (مشهد الإمام موسى الكاظم)

هذ الجامع من أشهر مساجد بغداد عني به الشيعة أكبر عناية، فزخرفوه بأبدع النقوش، وفيه قبر الإمام موسى الكاظم والإمام مُحَمَّد الجواد، وعليهما قبة عظيمة غشى

سطحها بالذهب، وترى الشيعة يطوفون حولها طواف الحجيج بالكعبة.، ولهم مواسم للزيارة يجتمع منهم هناك الألوف المؤلفة، ويحضرون لها من بلاد شاسعة.

كانت هذه المقبرة تسمى مقابر قريش، فلما توفى موسى الكاظم دفن خارج القبة "قبة" جعفر بن أبي جعفر المنصور، وذلك لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة من الهجرة، ثم وسع المحل بموت الأمين مُحَمَّد بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر، وبنى على قبري الإمامين موسى الكاظم ومُحَمَّد الجواد مشهد علقت فيه قناديل الذهب والفضة والستور الحريرية.

ولما استولى الشاه إسماعيل الصفوي على العراق سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م) أعاد بناء المشهد والقبة سنة ٩٢٦هـ (١٥١٥م)، على وضع جميل غشى جدرانه بالذهب الخالص داخلاً وخارجاً، وكذلك عنى به السلطان سليمان القانوني، فأتم عمارته إسماعيل الصفوي، وأنشأ حول المشهد جامعاً.



مشهد الإمام موسى الكاظم في الكاظمية ببغداد

ثم استأذن من الحكومة العمانية فرهاد مرزا أحد كبار الفرس أن يجدد سور الجامع والمشهد، وأن ينشئ بعض العمارات، فأذنت له؛ فبني السور كله بالقاشاني الملون، وفرشت

الساحة بالمرمر، وكتب لوحة تذكارية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، قد وقع الفراغ من هذا الصحن بأمر من قصد بعمله وجه المنان وبلوغ غرفات الجنان الجناب المستطاب الأشرف الأمجد معتمد الدولة فرهاد مرزا ادامه الله تعالى وأعز إجلاله وإقباله بجاه محمد، وآله الطاهرين سنة ثمان وتسعين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية المقدسة على صاحبها آلاف التحية والثناء".

وقد اتصل بالجامع والصحن، جامع الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة، وعليه قبة كبيرة. وكان أبو يوسف على جانب عظيم من التقوى، ولى قضاء القضاة في بغداد على عهد هارون الرشيد، وتوفي سنة ١٨٢هـ (٧٩٨م).

ومشهد الكاظمية من أعظم مشاهد آل البيت فيبغداد ومن أنفسها، وقبتاه ومناراته المذهبة هي أول ما يظهر من بغداد للوافدين عليها من الشمال أو من الغرب.

والمشهد غني بشتى أنواع الزخرف، فقد أزرت جدرانه وأسواره وعقوده بالقاشاني الفارسي المتعدد الألوان، وحليت عقوده ومقرنصاته بالبلور والمرايا البراقة، كما غشيت أبوابه بالفضة، وطعت توابيته بالسن، وغشيت التوابيت بالفضة، وهو مثال لما عليه العتبات الشريفة بالعراق.

جامع عبد القادر الجيلي"الجيلاني"

هذا المسجد في محلة باب الشيخ المنسوبة إليه والمعروفة في التاريخ بمحلة باب الأزج، وهي اليوم في شرقي الرصافة من بغداد، كان في الأصل مدرسة أنشأها للحنابلة أبو سعيد المبارك الفقيه الحنبلي المتوفي سنة ٥١٣هـ (١١١٩م) ثم جددها ووسعها الشيخ عبد القادر المذكور المتوفي سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م)، وهو مدفون فيها.

وكانت تعلو قبره قبة من النوع المعروف بالميل على مثال قبة السهروردى وتعرف عند العراقيين بالمؤللة، وقد هدمها السلطان سليمان، وبنى قبة شاهقة سنة ٩٤١م (١٥٣٤م). وفي سنة ٩٩٥هـ (١٥٨٦م) أنشا سليمان باشا مسجداً بجوار القبة لم يتمه، فأتمه والى بغداد علي باشا ثم أضيفت له زيادات في سنة ١٠٨٤هـ (١٦٧٣م).

وقبة هذا المشهد من القباب الكبيرة، وكذلك منارته الضخمة مكتوب عليها: إنها بنيت سنة ٩٤١هـ (١٥٤٣م) وهذا الجامع من أعلام بغداد مقصود بالزيارة.

هذه هي المشاهد المشهورة في بغداد والمقصودة بالزيارة، وما عداها من مساجد منتشرة في المدينة وعلى جانبي دجلة، جدد غالبها: مثل جامع الإحسائي أو تكية الخالدية المطلة على دجلة، فإنه أنشئ سنة ١٢٣١هـ (١٨١٥م) ثم جدد في سنة ١٣٢٠هـ، (١٠٩٢م)، وجامع الأصفية المطل على دجلة كان من المساجد القديمة ثم تجدد.

وجامع الحيدر خانة من المساجد الكبيرة يبدو بقبابه ومنارته المكسوة بالقاشاني، فإن عمارته ترجع إلى سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) ومنشئه داود باشا والي بغداد، وجامع الخاصكي، وكان من المساجد القديمة نقل محرابه النادر إلى متحف الآثار العراقي، وجدد الجامع في سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م)،وجامع العادلية الكبير وقد أنشأته عادلةخاتون بنت أحمد باشا سنة ١١٦٨هـ، ١٧٥٤م،وجامع العادلية الأصغر وقد أنشأته السيدة المذكورة؛ فإنه تجدد سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)؛ وجامع الميدان وقد أنشأه أحمد باشا كتخدا في سنة ١٢١١هـ، (١٧٩٦م).

وهكذا أكثر مساجد بغداد مجددة، وقد اتفق غالبها طرزاً، وخاصة القبة والمنارة وكسوتها بالقاشاني، كما يبدو في الصور المأخوذة كنماذج منها.



مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني

وبالرغم من تجديد مساجد بغداد، أبقى الدهر على بقايا أثرية هامة تتمثل فيها طرز

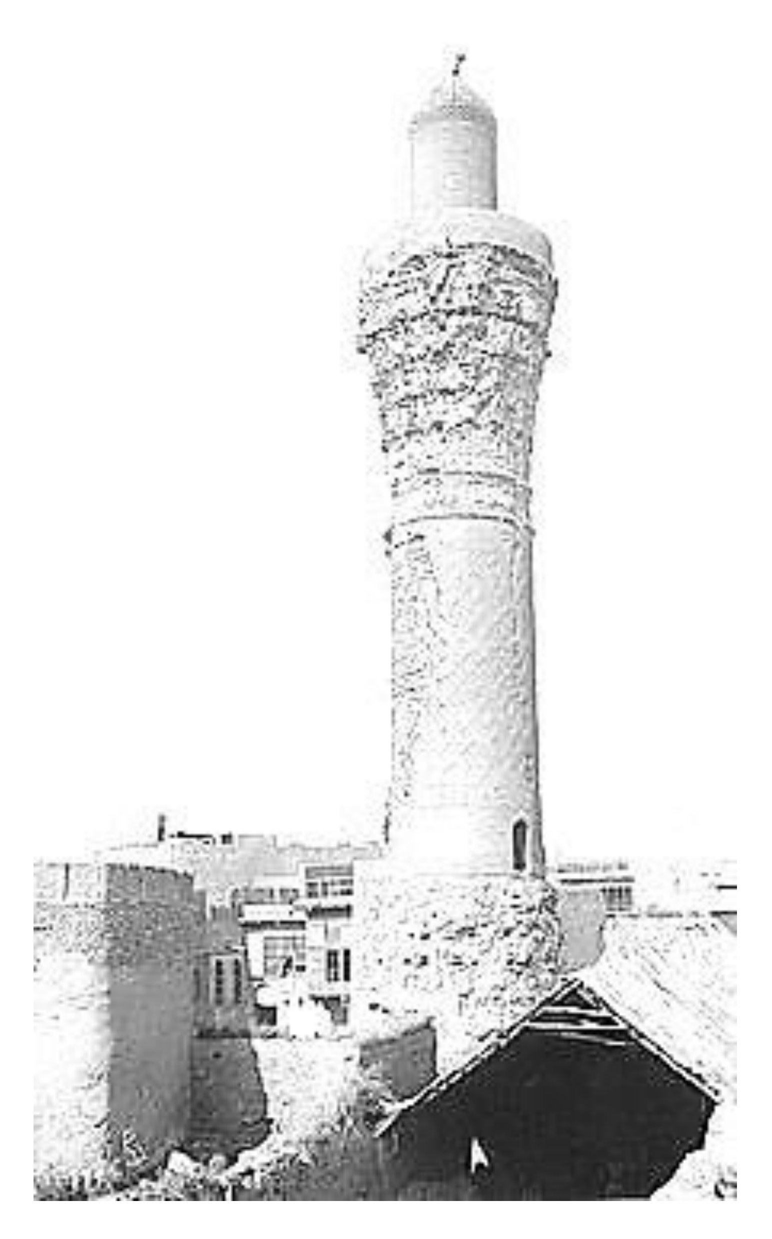
العراق المعمارية

وفنونها الزخرفية ممثلة في الآثار الآتية:

منارة مسجد سوق الغزل

تعرف هذه المنارة بمنارة القصر الذي أسسه الخليفة المكتفي بالله العباسي من سنة ٢٨٩–٢٩٥هـ (٩٠١–٩٠٧م)، وقد أعيد بناؤها في سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) وقامت دائرة الآثار بدعم قاعدتها والتحفظ على بعض زخارفها في الآجر، وهي منارة اسطوانية حلى بدنها بزخارف متعرجة بالآجر تنتهيبحزام به بقايا كتابة تعلوه مقرنصات دورتها، وتنتهي بخودة منقوشة، لا شك في أنها حلت محل خودة مضلعة، وهي مثال لمنارات بغداد الجديدة، وأرى أنها لا تستحق الإطناب اللي أضفاه عليها الزملاء آثاري و العراق.

ولهذه المنارة سلم مزدوج لا يرى الصاعد فيه النازل، وهي ميزة وجدت في بعض مآذن بغداد والموصل سبقتها فيها مئذنة مسجد قرطبة، ووجدت في ثلاثة مآذن بمساجد القاهرة: قوصون بالقرافة الشرقية، وأزبك اليوسفي، والغوري بالأزهر.



منارة مسجد سوق الغزل

وقد أقيم على جزء من أرض المسجد القديم مسجد حديث عرف بجامع سوق الغزل بتواشيح عقد مدخله زخارف في الآجر محدودة بأشرطة من القاشاني.

قبة السيدة زمرد خاتون المعروفة بالسيدة زبيدة نوع ظريف من القباب المخروطة التي امتازت بها بغداد، وتعرف بالمؤللة وبالميل، أمرت بإنشائها السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بالله قبل سنة ٥٥٩هـ (١٢٠٢م)، وقد امتازت بغداد بهذا النوع من القباب وكان شائعاً فيها، وليس بصحيح نسبتها إلى السيدة زبيدة؛ لأنها مدفونة بمقابر قريش "الكاظمية الحالية".

قبة الشيخ عمر السهروردي

قبة مخروطة شاهقة على طراز قبة زمرد خاتون، وتعرف بالميل ويسميها العامة المفتول، وهي أعلى من قبة زمرد خاتون، دفن فيها الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي العالم الصوفي المشهور المتوفي سنة ٦٣٢هـ (١٢٢٥م)، وعلى القبة لوحة تاريخية نصها:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[سورة يونس: آية: (٦٢)]، جدد هذه العمارة المباركة لضريح شهاب الدين عمر بن مُحَمَّد في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة".

وهي قبة قاعدتها مربعة تعلوها طاقات مخلق بها عمد رشيقة، فطراز مكتوب بالبوية ثم مقرنص من ثلاث حطات، ويغطى القبة الداخلية الشربوش الخارجي.

ويعلو باب القبة زخارف جميلة بالآجر محوطة بأفاريز في القاشاني لا تظهر للرائي إلا من السطح، فقد حجبها سقف المسجد الملحق بها المجدد سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) كما أنشئت منارته والباب الخارجي سنة ١٣٥٤هـ.



قبة الشيخ السهروردي

المدرسة المستنصرية

تقوم بقايا تلك المدرسة على الضفة الشرقية لدجلة، وهي منسوبة إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي الأول، فقد أنشأها سنة ٦٣١هـ (١٢٢٣م)، وجعلها وقفاً على دراسة المذاهب الأربعة، وكان بها ٢٤٠ تلميذاً: سبعون شافعيون، وسبعون حنفيون، وخمسون مالكيون، وخمسون حنبليون؛ كما خصصت بها دروس بها دروس للطب.

وكان لها ساعة مائية أقيمت في إيوان بنى أمامها سنة ٦٣٣هـ (١٢٢٥م) بنيت تحته صفة كان يجلس فيها الطبيب لدراسة الطب ومداواة المرضى، وبنيت في جدار هذه الصفة دائرة صورت فيها صورة الفلك،

وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة، وفي الدائرة بازيان من ذهب واقفان في طاستين من ذهب، بندقيتان من شبه[١] لايدركهما الناظر، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازيين وتقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات، والباب من ذهب فيصير داخله مفضضاً، وإذا البندقتان في الطاستين ذهبتا إلى مواضعهما. ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها وتغيب مع غروبها. فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من

ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس.

بقيت المدرسة عامرة إلى القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي)، ثم تطورت بها الأحوال إلى أن جعلت جمركاً فأصابها من التخريب والتغيير ما أفقدها الكثير من تفاصيلها حتى عنيت بها مديرية الآثار، فأصلحها وأعادت إليها كثيراً من بهجتها،وما زالت تعمل في إصلاحها، ولديها مجموعة هامة من زخارفها في الطابوق محتفظة بها حتى تردها إلى مواضعها، فتعيد إليها رونقها وبهاءها.

وما زالت المدرسة محتفظة بقسم كبير من كتابتها القديمة في الطابوق بواجهتها، كما هي محتفظة ببعض

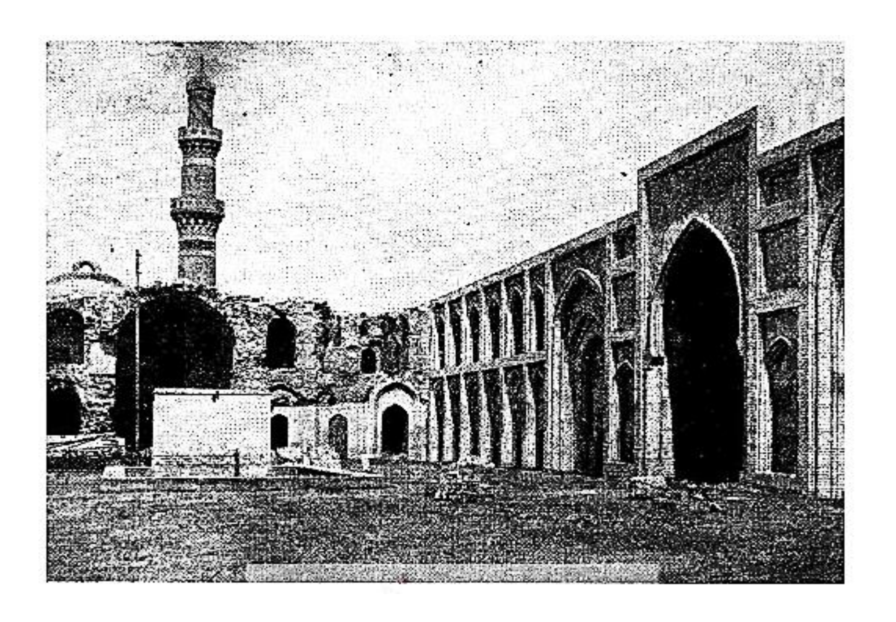
إيواناتها والخلاوي حول الصحن وما يعلوها من زخارف، واحتفظت كذلك بالحجرات على جانب الممر الشرقي، وهي حجرات ما بين صغيرة وكبيرة، حليت عقودها بزخارف الطابوق.

---

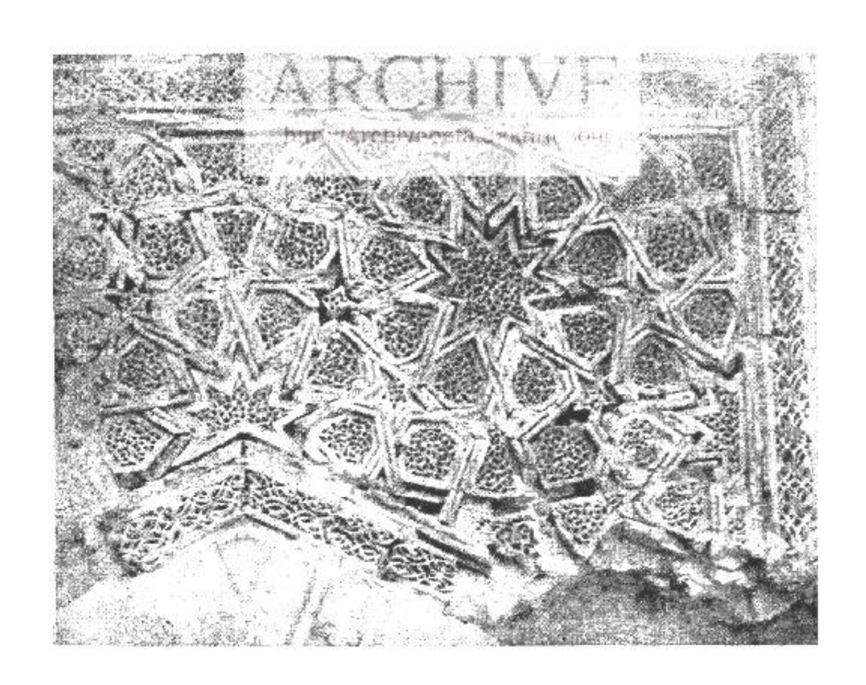
[١]الشبه (بفتح الشين والباء وبكسر الشين وسكون الباء): النحاس الأصفر



المدرسة المستنصرية (لقطة حديثة)



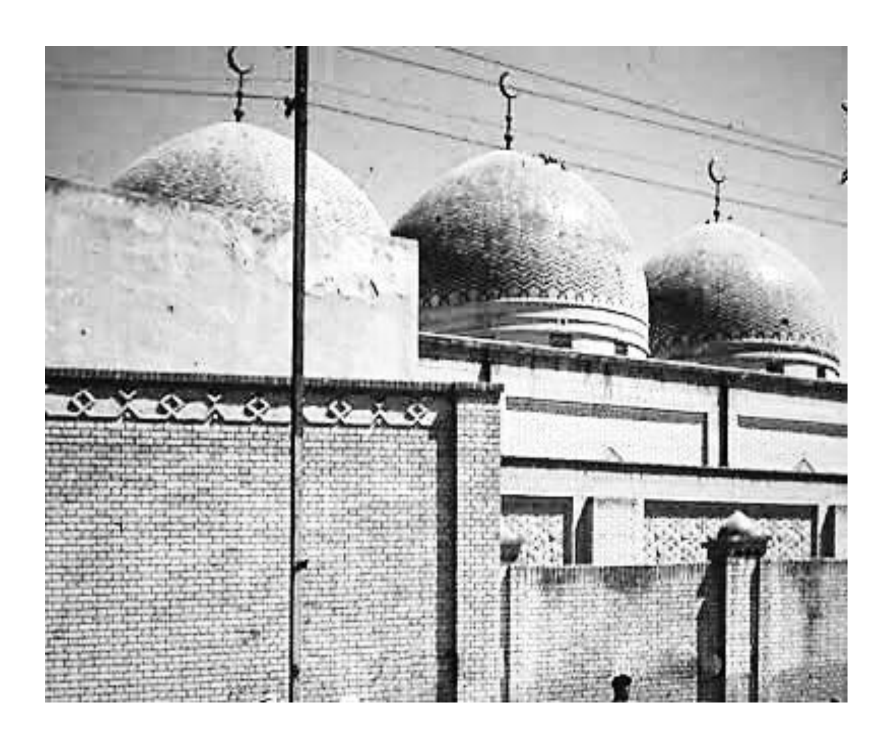
داخل المدرسة المستنصرية وفي طرف الصورة منارة الآصفية



زخارف الطابوق (الآجر) المنقوش في المدرسة المستنصرية

المدرسة المرجانية

هذه المدرسة بشارع الرشيد، أنشأها أمين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن حاكم بغداد سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٨م)، وكتب على جدرانها وقفية الأعيان التي وقفتها عليها بخط جميل على أرضية مزخرفة من الطابوق، كتبها الخطاط المشهور أحمد شاه النقاش التبريزي. وعنده توسعة شارع الرشيد هدم قسم منها، وما زالت تحتفظ بتفاصيل هامة من كتاباتها وزخارفها وزخارف العمود الحلزوني في واجهتها على الشارع.



المدرسة المرجانية

الخانات والقصور

خان مرجان

أنشأه أمين الدين مرجان بن عبد الله منشئ المدرسة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩م)، ووقفه على المدرسة وعلى دار الشفاء بباب الغربة. وسطر على مدخله كتابة في الآجر تضمنت تاريخ الإنشاء والأعيان التي وقفها، وانتهت الكتابة باسم الخطاط أحمد شاه النقاش، وهو من النوع المعروف بالتيم أي خان التجار في اصطلاح الخراسانيين.



خان المرجان – بغداد

ويعرف الخان أيضاً بخان الأرتمة بمعني (الخان المسقوف)، ويتألف من طبقتين: الأولى منهما تشتمل على اثنتين وعشرين غرفة، والأخرى على ثلاث وعشرين غرفة، وتفتح أبواب الطبقة الأرضية على بهو كبير مستطيل. ويتوصل إلى الطبقة الأخرى بممر يعبر أمام حجراته الصغيرة المعقودة بارتفاع ستة أمتار، تعلو ذلك عقود كبيرة تحمل عقداً كبيراً ينفذ الضوء من خلال العقود الحاملة له، وهو من أروع الخانات الباقية في بغداد، عنيت به دائرة الآثار، فاستولت عليه من الأوقاف وأصلحته في سنة ١٩٣٦م، وخصصته متحفاً للآثار العربية.

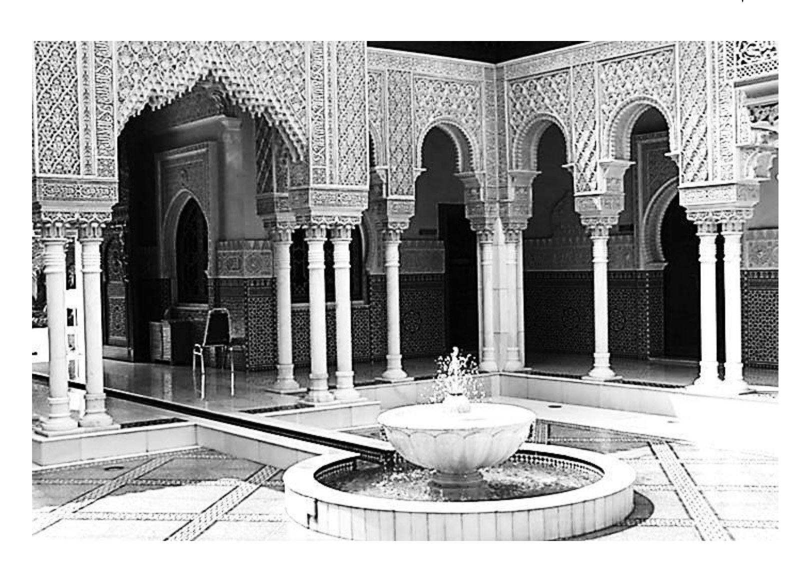
وأهم ما حواه هذا المتحف كتابات على الطابوق من المدرسة المستنصرية، وزخارف

جميلة متنوعة من أنقاض حفريات مدينة سامرَّا، وفيها قطع تشتمل على صور بشرية وحيوانات وطيور وكتابات كوفية وزخارف من العصر العباسي وأوان فخارية وزجاجية من حفريات سامرَّا، ومجموعة من المسكوكات الإسلامية، وتابوت خشبي باسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)،عليه زخارف وكتابات كوفية أمر بعمله لمشهد موسى الكاظم، هذا عدا الأبواب الخشبية والمنابر المنقولة من الموصل وغيرها.

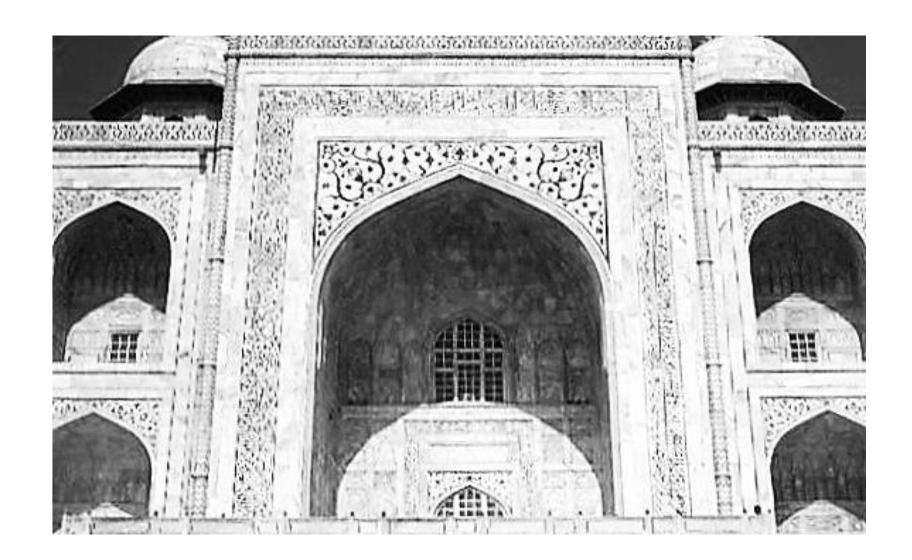
وما زال هذا المتحف ينتظر الكثير من المعروضات ستظهر قيمتها عندما ينتهي بناء المتحف الجديد، ويجمع شتات المعروضات الإسلامية في قسم بجانب الآثار العراقية القديمة والسومرية والبابلية وغيرها مما يزخر بها المتحف العراقي.

دار المسناة (القصر العباسي)

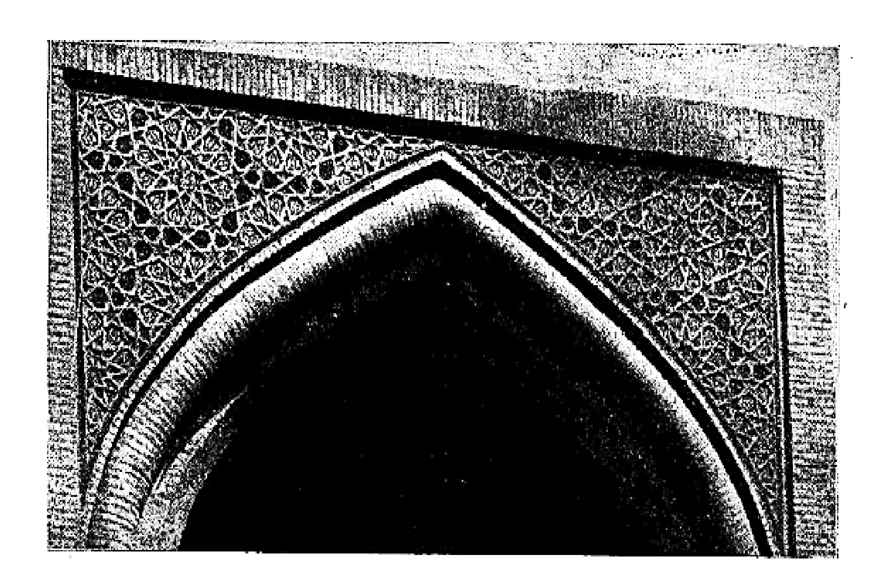
من أروع القصور الباقية في بغداد، بل هو القصر الوحيد الباقي المحتفظ ببعض تفاصيله. ويعتز الأستاذ المؤرخ مصطفى جواد بأنه أول من حقق آن منشئه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله من سنة ٥٧٥-٦٢٢هـ، (١١٧٩-١٢٢٥م)؛ ولذلك نراه يتغزل فيه إذ يقول: "لم يبق من الدار إلا إيوانها وبعض حجراتها ومخادعها.



داخل القصر العباسي (دار المسناة)



عقد الايوان بالقصر العباسي



زخارف الطابوق بتواشيح عقد الإيوان بالقصر العباسي

ولئن دخلت هذا الإيوان لتجدن روح البناء وفتنة النظر ومدعاة العجب. وإن كان الفن البنائي الإسلامي غاية فهي في هذا القصر، وإن كانت الأرواح تفرغ في الفن فلقد أفرغ بناؤه روحه فيه: زخرفة عجيبة، وتزويق جميل. ولو أمكن أن يكون العلو سفلا لألفيت

الإيوان وأعالي الأبواب وسقوف الحجرات رياضاً وحدائق مختلفة:أزهارها، متباينة ألوانها، فكأنها آمال الشباب وزينة العرائس ونزهة المتنزه، ورسوم الأشواق وألوان السعادة".

وهو على حق في مغالاته؛ فقد اتسمت بقايا القصر بجمال التناسب، ودقة الزخارف وانسجامها، وجمال مقرنصات الممرات حول الصحن وزخارف العقود والعمد المكتنفة لها وتواشيح العقود كبيرة كانت أم صغيرة وما يعلوها؛فقد جللت بزخارف الآجر بأشكال هندسية ملئت بحشوات منقوشة نقشاً دقيقاً.

في حجرات هذا القصر أقيم متحف حوى أهم التفاصيل الزخرفية من صناعة الطابوق (الآجر) المنقوش والمكتوب، ومنها لوحة مجمعة على هيئة محراب، وأخرى مكتوب فيها بخط جميل قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[سورة الأنفال: آية (٢٩] وذلك بمهارة فائقة على أرضية مزخرفة من الطابوق، كما حوى نماذج زخرفية من الجص المنقوش منقولة من الجامع الكبير بالموصل صناعة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

كما حوى أيضاً نماذج هامة من الرخام المطعم بالرخام أو بالجص، ومحاريب وأبواباً رخامية ذات طاقات محلاة بزخارف، منقولة من بغداد والموصل، وهي على غاية من الأهمية.

ولمديرية الآثار العامة مجهود مشكور في العناية بهذا القصر وإصلاحه وإعداده متحفاً.

المراجع:

- تاريخ بغداد الخطيب البغدادي – طبعة السعادة بالقاهرة.
- مناقب بغداد لابن الجوزي – طبعة دار السلام ببغداد.
- معجم البلدان لياقوت – طبعة مصر.
- الحوادث الجامعة لابن الفوطي – طبع المكتبة العربية ببغداد.
- تاريخ مساجد بغداد وآثارها – للسيد محمود شكري الألوسي وتهذيب.
- الأستاذ محمد بهجة الأثري – طبعة دار السلام ببغداد.
- آثار بني العباس في العراق للأستاذ مصطفى جواد – مجلة الهلال نوفمبر ١٩٣٣.
- القصر العباسي – من نشريات مديرية الآثار القديمة بالعراق ١٩٣٥.

- موجز تاريخ البلدان العراقية للسيد عبد الرزاق الحسني– مطبعة النجاح ببغداد.
- دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق – نشرته مديرية الآثار القديمة بمناسبة مهرجان ابن سينا – ١٩٣٥.
- أيام بغداد لأمين سعيد – طبع الحلبي بالقاهرة.
- أعداد مجلة سومر. وتصدرها مديرية الآثار القديمة العامة ببغداد.
- تاريخ الموصل للمطران سليمان الصايغ – طبع لبنان.
- كتاب رسوم دار الخلافة – للصابي (خط).
- كتاب البلدان لليعقوبي – طبعة بريل بليدن ١٨٩١.
- متحف الآثار العربية في خان مرجان – نشريات مديرية الآثار القديمة بالعراق ١٩٣٨.

توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية[1]

توقيعات الصناع على المنشآت المعمارية الإسلامية قليلة ونادرة، والبحث فيها يستوجب دراسة منشأ الصناعات في العصر الإسلامي وتطورها، والتنقيب بين ثنايا سطور المؤلفات العربية، لالتقاط تراجم الصناع، وهواة الصناعة من العلماء والأدباء والأمراء، واستقصاء المؤلفات التي وضعت في الصناعة وتراجم الصناع. وهذا ما سنعالجه كمقدمة لهذا البحث.

كان من أثر اتساع العمران عقب الفتوحات الإسلامية، وانتشار العمائر ما بين دينية ومدنية وحربية، إيجاد فن إسلامي ساعد على ازدهار الصناعات. وهذا أمر طبيعي، لأن ازدهار الصناعات متوقف على تقدم البلاد، فكلما تقدمت في العمران ارتقت الصناعات وازدهرت تبعاً لتوافر دواعي الترف والثروة، خصوصاً وأن الفاتحين اندمجوا في أهالي البلاد، وزاولوا معهم ما يزاولونه من حرفة وصناعة[2].

ويقول ابن خلدون: إذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التألق في الصناعات واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صناعات أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله... ولهذا نجد في الأمصار ذات الحضارات أنه لما تراجع عمرانها، وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصناعات ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، وما ذلك إلا لرسوخ الحضارة فيها، وبلوغها مبلغاً عظيماً، مثل الأندلس والعراق ومصر والشام، وذلك لطول تسلسل الحضارات[3].

ومما لا شك فيه أن الدولة هي التي تساعد على ازدهار الصناعات بما تحدثه من منشآت، وما توليه من توجيه ورعاية وإرشاد.

---

(١) محاضرة ألقيت بالمجمع في جلسة ١٩ أبريل سنة ١٩٥٤.

(٢) العقد الفريد جزء/ ١ صفحة ١٩ وفيه إجابة عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب لما سأله: "من أين لك هذا؟" قال "إنه يعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهل مصر".

(٣)مقدمة ابن خلدون صفحة ١٩٦ – ١٩٧.

وكان من أثر ازدهار الصناعات أن نشطت حركة الترجمة، ففي أواخر عصر الصحابة ترجمت بعض الكتب المصنفة فيها، ترجمها خالد بن يزيد بن معاوية الأموي، ثم حركة التأليف، إذ ألف فيها الإمام أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فوضع كتاب الأخطار والمراتب والصناعات[1] ثم تتابعت تأليف الصناعة: ومنها رسالة في المعادن والجواهر وأنواع الحديد والسيوف وجيدها، ومواضع انتسابها، وكتاب علم الساعات وتدبير العمل بها[2] لرضوان بن مُحَمَّد الخراساني، وكتاب الحيل "الميكانيكا" أو الجامع بين العلم والعمل لأبي العز إسماعيل بن الرزاز الجزري، وكتاب جر الأثقال، وكتاب الحيل وجر ورفع الأشياء الثقيلة[3]، وكتاب في عمل الاسطرلاب لملك اليمن يوسف بن عمر[4]، وكتاب تدبير التسفير في صناعة التجليد. وكتاب النجوم الشارقات في ذكر بعض الصناعات المحتاج إليها في بعض الأوقات، لأبي الخير الحسني المصري، ورسالة لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي في اتخاذ جواهر الحديد للسيوف وغيرها، وعنوانها: السيوف وأجناسها[5]، وكتاب كشف الأسرار العلمية عن دار الضرب المصرية لابن بعرة الذهبي، في صناعة ضرب النقود[6]، وكتاب ضرب الدنانير والدراهم لمحمد بن واقد الواقدي[7] وكتاب ضرب الدراهم والصرف لعلي بن مُحَمَّد المدائني[8].

ولأبي الوفا البوزجاني المتوفي سنة ٣٨٨هـ ٩٩٨م. كتاب ما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة، ومنه نسخة في مكتبة آيا صوفيا[9].

كما وضعت المؤلفات في علم عقود الأبنية. وقد عرفه شمس الدين مُحَمَّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري المتوفي سنة ٧٤٩هـ ١٣٤٨م. بأنه علم تعرف منه أحوال أوضاع الأبنية، وكيفية شق

---

(١) التراتيب الإدارية جـ ٢ صفحة ١٥.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ صفحة ٢٥٢.

(٣) منه نسخة في آيا صوفيا، صفحة ٣٢٧ نوادر المخطوطات للمرحوم أحمد تيمور باشا – هلال يناير ١٩٢٠.

(٤) منه نسخة في آيا صوفيا، صفحة ٣٢٧ نوادر المخطوطات للمرحوم أحمد تيمور باشا – هلال يناير ١٩٢٠.

(٥) نشرها القائم مقام عبد الرحمن زكي في مجلة كلية الآداب ديسمبر سنة ١٩٥٢ مجلد ١٤ جـ ٢.

(٦) منه نسخة بدار الكتب المصرية.

(٧) إرشاد الأريب جزء ٧ صفحة ٥٨ ومنه نسخة في خزائن الكتب بحلب.

(٨) إرشاد الأريب جزء ٥ صفحة ٣١٧ ومنه نسخة في خزائن الكتب بحلب.

(٩) قدري طوقان، مقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٠.

الأنهار وتنقية القنى. وفيه كتاب لابن الهيثم وكتاب للكرخي[١] — هذا عدا المؤلفات الموضوعة في الهندسة والميكانيكا وعمل الأسطرلاب والساعات، وهي كثيرة.

وللأديب مُحَمَّد بن الحسن المصري المعروف بابن الصائغ قصيدة ميمية نحو ألف بيت في الصناعات والفنون[٢].

وكذلك وضعت المؤلفات المكافحة لغش الصناعات، ومنها كتاب غش الصناعات للجاحظ[٣].

وقد وصف مؤلف هذا الكتاب بعض أعدائه أنه أفسد به على الناس أموالهم، وحثهم به على الغش والخيانة[٤].

وكتاب المختار في كشف الأسرار للجوبري[٥] من علماء النصف الأول للقرن الرابع عشر الميلادي، وهو كتاب تناول كشف أسرار الغش والتدليس في الصناعات والدجل، خص الصناعة منه بالجوهريين والصيارف وأصحاب المصانع. وعلى مثاله كتاب الباهر في الحيل والشعبذة، لأحمد بن عبد الملك الأندلسي.

وكذلك وضعت المؤلفات الخاصة بتراجم الصناع والفنيين، ومنها كتاب الصناع من الفقهاء والمحدثين لأبي عبد الله مُحَمَّد بن سعيد الهروي[٦]، وكتاب ضوء النبراس في أخبار المزوقين من الناس[٧]، ومناقب هزوران (تركي)، مختصر لمصطفى الدفتري المعروف بعالي الشاعر، المتوفى سنة ١٠٠٨هـ ١٥٩٩م فقد جمع فيه تراجم أكثر من ثلثمائة رجل من الخطاطين والنقاشين والمجلدين[٨]، وتاريخ أولى الصنائع العجيبة[٩].

---

(١) إرشاد القاصد صفحة ٨١ طبع أوربا.

(٢) بغية الوعاة صفحة ٣٤.

(٣) إرشاد الأريب جزء ٦ صفحة ٧٨.

(٤) التراتيب الإدارية جزء ٦ صفحة ٧٨.

(٥) هذا الكتاب طبع في بيروت سنة ١٣٠٢هـ كما طبع في مصر.

(٦) التراتيب الإدارية جزء ٢ صفحة ١٦.

(٧) المواعظ والاعتبار للمقريزي جـ ٢ ص ٣١٨.

(٨) كشف الظنون جـ ٢ ص ٥٣٣.

(٩) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٨٥.

ومن المؤلفين في الصناعات والصناع ابن مولاهم وتلميذه الذي فاق ابن معمر. وألف محمد بن إسحاق اليغموري المتوفي سنة ١٢٨٠م كتاب الاطلاع على منادمة الصناع. وقد وصفه الصفدي بأنه يشبه كتاب ابن مولاهم المصري، وللأديب الشاعر شرف الدين بن أسد المصري المتوفي سنة ٧٣٨هـ ١٣٣٦م مؤلف في الصناعات نهج في تأليفه نهج ابن مولاهم، غير أنه جاء أضعافه، وفيه مائتا صنعة للنساء خاصة[١]، وعقد ابن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة، فصلاً عن صناعات الأشراف[٢] ذكر فيه أن أبا بكر الصديق كان بزازاً، ومثله عثمان بن عفان وطلحة، وسعد بن أبي وقاص كان يبري النبل، والعوام أبا الزبير خياطاً، وعمرو بن العاص جزاراً، والعاص بن هشام حداداً، وعتبة بن أبي وقاص نجاراً، وعقد مثل هذا الفصل ابن قتيبة في كتابه المعارف، وزاد عليه أن الوليد بن المغيرة كان حداداً، ومحمد بن سيرين بزازاً[٣].

وفي ثنايا سطور التاريخ شذرات عن صانع محترف وعالم وملك وأمير هاو زاولوا صناعات بجانب أعمالهم. فقد كان أبو منصور ظافر بن القاسم الحداد الشاعر السكندري المتوفي بمصر سنة ٥٢٩هـ يزاول صناعة الحدادة. واستدعى لقطع خاتم ضاق على والي الإسكندرية الأمير السعيد بن مظفر فقطعه وأنشد[٤]:

قصـــر في أوصـــافك العـــالم ... وأكثـــر النـــاثر والنـــاظم

مـــن يكـــن البحـــر لـــه راحـــة ... يضـــيق عـــن خنصـــره الخـــاتم

وقد أثرت الصناعة في شعره، فضمنه مصطلحات وتعبيرات منها — فمن نظمه:

روض كمخضـــر العـــذار وجـــدول ... نقشـت عليـه يـد الشـمال مبـاردا[٥]

والنخـــل كـــالهيف الحســـان تزينـــت ... فلبســـن مـــن أثمـــارهن قلائـــدا

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر جـ ٢ ص ١٨٨.

(٢) الأعلاق النفيسة ص ٢١٤ — ٢١٥.

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٩.

(٤) بدائع البدائه لابن ظافر ص ٢١٢ وأورد هذه الأبيات ابن خلكان "قصر عن".

(٥) حلبة الكميت ص ٢٢٨.

وأنشد فيما يكتب على كرسي[1]:

نـــزه لحاظـــك في غريـــب بـــدائعي	وعجيـــب تشـــبيهي وحكمـــة صـــانعي
فكـــأنين كفـــا محـــب شـــبكت	يـــوم الـــوداع أصـــابعاً بأصـــابع

والسرى الرفاء كان يرفو ويطرز ومع ذلك ينظم الشعر[2]. وأبو عبد الله محمد بن يوسف المحدث المتوفي سنة ٢٨٦هـ ٨٩٩م، كان يبني بالأجر[3] والقفال المروزي احد أئمة الشافعية المتوفي سنة ٤١٧هـ ١٠٢٦م كان يصنع الأقفال الدقيقة، وقد صنع قفلاً زنته أربع حبات[4]، والمحدث الفقيه أحمد بن علي أبو بكر العلوي المتوفي سنة ٥٠٢هـ ١١٠٨م كان نقاشاً يجصص الجدران وينقشها، ويمتنع عن نقش الصور[5] وأبو بكر الحداد صانع المبارد المتوفي سنة ٥٥٢هـ ١١٥٧م كان فقيهاً أصولياً مناظراً، والأديب الشاعر مظفر بن محاسن تاج الدين، كان فاضلاً ناظماً ناثراً، له ديوان شعر مشهور، وكان يكتب كتابة جيدة، ويذهب أجود، دخل السلطان عليه مرة وهو بالقلعة بدمشق يذهب في دار رضوان، فقال له ما تصنع يا تاج؟ فقال يا خوند، أنا بالنهار في تذهيب البنا، وبالليل في تذهيب الثنا[6]. وكان لشغفه بصناعته تأثير على شعره، فمن نظمه:

مـــن منصـــفي مـــن ســـاحر ســـاخر	يزيـــد مـــن ذلي لديـــه اعتـــزاز
مـــذ وخشـــت خـــداه بالعـــارض الـــ	ـــمرقوم قـــال النـــاس دار الطـــراز

وكان عيسى بن هبة الله الأديب الظريف المتوفي سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م نقاشاً للحلي. وأبو إسحاق بن إبراهيم الزجاج النحوي المتوفي سنة ٣١٦هـ ٩٢٨م كان يخرط الزجاج[7].

(١) مطالع البدور جـ ١ ص ٦١ وورد هذا البيت في ابن خلكان جـ ١ ص ٣٤٣.

انظر بعينك في بديع صنائعي   وعجيب تركيبي وحكمة صانعي

(٢) إرشاد الأريب جـ ٤ صفحة ٢٢٧.

(٣) المنتظم لابن الجوزي جـ ٦ ص ٢٤.

(٤) ابن خلكان جـ ١ صفحة ٣٥٧.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٢ ص ١٧١.

(٦) المنهل الصافي ورقة ٣٥٧ جـ ٣ قسم ٣ خط.

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٦.

وأبو بكر النقاش محمد بن الحسن، العالم بالقراءات والتفسير المتوفي سنة ٣٥٢هـ ٩٦٣م كان في مبدأ أمره يزاول صناعة النقش في السقوف والجدران[١].

وجواد بن سليمان بن غالب عز الدين أمير العرب، اشتهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، بإجادة الخط بأنواعه، كتب مصحفاً مضبوطاً مشكولاً يقرأ فيه بالليل وزن ورقة سبعة دراهم وربع، وجلده خمسة دراهم. وكتب آية الكرسي على حبة أرز وأشياء دقيقة أخرى من هذا النوع، كان من أتقن الناس للصناعات، وبرع في جميع ما يعمله بيده، عمل النشاب بالكرلك والنجارة الدقيقة والتطعيم والتطريز والحدادة ونقش الفولاذ، هذا فضلاً عن نبوغه في صياغة الخواتم بالذهب والميناء[٢].

وابن المنير والي الحكم بأرمنت وادفو، كان يصنع المراوح، وعرف بالمراوحي[٣]. والأمير عثمان بن لؤلؤ أحد أمراء الطبلخانات، كان يجيد التطريز على القماشوالجلد[٤]. والسلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، كان مغرماً بالصناعات يحضر الصانع فيعمل عنده ويتعلم منه صناعته[٥] والسلطان مراد كان ينظم الشعر ويميل إلى صناعة الساعات[٦].

وعنيت الحكومات الإسلامية بالصناعات، فأنشأت لها الأسواق، وخصصت لكل سوق صناعة، وأفردت للصناعات المقلقة٢ والضارة بالصحة أطراف المدينة: مثل المدابغ، ومسابك الزجاج والحديد، ومعامل الصابون[٧] وأماين الجير والأجر. واشترطت على أصحاب المصانع شروطاً صحية، مثل سعة الأماكن وتهويتها، وارتفاع سقفها. وقد عرفت مصر تلك القوانين منذ تسعة قرون، وكان على والي المدينة أن يشرف على كل ذلك بمعرفة ومساعدة عرفاء الأسواق وأمناء الصناعات تحت مباشرة المحتسب.

وبلغ من اهتمام الحكومات بالصناعات والصناع أن عهدت إلى المحتسب بالإشراف

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٩٩.

(٢) المنهل الصافي جـ ٣ قسم ١.

(٣) الطالع السعيد ص ٢٩٠.

(٤)أعيان العصر للصفدي حوادث سنة ٧٤٢ ص ٢٠ جـ ٢ قسم ٢ خط.

(٥)الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٦)تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٥.

(٧)آثار الأول ص ١٦٥.

عليها ومنع الغش فيها، ونظراً لعدم تخصصه في الصناعات، كان يجعل لكل صنعة عريفاً من خيرة أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشهم وتدليسهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم وغير ذلك من الأسباب التي تمكن المحتسب من مراقبتهم[١].

واشتملت كتب الحسبة على تعليمات دقيقة، ومصطلحات فنية تحول دون غش الصناعات المختلفة، وكان للصناع تقاليد لا يخرجون عنها، فلكل صناعة شيخ يهيمن عليها، وله معاونوه. وهو الذي يجيز للصانع مزاولة صناعته حينما يأنس فيه المقدرة على العمل بعد اختباره.

وقد ثبت أن النساء كن يشتغلن بالصناعات المناسبة لهن، من تطريز ومقصب وسجاد، فقد كان بالعراق امرأة تلون الصيني الأبيض بمختلف الألوان[٢]. وكان في شوار ضيفة خاتون بنت الملك العادل حينما تزوجت سنة ١٢١١م مائة جارية يعملن أنواع الصناعات البديعة[٣]. وأحصى شرف الدين بن أسد المصري في مؤلفه عن الصناعات مائتي صنعة للنساء. وكانت بنت شاه أرمن تجيد النقش وتتعيش منه بعد نكبتها في أبيها في القرن الثالث عشر[٤] وكان بالقصور الفاطمية مستخدمات من أرباب الصناعات[٥].

واهتم اللغويون، بالصناعة والصناع فأفردوا للصناعات المصطلحات اللغوية. ومثلهم الأدباء، فقد اهتموا بالصناع ومصطلحاتهم وأدوات صناعاتهم استكمالاً لثقافة الأديب. وللجاحظ حديث مع الخليفة المعتصم بالله في هذا الشأن، يحثه فيه على تعليم أولاده كل شيء، واستشهد له بحديث فحواه أنه اجتمع قوم من أهل الصناعات فتواصفوا البلاغة، فقال الصائغ[٦]: خير الكلام ما أحميته بكير الفكر، وسبكته بمشاعل النظر، وخلصته من خبث الإطناب، فبرز بروز الإبريز في معنى وجيز.

---

(١)نهاية الرتبة في طالب الحسبة ص ١٠.

(٢)مطالع البدور جـ ١ ص ١٣١– ١٣٢.

(٣)مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧٠ النسخة الفوتوغرافية.

(٤)مرآة الزمان جـ ٢ صفحة ٧١٢.

(٥)المواعظ والاعتبار جـ ١ صفحة ٤١١.

(٦)طراز المجالس صفحة ٦٧– ٧٣.

وقال الحداد: أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة الروية، وأشعلت فيه نار البصيرة، ثم أخرجته من فحم الإفحام، ورققته بفطيس الأفهام.

وقال النجار: ألطف الكلام ما كرم تجر معناه، فنحته بقدوم التقدير، ونشرته بمنشار التدبير، فصار باباً لبيت البيان، وعارضة لسقف اللسان.

ثم استطرد فذكر كثيراً من الصناعات والحرف، وكلها بلسان صناعها وأدواتها، وبها مصطلحات فنية ظلت مستعملة منذ عشرة قرون إلى الآن، لم يأنف الأدباء من استعمالها، ومن بينها العامي والعربي الفصيح.

ومن الكتب الأدبية التي ألفت بلغة الصناع "كتاب الملح والطرف في منادمات أهل الحرف" تأليف مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن علي البلبيسي، وضعه على أسلوب المقامات على لسان خمسين مهنة وصناعة(١).

وكذلك اهتم أصحاب الوقفيات بالصناع فخصوهم في وقفياتهم المحررة بمرتبات لصيانة منشآتهم.

وقد اختصت مصر بكثير من الصناعات، كما اشتهرت بوفرة آثارها، وذلك بفضل أولئك الصناع الأفذاذ الذين خدموا العمارة والفنون، كفى مصر فخراً أنها اختصت منذ صدر الإسلام إلى الآن بعمل ستور وكسوة الكعبة والروضة النبوية الشريفة، كما اشتهر الكثير من بلدانها بإنتاج أرقى أنواع النسيج وأغلاها.

وأعجب الرحالة الفارسي ناصري خسرو بصناعات مصر حينما زارها سنة ٤٣٩هـ ١٠٤٧م في الدولة الفاطمية، فأشاد بدقة صناعة النسيج ومراكزه، كما أعجب بسوق القناديل في الجانب الشمالي من جامع عمرو، وكان بمثابة (خان الخليلي) في أزهى عصوره وقال: "لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف"(٢).

ولا عجب من تقدم الصناعة في الدولة الفاطمية، فإن خزائنهم حفلت بكل تالد وطريف. ويكفي أن نعلم أن خزانة البنود كان بها ثلاثة آلاف صانع مبرز في سائر

---

(١)رأيت منه نسخة ملوكية في مكتبة الأسكوريال.

(٢)سفرنامه صفحة ٥٩– ٦٠ تعريب الأستاذ الدكتور الخشاب.

الصناعات[١].

واشتهرت مصر كذلك بصناعة البسط، فيحدثنا المقريزي عن نهب قصر الأمير قوصون في القرن الرابع عشر بقوله: وكان في حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط منها ما طوله من أربعين ذراعاً إلى ثلاثين عمل البلاد، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر[٢] ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم منها أربعة أزواج بسط من الحرير.

كما حدثنا الجوهري في كتابه (نزهة النفوس والأبدان)، بأن المدرسة الظاهرية عند افتتاحها فرشت من منتجاته.

وعلى ذكر صناعة البسط في مصر أذكر أنها ظلت تعمل بها إلى القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، فإن الرحالة عبد الغني النابلسي لما زار قلعة الجبل في سنة ١١٠٥هـ ١٦٩٣م عاين الصناع وهم يصنعون كسوة الكعبة، كما عاين أيضاً أناساً يحوكون البسط المستطيلة التي تشبه السجاجيد المتصل بعضها ببعض ذات المحاريب الملونة لبسطها في مسجد المدينة غيره[٣].

وأشاد ابن فضل الله العمري بصناعتها وانفرادها بكثير من الصناعات من أسلحة وقماش وتكفيت[٤] ، كما أشاد بنبوغهم في تشييد الدور[٥] ، ولذلك رأينا الأقطار الشقيقة تستعين بصناع مصر منذ أقدم العصور، فقد اشتركوا في تشييد وعمارة الحرم المكي. وشاهد الرحالة البشاري المقدسي أعمالهم به، وقرأ أسماء الصناع على الفسيفساء. ويقول عنها: "عمل صناع الشام ومصر" (ألا ترى أسماءهم عليه[٦]).

ويذكر البلاذري نبأ الصناع الموفدين من مصر لعمارة الحرم النبوي سنة ٨٧هـ ٧٠٥م[٧] ويعلق على هذا النبأ الأستاذ حبيب زيات، بأنه قرأ في قراطيس البردي المحفوظة

---

(١)المواعظ والاعتبار جزء ١ ص ٤٢٣.
(٢)المواعظ والاعتبار جزء ٢ صفحة ٧٣.
(٣)الحقيقة والمجاز صفحة ١٥٧ نسختي الأصلية.
(٤)حسن المحاضرة جزء ٢ صفحة ١٨٠.
(٥)صبح الأعشى جزء ٣ صفحة ٣٧٠.
(٦)أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم صفحة ٧٣.
(٧)فتوح البلدان طبع أوروبا ص ٧.

بمكتبة المتحف البريطاني، أن القبط الذين كان الأمويون يستعينون بهم، كانوا فعلة وبنائين ونجارين[1].

كما أن أكثر العمارات التي أجريت بالحرمين الشريفين نفذها مهندسون وعمال مصريون، فقد أرسل الظاهر بيبرس البندقداري **٥٣** صانعاً لعمارة المسجد النبوي[2] وأرسل السلطان قايتباي في سنة **١٤٨١**م شاد عمائره السيوفي سنقر الجمالي مع نحو **٣٠٠** صانع[3] لإصلاح المسجد النبوي بعد حريقه.

وفي العمارة التي أجريت بالكعبة سنة **١٠٤٠**هـ **١٦٣٠**م أشرف عليها صناع مصريون كالمعلم سليمان الصحراوي المصري رئيس النجارين، وعرفنا من البنائين سليمان البجع وابن حاتم، ونور الدين[4].

وكذلك العمارات التي أجريت بقبة الصخرة، وفي المسجد الأقصى وما حولهما، فقد ذكر الهروي الرحالة أنه قرأ على لوحة تذكارية لعمارة أجريت بالمسجد الأقصى سنة **٤٢٦**هـ **١٠٣٤**م، اسم صانع مصري ما نصه: "صنعه عبد الله بن الحسن المصري المزوق"[5].

وعلى ذكر هذا المزوق، أذكر أنه عاصره بمصر في الدولة الفاطمية أسر من المزوقين كانوا يتنافسون في إجادة صنعتهم من نقش وتصوير، هم أسر البصريين، وبني المعلم، والنازوك، والكتامي المصور. ومن لوحاته المشهورة صورة تمثل يوسف عليه السلام وهو عريان في الجب. كانت في دار النعمان بالقرافة الكبرى بمصر، والقصير المصور المصري الذي صور في دار الوزير الفاطمي اليازوري، راقصة في ثياب بيضاء بداخل حنية سوداء كأنها داخلة فيها، منافساً بها زميله العراقي ابن عزيز، الذي صور راقصة في ثياب حمراء بداخل حنية صفراء كأنها بارزة منها[6].

وعاين ابن بطوطة الرحالة في مغارة بالخليل، لوحاً رخامياً على قبر فاطمة بنت الحسين

---

(١)الخزانة الشرقية جزء ٢ صفحة ٨٢.

(٢)وفاء الوفا جزء ١ صفحة ٤٣٢.

(٣) الإعلام ببيت الله الحرام صفحة ١٠٦.

(٤) تاريخ الكعبة صفحة ١٠٣.

(٥) الإشارات إلى معرفة الزيارات صفحة ٢٥ – ٢٦.

(٦) المواعظ والاعتبار جزء ٢ صفحة ٣١٨.

مكتوباً عليه "صنعه مُحَّد بن أبي سهل النقاش بمصر"[١].

وفي سنة ٨٨٦هـ ١٤٨١م أرسل السلطان قايتباي إلى القدس الشريف جماعة من المعماريين والحجارين لإنشاء مدرسته وقبة السبيل هناك تحت مباشرة مهندس نصراني[٢].

وكذلك استعانت تونس بألف قبطي من المتخصصين في عمل السفن، سافروا إليها من مصر في سنة ١١٤هـ، ٧٣٣م. للعمل في دار الصناعة بها[٣].

وبالرغم من قلة ما عثرنا عليه من أسماء للصناع على آثار مصر على كثرتها فقد عرفنا أسماء غيرهم من كتب التاريخ. ومنها ما كان منقوشاً على منتجاتهم التي ضاعت. أمثال سعد أبو عثمان الذي بنى قنطرة عبد العزيز بن مروان على الخليج الكبير سنة ٦٩هـ ٦٨٨م[٤]. والمعلم بقطر النجار الذي صنع منبر جامع عمرو حوالي سنة ٣٠هـ ٦٥٠م[٥]. وأبو بكر بن العسال المحوجب العسقلاني النجار الذي صنع المنبر الذي أمر بعمله الظاهر بيبرس البندقداري[٦] سنة ٦٧١هـ ١٢٧٢م. وأبو جعفر الوزير أبو الفضل المتوفي بمصر[٧] سنة ٤١٤هـ ١٠٢٣م فقد كان مشهوراً بعمل الدنانير والدراهم، كما كان حاذقاً في صناعة الزجاج. وأبو الحسن علي بن الحسن الخيمي في الدولة الفاطمية، وزميله أبو الحسن المعروف بابن الأيسر الحلبي صانع الفسطاط المعروف بالمدورة. وكان من عجائب الصناعة[٨] وسعد الدين الأسعردي نقاش النحاس والنقود، اتصل بالملك المعز أيبك الصالحي، وكان لا ينقش السكة السلطانية غيره[٩]. واحمد بن عيسى الدمياطي صانع منابر الحرم المكي ومسجدي الغمري والمزهرية، وغيرهم كثير ممن زاولوا صناعة التجليد وتذهيب الكتب.

وإذا كانت توقيعات الصناع على العمارة الإسلامية قليلة، فإن توقيعاتهم على الطرف

---

(١) رحلة ابن بطوطة جزء ١ صفحة ٣١.
(٢) الأنس الجليل جزء ٢ صفحة ٦٥٧.
(٣) المغرب للبكري صفحة ٣٨ – ٣٩.
(٤) خطط المقريزي جزء ٢ صفحة ١٤٦.
(٥) خطط المقريزي جزء ٢ صفحة ٢٤٨.
(٦) الدرر الكامنة جزء ١ صفحة ٤٦٩.
(٧) المسجي جزء ٤٠ نسختي الفوتوغرافية.
(٨) خطط المقريزي جزء ١ صفحة ٤١٩.
(٩) الانتصار لابن دقماق جزء ٤ صفحة ١٨.

الأثرية كثيرة. ومتحف الفن الإسلامي غني بتوقيعات الخزافين ومكفتي النحاس ونقاشيه. وهذا راجع إلى استقلال أصحاب المصانع المنتجة لها، مما يؤكد عندي أنانية منشئ الآثار وأصحاب المصانع. فالخزافون مثلاً لا شك أنهم وقعوا على منتجاتهم اسم صاحب المصنع دون الصانع.

وتوقيعات الصناع على الآثار الإسلامية في مختلف الأقطار قليلة، فإذا أحصينا توقيعاتهم على الآثار في الأقطار الإسلامية نجدها قلة بالنسبة للآثار الباقية فيها. ولا ندري لذلك سبباً، فهل هذا راجع إلى إهمال من المهندسين تابعهم فيه الصناع؟ هذا جائز لأن توقيعات المهندسين تكاد تكون معدومة. ومن الجائز أيضاً أنه سمح للنابغين منهم بالتوقيع على منتجاتهم، وهو تعليل ضعيف لوجود منتجات قوية جداً معاصرة للموقعة لم يوقع عليها صانعوها.

ولا حيلة لي إلا الأخذ بنظرية أن الفنون والصناعات كانت مزدهرة بسبب وفرة الصناع المجيدين لفنونهم، بدرجة أنهم كانوا يرون أن هذا الإنتاج طبيعي ومألوف فلا داعي للتوقيع، ويحتمل أن يكون الصانع الموقع متبرعاً بما صنعه لمسجد أو لمشهد مشهور.

وقد نقبت على توقيعات الصناع بين آثار مصر فوجدت منها توقيعات لخمسة وأربعين صانعاً في مختلف الصناعات، وقد حرصت على تصوير توقيع الصانع وتصوير تفاصيل من إنتاجه لأجلو عبقريته، اللهم إلا القليل من النجارين لتشابه الإنتاج أو لتأخر صناعته.

وسأتناول بالرشح منتجات كل صانع مع بيان مميزاتها والتعريف بالصانع إن تيسر.

النجارون:

كان للنجارين في هذا البحث أوفر نصيب، فقد عثرت على الكثير منهم ما بين نجار وأويمجي وصدفجي وصانع زرنشان تمثلت في مصنوعاتهم أرقى أنواع النجارة ومما لا شك فيه أن صناع النجارة في مصر فاقوا زملاءهم في بقية الأقطار الإسلامية بدقة صناعتهم وتنوع التقاسيم والزخرف.

محمد بن عينو:

أحد نجاري الجامع الطولوني المنشأ سنة ٢٦٥هـ ٨٧٨م عثرت على اسمه مكتوباً بالخط

الكوفي البسيط على ظهر ألواح الإزار الكوفي وعلى بعض أجزاء السقف وقما كنت أقرأ الإزار وأرتبه لتركيبه عند إصلاح سقف الجامع. وهذه اللوحة جمعت فيها صورة الفاتحة كنموذج لعمله.

ولما كان توقيعه خالياً من ذكر صناعته، فمن الجائز أن نعتبره نجاراً أو أويمجياً حفر الكتابة الكوفية وهو الأرجح.

عبيد النجار المعروف بابن معالي:

هو نجار نابغ صنع تابوت الإمام الشافعي سنة ٥٧٤هـ ١١٧٨م في عصر صلاح الدين، وهو طرفة لا نظير لها، ويعتبر من أرقى نماذج النجارة والحفر في الخشب. ونلاحظ فيه الدقة الكاملة في حفر الزخارف ولف فروعها وتوريقها ونظافة الأرضية تحتها، والتنوع الغريب في زخارف الحشوات على كثرتها، وجمال الخط الكوفي بالزخارف التي تتخلله، وقد كتب الصانع اسمه في الطرف العلوي للغطاء الهرمي وبخط صغير ما نصه:

"صنعت عبيد النجار المعروف بابن معالي عمله في شهور سنة أربع وسبعين وخمس مائة". وابن معالي هذا من أسرة نبغت في صناعة النجارة، رأيت اسم أحد أفرادها على منبر نور الدين الشهيد في المسجد الأقصى بهذا النص: "صنعة سلمان ابن معالي".

ويلاحظ أن الآمر بعمله لم يكتب اسمه عليه، مما يجعلني أرجح أن صانعه كان متبرعاً بعمله إهداء لقبر هذا الإمام العظيم، ويعزز وجهة نظري هذه أنه يوجد بقبة الشافعي تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل ترجع صناعته إلى سنة ١٢١١م يعتبر من روائع الصناعة، ولا يقل أهمية عن تابوت الشافعي، خال من اسم صانعه.

وفي الوقت الذي خلت فيه تلك التحفة من توقيع الصانع، نجد المقصورة القديمة التي كانت على قبر الشافعي والمطعمة بالصدف والزرنشان عليها اسم صانعها (عمر) سنة ١١٨٥هـ ١٧٧١م وهو الاسم الوحيد الذي عثرت عليه من صناع الزرنشان، وكأنه كان من الشهرة بمكان حتى اكتفى بكتابة اسمه دون لقبه وهو ما أرجحه لأن هذا النوع من التطعيم كاد ينقرض بعد نكبة مصر في صناعها في القرن السادس عشر.

المعلم أحمد بن يوسف:

نجار قام بعمل منبر مسجد أبي المعاطي بدمياط، غير أنه فقد مع الزمن وبقيت اللوحة التذكارية باسم الآمر بعمله الحاج شمس الدين الطرابلسي واسم صانعه المعلم أحمد بن يوسف في شهر رجب سنة ٧٧١هـ ١٣٦٩م وهي مودعة بمتحف الفن الإسلامي.

أحمد بن عيسى بن أحمد الدمياطي ثم القاهري النجار:

هذا الصانع كان ماهراً في صناعته. وقد نفذ أعمالاً هامة في دولة الظاهر جقمق، وقد عرفنا بعض منتجاته من ترجمته التي جاء فيها أنه هو الذي صنع منبر المدرسة المزهرية، ثم المنبر المكي، ومنبر جامع الغمري.

وقد وجدت منبر مسجد الغمري في حالة سيئة، مطموس التفاصيل، مفقودة بعض حشواته، فأصلحته إدارة حفظ الآثار العربية وأودعته تربة الأشرف برسباي هو وكرسي السورة، وهذا المنبر أمر بعمله ابن الردادي حوالي سنة ٨٥٠هـ ١٤٤٦م[١] وهو منبر جميل طعمت حشواته بالسن والزرنشان ودقت بالأويمة برسوم دقيقة متنوعة.

أما منبر المزهرية فإنه ما زال موجوداً في مدرسة أبي بكر مزهر بحارة برجوان المنشأة في سنة ٨٨٤هـ ١٤٧٩م ونجده متفقاً مع المنبر السابق في كثير من التفاصيل وخاصة الخرط الدقيق والكتابة الكوفية فوق باب المقدم وتقاسيم الجانبين. وهذاالمسجد يحتوي على مجموعة هامة من النجارة ممثلة في الأبواب والدواليب والمزيرة ولا شك أن الدمياطي هو صانعها أيضاً.

علي بن طنين النجار:

وهذا نجار بارع لا يقل نبوغاً عن سابقيه، فهو صانع منبر مسجد أبي العلا المنشأ حوال سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥م كتب اسمه على باب المقدم بما نصه:

"نجارة العبد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفو ربه الكريم علي ابن طنين بمقام سيدي حسين أبو علي نفعنا الله".

وهو منبر انفرد بتقاسيم ريشتي جانبيه، وهو في صناعته وجمعه بين الأويمة في السن

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية جزء ١ صفحة ٢٢٨.

والزرنشان ما يجعله متفقاً مع أعمال زميله الدمياطي. وهو مثال لأرقى نماذج النجارة في دولة المماليك الجراكسة.

وبسقوط هذه الدولة ووقوع مصر تحت حكم العثمانيين هبط مستواها الفني بسبب نكبتها في خيرة صناعها الذين جمعهم السلطان سليم عقب استيلائه على مصر سنة ١٥١٧م وأرسلهم إلى استانبول[١] وبذلك قضى على النشاط الفني والصناعي في مصر إلى حد كبير.

المعلم عبد الجواد المحلاوي:

هذا النجار هو الذي صنع مقصورة مسجد أحمد البجم بمدينة أبيار. وقدم لنا في تلك المقصورة نماذج متنوعة من النجارة والخرط والتجميع خالي الحشوات، دلت على تأثره بنجارة دولة المماليك، وكتب اسمه عليها بما نصه: "عمل المعلم عبد الجواد المحلاوي سنة ١٠٤١هـ".

أولاد الصيرفي:

كتبت أسماؤهم على إزار سقف دكة المبلغ بمسجد زغلول برشيد بما نصه:

"عمل المعلمين ولدا الصيرفي غفر الله لهما". ويبدو لي أن الصيرفي إما نجار أو نقاش مشهور برشيد اعتز والداه بنسبتهما إليه دون ذكر اسميهما أو اسمه بالكامل، فيجوز أنهما كان نجاريها أو نقاشيها. خصوصاً وأن بها نقشاً وتذهيباً.

أولاد المعلم معوض النجار:

وهذه أسرة أخرى من النجارين قام اثنان منها بعمل منبر الجامع العمري بهو وكتبا عليه "صانع هذا المنبر المعلم أحمد وأخيه المعلم مُحَمَّد أبناء المعلم معوض النجار غفر الله لهما ولوالديهما في غرة شعبان من سنة ألف ومائةهـ – ١٦٨٨م".

الحاج عبد الكريم الديروطي:

هو النجار الذي صنع منبر المسجد الكبير بديروط بحري، وهو منبر من خشب مجمع معقلي، وبابه من الخرط الميموني، ومكتوب عليه: "عمل الحاج عبد الكريم بن المرحوم علي

---

(١) ابن أياس جزء ٣ صفحة ١٢٢.

الديروطي سنة ١١٠٨هـ ١٦٩٦م".

المعلم عبد الرحمن يوسف الديروطي:

وها هو زميله الذي قام بعمل مقصورة الجامع الكبير بديروط، فجمع فيها الخرط الميموني والمجمع بدون حشوات والكوفي المربع، والتطعيم وكتب عليها: "عمل المعلم عبد الرحمن يوسف النجار الديروطي في غرة رمضان سنة ١١٤٦هـ ١٧٣٣م".

السيد أحمد وأخوه السيد محمد ولدا المرحوم نعمة الله:

وهذه أسرة من النجارين جمعت بين الأب وولديه الذين اعتزا بالنسبة إلى اسمه دون لقبه مما يعزز شهرته كتبا اسميهما على منبر مسجد الدوبي بمدينة فوة بما نصه: "عمل السيد أحمد وأخيه السيد مُحَمَّد أولاد المرحوم نعمت الله سنة ١١٥٦هـ ١٧٤٣م".

الحاج عبد الله النجار:

هو صانع منبر مسجد نور الدين بديبي. وكتب اسمه عليه بما نصه: "عمل الحاج عبد الله النجار سنة ١١٧٠هـ ١٧٥٦م".

السيد الحاج عبد المولى الطويبي:

هو نجار منبر مسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية المنشأ سنة ١١٧١هـ ١٧٥٧م وهو نجار ممتاز تأثر إلى حد كبير بالنجارة في دولة المماليك الجراكسة. وتجلت دقته في تكوين ريشتي جانبي المنبر وتطعيمها بالسن، وفي دقة الخرط بدرابزينه وفي الكتابات الكوفية المربعة ببات المقدم. واعتز بكتابة اسمه في موضعين: أحدهما حفراً في الخشب بما نصه: "عمله السيد الحاج عبد المولا الطويبي" والآخر بالكوفي المربع وبالسن "عمل عبد المولى".

الحاج محمد البالي:

كتب اسمه بالتطعيم على باب قبة مسجد العباسي الذي أنشأه برشيد السيد مُحَمَّد بك الطبوزاده سنة ١٢٤٤هـ ١٨٢٨م بما نصه: "عمل الفقير الحاج مُحَمَّد البالي..." فهل هو النجار؟ أو هو الذي قام بعملية التطعيم، وهو ما أرجحه. وعلى كل حال سواء أكان النجار أو المطعم فهو من أواخر البقية الصالحة الذين زاولوا هذا النوع من النجارة أو التطعيم.

وعلى ذكر هذا النجار أذكر نجاراً رشيدياً آخر، كان متخصصاً في عمل الطواحين، كتب اسمه على الجزية الماسكة لمحور الطواحين التي تديرها الثيران في طاحونة الطالعي برشيد بما نصه: "عمل المعلم الحاج علي زغلول النجار عفى عنه سنة ١١٦١هـ ١٧٤٧م".

المعلم مجاهد رفاعي النجار:

هو صانع منبر يوسف بك قنديل ببساط كريم، وهو منبر خشبي معقلي الصناعة كتب على مقدم بابه: "عمل ذلك المعلم مجاهد الرفاعي النجار من شربين في سنة ١٢٦٤هـ ١٨٤٧م".

محمد بن أحمد عبد الكريم:

نجار صنع مقصورة مسجد أبو شعرة بفوة. وهي مقصورة من الخشب الخرط الميموني كتب عليها "صنعها الفقير محمَّد بن أحمد عبد الكريم سنة ١٢٨٢هـ ١٨٦٥م".

ويسترعي النظر أن أكثر التوقيعات وجدت في الحقبة التي تأخرت فيها الصناعة وهذا مما يجوز الأخذ بنظرية أن هؤلاء الموقعين كانوا من نوابغ الصناع وقتئذ.

الأويمجية:

صناعة الأويمة أو الحفر في الخشب لازمت الفنون الإسلامية منذ القرن الأول الهجري، وأخذت في الرقي إلى أن ازدهرت في العصر الفاطمي، وظلت محافظة على تقدمها إلى نهاية دولة المماليك البحرية، ثم هبط مستواها إلى حد ما في دولة المماليك الجراكسة حينما انتشرت بجانبها صناعة الزرنشان.

وصناع الأويمة أنتجوا في مصر إنتاجاً رائعاً، سواء أكان في المنابر أو التوابيت أو الأبواب والكراسي، ولم يوقعوا على منتجاتهم، اللهم إلا إذا اعتبرنا أن النجار قام بعملية الحفر أيضاً. وهذا ينقصه ما كتبه نجار تابوت الإمام الشافعي من طلب الرحمة له ولمن عمل معه من النجارين والنقاشين، ولما كان التابوت خالياً من كل لون، فيكون النقاش الذي عمل معه أويمجياً، على أن كلمة نقاش أطلقت أيضاً على من ينقش الجدران ويدهنها، وتكييفها راجع إلى الإنتاج المدونة عليه.

يعقوب بن بركات الهوى:

اعتبرته أويمجياً، لأنه كتب خلف جلسة الخطيب في منبر مسجد فرشوط "نقش العبد الفقير إلى الله تعالى يعقوب بن بركات الهوى".

كان هذا المنبر في مسجد فرشوط، ثم أصلح ونقل إلى مسجد الظاهر بيبرس البندقداري بالقاهرة، وترجع صناعته إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وأعتبره فريداً في نوعه لوقوع تأثيرات أندلسية على حشواته المتنوعة.

البناءون والنحاتون:

هما صنوان مكملان لبعضهما، وخاصة في البناء بالحجر، بما حواه من نقوش وجفوت ومقرنصات وكتابات، وقد حوت مصر أرقى نماذج البناء بالحجر منذ الدولة الفاطمية. وحوت أجمل وأرقى مجموعة من القباب والمنارات والوجهات المبنية بالحجر. كما حوت نماذج ممتازة من البناء بالطوب.

حاتم البنا وولده:

من بنائي الدولة الفاطمية، قاما ببناء منارة بلال الفاطمية بشلالات أسوان، وكتبا اسميهما على بدن دورتها المستدير بالآجر الأبيض وبخط كوفي بما نصه: "عمل حاتم البنا وولده" وللمهندس السيد كامل عثمان غالب فضل توجيه الأنظار إليها وقراءة تلك الكتابة، وللمغفور له حسن الهواري فضل نشرها في المحاضرة التي ألقاها بالمجمع العلمي المصري.

مرتفع بن مجلي بن سلطان المصري:

وجدت اسمه منقوشاً على عتب باب مسجد اللمطي المنشأ بمدينة المنيا في سنة ٥٧٨هـ ١١٨٢م بما نصه: "هذا المسجد المبارك صنعة مرتفع بن مجلي بن سلطان المصري رحم الله من قرأ فدعا له ولوالديه بالرحمة" وهذا النص مطاط يجيز لنا أن نعتبره مهندساً كما يجيز لنا أن نعتبره بناء نفذ عمارة المسجد.

محمد بن القزاز:

كان نحاتاً عبقرياً، بنى منارتي مسجد المؤيد، وهما منارتان رشيقتان من عرائس منارات مصر، ومكتوب فوق باب المنارة الشرقية ما نصه: "عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير

إلى الله تعالى مُحَمَّد بن القزاز وكان الفراغ في أول رجب سنة اثنين وعشرين وثمان مائة".

وعلى المنارة الغربية: "أمر بإنشاء هذين المنارين سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره وذلك في .... العبد الفقير إلى الله تعالى مُحَمَّد بن القزاز والفراغ في شهر شعبان المعظم قدره سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة".

أسرة المعلم يونس البرلسي:

هي أسرة تولت بناء مسجد أحمد البجم بأبيار سنة ١٠٤١هـ ١٦٣١م، وكتب المعلم يونس اسمه على جانبي الباب العمومي بما نصه: "عمل المعلم يونس ابن المعلم عبد العزيز البرلسي" وكتب ابنه اسمه فوق شباك القبة بصحن المسجد "عمل الفقير فرحات بن يونس". وهو مسجد حوى الكثير من دقة البناء بالآجر المنجور في الباب وعقود المسجد وزخارف الشباك. ومن حسن الحظ معرفة أسماء بنائي المسجد ونجاره.

المعلم عطية الرشيدي:

من بنائي مسجد الحلبي بإدفينا المنشأ سنة ١١٧٠هـ ١٧٥٦م كتب اسمه على الباب البحري للقبة (عمل المعلم عطية الرشيدي المعروف بابن يوسف البنا). ولا شك أن لهذا البناء أثر في بناء دور رشيد المشهورة بجمال بناء الطوب فيها.

ويقرأ على محراب هذا المسجد "عمل المعلم سليمان البنه الأدفيني سنة ١٢٧٥هـ ١٨٥٨م".

عيسى:

هذا الاسم وجدته في السطر الأول من اللوحة التذكارية لإنشاء مسجد تربانة بالإسكندرية ونصها:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عمل عيسى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، هذا المسجد إنشاء الحاج إبراهيم تربانة سنة ١٠٩٧هـ ١٦٨٥م".

وكتابة اسم عيسى في رأس اللوحة وقبيل اسم المنشئ تجعلنا ننظر إليه كمهندس للجامع، ويحتمل أن يكون هو المعماري الذي نفذه.

الحاج يحيى.. والمعلم ر....:

بناءان نفذا بناء منارة مسجد الأمير حماد بميت غمر وكتبا اسميهما على قاعدتها "عمل

الحاج يحيى.. والمعلم ر... بإذن الأمير علي" سنة ١٠٩٨هـ ١٦٨٦م وهي منارة رشيقة مبنية بالآجر، تعطينا فكرة عن طراز منارات الوجه البحري.

المرخمون:

صناعة الرخام في آثار مصر ممتازة، وبلغت من الرقي شأواً بعيداً، وقد تجلت دقتها في المحاريب وفي الوزارات والأرضيات الرخامية. ما بين ألوان مجمعة ومطعمة بالصدف ومنزلة في الرخام الأبيض، وما بين حفر بلغ منتهى الروعة في المحاريب وفي تراكيب القبور.

وقد حوت آثار مصر أغنى وأرقى مجموعة من أشغال الرخام ما اجتمعت في قطر آخر. وبالرغم من تدهور الفنون والعمارة في فترة الحكم العثماني فإن صناعة الرخام ظلت محافظة على روعتها وتقدمها إلى أول القرن التاسع عشر.

الحكم علي بن أبي العز المرخم:

نقش اسمه على شاهد قبر أبي عبد الله النفيس بن الأسعد فضائل المتوفي سنة ٦٤٥هـ ١٢٤٧م بمسجد أبي الفضل الوزيري بالمحلة الكبرى بما نصه: "هذا عمل الحكم علي بن أبو العز المرخم رحم الله من دعا له".

علي بن عمر:

من أنبغ المرخمين. صنع تركيبة رخامية على قبر أحمد من أهل ميافارقين حوالي سنة ١٣٣٥م بقبة القاصد. وفي هذه التركيبة نرى لوناً من الزخارف الجميلة التي تخللت الكتابات، كما نرى لوناً آخر من زخرفة رءوس الحروف، ونقش اسمه في دائرتين (عمله علي ابن عمر).

محمد بن أحمد- أحمد زغلش الشامي:

مرخمان كتبا اسميهما على جانبي باب قصر قوصون المنشأ حوالي سنة ١٣٣٨م وهو باب من أرقى الأبواب، لاشتماله على مقرنصات وكتابات دقيقة، وعمل هذين الصانعين قاصر على التكسية الرخامية، وعلى الإفريز الرخامي حول عتب الباب، وهو إفريز دقيق يعطينا لوناً من ألوان صناعة الرخام القليلة الانتشار. فألوان الرخام نزلت بتقاسيمها في لوح رخامي أبيض، والحشوات حفرت بزخارف متنوعة، كما تدل بقاياها النادرة. وكتبا اسميهما في

مستطيلين بما نصه: عمل مُحَمَّد بن أحمد – أحمد زغلش الشامي.

عبد القادر النقاش:

وهذا عميد من عمداء النقش في الرخام. نقش رخام مدرستين من أفخم مدارس دولة المماليك الجراكسة، هما مدرستا قجماس الإسحاقي وأبو بكر مزهر. وصناعته تعطينا لوناً جديداً من صناعة الرخام، ظهر في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وبه استعاضوا عن تجميع الرخام الدقيق بألوانه أو تنزيله في الرخام الأبيض، وطريقته أن تحفر النقوش في الرخام الأبيض ثم تملأ بالمعجون الملون. كتب اسمه في مسجد قجماس الإسحاقي المنشأ سنة ٨٨٥– ٨٨٦هـ ١٤٨٠– ١٤٨١م في دائرة زخرفية بتجويفة المحراب طرداً وعكساً بما نصه: "عمل عبد القادر النقاش". وكتبه بشكل زخرفي آخر في خواصر العقود، وكذلك كتب اسمه في خواصر عقود المدرسة المزهرية، وفي حجور الشبابيك بشكل زخرفي طرداً وعكساً، وهو في عمله الدقيق عبر عن عبقريته ودقة ذوقه.

علي بولاقي:

مرخم كتب اسمه وسط براعيم القرنفل على شاهد قبر إسماعيل بك دفتردار مصر المتوفى سنة ١١٣٣هـ ١٧٢٠م. وصناعة الرخام في تراكيب القبور في تلك الحقبة بلغت منتهى الروعة والإتقان.

المكفتون والنحاسون:

صناعة التكفيت، وهي تطعيم النحاس بالذهب والفضة زخرفاً وكتابة من أروج الصناعات في مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت لها سوق في مصر تعرف بسوق الكفتين، وبالرغم من رواجها وانتشارها في مصر فإن الكثير من القطع الأثرية البارزة في صناعتها تنسب للصناع الموصليين وكثير منهم توطن مصر وخلف بها طرفاً كثيرة، وظل مع ذلك معتزاً بنسبته إلى بلده، وهذا نراه في شمعدان بمتحف الفن الإسلامي إذ كتب صانعه عليه: "نقش مُحَمَّد بن حسن الموصلي رحمة الله عليه بمصر المحروسة".

ومتحف الفن الإسلامي غني بتوقيعات مجموعة من صناع النحاس ما بين مصريين وعراقيين وموصليين، وكفاه فخراً أنه حوى تلك الطرفة العالمية وهو ذلك الكرسي المكفت بالذهب والفضة باسم السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون والمنقوش على أرجله اسم صانعه

(محمد بن سنقر البغدادي) وتاريخ سنة ٧٢٨هـ ١٣٢٧م.

أحمد بن باره الموصلي:

مكفت ماهر صنع صندوقاً للربعة الشريفة مكفت بالذهب والفضة باسم الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٣هـ ١٣٢٣م وهو الآن مودع بمكتبة الجامع الأزهر. نقش اسمه تحت غطاء القفل بما نصه: "من صنعة أحمد بن باره الموصلي في شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة".

وجملة "من صنعة" تجعلني أعتبر هذه الطرفة من إنتاج مصنعه.

بدر بن أبي يعلا:

اسم صانع الثريا الكبيرة المودعة بمتحف الفن الإسلامي، وهي من النحاس الأصفر مكونة من خمس طبقات، فرغت أضلاعها بنقوش هندسية متنوعة، وهي باسم الأمير قوصون مؤرخة سنة ٧٣٠هـ ١٣٣٠م. يقول صانعها بدر بن أبي يعلا كما هو مكتوب عليها: إنه أتمها في مدة أربعة عشر يوماً. وإني قليل الإيمان برواية الفراغ منها في تلك المدة القصيرة، اللهم إلا إذا كانت نماذج أضلاعها مصبوبة ومتوفرة لديه فيكون قضى تلك المدة في تجميعها وهو ما أرجحه.

القاشاني:

لم تركز صناعة القاشاني في مصر وما استعمل منه في دولة المماليك البحرية كان فارسياً ومن لون واحد، ثم انتشر استعمال ترابيع القاشاني ذات الرسوم النباتية والزهور. وهذا اللون أكثره مستورد من كوتاهية، ولذلك نرى الآثار التي أنشئت بمصر ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي حافلة بهذا النوع.

وفي القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي ظهر نوع من القاشاني ترابيعه صغيرة ١٠×١٠ شاع استعماله بالإسكندرية ورشيد ودمياط. وهذا النوع اعتبره المغفور له هرتس باشا دليلاً على اشتراك صناع المغرب في صناعة الخزف المصري، خصوصاً وأنه عرف باسم زليزلي، وهو الاسم الذي يطلق عليه في بلاد المغرب. ومنهم من توطن الإسكندرية وغمرها هي ورشيد ومصر بمنتجاته ومنهم الصانع الذي نقدمه.

الحاج مسعود السبع:

صانع القاشاني الذي كسا وجهة الباب الداخلي لمسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية المنشأ سنة ١١٧١هـ ١٧٥٧م كتب اسمه بخط صغير بداخل العقد المدايني بنهاية الباب بما نصه: "عمله الأسط الحاج مسعود السبع".

وإذا اعتبرنا كسوة جدران المسجد والمحراب وهي من ترابيع كبيرة تكون زهريات تنتهي من أعلاها بهلال من عمله أيضاً، فإن هذا الصانع يعتبر مغربياً توطن مصر وأنتج قاشانيا مغربياً ذا ترابيع صغيرة. ثم أنتج قاشانيا آخر من ترابيع كبيرة يجاري بها القاشاني المنتشر في البلاد. مما ساعد على انتشار منتجاته في مصر والإسكندرية. وقد نقلت زهرية مكونة من ترابيع القاشاني من منزل نفيسة الجاسوسة بالقاهرة إلى متحف الفن الإسلامي، وهي طبق الأصل مما هو موجود في محراب ووزرة هذا المسجد.

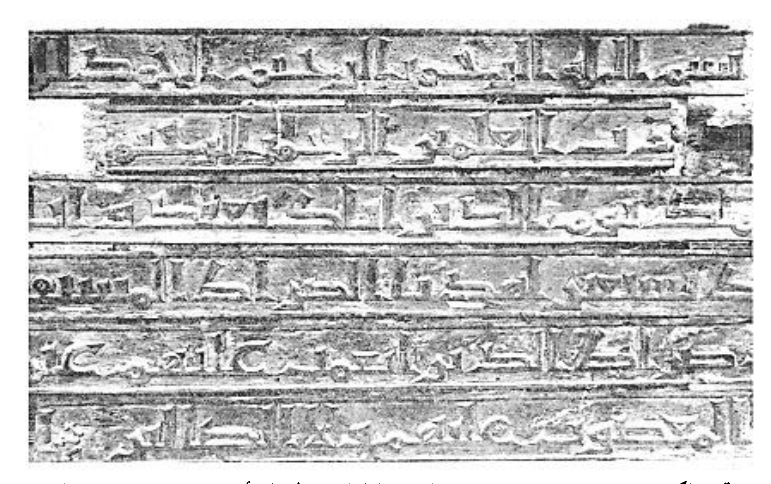
الصاغة:

انتشرت بمصر كسوة الأبواب بالنحاس المفرغ بأشكال هندسية وزخرفية منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى القرن الثامن عشر الميلادي، بينما استعملت الكسوة بالفضة في أبواب الحرمين الشريفين، وفي العتبات الشريفة بالعراق. أما الكسوة بالفضة فلم تستعمل في مصر إلا في مشاهد أهل البيت في القرن الثامن عشر الميلادي.

يهوده أصلان:

اسم صانع قام بصناعة رقائق الفضة المكسو بها باب المشهد الزينبي المودع الآن بمتحف الفن الإسلامي، زنقش اسمه على ضبة الباب. والمرجح أن هذا الباب مخلف من العمارة التي أجراها به الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٤هـ ١٧٦٠م وهي رقائق مطرقة بأشكال زخرفية ونباتية مكونة من إطار حوله وزوايا وبخارية بالوسط يحيط بها أربع نهود.

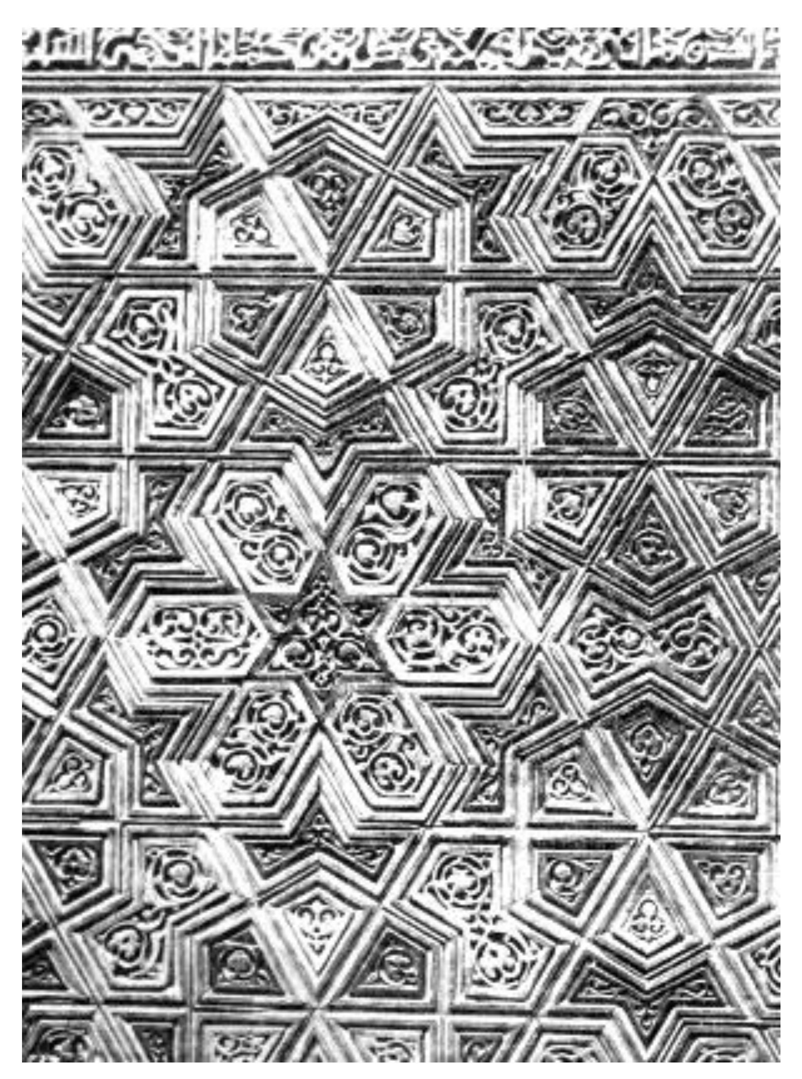
هذه صورة مشرفة لهؤلاء العباقرة الذين أرضوا فنهم وأخلصوا له، فشادوا مجدنا الخالد، وتراثنا الفني المجيد، وهم جند مجهولون.



سورة فاتحة الكتاب مجمعة من إزار سقف الجامع الطولوني المحيط بأروقة إيواناته، وعلى ظهر بعض الألواح اسم مُحَمَّد بن عينو، المرجح أنه أحد نقاشي كتابة الألواح

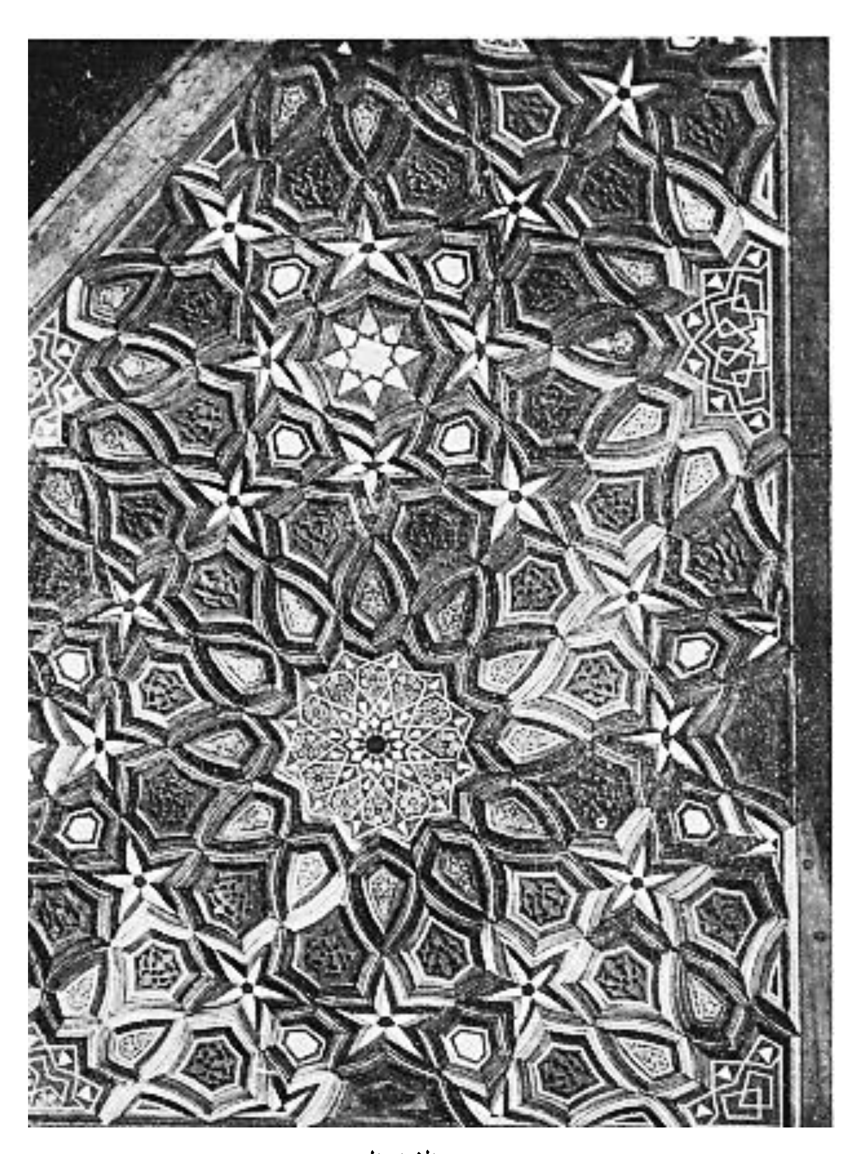
مُحَمَّد بن عينو

اللوحة ١



تفاصيل من تابوت الإمام الشافعي

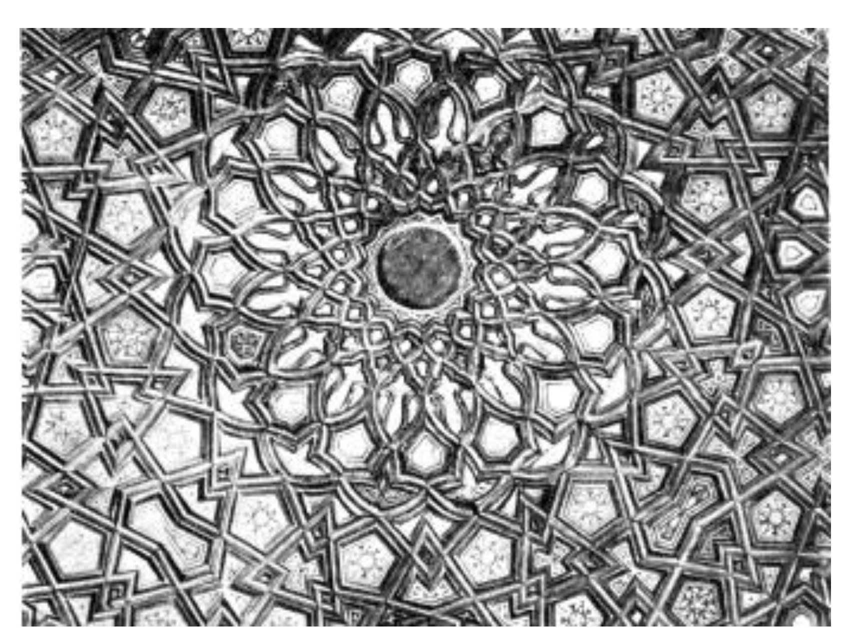
اللوحة ٢



منبر مسجد الإمام الغمري

صناعة المعلم أحمد بن عيسى الدمياطي القاهري

اللوحة ٣

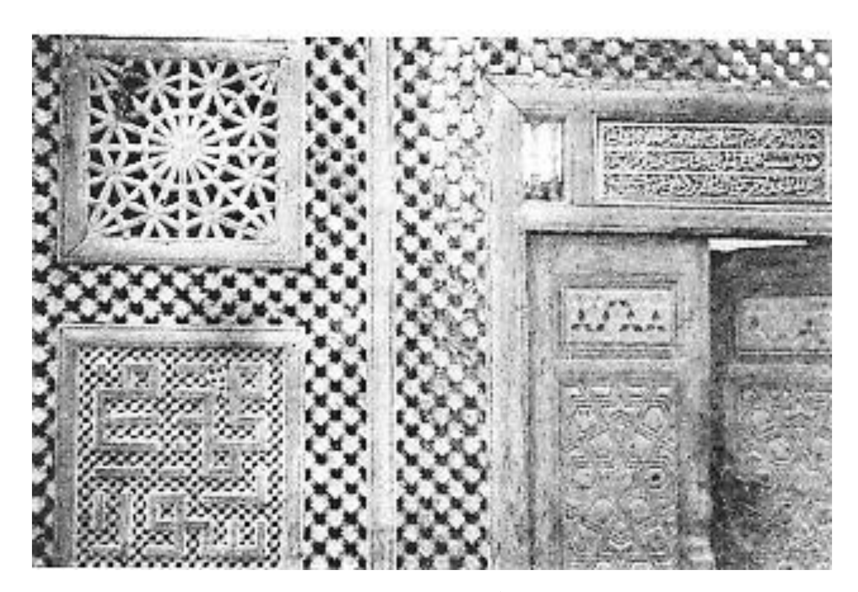


تفاصيل من منبر مسجد (أبو العلا)



نجارة علي ابن طنين

اللوحة ٤



عمل المعلم عبد الرحمن يوسف

مقصورة المسجد الكبير بديروط بحري ومكتوب عليها ما نصه

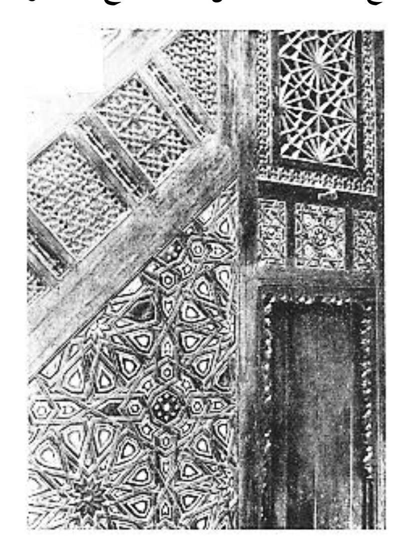
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أنشأ الجناب العالي الأمير سليمان جوربجي عزبان جلفي– هذه المقصورة المباركة لمولى الله تعالى سيدي عبد الرحيم أبو شوشة– عمل المعلم عبد الرحمن يوسف النجار الديروطي في غرة رمضان سنة ١١٤٦

اللوحة ٥

اسم الصانع بالكوفي المربع مطعماً بالسن "عمل عبد المولى"

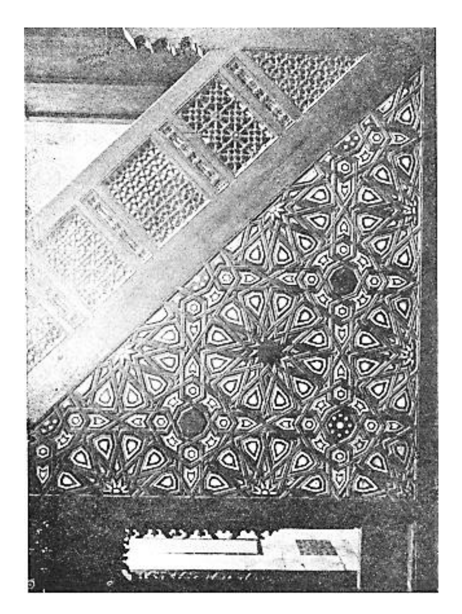


اسم الصانع بخط الثلث "عمل السيد الحاج عبد المولا الطويبي"



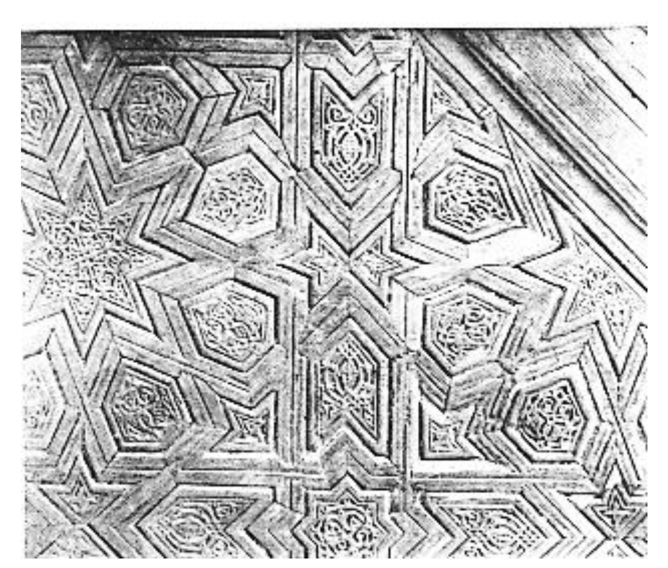
تفاصيل من منبر مسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية وبأعلاها اسم النجار: عبد المولا الطويبي

اللوحة ٦



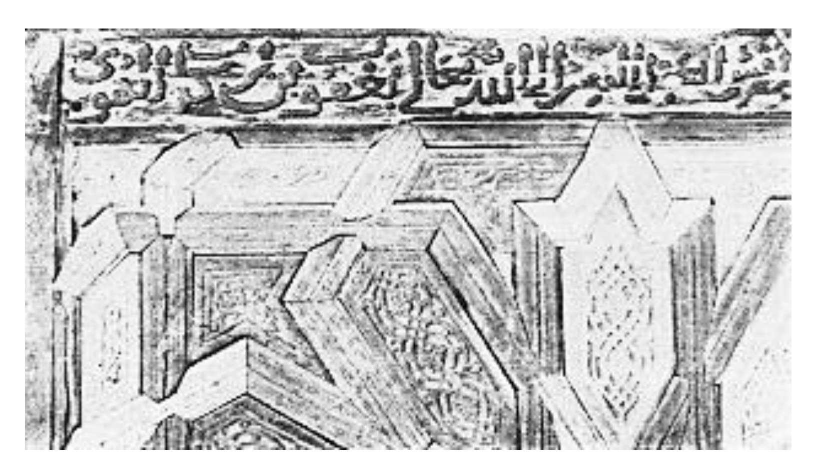
الريشة اليسرى لمنبر مسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية

اللوحة ٧



منبر مسجد فرشوط بمسجد الظاهر بيبرس البندقداري

اللوحة ٨



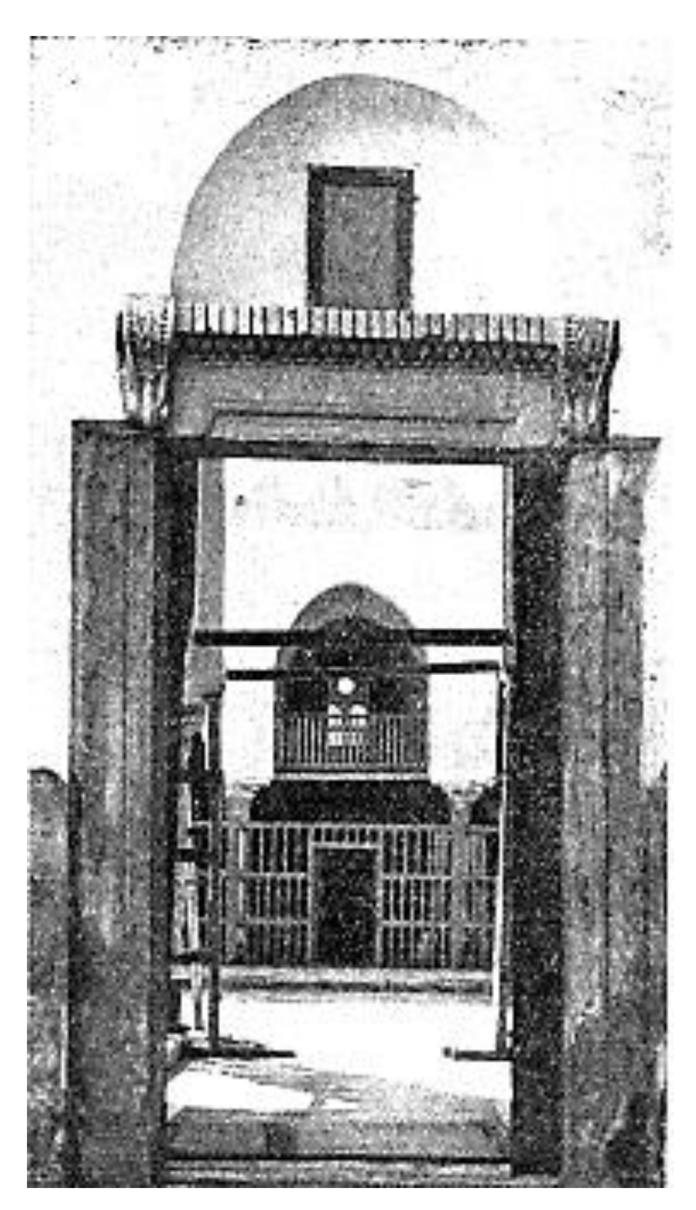
نقش يعقوب بن بركات الهوى

اللوحة ٩



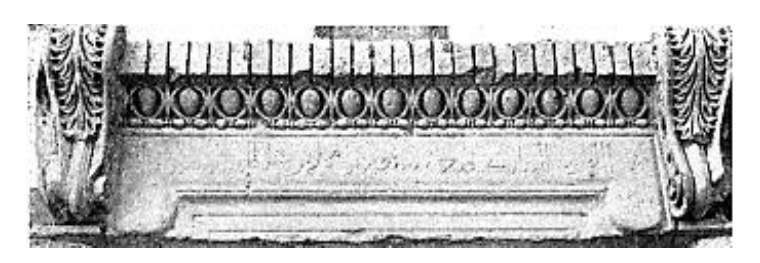
عمل حاتم البنا وولده

منارة مسجد بلال، بشلالات أسوان



باب مسجد اللمطي بالمنيا

اللوحة ١٠

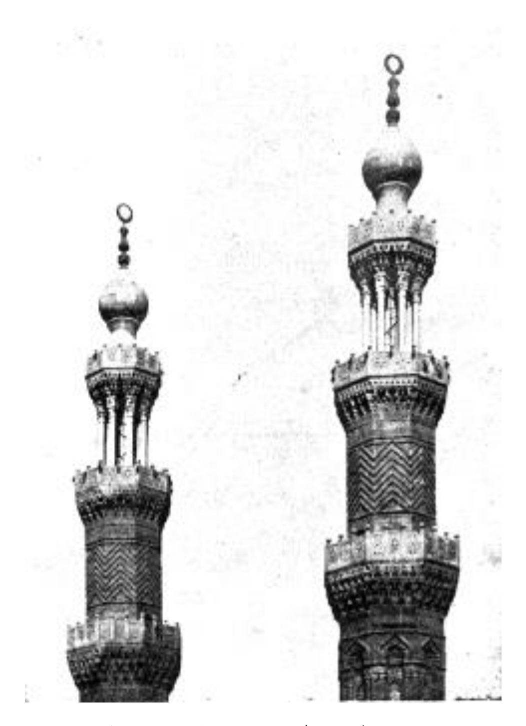


مرتفع بن مجلى مهندس مسجد اللمطي أو بناؤه

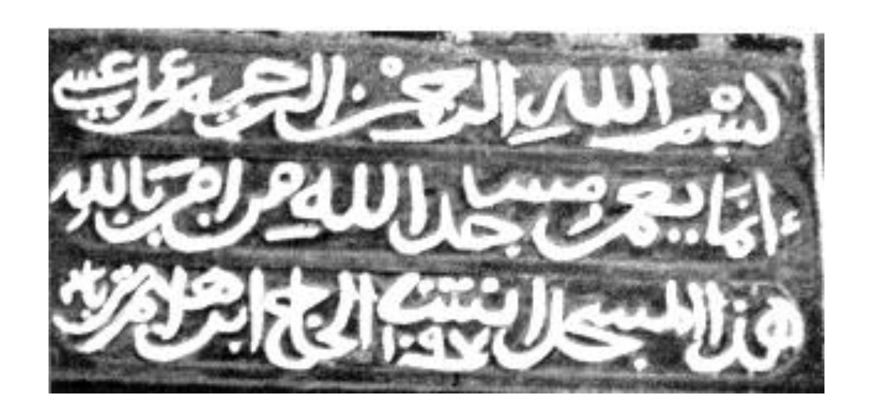


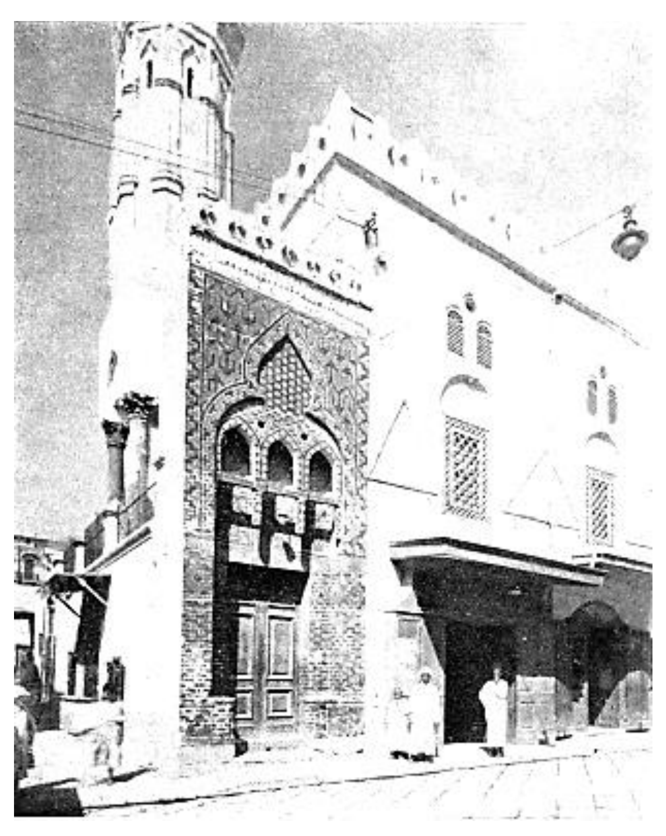
عمل مُحَمَّد بن القزاز

اللوحة ١١



منارتا الجامع المؤيدي – فوق باب زويلة





مسجد الحاج إبراهيم تربانه بالإسكندرية

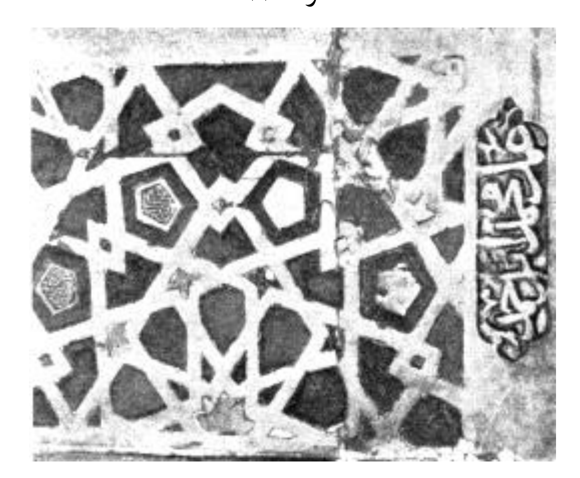
اللوحة ١٢



تابوت ضريح أحمد من أهل ميافارقين، بقبة القاصد بشارع باب النصر

واسم الصانع مكتوب في دائرتين .. عمله علي– ابن عمر

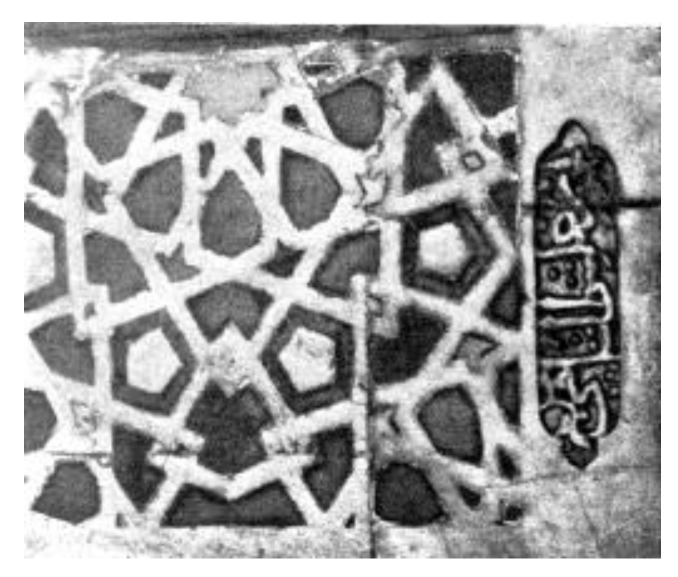
اللوحة ١٣



عمل مُحَمَّد بن أحمد

تفاصيل من صناعة الرخام في باب قوصون

اللوحة ١٤



أحمد زغلش الشامي

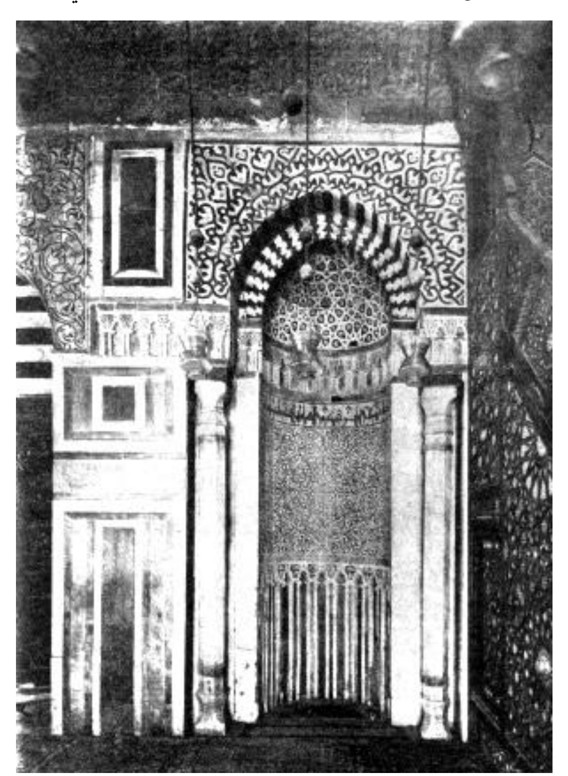


عمل عبد القادر النقاش بالمدرسة المزهرية

اللوحة ١٥



عمل عبد القادر النقاش بمسجد قجماس الإسحاقي

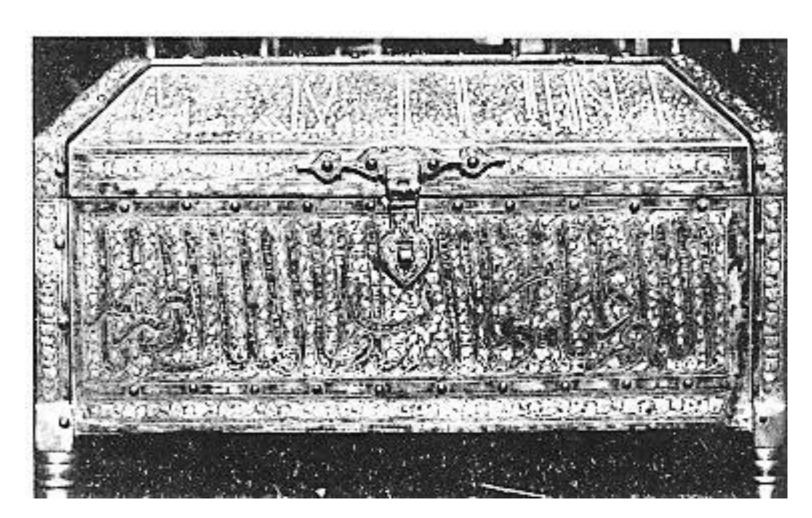


محراب مسجد قجماس الإسحاقي



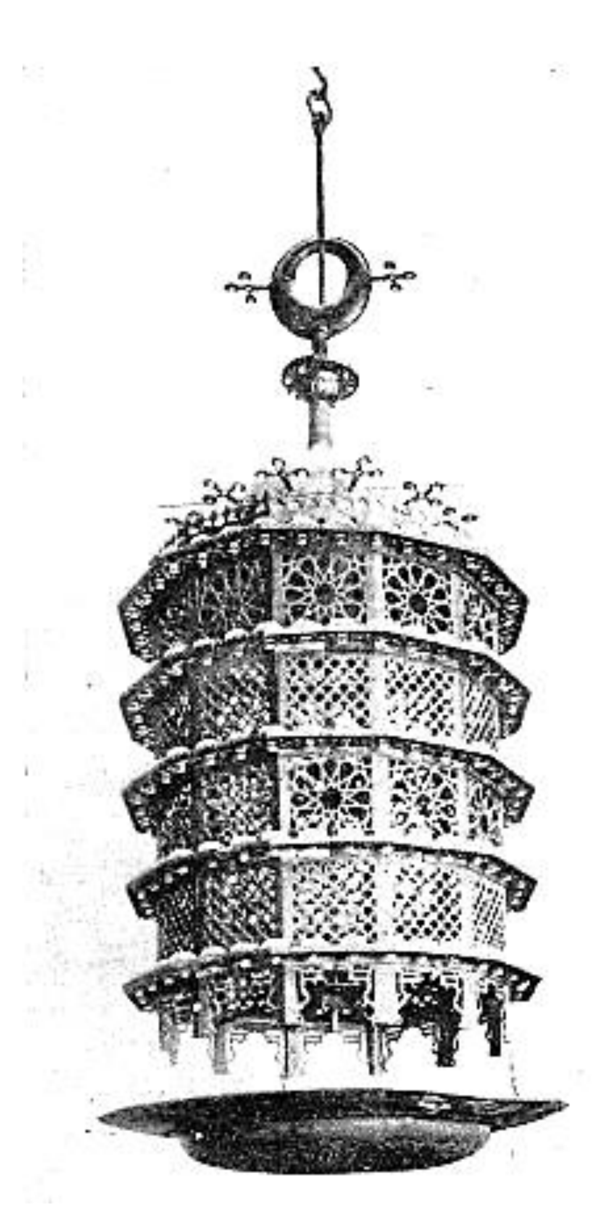
من صنعة أحمد بن باره الموصلي

سنة ٧٢٣هـ



صندوق لحفظ أجزاء القرآن – مطعم بالذهب والفضة بمكتبة الجامع الأزهر

اللوحة ١٦



تنور من النحاس باسم الأمير قوصون صناعة بدر بن أبي بعلا

اللوحة ١٧

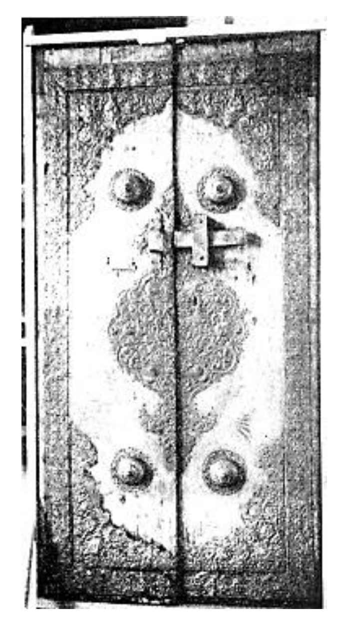


الباب الداخلي لمسجد عبد الباقي جوربجي بالإسكندرية ويتوسط العقد العلوي اسم صانع القاشاني بما نصه:– عمله الاسط الحاج مسعود السبع

اللوحة ١٨



يهوده أصلان



باب مصفح بالفضة من مسجد السيدة زينب

اللوحة ١٩

خانقاه فرج بن برقوق وما حولها

اخترت هذه الخانقاه من بين آثار القرافة الشرقية، لأنها أكبر بناء أثرى في قرافات مصر، فهي تشغل من الأرض ما مساحته ٧٥٠٠ مترًا، وحوت من المميزات المعمارية ما لم يوجد في غيرها، ولاكتشاف تفاصيل معمارية منقولة إليها، ولاكتشاف نص تاريخي فريد في تركيبه.

وفي الوقت نفسه فهي مقبرة للعظماء، حيث ضمت رفات صفوة من علماء مصر والصالحين.ويحلو لي قبل أن أتناول تلك الخانقاه بالدرس، أن أتناول تاريخ المنطقة التي احتوتها، ولأصوب التسمية التي أطلقت عليها. فقد عرفت في كتب السياحة وغيرها "بقرافة الخلفاء" وهي تسمية غير صحيحة حيث لا يوجد بها قبر لخليفة عباسي أو غيره. بل هي مليئة بالآثار الإسلامية المنشأة في دولتي المماليك البحرية والجراكسة، والمجموعة العظمى منها ترجع إلى دولة المماليك الجراكسة– إذن فهي جديرة بأن تسمى "مقابر المماليك".

وهي محصورة فيما بين قبة قانصوه أبو سعيد، في الطرف الشمالي لها، وبين مسجد تنكزبغا، في الطرف الجنوبي، عند قنطرة السكة الحديد الفاصلة بين تلك القرافة وقرافة باب الوزير، وكلاهما فيما بين القلعة والعباسية.

وتلك المجموعة العظيمة الباقية تكاد تكون نصف ما كان هناك من الآثار ما بين مساجد، وخوانق، وقباب، فقد كان فيها قبة النصر، ومدارس وخوانق بأسماء: القاضي عبد الباسط، أبو بكر مرهر، قجماس بن عم الظاهر برقوق. القاضي يحيى، جاني بك الناصري، ابن فضل الله، يلبغا العمري، محب الدين المصري، تربية الروضة، طغاي النجمي، طشتر طلليه، أرنان، يشبك الفقيه، سودون الفخري، كمشبغا الحموي.

وبلغ من ازدحام تلك المنطقة بالآثار في أواخر دولة المماليك الجراكسة، أن ابن اياس المؤرخ، انتقد السلطان قانصوه أبو سعيد، حينما أنشأ قبته الموجودة في الطرف الشمالي للمنطقة.. بأنه ضيق بها الطريق على المارين هناك[1].

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٢ ص ٣٦٩

ميدان القبق

وكانت تلك المنطقة قبل أن تنشأ فيها تلك المجموعة الفريدة ميدانًا من أقدم الميادين الرياضية، أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٦ هـ ١٢٦٧ م وفيه درب الجيش كما درب الشعب على جميع أنواع الفروسية، من حركات ورمي بالنشاب، ولعب بالرمح، ومصارعة.

وبلغ من اهتمام الظاهر بيبرس بتدريب الجنود وأفراد الشعب، أنه كان ينزل كل يوم إلى شرفته بالميدان، من الظهر إلى الغروب، مشتركًا في الرماية، مشجعًا الشعب على أساليب القتال والمبارزة بالرمح والرمي بالنشاب [١]، حتى أقبل الناس على التدريب على أنواع الفروسية، وكثيرًا ما أقيمت حفلات الفروسية ما بين خواصه ومماليكه تولى فيها توزيع الجوائز على الفائزين من المتبارين، وكان لهذا التشجيع أحسن الأثر في تدريب الشعب خاصته وعامته على جميع أنواع الفروسية، حتى شمل جميع الطوائف.

ظل هذا الميدان من بعده في دولتي المماليك، ميدان رهان، يتبارون فيه في ألعاب الفروسية، وحلبة لسباق الخيل، كما كان ميدانًا للعبة القبق فعرف بها.

لعبة القبق

والقبق هو الهدف. وهي لعبة انتشرت في الأقطار الإسلامية، ومنها مصر وخاصة في دولتي المماليك اهتم بها هواة الرماية. وكانت طريقتها، إقامة صار طويل من خشب في قمته كرة من ذهب، أو فضة بمثابة هدف، بداخلها طير حمام، ثم يتبارى اللاعبون في اصابته بالنشاب أو السهام، وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب الهدف وأطار الحمام حاز السبق وأخذ الكرة المعدنية مكافأة له.

ومنها فرع آخر يكون فوق الصاري دائرة من خشب، يرمي عليها الرماة كي يمر الهدف منها، ولعل الشرفة الملاصقة للباب البحري لخانقاه فرج بن برقوق حلت محل شرفة الظاهر بيبرس. حيث جدد إنشاءها الناصر فرج بن برقوق عند إنشائه الخانقاه واهتمامه ببقايا هذا الميدان.

---

(١) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ١١١

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥١٨

ظل هذا الميدان ميدان رياضة إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ثم أنشئت فيه المساجد والمدارس والخوانق حتى ضاق طريقه، واتصلت المباني من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية، وبطل السباق منه ورمي القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون.. ويقول المقريزي المؤرخ المتوفي سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م[١] "وأنا ادركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق بين كل عمودين مسافة بعيدة. وما برحت قائمة هناك إلى ما بعد سنة ٧٨٠ هـ ١٣٧٨ م فهدمت عندما عمر الأمير يونس الدوادار الظاهري تربته تجاه قبة النصر، ثم عمر أيضًا الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق تربة هناك، وتتابع الناس في البنيان إلى أن صار كما هو الآن".

ورغم فقدان الكثير مما كان في هذه المنطقة، وقد سبقت الإشارة إلى جزء منه، فإن البقية الباقية تكون ثروة عمارية لم يجتمع مثلها في صعيد واحد مثل ما اجتمعت هناك، وهي محيطة بالخانقاه، وفي طريقها من أي طريق يوصل إليها.

وهي ما بين آثار مكتملة بقبابها ومناراتها، وما بين قباب. مفردة تنوعت نقوشها تخطف الأبصار بجمالها ورشاقتها، وتستوقف الزائر أمامها متسائلًا عن تاريخها.

وعلى ذكر خانقاه يونس الدوادار، أذكر أنها هي اللبنة الأولى في علاقة. الملك الظاهر برقوق بتلك المنطقة، ذلك أنه لما توفي والده سنة ٧٨٣ هـ ١٣٨١ م وكان وقتئذ أميرًا، دفن في قبة خانقاه يونس الدوادار، وكتب عليها: لما كان بتاريخ يوم السبت ١٨ شوال سنة٧٨٣هـ توفى المرحوم الشرفي أنس تغمده الله برحمته والد المقر الأشرف العالي السيفي برقوق أتابك العساكر عز نصره.

وبسبب هذه الكتابة عرفت القبة بأنس وسجلت ضمن الآثار بهذا الاسم إلى أن صوبت التسمية وأطلقت عليها أسم منشئها "يونس الدوادار" لأن بقية المؤرخين [٢] ذكروا، أنه لما توفى والد برقوق دفن في قبة يونس الدوادار وأن الظاهر برقوق لما أتم بناء مدرسته بالنحاسين نقل رفاة والده إلى قبتها[٣]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن تفاصيلها

---

(١) المواعظ والاعتبار جـ ٣ ص ١١٣

(٢) أنباء الغمر لابن حجر العسقلاني (خط) والمنهل الصافي جـ ١ ص ٢٦٩ (خط) والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢١٨ ونزهة النفوس والابدان جـ ١ ص ٣٧ (خط).

(٣) المنهل الصافي لابن تغري بردي جـ ١ ص ٣١٧ (خط) والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢١٩

المعمارية تضعها ضمن منشآت المماليك البحرية. وهي الباقية من الخانقاه، وقاعدتها مبنية بالحجر، أما القبة فقد بنيت بالآجر، وهي مضلعة من الخارج، والتضليع مفرغ من الداخل، وكانت رقبتها مكسوة بنقوش وكتابات جصية. وبها محراب رفيع له طاقية مقرنصة من الجص.

ومن عجب أن الأمير يونس أنشأ هذه القبة وقبة أخرى نادرة بالحطابة ولم يقدر له أن يدفن في أحداهما.

وهذا ما علق عليه المقريزي، لما ذكر وفاته سنة ٧٩١ هـ ١٣٨٨ م بأنه لم يعرف له قبر رغم أنه أعد لنفسه عدة مدافن في غير ما مدينة من مصر والشام[١].

وبسبب دفن الأمير أنس في هذه القبة وقع اختيار الظاهر برقوق على المساحة التي تشغلها الخانقاه المجاورة لها وأمر بتسويرها وإنشاء عدة قبور بها دفن فيها مماليكه وأقاربه وجماعة من العلماء والصالحين ممن كان يعتقد فيهم، اذكر منهم:

الشيخ طلحة المغربي المصري الصالح المجذوب المتوفي سنة ٧٨٤ هـ[٢] ١٣٩١م.

الشيخ أمين الدين الخلوتي. والمجذوب أحمد الزهوري[٣].

الشيخ الصالح أبو بكر البجائي المغربي المصري المجذوب وكانت له كرامات وللناس فيه اعتقاد توفى سنة ٧٩٧ – ١٣٩٤ م[٤].

العالم الجليل أحمد بن مُحَمَّد السيرامي الحنفي، كان عالمًا جليلًا وكان ورعًا متعبدًا، استقدمه الظاهر برقوق، ليتولى التدريس بالمدرسة الظاهرية ومشيخة الصوفية بها توفي سنة ٧٩٠ هـ ١٣٨٩[٥].

ولما شعر الملك الظاهر برقوق بدنو أجله، كتب وصيته وأوصى فيها أن يعمر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدوادار بثمانين ألف دينار، ويشترى بما

---

(١) المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٢٦

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ ٩ قسم ٢ ص ٣٢٠

(٣) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٤

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٩ قسم ٢ ص ٤١٨

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٩ مجلد ١ ص ٤٤

فضل من عمارة التربة المذكورة عقارًا ليوقف عليها، وأن يدفن في لحد تحت أرجل الفقراء[١] المدفونين هناك.

ولما توفى في ١٥ شوال سنة ٨٠١ نفذ ابنه الناصر فرج وصيته ودفن بين هؤلاء العلماء، وأقام على قبره خيمة[٢] وشرع في البناء.

خانقاه فرج بن برقوق:

اهتم الناصر فرج الذى ولى الملك عقب وفاة والده بتنفيذ الوصية، فابتدأ ببناء القبة البحرية فوق قبر والده والعلماء المدفونين بجانبه، وقد وضع مهندسه مشروعًا كبيرًا راعي في تصميمه الانتفاع به لعدة أعراض:

١- جامع فسيح اجتمعت فيه جميع عناصر المساجد.

٢- قبتان أحداهما للظاهر برقوق وأولاده ومن دفن من العلماء والصالحين، والثانية لأفراد أسرته من السيدات.

٣ - خانقاه لإقامة الصوفية اشتملت على حجرات تعلو بعضها مع مرافقها.

وقد اهتم الناصر فرج بعمران ما حولها، فنقل سوق الخيل والجمال من تحت القلعة إلى الفضاء أمامها، واشتمل المشروع على إنشاء خان كبير ينزل فيه المسافرون ويجعل بجانبه سوقًا، وأنشأ طاحونًا وحمامًا، وفرنًا لتعمر تلك الجهة بالناس، وبسبب قتله، لم يتم بناء الخان، وخلت الحمام والطاحون والفرن[٣].

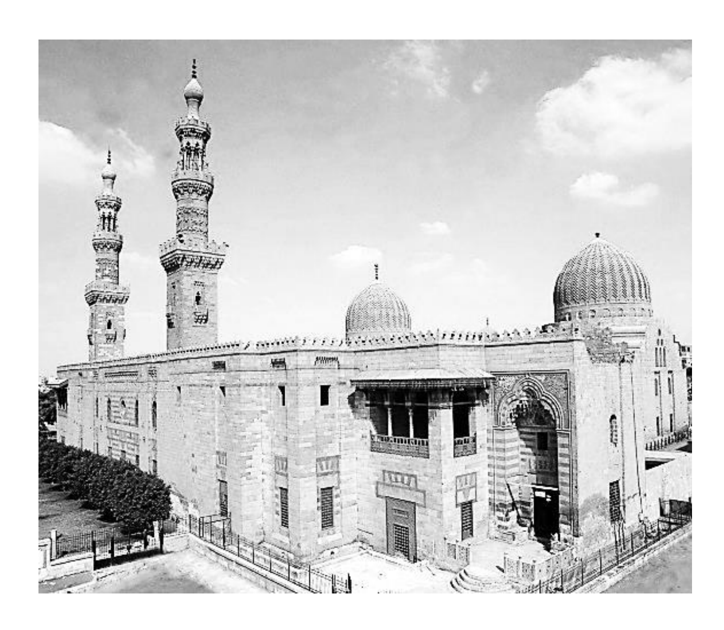
وقد نجح مهندسه في إنشاء تلك المجموعة على تلك المساحة، وكان جريئًا في تشييدها على سطح الأرض بغير أساس اعتمادًا على تحجر الطبقة الرملية هناك.. وتعرف عند المعماريين (باسم يلتف) ونهج في تصميمها نهجًا خالف فيه بناء مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق بالنحاسين من كافة التفاصيل مما لا يدع مجالًا للشك في أن المهندس غير المهندس.

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٣- ١٠٤

(٢) ابن اياس جـ١ ص ٣١٧

(٣) المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٦٤.



جامع فرج بن برقوق

أقيمت الخانقاه وملحقاتها على أرض تكاد تكون مربعة، حيث شيد لها أربع وجهات، الجنوبية منها تسودها البساطة.. أما الواجهة الغربية، فإنها تسترعى النظر بفخامتها ودقة تتناسب أجزائها، إذ يتوسطها منارتان رشيقتان من ثلاث دورات، قاعدتهما مربعة يعلوهما بدن مستدير حلى بجفوت متقاطعة تربطها ميمات، وهذا النوع من الزخرف أقدم ما وجد من نوعه في منارة مسجد آسنبغا سنة ٧٧٣هـ ١٣٧٠ م، ثم في قبة خديجة أم الأشرف منتصف ١ القرن الرابع عشر الميلادي، وبعد ذلك رأيناه في قبة تغري بردي بالصليبية ٨٤٤ هم ١٤٤٠م ثم في منارة مسجد قراقجا الحسني سنة ٨٤٥ هد ١٤٤٢م.

وينتهي طرفها الجنوبي بمدخل رئيسي للخانقاه، حلي بمقرنصات دقيقة وكتب على جانبيه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه الخانقاه الشريفة السلطان الأعظم مالك رقابنا سيد ملوك العرب والعجم مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبو السعادات فرج بن برقوق أدام الله أيامه.

يجاوره سبيل يعلوه كتاب، وبواجهته القبلية حوض لشرب الدواب ولعله ثاني

الأحواض الباقية، وهو وضع غير موفق، وقد سبقه في هذا الخطأ مهندس مدرسة المنصور قلاوون مما دعا ابنه الناصر مُحَمَّد إلى تغييره بسبيل.

يلي الباب المذكور دركاة مصلبة يتوسطها قبة صغيرة بجوانبها مقرنصات بدلايات، وظهر عقد الباب ملبس بأشرطة حضرية بيضاء وحمراء. وفي جدارها الشرقي باب يؤدي إلى مرافق الخانقاه.

ومن تلك الدركاه، يتوصل إلى استطراق طويل بأوله على اليسار باب السبيل المنخفض عن مستوى الاستطراق، وكان هذا السبيل والكتاب أعلاه مهدومان فأعيدا على مثال صنوهما في الطرف الشمالي.

وقد ثبت على جدار السبيل لوحة رخامية، كانت مطمورة في أرضية القبة البحرية مكتوب عليها:

نشـــــر المــــــاء در عقـــــد عليـــــه فتحلـــــت بمثـــــل حلـــــى العقـــــودي

ولعلها مخلفة من أحد السبيلين.

غير أن الذي يسترعى النظر في هذا السبيل وجود باب كبير معقود في جانبه البحري له عقب وسكرجه يوصل إلى دركاة مربعة، بصدرها مسطبة بجانبها الشرقي باب كبير بني نصفه الأسفل إلى مستوى أرضية الاستطراق وهو وضع غير طبيعي.

ولا يسعني إلا القول بأن هذا القسم مع ما كان يتصل به مخلف من بناء أسبق من الخانقاه وأدمج فيها، وفي هذا الاستطراق باب يؤدي إلى خلاوى الصوفية متقابلة، وتعلو بعضها، وملحق بها دورة مياه بمرافقها مازالت محتفظة بتفاصيلها.

وينتهى الطرف البحري الغربي بسبيل يعلوه كتاب يجاوره باب في الطرف البحري الغربي، وهو باب احكمت مقرنصاته. ومصراعه مغشى باشرطة حديدية، وتكسية الأبواب بأشرطة حديدية في هذه الخانقاه وفي بعض آثار المنطقة، في الوقت الذي شاع فيه تكسية الأبواب بالنحاس المزخرف الجميل، تحرز من المهندس خوفًا من سرقتها لعدم عمران المنطقة وتحولها إلى قرافة، ومكتوب على جانبي الباب ما نصه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ادخلوها بسلام آمنين. أمر بإنشاء هذه التربة المباركة من فضل

الله تعالي مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد مرقوق تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته يارب العالمين. وكان الفراغ من هذا المكان المبارك في سلخ سنة ثلاث عشر وثمانمائة.

وفوق المسطبة اليسرى للباب مكتوب: "عمرت هذه الخانقاه بمباشرة الجناب العالي لاجين الطرنطاي غفر الله له".

ومن هذين النصين، وقفنا على تاريخ الفراغ من العمارة التي استغرقت ثلاثة عشر عامًا، كما وقفنا على اسم المباشر لعمارتها.

والمباشر للعمارة، هو المشرف على حساباتها، والصرف عليها.

وهذا الباب يؤدى إلى حجرة السبيل، وإلى قسم من الخانقاه به حجرات للصوفية متقابلة تعلو بعضها.

ومن استطراق يقابل استطراق الباب القبلي نصل إلى صحن الخانقاه. وقد احدقت به أربعة أيوانات بالقبلي والبحري منها حجرات للصوفية.

ومكتوب بأعلى واجهة الايوان الشرقي ما نصه:

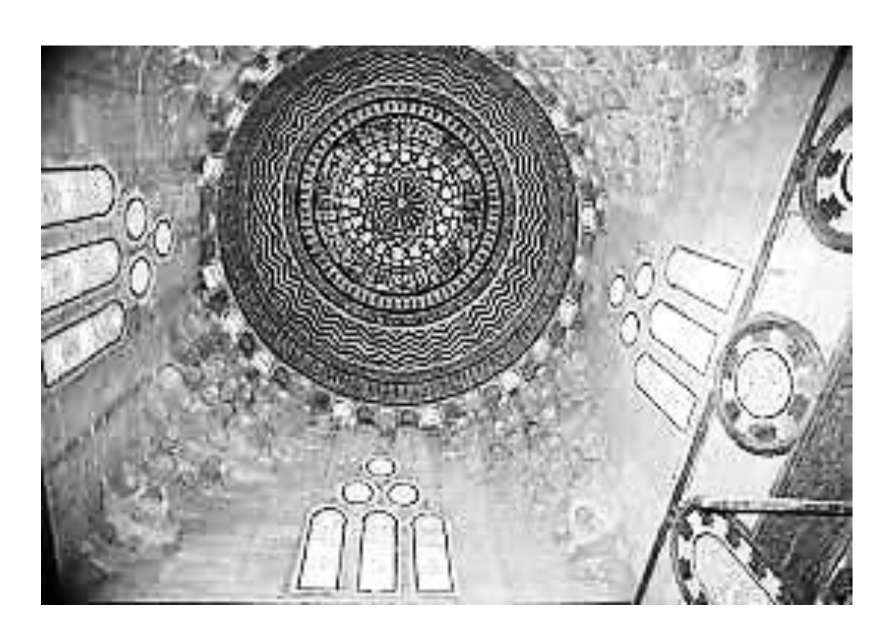
أمر بإنشاء هذه التربة مولانا وسيدنا ومالك رقابنا السلطان المالك الملك الناصر ناصر الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين. محيي العدل في العالمين كهف الفقراء والمساكين السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد برقوق صاحب الديار المصرية.

ويحيط بالصحن عدة أبواب تؤدى إلى الخانقاه وإلى ملحقات "قاعة" خلف السبيل القبلي وإلى المنارتين. كتب عليها اسم الناصر والدعاء له دون ذكر تاريخ بما نصه: "عز لمولانا السلطان المالك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد برقوق أدام الله أيامه ونشر في الخافقين أعلامه".

كما يحيط به الأيوانات الأربع الشرقي والغربي بكل منهما ثلاثة أروقة إلا أن الشرقي أكبر. وقد غطيت الأيوانات بقباب صغيرة من الأجر محمولة على عقود متكئة على أكتاف حجرية أبدانها مثمتة، وهو طراز لم نألفه في منشآت المماليك الجراكسة، وتسود الايوانين

البساطة.

وبالايوان الشرقي محراب حجري عار من الزخرف ومن الرخام، غير متجانس العمد، ارجح أنه من أثر عمارة اجريت به في وقت ما، تعلوه قبة صغيرة من الأجر مضلعة من الخارج، كانت منقوشة ومكتوبة من الداخل بالبوية، وهي في طرزها مازالت متأثرة بقباب المماليك البحرية.



باطن قبة الرجال في خانقاة فرج بن برقوق

ويجاور المحراب منبر حجري يعتبر طرفة نادرة، أمر بعمله السلطان قايتباي وكتب عليه ما نصه: أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي أعز الله انصاره بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمان مائة من الهجرة النبوية الشريفة.

وهذا المنبر قيم ونادر، وهو كبقية منشآت السلطان قايتباي دقيق الصناعة، فقد قسمت جوانبه إلى أطباق ملئت بحشوات دقت، بزخارف لا تقل دقة عن مثيلتها في السن والخشب، كما زخرفت قوائمه وشقق درابزينه ومقدمه وجلسة الخطيب والمقلة فوقها بهذا النوع من الزخرف. فهو وحيد في طرزه وجمال زخارفه.

نعم يوجد منبر حجري آخر في مسجد الأمير شيخو بالصليبة، عمل له سنة ٩٦١ هـ ١٥٥٣ م، ولكنه لا يصل إلى مستوى هذا المنبر، كما وجدت منابر رخامية في مسجدي آق سنقر ٧٤٨ هـ ١٣٤٨م، والسلطان حسن ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م ولكنها دون هذا المنبر.

وكذلك أمر السلطان قايتباي بعمل دكة للمبلغ، لم يبق منها سوي لوحتها الخشبية التذكارية المثبتة فوق الدكة الحالية المحدثة.

لم تقف عناية السلطان قايتباي عند هذا الحد، بل وجه عنايته إلى صوفيتها أيضًا والصرف عليهم، فقد زار في سنة ٨٩١ هـ ١٤٨٦م قبر الظاهر برقوق وعاين الخانقاه. وبعد عودته إلى القلعة عهد إلى الأمير سرور شاد الحوش بالعناية بمصالح الصوفية[١].

وبطرفي هذا الايوان قبتان كبيرتان، اكسبتا الواجهة الشرقية منظرًا جميلًا مع القبة الصغيرة بينهما فوق المحراب، أحداهما القبلية، وهي قبة كبيرة مبنية بالحجر، حلى سطحها بنقوش دالية وبها هلال به زورق صغير. ومن الداخل حليت بنقوش وكتابات بالبوية، يتوسط جدارها الشرقي محراب رفيع مغشي بالرخام الملون خلفه حجرة، وبالجدار القبلي باب يؤدى إلى قاعة يتوصل إليها من الصحن أيضًا ويحيط بمربعها طراز مكتوب فيه في الحجر.

بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين في مقام أمين، في جنات وعيون، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم، فضلًا من ربك ذلك هو الفوز العظيم. فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون، فارتقب أنهم مرتقبون صدق الله العظيم ورسوله الكريم، أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته يارب العالمين. وكان الفراغ في سنة ثلاثة عشر وثمانمائة.

ولارتفاع القبة تعددت حطات المقرنص إلى تسع حطات، ثم شبابيك الرقبة ومضاهياتها، شباك وثلاث مضاهيات اثنتان منقوشتان بالبوية والوسطى بيضاء، يعلوها

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٢ ص٢٣٣

نقوش بالبوية الحمراء تنتهى بشرفة صغيرة مكتوب فوقها بالخط الثالث متعانق الألفات واللامات قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم. الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون.

وتعلو الكتابة زخارف على شكل شرفة تعلوها زخارف أخرى بقطب القبة، وجميعها بالبوية باللونين الأحمر والأسود.

وفي سنة ١٩٣٩، وفي أثناء اصلاح أرضية هذه القبة، عثر على مجموعة من الألواح الرخامية استعملت على وجهها الأبيض ومنها قطع

كبيرة غاية في الأهمية.

الأولى: مقاسها ٢,٤٥x ٠,٧٩ بها فروع وأوراق نباتية مشرشرة وغريبة في بابها، يكتنف قاعدتها صور نسرين أحدهما كامل وينقص جزء من جناحه. وباق من النسر الآخر جناحه، ومن أعلاها أثر حوافر حيوان.

الثانية: مقاسها ٢,٤٦ ×٠,٩١ بها فروع وأوراق نباتية ومنقوش عليها طاووسان، أحدهما كامل عدا رجليه، والآخر لم يتم تفريغه.

الثالثة: مقاسها ٢,٩٦ × ١,٠٥، وبها فروع وتوريق. وشجرة على جانبيها أسدان، أحدهما كامل الوجه مع الصدر، ورجلين ويظهر من الآخر جزء من الوجه.

الرابعة: مقاسها ٢,٦٧ × ٠,٧٣ وبها فروع نباتية وأسماك وغزلان، وهذه القطع الهامة من طرز زخارفها ترجع إلى العصر الفاطمي، وهي مع كبر حجمها تعتبر ناقصة نحو النصف، ومن المحتمل أن تكون منقولة من القصور الفاطمية. حيث لا محل لأمثال تلك الزخارف وبتلك الأحجام إلا في القصور والمناظر الفاطمية، وتعتبر من أهم مخلفات صناعة النقش على الرخام في الدولة الفاطمية. وقد أودعت متحف الفن الإسلامي.

وكذلك عثر على قطعة رخام مقاسها ٠,٤١ × ٠,٤١، بها أربع أسطر نصها: توفي إلى رحمة الله تعالى سيدي محمد سنة أحد عشر وثمانمائة. توفي إلى رحمة الله سيدي أحمد ولدي المقر المرحوم سودون من تاني. مستهل شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وثمانمائة.

وبمراجعة تراجم سودون وجد من بينها سودون قريب الظاهر برقوق ويعرف بسيدي[١] سودون المتوفي سنة ٨٠٣هـ ١٤٠٠م

وكذلك عثر على جانب تركيبة من الرخام مكتوب عليه قوله تعالي "ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا ما شاء وسع كرسيه السموات". وأسلوب كتابته وزخرفته من نوع التركيبة الرخامية فوق قبر الظاهر برقوق.

ودفن في هذه القبة، خوند شقرا ابنة الناصر فرج، ومكتوب على قبرها.

وفاة السيدة المصونة الجليلة الكبرى ذات الستر الرفيع والحجاب المنيع ذي الأدر الكريمة خوند شقرا ابنة السلطان الشهيد الملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر برقوق تغمدها الله برحمته بتاريخ يوم الجمعة مستهل شهر رجب الفرد سنة سبع وثمانين وثمان مائة من الهجرة النبوية.

وفي لوح رخامي بالجدار القبلي بها.

بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام توفيت المرحومة خاوند حريز بنت عبد الله مستولدة الملك الظاهر برقوق يوم الجمعة مستهل شهر رمضان سنة أحد عشر وثمانمائة من الهجرة النبوية.

وعلى مدخل القبة حجاب من الخشب المجمع بأشكال هندسية، مكتوب عليه أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه.

يقابله على وجه القبة البحرية حجاب مثله مجدد طبقًا لبقاياه وكلا الحجابين مقتبس من حجاب سبيل مدرسة أم السلطان شعبان سنة ٧٧٠ هـ ١٣٣٩ م.

ومن هذا الحجاب اقتبست صناعة الشبابيك العلوية للمدرسة الظاهرية (برقوق)

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ٣ ص ٣٨٤

بشارع بين القصرين سنة ٧٨٦ -٧٨٨ هـ ١٣٨٤- ٨٦ م

وهذان الحجابان من أدق أعمال النجارة في هذه الخانقاه، أما نجارة مصاريع الشبابيك والدواليب بها فتسودها البساطة، إذ كل ضلفة منها مكونة من ثلاث ترابيع مجمعة من حشوات خشبية سادة.

وهكذا امتازت التجارة أيضًا في مدرسة الظاهر برقوق بالنحاسين، بالبساطة والابتكار.



قبة الملك الناصر فرج بن السلطان

والقبة البحرية مثل القبة القبلية سعة وارتفاعًا وزخرفًا، وقد دفن فيها السلطان برقوق، وهي أول جزء فرغ من بنائه في تلك الخانقاه، حيث فرغ من بنائها سنة ٨٠٣ هـ وقد نقشت من الداخل بنقوش وكتابات ملونة باللونين الأسود والأحمر، وحلى سطحها من الخارج بنقوش دالية، وبها محراب رفيع مكسو بالرخام الملون، ومكتوب بالطراز أعلاه.

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتمام هذه التربة المباركة السعيدة من فضل الله الكريم وجزيل عطائه العميم السلطان المالك الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين أبو الفقراء والمساكين ذخر الأرامل والمنقطعين الملك المنصور عبد العزيز بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله بالرحمة والرضوان.. بتاريخ الثاني من جمادى الآخر سنة ثمان وثمانمائة من الهجرة النبوية.

وأمام المحراب، قبر الملك الظاهر برقوق، وعليه تركيبه رخامية حوت من دقة النقش والكتابة أجمل أنواع النقش في التراكيب الرخامية، وأمامها عمود رخامي مكتوب عليه ما نصه.

هذا ضريح العبد الفقير إلى الله تعالى السعيد الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق قدس الله روحه ونور ضريحه أمر بوصية منه، توفى إلى رحمة الله تعالى قبل أذان الفجر صبيحة يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة أحد وثمانمائة أحسن الله ختامها في خير بمحمد وآله ودفن بعد صلاة الجمعة من يومه بحضور الجم الغفير من المسلمين وائمتهم. وكان يومًا مشهودًا جعل الله قبره روضة من رياض الجنة مُحَمَّد وآله آمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وذريته وتابعيه إلى يوم الدين وسلم آمين.

ونلحظ في هذا النص نقصًا بعد "أمر بوصية منه" لعدم ارتباط الجملة.

وكتب على لوح رخامي برأس التركيبة ما نصه:

كل من عليها فان، هذا ما أمر بعمله مولانا السلطان الملك الناصر فرج لوالده الشهيد المرحوم الملك الظاهر برقوق تغمده الله برحمته. وذلك في المحرم سنة عشر وثمانمائة.

ويحيط بمربع القبة طراز حجري مكتوب فيه آيات من القرآن، ثم ما نصه: أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبي السعادات

فرج أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره بمحمد وآله وذلك في شهور سنة ثلاث وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها صلاته وسلامه.

وقد دفن في هذه القبة السلطان عبد العزيز بن السلطان برقوق ومكتوب على قبره: هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور عبد العزيز ولد السلطان الملك الظاهر برقوق توفى ليلة الاثنين سادس ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة.

ودفن بها ابن الملك الناصر فرج المتوفي سنة ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م ومكتوب على قبره: ... توفي الشاب ... بن الملك الناصر فرج تغمده الله برحمته يارب العالمين بتاريخ شهر شوال سنة اثني وأربعين وثمانمائة من الهجرة.

وعند اصلاح أرضية هذه القبة، ظهر أن بالجنب الشرقي البحري أثر أربع تراكيب.

وبالجنب الغربي القبلي أثر تركيبه، ومعرف أنه دفن هناك أيضًا إبراهيم الظاهر برقوق، وسيف الدين اقباي بن عبد الله الكركي المتوفي سنة ٨٠٥ هـ ١٤٠٢ م وأولاد الناصر فرج. زين الدين فرج، والناصري مُحَمَّد، وخليل، وغيرهم، ومعروف أنه دفن في الحوش الظاهري قبل بناء الخانقاه مماليك الظاهر برقوق وأقاربه والعلماء والصالحين.

أما الناصر فرج فإنه مات بالشام سنة ٨١٥ هـ ١٤١٢ م ودفن بها.

وفي سنة ١٩٥٨ أصلح قطب القبة لخلل طرأ عليه ورفع هلالها، وهو كصنوه في القبة القبلية يشتمل على عشاري صغير، وقد تبين أن أجزاء هذه الهلال مجمعة من أوان وأجزاء نحاسية تسبق عصر القبة، فقد احتوت على ثلاث صدريات نحاسية مملوكية عليها نقوش وكتابات فرغ قاعها وركب فيه وصلات من شمعدانات قديمة علاها الصدأ. يقرأ على أحد الصدريات: المقر العالي المولوي أمير الأمراء الكبير المالكي العابدي المجاهدي المرابطي المشاغري المؤيدي الملكي الناصري.

وعلى بعض الأجزاء الأسطوانية كذلك كأس ويقرأ عليها "مما عمل برسم المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبرى المخدومي. وعلى قطعة أخرى ما نصه: "مما عمل برسم الجناب العالي الملكي العالمي علم الدين. وكلها أجزاء هامة. وقد أودعت متحف الفن الإسلامي وعمل هلال جديد بدله "

وعلى ذكر العشاري أذكر أن الرحالة عبد الغني النابلسي، حينما زار الخانقاه سنة ١١٠٥ هـ ١٦٩٣ م، وصف العشاري لصغره بوزة إذ يقول في رحلته.

ثم مررنا على جامع برقوق، وفيه منارة عظيمة على رأسها صورة وترزة من نحاس أصفر[١]. والزوارق أو المراكب الصغيرة في أهلة المنارات والقباب. نوع من الأهلة، فقد كان موجودًا في منارة الجامع الطولوني إلى أن سقط سنة ١١٠٥ هـ ١٦٩٣ م[٢]. وكان يوجد عشاري على قبة[٣] ببستان الأفضل شاهنشاه، وموجود إلى الآن عشاري على قبة الإمام الشافعي.

وقد لازمت تلك المراكب خرافات منها ما نسب إلى عشاري قبة بستان الأفضل من أنه كان يحمل ثمانية ارادب وهو غير معقول.

وكذلك قبة الشافعي من أن هذه المراكب مخصصة لوضع الماء والحبوب للطيور، وهو ما يصعب تصديقه. والعشاري على قبة الشافعي رمز علي فيض علم الشافعي، فقد وصف بأنه بحر علوم، ولذلك نرى الإمام البوصيري صاحب البردة المتوفي سنة ٦٩٥ هو ١٢٩٥ م يصف قبة الشافعي ومركبها بقوله:[٤]

قبة قبر الشافعي سفينة

رست في بناء محكم فوق جلمود

ومذ غاض طوفان العلوم بقبره اسـ

مستوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي.

---

(١) الحقيقة والمجاز ص ١٦١ نسختي الحيطة

(٢) ابن دقاق جـ ص ١٢٣ والجبرتي جـ ١ ص ٢٥

(٣) المواعظ الاعتبار جـ ١ ص ٤٨٧

(٤) تاريخ المساجد الأثرية جـ ٣ ص ١١٢



قبة الامام الشافعي – القاهرة

وما نسبه الرحالة عبد الغني النابلسي، من أن تلك المركب التي عبر عنها بوزة "من أنها مرصودة بأنها إذا استقبلت الشام والروم يحصل الغلاء في مصر تلك السنة، وإن استقبلت مصر رخت الأسعار". – ما هو إلا خرافة –.

وكان من أثر تلك العمارة إيضاح زخارف وكتابات بالبوية الملونة بداخل القبلة، وقد أسفر هذا الإيضاح عن ظهور زخارف القبة، وقد تبين أن قطب القبة محلى بزخارف تشابه القبة القبلية تحته كتابات ذي الفات ولامات متطاولة ومرتبطة بالزخارف فوقها، تحتها زخارف على هيئة شرفات محدودة بإطار أسود. تحته زخارف أخرى مورقة، تحتها زخارف دالية، ثم افريز آخر مورق وملون تحته سطر مكتوب جمع بين الخطين النسخي بالحبر الأسود والكوفي بالحبر الأحمر، تحته شبابيك الرقبة، وبين كل شباكين ثلاث مضاهيات، اثنتان منقوشتان بنقوش مورقة سوداء والوسطى بيضاء، وتحتها مقرنص القبة متعدد الحطات.

واكتشاف هذا السطر الجامع بين الخطين الكوفي والنسخي، له أهميته لدى الآثاريين خصوصًا وأن السطر الكوفي يتضمن تاريخًا.

ليست المفاجأة لوجود الخطين الكوفي بجانب النسخي أو الثلث، فمنذ الدولة الأيوبية شاع الخط النسخي ويكتب به التاريخ، والخط الكوفي ويكتب به آيات من القرآن، ولكن

كل منهما في سطر مستقل ورأيناه أيضًا في دولة المماليك الجراكسة في جامع المؤيد، شيخ فرق الوزرة، ويحيط بالشبابيك العلوية.

وليس غريبًا أن نرى خطًا كوفيًا في دولة المماليك الشراكسة حيث توجد منه نماذج قيمة في مساجد:

المؤيد شيخ سنة ٨٢٣ هـ – ١٤٢٠م

الجمالي يوسف ٨٥٠ هـ – ١٤٤٦م

زاوية نور الدين جولاق سنة ٨٧٠ هـ – ١٤٦٥م

باب السلطان قايتباي بالجامع الأزهر ٨٧٣هـ – ١٤٦٨ م

مسجد قجماس الإسحاقي ٨٨٦ هـ – ١٤٨١م

قبة يشبك من مهدي بكوبري القبة ٨٨٢ هـ – ١٤٧٧م

مسجد وقبة الغورى ٩٠٩ – ٩١٠ هـ / ١٥٠٤– ١٥٠٥م

وكلها آيات من القرآن الكريم، ولكن الغريب، أن نجد سطر واحدًا يجمع بين الخطين الثلث والكوفي. وأغرب منه أن يكتب بالخط الكوفي نص تاريخي في دولة المماليك، واظنه الأول من نوعه في آثار مصر.

دعاني هذا إلى البحث عن نموذج آخر يجمع بين الخطين فوجدت الأعتاب الحجرية للأبواب الأربعة حول صحن مسجد الغورى، جمعت بين الخطين الكوفي والثلث في سطر واحد، ولكنها سور صغيرة: المعوذتين، وسورة الاخلاص، وسورة النصر، البسملة بالخط الكوفي وتحتها السورة بالثلث بشكل زخرفي بديع جمع بينهما، وفي متحف الفن الإسلامي قطعة حجرية صغيرة منقوشة بها بقايا كتابة نسخية تعلوها بقايا حروف كوفية. ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي (مشتراة ومجهولة المصدر).

وللنص المكتشف أهمية أخرى فهو أقدم نص بالخانقاه لم يعرف قبل ذلك خصوصًا وقد تضمن اسم المباشر الأول للعمارة فالنص المكتوب بالخط الكوفي هو:

أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه في أيام ولده مولانا الملك الناصر ناصر الدنيا

والدين أبو السعادات فرج أدام الله أيامه وثبت حكامه ونشر في الخافقين أعلامه، وذلك بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى أبي المعالي عبد الله يلبغا السالمي الحنفي الظاهري استادار العالية الملكي الناصري لطف الله به في الدارين وجعله مع خير الصديقين. وذلك في شهور سنة اثنان وثمانمائة.

ومكتوب تحت هذا النص بالخط الثلث قوله تعالي:

قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا. إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ويلاحظ في هاتين القبتين رقة سمك مداميكهما الحجرية، كما يلاحظ أيضًا أن الزخارف الدالية التي تحليها من الخارج من بواكير زخرفة القباب الحجرية في دولة المماليك الجراكسة، كان أول ظهورها في قبة المدرسة المحمودية بالخيمية سنة ٧٩٧ هـ ١٣٩٤ م. ثم شاع استعمالها في قباب الجراكسة إلى مستهل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. نراها في قبة قانيباي المحمدي سنة ٨١٦ هـ.

١٤١٣ م وفي قبة مسجد المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨٢٤ هـ ١٤٢١م وفي قبة مدرسة الأشرف برسباي سنة ٨٢٩ هـ ١٤٢٥ م. وفي قبة الأشرف اينال بالقرافة الشرقية سنة ٨٥٥- ٨٦٠ هـ ١٤٥١- ١٤٥٥ م وفي قبة الأمير برسباي البجاسي سنة ٨٦١ هـ ١٤٥٦ م وفي قبة الأمير قرقماس أمير كبير سنة ٩١٣ هـ ١٥٠٧ م وفي قبة الأمير طرباي ٩٠٩ هـ ١٥٠٤م ثم في قبة سودون أمير مجلس ٩١٠ هـ ١٥٠٥م.

ورغم أن هذا النوع من الزخرف في القباب ساير عصر المماليك الجراكسة من أوله إلى آخره، فإن نقوش القبة في هذا العصر، تطورت وتنوعت حتى بلغت الذروة من الرقي، في دقة نقوشها، ما بين هندسية ومورقة.

ومن المصادفات الحسنة أن نرى هذا التنوع ممثلًا في القباب حول الخانقاه وفي الطريق المؤدي إليها سواء من العباسية أو من مسجد السلطان قايتباى. وهي تستوقف الزائر

بجمالها ورشاقتها ويحتاج رائيها إلى التعريف بها.

القباب حول الخانقاه وفي طريقها:

القادم إلى الخانقاه عن طريق العباسية، أول ما يقابله تلك القبة الرشيقة (قبة السلطان قانصوه أبو سعيد سنة ٩.٤ هـ ١٤٩٨ م وفيها تري لونًا جديدًا من زخرف القباب يكاد يكون قاصرًا عليها).

فإذا ما تجاوزها قابلته تلك المجموعة، المكونة من خانقاه ومدرسة ومدفن الملك الأشرف اينال ٨٥٥- ٨٦٠هـ ١٤٥١- ٥٥ م، وقد حليت قبتها بزخارف دالية، ومثلها قبة الأمير قرقماس المجاورة لها سنة ٩١٣ هـ ١٥٠٧م، والأثرين مجموعين يكونان منظرًا مشابها الخانقاه فرح بن برقوق، منارتان رشيقتان في الوسط وقبتان جميلتان في الطرفين.

وعلى رأس الطريق المؤدي إلى الخانقاه، قبة صغيرة مرتفعة، حلى سطحها بنوع جديد من الزخارف، اقتصر ظهوره عليها. هي قبة الأمير عصفور المنشأة حوالي سنة ٩١٢هـ ١٥٠٦م، وامتازت هذه القبة بالحاق سبيل صغير بها وهي الوحيدة التي ألحق بها سبيل بين آثار مصر.

ويجاورها سور له باب بمقرنصات لطيفة، بداخله قبتان، أقدمهما ذات الزخارف الدالية، هي قبة الأمير برسباي البجاسي سنة ٨٦١ هـ ١٤٥٦م، والقبة الثانية المكسوة رقبتها بالقاشاني المكتوب، هي قبة الأمير سليمان، وقد حفل سطحها بنقوش مورقة غاية في الجمال وهذه القبة وإن كانت منشأة في العصر العثماني سنة ٩٥١ هـ ١٥٤٤ م، وهو عصر أقرت فيه العمارة الإسلامية، إلا أن منشئها أو مهندسها وجد نفسه بين مجموعة من القباب الرشيقة الغنية بزخارفها، فاقتبس لها أرقي زخارف القباب في هذا العصر. وكانت ختام القباب الجميلة.

وفي الطريق إلى خانقاه ومدفن الأشرف برسباي، تطالعنا قبة الأمير جاني بك الأشرفي، وسط الطريق سنة ٨٣١ هـ ١٤٢٧م، وقد حلى سطحها بنقوش هندسية غاية في الروعة والجمال، تجاورها قبة مدفن الأشرف برسباي سنة ٨٣٥ هـ ١٤٣٢م وقد حلى سطحها بزخارف هندسية، مليء فراغها بالتوريق، وهي بجمالها تعطي فكرة عن تطور وتقدم زخرفة سطح القباب، وفي الطريق إلى مسجد السلطان قايتباي نرى لونًا جديدًا من زخرفة القباب

في أواخر دولة المماليك البحرية، هي قبة خديجة أم الأشرف، تجاه خانقاه الأشرف برسباي (القرن الرابع عشر الميلادي) ومنها اقتبس مهندس فرج بن برقوق زخرفته لبدن منارتي الخانقاه.

فاذا ما وصلنا إلى مسجد السلطان قايتباى سنة ٨٧٩ هي ١٤٧٤ م أخذنا الروعة من جمال القبة، أنها المثل الأعلى لزخرفة القباب المملوكية.

ومثلها القبة الصغيرة التي أنشأها قايتباي على قبور أولاده سنة ٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م والمعروفة بالكلشنى فإنها مع صغرها حافلة بأجمل أنواع الزخارف المورقة وهي مجاورة لمسجده.

بهذا العرض من القباب الذي تمثلت فيه روعة القباب المملوكية، التي امتازت على القباب في الأقطار الإسلامية، والتي أصبحت عنوانًا للعمارة الإسلامية في مصر، والتي يتكون منها ومن خانقاه فرج بن برقوق أجمل منطقة أثرية، نقف مترحمين على من شادوا تلك الروائع فشادوا مجدنا الخالد وتراثنا الفني المجيد.

الفهرس

تقديم ٥

الآثار الإسلامية ١١

نشأة المدارس بمصر ٢١

مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة ٣١

الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية ٤٦

طرز العمارة الإسلامية في ريف مصر ٦٩

المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية ١٢١

الفتوحات الإسلامية وخصائص العمارة الإسلامية ١٣٧

علاقة مصر بالسودان في العصر الإسلامي ١٥٦

تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ١٦٩

جامع أحمد بن طولون .. مفخرة العمارة العربية ٢٢٧

التأثيرات العثمانية على العمارة الإسلامية في مصر ٢٤٣

الجامع الأموي بدمشق ٢٦٤

بغداد وآثارها الإسلامية ٢٨٨

توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية ٣١٣

خانقاه فرج بن برقوق وما حولها ٣٥٦